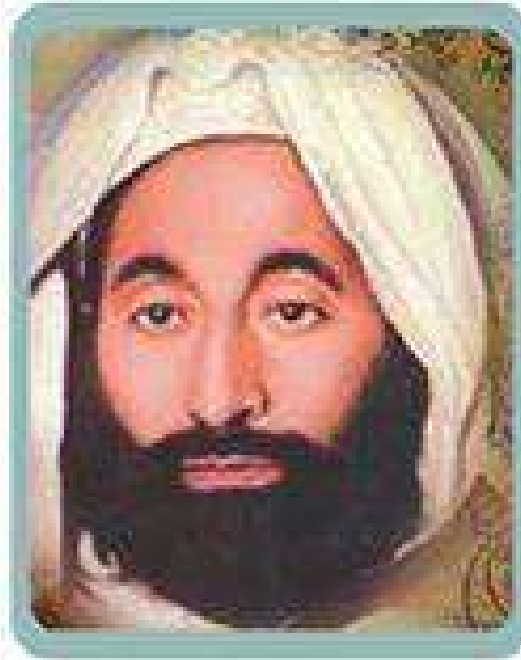


# خطاب الحجاج والتداولية

دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي



الدكتور  
عباس حشاني

جامعة محمد خيضر بسكر / الجزائر



# خطاب الحجاج والتداولية

## دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي

الدكتور

**عباس حشاني**

جامعة محمد خيضر بسكر / الجزائر

عالم الكتب الحديث

*Modern Books' World*

إربد - الأردن

2013





﴿هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ  
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾



[آل عمران:66]



## إهداء

إلى من جرع الكأس فارغاً ليسقيني قطرة حب

إلى من كلت أنامله ليقدّم لنا لحظة سعادة

إلى من حصد الأشواك عن دربي ليمهد لي طريق العلم

إلى القلب الكبير والدي العزيز

إلى من أروضتني الحب والحنان

إلى رمز الحب وبلسم الشفاء

إلى القلب الناصع بالبياض والدتي الحبيبة

إلى القلوب الطاهرة الرقيقة والنفوس البريئة إلى رياحين حياتي إخوتي

إلى مثلي في الحياة عمي مبروك

إلى كل أساتذتي الذين أشرفوا على تكويني

إلى كل طلابي

إلى قناديل الذكريات ذكريات الصداقة إلى الذين أحببتهم وأحبوني

أصدقائي

أهدي هذا الكتاب



## الفهرس

الصفحة	الموضوع
1	المقدمة
5	تمهيد: بيان الشخصية الحجاجية والمقام الحجاجي
7	أ- الشيخ عبد الحميد بن باديس
10	* أسلوب الشيخ عبد الحميد بن باديس
13	ب- الحالة الثقافية في ظل الاحتلال الفرنسي
19	الفصل الأول: إرهاصات البحث الحجاجي ومصطلحاته
21	المبحث الأول: الحجاج عند الغرب
21	1- الحجاج عند السفسطائيين
23	2- الحجاج عند أرسطو
30	المبحث الثاني: الحجاج عند العرب
30	1- عند الجاحظ
35	2- عند السكاكي
42	3- الحجاج عند علماء الأصول
46	أ- الحجاج عند المفسرين
48	ب- الحجاج عند علماء الكلام
51	ج- الحجاج عند ابن وهب
54	- خلاصة
57	الفصل الثاني: الحجاج والتداولية
59	المبحث الأول: الحجاج
59	1- تعريف الحجاج: "ARGUMENTATION"
65	2- المدارس الحجاجية



الصفحة	الموضوع
65	أ- المدارس الغربية
69	ب- المدارس العربية
77	3- مراتب الحجاج
79	4- بواعث الحجاج
81	5- أنواع الحجاج
85	6- أنواع الحُجج
88	7- علاقات الحجاج
89	8- تقنيات ووسائل الحجاج
95	المبحث الثاني: التداولية
95	1- مفهوم التداولية
101	2- الأفعال الكلامية
110	3- لسانيات التلفظ
119	المبحث الثالث: في حد المصطلح
119	1- الخطاب الحجاجي
122	2- النص الحجاجي
128	3- في حد المصطلح: أنص حجاجي أم خطاب حجاجي؟!
131	4- علاقة الخطاب باللغة والكلام
141	الفصل الثالث: الحجاج في النثر الباديسي
143	المبحث الأول: الحجاج في التفسير الباديسي
143	1- الحجاج في تفسير القران من خلال "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"
147	2- منهاج الشيخ بن باديس في التفسير
152	3- الآليات الحجاجية في تفسير الشيخ

الصفحة	الموضوع
153	4- الوسائل الحجاجية في تفسير الشيخ
157	5- مخطط الحجاج في تفسير الشيخ
161	المبحث الثاني: الحجاج في المقالة الباديسية
164	1- بواعث الحجاج الباديسي في المقال
165	2- صور الحجاج في المقالة الباديسية
180	3- أنواع الحجج
187	المبحث الثالث : الحجاج في الخطبة الباديسية
187	1- تعريف الخطبة
188	2- عدّة الخطيب
192	3- صور الحجاج الباديسي
199	4- الوسائل النحوية الحجاجية
216	5- الوسائل اللسانية
236	خلاصة
239	الفصل الرابع: الحجاج في الشعر الباديسي
243	المبحث الأول: الحجاج والشعر
243	1- الحجاج الشعري (الشعر الحجاجي)
251	2- المعنى الحجاجي للشعر
254	3- المعنى الحجاجي العام لقصيدة الشيخ "عبد الحميد بن باديس"
263	خلاصة
265	المبحث الثاني: الأفعال الكلامية " les actes de parole "
266	1- أنواع الأفعال
271	2- مقاصد أفعال الكلام في الشعر الباديسي من خلال قصيدة
287	المبحث الثالث: الوسائل البلاغية للحجاج

الصفحة	الموضوع
288	1- الحجاج بالمجاز
302	2- الحجاج والبديع
313	الخاتمة
319	قائمة المصادر والمراجع

## مقدمة

الحمد لله الذي تعبدنا بالسمع والطاعة، وأمرنا بالمحافظة على السنة والجماعة وحفظ ملة نبيه الكريم وصفيه الرؤوف من الإضاعة إلى قيام الساعة، أشكره شكرا وأصلى على محمد رسوله المخصوص بمقام الشفاعة. وعلى آله وصحبه الذين اقتدوا بهديه ﷺ.

إن "الحجاج" من النظريات التي كانت نتاجا لتطور اللسانيات الحديثة في دراسة اللغة، باعتبار هذه اللغة أداة تواصل وتبليغ.

وقد عدَّ الحجاج فعالية خطابية، وممارسة فكرية يعتمدها المتكلم للتأثير على المتلقي بغية إقناعه أو تغيير معتقده أو سلوكه.

وفكرة الحجاج فكرة بلاغية، الهدف منها إقناع المتلقي، ولتحقيق هذا الهدف ترى المتكلم يثبت دعوى ويصحح معنى، فيعتمدُ في ذلك على وسائل وتقنيات من البلاغة: كالبيان، ومن اللسانيات: كالإحالة، ومن الفلسفة: كالقياس وغيرها. وبهذا يُعدُّ الحجاج فضاءً مفتوحاً على مختلف المعارف الإنسانية. وقد اكتسب الخطاب الحجاجي اهتمام اللغويين والباحثين؛ لانفتاحه وتنوع مجالاته، فتجده مستعملاً في التربية والقضاء والدين... حيث يأخذ في كل مجال شكلاً خاصاً وخطة معتمدة من المتكلم لإقناع المتلقي، كما يأخذ وسائل وتقنيات محددة.

من هذا الانفتاح يقع الحجاج تحت اهتمام الأبحاث التداولية بشكل خاص، لما تؤوله من أهمية كبرى لأقطاب العملية التواصلية، فاهتمت بالمتكلم ومقاصده، والظروف المحيطة، وقدرة المتلقي على الاستيعاب، وسياق الخطاب...

فقد استطاعت التداولية بهذا الكشف عن الحجاج في مختلف الخطابات من جهة، وطورت الدرس اللغوي باعتبارها تدرس الاستعمال الفعلي والمنجز في اللغة من جهة أخرى.

يبرز الخطاب الحجاجي وتداوليته في أنواع الخطاب الأخرى، فنجد الحجاج في التفسير، وفي الحوار، وفي الخطبة، وفي الشعر...، غير أن الخطاب الشعري أبعد عن النظرية الحجاجية، رغم القول بحجاجية البيان (خاصة الاستعارة)، والموسيقى والتنغيم والإيقاع... انطلاقاً من مكونات الحجاج، وبواعثه، واهتمام التداولية بعناصره ووسائله، وانفتاحه على مختلف العلوم...

وتمضي الدراسة في إثارة قضية الحجاج بتعددده في مختلف أنواع الخطاب وبخاصة الخطاب الشعري، وأدواته البلاغية واللسانية والنحوية، مع ذكر أنواعه وأنواع الحجج، وعلاقاته، وتكشف عن أثر الحجاج في المتلقي (الإقناع والإمتاع)، وعن المصطلحات والبحوث البلاغية القديمة العربية منها والغربية، التي تتصل بالحجاج ومعناه في الدرس الحديث.

فما الخطاب الحجاجي؟ وما هي بواعثه؟ وما مصطلحاته القديمة؟، وفيما تمثلت أهدافه؟ وكيف تتحقق؟ وما هي أهم الوسائل والتقنيات التي تجعل الحجاج ناجعا محققا، وهل يوجد حجاج مجازي؟ وهل يُعدّ الخطاب الشعري - لاعتماده المجاز - خطابا حجاجيا؟ ثم ما هي أنواع الحجاج؟ وهل يشترط لكل حجاج شكل ومنهج معين بالنظر لحال المتلقي وباعتبار المقصد والهدف؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة، كان اشتغالنا على نصوص من أدب العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس - رحمه الله -، من تفسيره، ومن مقالاته ومن خطبه، ومن شعره - من منطلق حجاجي - ذلك أن الحجاج يُؤخذ من المتكلم وقصده مع مراعاة للمقام، ونصوص الشيخ عبد الحميد بن باديس تشكل فعلا حجاجيا، وتحقق هدفا ومقصدا.

واختياري لشخصية الشيخ عبد الحميد بن باديس كان لأسباب تخدم موضوع هذا البحث، تمثلت في حجاجية شخصيته لكونه رائدا للحركة الإصلاحية، وإماما، ورئيسا لجمعية العلماء المسلمين، وخطيبا، وهذا كله يقتضي متكلما محاججا يهدف إلى الإقناع والتأثير على المتلقي.

فنصوص الشيخ على تنوعها تشكل في مجملها خطابا حجاجيا، فهو يسعى لتحقيق هدف، وبلوغ مقصد، وتغيير معتقد، بالنظر إلى ظروف إنتاج تلك الخطابات ومقامها (عهد الاستعماري الفرنسي)، ما ألزم ابن باديس أن يقف موقف المدافع عن حرية الجزائر بالحجة المقنعة والبيان الساطع.

فكان مضمون المدونة (النصوص المختارة) متعلقا بعدة جوانب: دينية، وتربوية، وسياسية، واجتماعية، وأدبية؛ حيث تظهر في هذه الجوانب طبيعة الحجاج وقدرة المحاجج، ومنزلة المتلقي وطبيعته، وهدف المتكلم وقصده، ومنه نستقي نوع الحجاج بالنظر إلى نوع الخطاب والحجج المستعملة.

وقد اعتمدت المنهج الوصفي الذي يتلاءم مع موضوع الحجاج في مختلف الخطابات؛ فتحليل الخطاب يكشف عن مضمونه، وقصد المتكلم، وحال المتلقي، وأهداف الخطاب ونوع الحجاج منه، ومدى اقتناع المتلقي به.

فكانت الرغبة في دراسة تداولية تطبيقية للحجاج، الذي يتموضع في أنواع الخطاب، لما له من ميزة جمالية إقناعية.

وجاءت الدراسة موسومة: بالخطاب الحجاجي في مختارات من أدب العلامة عبد الحميد بن باديس.

واقتضت خطة البحث أن تتضمن الدراسة أربعة فصول يسبقها تمهيد ومقدمة، ومقفاة بخاتمة. ففي التمهيد عرض للشخصية الحجاجية لشخصية الشيخ عبد الحميد بن باديس من مولده، نشأته، أعماله، آثاره، والهدف منه بيان للشخصية الباديسية، وطبيعتها الحجاجية بعده الشيخ المحاجج.

يصاحب هذا عرض للحالة الثقافية في ظل الاحتلال الفرنسي، لمعرفة الظروف التي أنتجت فيها خطابات الشيخ "عبد الحميد بن باديس" والمقام، لتحديد الهدف والمقصد من كل خطابه.

وقد اشتمل الفصل الأول والثاني على الجانب النظري من الدراسة.

فجاء الفصل الأول بعنوان "إرهاصات البحث الحجاجي ومصطلحاته في البلاغة القديمة"، عالجت فيه الحجاج عند الغرب، وبالتحديد عند أرسطو والسفسطائيين، والحجاج عند العرب بالتحديد عند الجاحظ، والسكاكي، وابن وهب (أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم).

وكان الفصل الثاني بعنوان "الحجاج والتداولية" مع إبراز نظرية الأفعال الكلامية، وأهم ما يتظافر مع التداولية في دراسة الحجاج: لسانيات التلفظ ونظرية التواصل مع الحدّ في المصطلح الحجاجي: أهو نص حجاجي أم خطاب حجاجي؟

ودرست في الفصل الثالث "الحجاج في النثر الباديسي" في تفسيره بالبحث عن الوسائل الحجاجية، وشروط المحاجج المفسّر، وحجاجية مقالاته مع بيان أنواع الحجج وأنواع الحجاج ودوافعه، والحجاج في الخطبة الباديسية من حيث عدّة الخطيب المحاجج والوسائل المنطقية والنحوية واللسانية، ليظهر شكل الحجاج وقصد المتكلم وطبيعة المتلقي.

وفي الفصل الرابع تناولت "الحجاج في الشعر الباديسي"، مع بيان أنّ الحجاج كامن في الشعر، والمعنى الحجاجي للشعر الباديسي، ذلك بالتطبيق على نصوص شعرية للشيخ "عبد الحميد بن باديس"، وقد تطرقت في هذا الفصل إلى دراسة الأفعال الكلامية، ومقاصدها، وأنواعها في الخطاب الشعري، وما تؤديه هذه الأفعال في بناء الحجاج داخل الخطاب الحجاجي، ثم تعرضت لعلاقة الحجاج بالبلاغة من حيث الوسائل البلاغية للحجاج ممثلة في صور البيان: استعارة، تشبيه، كناية، والبديع: جناس، مقابلة، طباق، تورية. وهذا لقيمة البلاغة ووسائلها في تكوين حجاج بلاغي إمتاعى إقناعي.

ثم جاءت خاتمة هذا البحث لتسجل أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة كخصوصية الحجاج في كل خطاب، وتخصيص وسائله دون أخرى في خطاب دون آخر لتحقيق المقصد والهدف.

اعتمدت في إنجاز هذا البحث على عدة مراجع عربية، أذكر منها: ابن باديس حياته وآثاره لعمار الطالبي، "الحجاج في البلاغة المعاصرة" لمحمد سالم محمد الأمين، و"الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه لسامية الدريدي، و"اللسان والميزان أو التكوثر العقلي" لطفه عبد الرحمن، كما أشير إلى أن الدراسات التي تناولت الحجاج كثيرة نذكر منها، رسالة دكتوراه: "الأحتجاج العقلي والمعنى البلاغي دراسة وصفية"، لناصر بن دخيل بن فالح السعيد، وفريق بحث في البلاغة والحجاج أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، بإشراف حمادي صمود.

والجدير بالذكر أن موضوع الحجاج بوصف عام قد تناولته الدراسات في مجمل جوانبه، سواء العربية منها أو الغربية، إلا أنني أشير إلى العائق الذي واجهته مع متعة لذة هذا البحث، هو انفتاح هذا المصطلح "الحجاج" واختلافه، أما متعة البحث فتكمن في تتبع "الحجاج" في محتويات الكتب، وظهوره في نصوص الشيخ "عبد الحميد ابن باديس".

وفي الأخير أرجو أن أكون قد أسهمت، ولو بالنزر اليسير بهذا في الدراسات اللسانية، بدراسة تطبيقية للحجاج في مدونة الشيخ "عبد الحميد بن باديس"، كما أرجو أن أكون قد وفيت حقّ هذه الشخصية من الدراسة.

وأقدم بالشكر إلى مشرفي الفاضل الأستاذ الدكتور: بلقاسم دفة، الذي أسس لهذه الدراسة منهجاً وخطّةً، والذي وجّه وصوّب وسدّد، كما أتقدم بالشكر والتقدير للجنة القراءة على التصويب والتوجيه، وما توفيقني إلا بالله، عليه توكلتُ وإليه أنيبُ.

تمهيد

## بيان الشخصية الحجاجية والمقام الحجاجي

- أ- الشيخ عبد الحميد بن باديس.
- ب- الحالة الثقافية في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي.





## أ - الشيخ عبد الحميد بن باديس؛

هو عبد الحميد بن باديس بن المصطفى بن مكّي بن باديس الصنهاجي، ولد سنة 1308هـ/1889م، من أسرة معروفة بالعلم والجاه والثراء، وكان والده من أبرز أعيان قسنطينة، وكان درعا حصينا لولده أبعد عنه كيد الاستعمار الفرنسي، ودافع عنه طويلا، وكان مولده كما يوصف الضياء في الظلام<sup>(1)</sup>.

أما بالنسبة لنشأته والعوامل التي أثرت في تكوين شخصيته، فقد أشار إلى هذه العوامل في خطاب له بمناسبة ختمه التفسير للقرآن الكريم، وقد أورده تركي رابح حيث يقول: «إنّ الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي رباني تربية صالحة، ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة أتبعها ومشرباً أردّه، وقاتي وأعاشني، وبراني كالسهم وراشي وحماني من المكاره صغيراً وكبيراً وكفاني كلف الحياة»<sup>(2)</sup>.

ويقول أيضاً عن مؤازرة زملائه في جمعية العلماء له: «إذا كنت أستمد القوة والحياة استمدتها ممن أولوني شرف الثقة والإخلاص لديني وأمّتي وأخصّ منهم الأسود الكبار، وهم إخواني الأقياء من رجال العلم الذين أجدني مهما وقفت موقفاً إلاّ وجدتهم معي أسود»<sup>(3)</sup>.

ولا شك أن الشيخ عبد الحميد بن باديس علم من أعلام الإسلام والعروبة والوطنية في الجزائر، فقد كان يدافع بقلمه ولسانه عن القرآن الكريم الذي هو أساس الإسلام وأساس اللغة العربية، ويمكن أن نذكر جهوده المتمثلة في:

- تأسيس النوادي في العواصم الجزائرية لنشر الثقافة والتربية الدينية والوطنية، وتنقية الدين من البدع والخرافات والأباطيل، وحمل على البدع حملة شعواء لم تأخذه في ذلك لومة لائم، حتّى عاد للدين صفاؤه ونقاؤه.
- نشر الكتب السلفية، فقد عمل على إحياء الكتب العربية القديمة، والاحتفاء باللغة العربية لتحيا رغم أنف الاستعمار، كما أسس جمعية التجار المسلمين والجمعيات الاقتصادية لإنعاش الاقتصاد والمحافظة على الثورة، ودعا أبناء الوطن لولوج باب التجارة بشتى الطرق، وأسس الميتم الإسلامي (جمعية رعاية الأيتام)، والجمعيات الخيرية لإنقاذ الطفولة والنشء من التشرد والضياع.

(1) ينظر، توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تعليق:

أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة 01، 1995، ص: 06.

(2) تركي رابح عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس، باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، الطبعة 2،

الجزائر عام 2003، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، ص: 44 وما بعدها.

(3) نفسه، ص: 45.

- اشتغل بالسياسة وخاض حقلها في براعة وذكاء، وناهض الاستعمار وكان يحتج باسمه الخاص في أخرج المواقف وباسم جمعية العلماء في المواقف العادية حفظا للجمعية وصونا لها من القلاقل، وتناديا لها من الغلق والكيد والبطش، وأنشأ مطبعة عربية في قسنطينة، طبعت صحفه ومجلّاته... وعُني بتأسيس الكشافة الإسلامية والمنظمات القومية وأنشأ جمعية الشباب الفني للموسيقى والفنون الجميلة، وجعل معهده فرعا لجامع الزيتونة واعترف له الزيتونة بذلك تقديرا لعمله وفضله وجهوده.

- كما أصدر مجلّات أهمها: المنتقد، والسنة، الصراط، الشريعة، والبصائر والشهاب، وكان الاستعمار يُعطّل كل صحفه، وبقيت الشهاب طويلا حتى الحرب العالمية الثانية<sup>(1)</sup>.

فقد يمتد اهتمام الشيخ إلى ثلاثة مستويات: المستوى الوطني، المستوى العربي، المستوى الإسلامي، وتبرز طريقته الحيّة والفدّة في نفس الوقت في تفسيره للقرآن الدّي أمه خلال ربع من الزمان<sup>(2)</sup>.  
أمّا عن إمكاناته اللّغوية فوجب أن أشير إلى أنّ عبد الحميد بن باديس "جعل القرآن نبراسه والسّنة النبوية الشريفة منهجه، وأثّر تأثر بزعماء الحركات الإصلاحية كالأفغانى ومحمد عبده، ويُذكر كذلك تأثره بابن تيمية وسلفيته، فمن هذه العوامل وأخرى صُقلت شخصية حجاجية من الناحية اللّغوية: فنهج طريق القرآن في الاستدلال وأساليبه في الرّد والحجاج ذلك المنهج الذي يتلائم مع الفطرة الإنسانية، فتستجيب له وتطمئن إليه وتميل نحوه وتركن"<sup>(3)</sup>.

فبعد الحميد بن باديس تجده تارة كاتباً وأديبا وصحفيًا وشاعرا، وتارة أخرى محدثا وفقهيا ومفسرا، ومدرسا ماهرا، وكانت العربية في كلّ ذلك سلاحه وعُدته وعتاده فهو: «مفسر للقرآن تفسيراً سلفياً يُراعى فيه مقتضيات العصر، معتمدا على بيان للقرآن، وبيان السّنة له وعلى أصول البيان العربي وسننه، والنفاذ إلى لغة العرب وآدابها، وقوانين النفس البشرية وسنن المجتمع الإنسانى وتطور التاريخ والأمم»<sup>(4)</sup>.

(1) ينظر، توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 09، 10.

(2) ينظر، تركي رايح عامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس، باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، ص: 07، 08.

(3) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1968، ص: 92.

(4) نفسه، ص: 91.

ويقول فيه الشيخ البشير الإبراهيمي: إنه «إمام المفسرين بلا منازع بعد الشيخين محمد عبده ورشيد رضا، بل انتهت إليه إمامة التفسير في العالم كله بعدهما»<sup>(1)</sup>. ويتمتع باستقلالية «في الفهم والرأي، يقرأ التفاسير ثم يجعل من عقله مصفاة لها، فلا يخرج منها إلا ما صح ونفع، ولاءم العصر، وصدق الخبر، مع حسن عرض واستنباط واع، واستنتاج للعبارة، وحث على سنة وإخاد البدعة في أسلوب عصري وتطويل غير ممل، وإيجاز غير مخل»<sup>(2)</sup>.

ويُعدّ "عبد الحميد بن باديس" "محدثا من الطراز العالي لا يستشهد إلا بالأحاديث الصحيحة المسندة إلى الصحاح الست، إلى البخاري أو مسلم أو الموطأ الذي اهتم به، واعتبر منهجه في الاستدلال خير المناهج"<sup>(3)</sup>، فشرحه ولم يبق من هذا الشرح إلا ما جُمع في كتاب بعنوان: "من هدي النبوة" وهذا يشهد له بطول الباع والفهم التام لسنة الرسول"<sup>(4)</sup>. فهو «خير بمذهب مالك، متفقه على غيره من المذاهب ويمقت التعصب لمذهب معين، وله فتاوى عظيمة، تحس منها أنه إيهابٌ ملىء علما منظما»<sup>(5)</sup>، وما يُذكر هنا منهجه النقدي الذي يردُّ «الفروع لأصولها والأصول لمستنداتها، فأذهب ذلك الجو القاتم الساكن المستسلم الذي يسمع فيه الطالب ويُسلم معتقدا»<sup>(6)</sup>.

أما من ناحية الأدب والكتابة، فهو: «أديب ذواق وكاتب بليغ مدرك، لم تعرف الجزائر خطيبا يماثله في البلاغة وقوة التأثير، وقد شهد له بذلك العدو قبل الصديق، ونورد هنا شيئا من الوصف الذي كتبه محرر الشؤون الدينية الثقافية في جريدة (البيتي ماتان) le petit matin الفرنسية الصادرة في تونس لمقدرة الشيخ الخطابية، حيث يقول: الشيخ عبد الحميد بن باديس يُمثل حقاً الزعيم الخطيب فهو قد ملك مقاليد الكلام وبصوته الناري يستفز الجماهير، فيثير الحروب أو ينزّل في القلوب سكينته السلام، ثم يردف قائلا: «وكان أثناء خطابه يُشير بذراعيه العاريتين إشارات في آن واحد إشارات الذي يُبارك وإشارات الذي يقتل وتصحب إشارته نبرات صوت عالية تخترق أحيانا طبقات الفضاء، وتكتسي أحيانا أخرى هدوء العظمة والجلال، وإن نبرات صوته لتنتزع منك الإعجاب انتزاعا ثم تجتث من صدرك ما أنت مقتنع به من رأي وتجعل منك عبده وملك يمينه»<sup>(7)</sup>.

(1) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص: 146.

(2) توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 09.

(3) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 01، ص: 91.

(4) توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 09.

(5) نفسه، ص: 09.

(6) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 01، ص: 91.

(7) حسن عبد الرحمن سلوادي، عبد الحميد بن باديس، مفسرا، ص: 50.

وكان العلامة «يعشق الأدب القديم والحديث، وينقده ويعطي لطلابه وزائريه زبدة ما قرأ ويوازن بين شعر وشعر، وينشر المُلح والطرائف وله باب في الشَّهاب بعنوان "من أحسن القصص والأدب" جمع فيه بين كلِّ طريف وظريف»<sup>(1)</sup>. فلذلك نراه «شاعرا يفيض الشَّعر من قلبه، وخطيب ينسبك سبحان قس، ولا يتلعثم، ولا يتردد يستولي على النفوس ويملك العقول والعواطف»<sup>(2)</sup>، وهو مع ذلك «صحفي وقور، هادئ رزين، يختار الموضوع ويُحدد المشكلة ويصف الدواء، ويهتم بمصالح المسلمين في جميع أنحاء الدنيا، ومشاكل بلاده في المقام الأول ويقرأ الصحافة المحلية والأجنبية، ويُشيد بالصحافة الإسلامية، ويحمل على الباطل في غير هوادة ويتنصف للحق أينما كان»<sup>(3)</sup>. يعمل ليل نهار يقضي ليله في إعداد المقالات وقراءة الجرائد والمجلاّت العربية والفرنسية ويُعلِّق عليها ويَرد على أصحابها، ولذلك فهو من أساطين الأمة العربية الإسلامية، وهو الزعيم الروحي لثورة التحرير الكبرى<sup>(4)</sup>.

#### \* أسلوب الشيخ عبد الحميد بن باديس:

ويوصف أسلوب الشيخ في التفسير بأن له ذوق «خاص في فهم القرآن كأنه حاسة سادسة، خُصَّ بها، يرفده بعد الذكاء المُشرق والفريجة الوقّادة والبصيرة النافذة، بيان ناصع، وإطلاع واسع ودرع فسيح في العلوم النفسية والكونية وباع مديد في علم الاجتماع، ورأى سديد في عوارضه وأمراضه، يمدُّ ذلك كلّه شجاعة في الرأي وشجاعة في القول، لم يِرْزُفهما إلاّ الأفذاذ المعدودون في البشر»<sup>(5)</sup>. فأسلوبه يمتاز «بالسلاسة والعدوية والسهولة، لا يستخدم السجع ولا يتكلف المحسنات البديعية، وإنّما يسير مع طبعه، ويترك لقلمه العنان، ليسجل أفكاره ومشاعره بأسلوب مرسل ليس فيه من الإعانات أو التكلف شيء. أمّا نثره فيمتاز بالإيجاز والتركيز وقوة العبارة وقصر الجمل، وعمق المعاني، وقد تأثر أسلوبه بنوع الكتب التي كان يقوم بتدريسها لتلامذته في الجامع الأخضر. ثم تأثر أسلوبه أكثر ما تأثر بالقرآن الكريم الذي كان دائم التلاوة والدراسة له. والقرآن كما نعلم هو كتاب العربية وقمة بلاغتها وبيانها»<sup>(6)</sup>. والشيخ عالم في ميادين عدّة، فهو «الداري لكتاب الأمالي» و«ديوان الحماسة» و«ديوان المتنبي»، ومقدمة بن خلدون، و«العواصم والقواصم»، و«دلائل الإعجاز»، و«أسرار البلاغة»، ومن قبل ذلك كلّه معجزة الأدب

(1) توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 09.

(2) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 01، ص: 91.

(3) توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 09.

(4) ينظر، عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 01، ص: 92.

(5) حسن عبد الرحمن سلوادي، عبد الحميد بن باديس، مفسرا، ص: 276.

(6) تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، ص: 186.

العربي وآية روعته القرآن، وجمال حديث صاحب جوامع الكلم، وأفصح من نطق من بني يعرب»<sup>(1)</sup>. كان لا بُدَّ أن يكون أسلوبه متنوعاً فأساليه ثلاثة: «أسلوب علمي، وأسلوب خطابي، وأسلوب أدبي، وأبرع الناس فصاحة وأقواهم عارضة، وأبلغهم تأثيراً في النفوس وأشدَّهم أخذاً بمجامع القلوب وأقدرهم استيلاء على العقول الجالحة والأهواء المستعصية، من رُزق المقدرة على هذه الأنواع، وهُوب ملكة التمييز بينها والافتداء عليها، فكان أسلوبه في التدريس غير أسلوبه في الخطابة وأسلوبه فيهما غير أسلوبه في الأدب، ثم كان في كلّ واحد من الثلاثة أقدر على التعبير وأمهر في التصوير وأحذق في التقدير، فلا تعجزه عبارة ولا يفوته مراد»<sup>(2)</sup>.

ويمتاز أسلوبه في الخطب - بمخاصة - بالسهولة، فهو ممتنع ممتاز، تعلوه عذوبة وخفة تجعلك لا تبحث عن الكلمات، بل إنَّها تنساب إليك في يسر وسهولة على سن يراعه<sup>(3)</sup>.  
أمّا أسلوبه في التفسير والحديث، فهو يشبه أسلوب الأستاذ الإمام محمد عبده، فهما يتسمان بالتطبيق والتحقيق وجمال العبارة<sup>(4)</sup>.

وأسلوبه في الصحافة «يختلف اختلافاً كبيراً عن أسلوبه في كتابة التفسير والحديث والموضوعات الأدبية ويمتاز بأنه أسلوب مباشر وقوي، وقصير الجمل ومركّز ومُفحم للخصم وطافح بالسخرية اللاذعة خصوصاً عندما يكون الأمر متعلقاً بمناقشة المتهمين على الشخصية القومية سواء كانوا جزائريين أو أجنباً»<sup>(5)</sup>.

ويمتاز شعره «بالساسة وصدق العاطفة، والبعد عن الغريب، ولذلك كانت قصائده تطرق القلوب والأفئدة قبل أن تطرق الآذان والأسماع»<sup>(6)</sup>. إنه صاحب حس رفيع، وذوق جميل.

#### \* شخصيته:

كان عبد الحميد بن باديس ذو شخصية نافذة «مُجدد للنفوس البالية، وباعث للضمائر الخاملة والقلوب الهامدة، باثٌ للعلم، محرك للعقول، مرجع الثقة للناس، زارع الثورة مُشيع فكرة الحرية، مُبين المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها فانكشفت به الغياهب الدكناء، وانجابت الغيوم الكثيفة والضباب العاتم من

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 01، ص: 91.

(2) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، دار البعث للطباعة والنشر، الجزائر، قسنطينة، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الطبعة 01، 1983، ص: 333، 334.

(3) ينظر، حسن عبد الرحمن سلوادي، عبد الحميد بن باديس، مفسراً، ص: 51.

(4) ينظر، عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ص: 334.

(5) تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، ص: 192.

(6) حسن عبد الرحمن سلوادي، عبد الحميد بن باديس، مفسراً، ص: 51.

سما الجزائر، واستمر يواصل النضال العلمي والاجتماعي والسياسي، يُعلّم ويُرشد ويَعْظ، ويُحرر، ويتنقل ويتعبد ويتأمل ويُحقق، لا يهدأ له بال لا بالليل ولا بالنهار، ولا يشفق على نفسه ولا على حاله، ولم يُيال بصحته في سبيل مبدأ أعظم وأمة يسوء حالها، ويُدمي نفسه احتلالها، ويدفعه للبذل والسَّهر مآها وآماله وآمالها»<sup>(1)</sup>.

فلم تقتصر شخصية الشيخ على جانب دون آخر، بل تشمل جوانب متعددة أجملها الشيخ البشير الإبراهيمي في قوله: «باني النهضة: العلمية والفكرية بالجزائر وواضع أسسها على صخرة الحق وقائد زحفها المغيرة إلى الغايات العليا، وإمام الحركة السلفية ومنشئ مجلة الشهاب مرآة الإصلاح وسيف المصلحين، ومُربي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدى المحمّدي وعلى التفكير الصحيح ومُحي دروس العلم بدروسه الحية ومُفسر كلام الله على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن، وغارس بذور الوطنية الصحيحة ومُلقن مبادئها على البيان، وفارس المنابر الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس، أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأول مؤسس لنوادي العلم والأدب، وجمعيات التربية والتعليم، فشخصية عبد الحميد بن باديس من هذه الناحية شخصية باهرة صادقة تملّي قوتها وعظمتها على الخصوم والأصدقاء معا، بما اجتمع لها من صدق اللّهجة وقوة الحجّة وفصاحة اللسان وبلاغة البيان وشرف النفس ونبالة الحسب والنسب، واستقامة السلوك والثبات على المبدأ أو الزهد في الألقاب والتعالي عن الإطراء»<sup>(2)</sup>.

فهو زارع محبة على أساس العدل والإنصاف والاحترام، مع كل أحد من أيّ جنس كان، ومن أيّ دين كان.

### \* آثاره:

أثر عنه قوله: «شَعَلْنَا تَأليف الرجال عن الكتب لذلك لم يخلف كتبا كثيرة، ولكن ما خلفه فيه قوة وعظمة وأصالة وتجديد منها: - تفسير ابن باديس في مجالس التذكير. - من الهدى النبوي. - رجال السلف ونساؤه. - عقيدة التوحيد من القرآن والسنة. - أحسن القصص. - رسالة في الأصول. بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من المقالات السياسية، والاجتماعية، جمعت وطُبعت في كتب منها: ابن باديس، حياته، وآثاره في أربع مجلدات لعمار طالبي ومجموعة خطب ومقالات ابن باديس، كما جُمعت أعداد المجلّات والتي من أشهرها البصائر والشهاب.

(1) حسن عبد الرحمن سلوادي، عبد الحميد بن باديس، مفسرا، ص: 94، 95.

(2) تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص: 184.

وبعد حياة حافلة بجلالات الأعمال، لقي عبد الحميد بن باديس ربه - راضيا مرضيا - في 08 ربيع الأول سنة 1359هـ الموافق: 16 من أبريل سنة 1940م، إثر مرض قصير لم يطل. وحامت الأقاويل حول موته، فقيل: إنه مات مسموما، وقيل: بل كان موته طبيعيا، وهكذا الشأن في موت العظماء. وخرجت الجزائر تشيعة إلى مثواه الأخير ودفن في روضة أسرته، بجي الشهداء قرب مقبرة قسنطينة -رحمه الله رحمة واسعة وغفر له- في احتفال مهيب<sup>(1)</sup>.

ومن خلال هذا الوصف لأطراف عديدة أطرّت هذه الشخصية نستطيع القول بأن: عبد الحميد بن باديس "يتفرد ببلاغة خطابية، وله مقدرة خاصة على التأثير في الجماهير، ومقدرة على إقناع أيّ معترض بوجاهة أفكاره وأعماله، وهو فوق ذلك شخصية حجاجية، ترمي إلى تغيير واقع اجتماعي وعقول إنسانية بالعمل والقول.

ما أردت قوله في هذه الصفحات هو إظهار الجانب الإقناعي في أدب الشيخ عبد الحميد بن باديس، المحاجج الناجح، وما ذكرته من حالات كان يعيشها الشعب الجزائري من ثقافية، واجتماعية وسياسية. لبيان دور المحاجج وانطلاقه من هذه الأوضاع للمحاجة والإقناع قصد بلوغ الهدف (الحرية والاستقلال)، لأن معرفة الموقف الكلامي له دور في وصف الظاهرة الحجاجية.

### ب- الحالة الثقافية في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي:

وجب أن نقف موقف الواصف للحالة الثقافية والاجتماعية والسياسية، وبيئة العلم التي ترعرع فيها العلامة عبد الحميد بن باديس قبل الخوض في الحديث عن هذه الشخصية وعوامل تكوينها. والذي يُعرف عن المجتمع الجزائري أنه مجتمع مسلم شديد الاعتزاز بنفسه وعروبته ومدى قوته في التمسك بالدين الإسلامي «وعندما دخل الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر في عام 1930م، حاول بكل الوسائل أن يُمزّق شمل الوحدة الوطنية والقومية للشعب الجزائري»<sup>(2)</sup>.

هذه المقومات المشار إليها الدين، اللّغة، والقيّم، والعادات والتقاليد من شأنها ربط ماضي الأمة بحاضرها، وما دامت هذه العناصر مجتمعة في أمة يستحيل هزّ كيانه، أو محو تاريخها «ومن المؤكد أنّ الاستعمار كان على علم تام بهذه الحقيقة، ولذلك عمل منذ أن وطئت أقدامه الأرض الجزائرية وخلال مدة تزيد على قرن من الزمان على تجريد الشعب الجزائري شخصيته، وطمس معالم هويته محاولا مسخها

(1) ينظر، توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير ابن باديس مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 14، 15.

(2) تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، دار النشر، الجزائر، الطبعة 03، 1981، ص: 20.



وإفراغها من مضامينها، وصبها في قوالب تلائم أهدافه ومخططاته، وتضمن لوجوده الدوام والبقاء في الجزائر<sup>(1)</sup>، فتيقن الاستعمار الفرنسي من أنّ أهدافه لن يكتب لها النجاح، ولن يستطيع استعباد الجزائر إلاّ إذا قضى على أمرين: العقيدة الإسلامية، واللغة العربية. «وكان الدّين الإسلاميّ أول ما امتدت إليه اليد الاستعمارية بالأذى والعدوان والتشوية، فالحملة الفرنسية كانت منذ بدايتها حملة صليبية في دوافعها، وغاياتها فلا غرابة أن تتخذ من المبشّرين المتعصبين دُعاة، وتقتحم بصلبانهم المساجد ودور العبادة فتحولها إلى كنائس وبيع»<sup>(2)</sup>.

ويُعدّ هذا الاستعمار من أخطر الأنواع الاستعمارية في محاربه للدين واللغة؛ فقد يتمكن من جعل شعب ما تابعاً له في الدين واللغة رغم استقلالية ذلك الشعب عن البلد المستعمر جغرافياً.

وما دام أنّ الدين واللغة من أبرز مقومات الأمم بها تنهض أو يغيرها تتردى الأمم، وفي هذا يقول الكاردينال لافيغري: «علينا أن نخلص هذا الشعب ونحرره من قرآنه»<sup>(3)</sup>، لكنّ الدين الإسلاميّ كان متأصلاً في الجزائريين وهذا ما جعل الاستعمار الفرنسي يتجه إلى محاربة اللغة العربية: «وهي اللغة التي تصون تماسك الشعب وتبقي على وحدته وتُحافظ على تماثل أفكاره ومشاعره، فحاول أن يقضي عليها بتشجيع استعمال اللغة العامية في الكتابة والمدارس وإحياء اللغة البربرية من جهة وعن طريق إغلاق الكتابات والمدارس الابتدائية والثانوية وتخريب المراكز التي كانت منتشرة في عدّة مدن جزائرية من جهة أخرى»<sup>(4)</sup>.

ومن أجل القضاء على اللغة العربية «قامت فرنسا بإتلاف عدد كبير من المخطوطات العلمية النادرة والوثائق التاريخية القيمة التي تُبرز خصوصية التاريخ الجزائري، وتؤكد بالدليل الساطع على تعلق هذا الشعب بعروبه وإسلامه وقد حقق الاستعمار الفرنسي بعض النجاح في هذا الجانب، فنشأت من بين الجزائريين فئة تؤمن بثقافته وتبني أفكاره، وتعمل بوعي أو بغير وعي لدعم مواقعه السياسية والثقافية مُتَنَكِّرة بذلك لأصلها وانتمائها العربي الإسلامي»<sup>(5)</sup>.

وهو البلاء الأكبر الذي انصب على الجزائريين طيلة فترة الاحتلال الفرنسي، بالإضافة إلى الاستحواذ على الثروة الوطنية والاستبداد، ومقاومة كلّ بادرة إصلاح تعمل على تغيير واقع الجماهير الجزائرية البائس<sup>(6)</sup>.

(1) حسن عبد الرحمن سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسراً، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص: 28.

(2) نفسه، ص: 28.

(3) نفسه، ص: 29.

(4) نفسه، ص: 29.

(5) نفسه، ص: 31.

(6) ينظر، تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص: 28.

أما بالنسبة للواقع السياسي، فيُعد العصر الدّي نشأ فيه "ابن باديس" وأثر في فكره التربوي، واتجاهه السياسي، وعقيدته الإصلاحية الدينية، العصر الذي استعمل فيه الاستعمار الفرنسي كل أنواع الاحتلال: حيث عملوا على سياسة التجنيس وتنشيط الهجرة بالمعمرين الأوروبيين...

في ظل هذه الأوضاع الثقافية والاجتماعية، السياسية التي يعيشها المجتمع الجزائري كانت هناك بوادر حركات إصلاحية، كان السبب والباعث الرئيس في ظهورها هو العنصرية المقوتة التي تُعدّ عاملاً فعلاً في تأجيج الثورة في نفوس الجزائريين ضدّ الاستعمار الفرنسي، مما عجلّ برحيلهم، جميعاً غداة الاستقلال<sup>(1)</sup>.

وكان لأبدّ من ظهور شخصيات تقود هذه المقاومات نحو الحرية والانتصار، ومنها: شخصية العلامة عبد الحميد بن باديس الذي بفضله وبفضل رجال من أمثاله وصلت الجزائر إلى ما هي عليه الآن. ومن بين الأعمال الجليلة التي قام بها الشيخ: إنشاء "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، وقد نشأت في يوليو جويلية عام 1930م، حيث بلغ عمر الاحتلال الفرنسي لعاصمة الجزائر قرناً كاملاً<sup>(2)</sup>.

وقد تم تكوينها على يد صفوة من علماء الجزائر الذين ينتمون إلى جمعية الإصلاح التي ظهرت في العالم الإسلامي بدءاً من القرن الثامن عشر الميلادي، وهؤلاء العلماء كلهم أو جلّهم، ممن لهم ماضٍ حافل في خدمة الثقافة العربية والدعوة الإصلاحية السلفية، ومقاومة مشاريع الاستعمار المبيتة ضد الشخصية القومية للشعب الجزائري ومنهم: "الشيخ عبد الحميد بن باديس"، و"الشيخ الإبراهيمي" و"الشيخ الطيب العقبي" وقد جمعت بينهم وحدة الهدف ووحدة الفكرة والمشرب والغاية<sup>(3)</sup>.

وتولى رئاسة هذه الجمعية منذ البداية "الشيخ عبد الحميد بن باديس"، وقد اتخذت مقراً في بداية تكوينها "نادي الترقّي"، فكانت تعقد فيه اجتماعاتها، وتقيم مؤتمراتها السنوية وتمارس منه نشاطها العام<sup>(4)</sup>. اقتحمت جمعية العلماء منذ تأسيسها ميداناً محفوفاً بالمزلق والأخطار، فحاربت أول ما حاربت أنصار الاستعمار، ثم قاومت وحطمت البدع والضلالات الدينية التي استغلها الاستعمار تحت ستار الطرقية حتّى تمكنت من تطهير الدّين من الخرافات والبدع، ثم أخذت في الحملة التعليمية العربية الإسلامية الكبرى...

وتتلخص مبادئها بصفة إجمالية في الشعار التالي: «الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا»<sup>(5)</sup>.

(1) ينظر، تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص: 28.

(2) ينظر، نفسه، ص: 66.

(3) ينظر، نفسه، ص: 66، 67.

(4) ينظر، نفسه، ص: 67.

(5) نفسه، ص: 68.

والظاهر أن ظهور جمعية العلماء المسلمين لم يكن «وليد الصدفة، وإنما كان ثمرة بذور زرعها بعض المصلحين العرب والمسلمين في أواخر القرن التاسع عشر أمثال: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده»<sup>(1)</sup> من تأثر بهم الشيخ الإمام، «وتحت ستار العمل الديني البحث، ونشر التعليم والتهذيب بين أطفال الجزائر ودروس الوعظ والإرشاد للكبار من المواطنين، كانت جمعية العلماء تحوض في الأمور السياسية، وتوجه الشعب توجيهها عربيا إسلاميا وطنيا، يناقض كل المناقضة سياسة الاحتلال وتوجيهه، بدون أن تستطيع الإدارة الاستعمارية أن تتعرض لها وكان لرجال الجمعية من الذكاء والبراعة بحيث يفلتون من مكائد الإدارة»<sup>(2)</sup>.

وكان عدم التصريح بنشاطات الجمعية عملا ذكيا من أصحابها لكي لا تقتل في مهدها «والواقع أن جمعية العلماء لعبت دورا بالغ الأهمية في التاريخ الحديث، بل لا تُغالي، إذا ما قلنا إنها هي المنظمة الوطنية التي يعود إليها الفضل في بقاء الإسلام والعروبة في الجزائر حتى اليوم»<sup>(3)</sup>.  
وذلك بفضل جهود أعلامها وكتاباتهم، وخطبهم، وبفضل الصحف التي كانت تصدرها الجمعية، ولكن ما تلبث حتى تغلق الصحيفة تلوى الأخرى، إذ «إن غاية الجمعية في نتيجة الأمر هي غاية إصلاحية وطنية، ففي المجال الديني كانت تهدف إلى تطهير الدين الإسلامي مما علق به من شوائب البدع والخرافات والعودة إلى أصوله الأولى لاستمداد الأحكام منها، وفي المجال التربوي كانت غايتها تنشئة جيل جزائري، متسلح بثقافة وطنية، وفكر عربي وروح وثابة، ليتمكن في المستقبل من تحقيق الأمنية العالية العزيزة: الاستقلال»<sup>(4)</sup>.

لقد كانت نشاطات الجمعية بادئ الأمر -كما ذكرت- تحت ستار الوعظ والإرشاد ولا ترقى إلى مستوى الجهر: بالحرية والاستقلال مخافة تجميدها.

لكن بعد هذا يخرج ابن باديس من التلميحات إلى التصريحات المحددة الواضحة، ويصرح بأبيات من الشعر بعد ست سنوات من إنشاء الجمعية، فيقول:

شعبُ الجزائرِ مسلّمٌ	وإلى العروبة يتنسب
من قال حاد عن أصله	أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجاً لاله	رام المحال من الطلب

(1) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر، ص: 91.

(2) تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص: 70.

(3) نفسه، ص: 70.

(4) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص: 119.

إذ تبدو غاية الجمعية أكثر وضوحاً، من خلال هذه الأبيات الوطنية الشاملة وتركز على الانتماء  
الذي لشعب الجزائر المسلم، وتحديد انتسابه القومي إلى العروبة التي هي أصله<sup>(1)</sup>. ولا يمكن أن ينفصم  
عنها.

---

(1) ينظر، أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص: 118.



# الفصل الاول

## إرهاصات البحث الحجاجي ومصطلحاته

المبحث الأول: الحجاج عند الغرب.

المبحث الثاني: الحجاج عند العرب.

ما من علم إلا وله جذور وأصول يتنسب إليها، ويمتد منها إلى أفق أرحب وأشمل، هذا ما يميز البلاغة العربية القديمة، إذ تُعتبر أم العلوم اللسانية في وقتنا الحديث؛ فقد درست البلاغة العربية كل ما يحيط بعملية التواصل من مخاطب ومخاطب وخطاب، وما يحكم هذه العملية من الشروط اللازمة لنجاحها، والهدف من هذا الخطاب. ولعل البلاغة أبرز ميدان ظهر فيه الحجاج، وقد تمثل بحث الحجاج ومصطلحاته عند الغربيين فيما ورد في كتاب "فن الخطابة" لأرسطو، وستتم مقارنته بالدراسات التداولية ونظرية الحجاج في الدرس اللساني الحديث.

أما في البلاغة عند العرب فتمثلت في المقولتين الشهيرتين "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" ولكل مقام مقال، وسنعرض في هذا المقام ما أتى به السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم"، وما أتى به الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين"، وما حظَّ الحجاج في البحث الأصولي ممثلاً في كتاب البرهان في وجوه البيان لابن وهب.



## المبحث الأول

### الحجاج عند الغرب

إنّ الفكر البلاغي الحجاجي الغربي تجسد أكثر وبكل مكوناته بحثاً ومصطلحاً من خلال كتاب: "فن الخطابة" لأرسطو، وقبل عرض ما ورد في هذا الكتاب وذكر ما يتعلق بالحجاج، أشير إلى الحركة الفلسفية تلك الظاهرة الاجتماعية التي تُعرف بالسفسطائية.

#### 1- الحجاج عند السفسطائيين:

السفسطائية حركة «برزت في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد تميّز روادها بالكفاءة اللغوية البلاغية وبالخبرة الجدلية، ويتجلى ذلك من خلال تسميتهم التي تعني الحكيم الخبير بكل فنّ وأسلوب»<sup>(1)</sup>. والجدير بالذكر أنّ وجود هذه الحركة أدّى إلى «تطوير البلاغة القولية التواصلية خاصة والحياة الفكرية عامة، فقد كانوا يعقدون نقاشات فلسفية ذات منزع لغوي توليدي للأفكار، الأمر الذي أسفر عن اهتمام بالغ بالطرائق الحجاجية الإقناعية»<sup>(2)</sup>.

إنّ الجانب الأهم في الدراسة الحجاجية لهذه الحركة هي تلك المنازعات التي كانت بين الفلاسفة (أفلاطون وأرسطو) وبين السفسطائيين، التي تستدعي صور الحجاج بوسائله وآلياته. وما يثبت حجاجية هذه الحركة هو اهتمامهم «ببنية كلّ من الكلمة والجملة، وبحثوا في السبل الممكنة التي بها يتحقق الإقناع وتغيير مواقف الآخرين، وقد استعانوا في سبل تلك الغاية بخبرة بالغة في مقامات التّاس والقول معاً، وأيضاً بآليات إجراء اللّغة بحسب المقاصد والظروف التواصلية، كما اهتموا ببلاغة القول ومتعلقاتها»<sup>(3)</sup>.

وما يثبت ذلك - أيضاً - هو أنّ السفسطائيين عمدوا في «ممارستهم للحجاج إلى بناء حججهم على فكرة النفعية المتعلقة باللذّة أي الهوى»<sup>(4)</sup>. وهذا محل نقد أفلاطون لأصحاب هذه الحركة في أنّهم «أدعياء على العلم والمعرفة وأنّ ما يقدّمونه لا يعدو كونه نتائج ظنيّة مبعثها الهوى واللذّة»<sup>(5)</sup>.

(1) محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، الطبعة 1، 2008، ص: 24.

(2) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 24.

(3) نفسه، ص: 25.

(4) نفسه، ص: 27.

(5) نفسه، ص: 27.



ويصف السفسطائيون الخطابة ب:الصانعة للإقناع، فهم يمنحون لإقناع السامع بما يخالف المشهور، وهذا تصور للخطابة من جهة المعنى والهدف، كما أنهم لم يغفلوا عن مراعاة الشكل.

ولهذا نجد الحجاج عند السفسطائيين يقوم على الاختلاف، ويهدف إلى تحقيق الاستمالة، وبذلك يتحقق الفعل التأثيري على مستوى ذهن المتلقي وسلوكه، إذ «الأفكار التي أتى بها السفسطائيون النفعية» واللذة أفضت بهم إلى توجيه الحجاج بحسب مقتضى المقام الذي يدور فيه الحوار، وذلك بتوظيف سلطة القول، وفكرتي التوجيه والتوظيف وهذه محطات سيكون لها دور بنائي في معظم البحوث الحجاجية<sup>(1)</sup>.

ومن أبرز استراتيجيات الإقناع والآليات الحجاجية لدى السفسطائيين الطرائق والخطط التي يتبعونها في حجاجهم، ويمكن الكشف عنها من خلال النقد الذي قدمه أرسطو لهم فقد كان نقده منصبا على إنتاج الحجاج عندهم، وما يتعلق به من آلياتهم وأهدافهم من الحجاج، فذكر أن لحجاجهم خمسة أهداف: التبيكيت<sup>(2)</sup> والإيقاع في الخطأ، والدفع إلى مخالفة المشهور، واستعمال صيغ غير لغوية غير مألوفة، وأخيرا دفع المجيب إلى الكلام الفارغ، وذلك بجعله يكرر كلامه عدة مرات<sup>(3)</sup>.

وقد انتقدهم أرسطو في كثير من المسائل، وبخاصة تلك التي يحققون بها هذه الأهداف كالمغالطة والإيهام، وجعل ما ليس بعلة علة.

والشيء الذي جعل أرسطو ينتقدهم على نطاق أوسع هو التقنية الحجاجية التي يعتمدها السفسطائي، وهي المبنية على مغالطات دلالية متنوعة، التي تهدف إلى التلاعب بمعنى المقدمات أو إحداها، وجعل القياس مخالفا للتوقع وموافقا لما أرب السفسطائي، والأمر نفسه جعل أرسطو يصوغ أنماطا من الحجاج المضاد لكل مغالطاتهم.

ولئن قوبلت تقنيات الحجاج التي أتى بها السفسطائيون بالتقند، فإنه يتجلى من خلال هذه الأفكار أن الحركة السفسطائية حركة حجاجية، فقد أسسوا ذلك من منطلقات فلسفية وأخرى منطقية، وكان لهم أسلوبهم الخاص ونظرتهم المتميزة، لاستمالة السامع وإقناعه وإفحامه بما كانوا يرونه محققا لذلك. ونخلص إلى أن الحركة الفلسفية السفسطائية الحجاجية، التي ظهرت في وقت مبكر من تاريخ الدراسات البلاغة الحجاجية الغربية، جسدت الحجاج وما يتعلق به من أبحاث فلسفية، فقد ظهرت وإن لم يكن بهذه المصطلحات اللسانية المعروفة اليوم، حيث أصبحت تُعرف هذه الحركة باسم خاص يُنسب إلى طريقتها في الكلام والخطاب وخبرتهم البلاغية وهو الحجاج السفسطائي.

(1) ينظر، محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 26.

(2) التبيكيت: إحداث التأثير ودفع السامع إلى الفعل بعد محاصرته ببيانيا.

(3) ينظر، محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 34.

## 2- الحجاج عند "أرسطو":

قبل البدء تجب الإشارة إلى تبويب كتاب الخطابة، ثم إلى محتواه، فهو يتكون من مقدمة وثلاث

مقالات:

- المقدمة: وهي مدحجة في المقالة الأولى، حيث حدد فيها أرسطو طبيعة الخطابة وعلاقتها بالعلوم والفنون الأخرى، مثل الجدل والأخلاق والسياسة والشعر، وقسمها حسب المقامات إلى استشارية وقضائية وتقويمية (مدح وهجاء).
- المقالة الأولى: الأخلاق والأدلة المناسبة والوسائل الإقناعية الصناعية الخاصة بالخطابة القضائية.
- المقالة الثانية: الأحوال النفسية المؤثرة في المخاطبين والأقيسة الخطابية والأمثال.
- المقالة الثالثة: الأسلوب وترتيب أجزاء القول<sup>(1)</sup>.

ويلحظ على هذا التبويب أن له علاقة بالحجاج، و«لئن كان البلاغيون العرب القدامى تناولوا مفهوم الاستدلال في أبحاث البيان والمعاني وجعلوه في دائرة التشبيه والاستعارة والمجاز، وهذا ما نجده عند السكاكي، فإن الاستدلال عند أرسطو تفكير عقلي يتم إنتاج العلم بواسطته، وهو الدعامة الأولى التي تأسست عليها دراسته للحجاج؛ فدراسته تأسست على دعامين كبيرتين: الأولى يختزلها مفهوم الاستدلال والثانية تقوم على البحث اللغوي الوجودي»<sup>(2)</sup>.

ومن هنا تجدر الإشارة إلى أن أرسطو كان تركيزه على صور الاستدلال الأكثر أهمية، المتمثلة في الصور القياسية التي نستشف منها الاستدلال بأنه «قولٌ مؤلفٌ من أقوالٍ إذا سُلِمَ به لزم عنها بالضرورة قول آخر»<sup>(3)</sup>.

حيث يمكن استعمال «الاستدلال الحجاجي في الخطاب الفلسفي عامة والبلاغي خاصة، بوصفه تلك المنهجية أو الطريقة العقلية التي يسلكها الفيلسوف والبلاغي الناقد والمبدع أيضاً بهدف إرساء حقيقة معينة وما يقتضيه ذلك الإرساء من عمليات عقلية منطقية تدعم ذلك الطرح دعماً حجاجياً من جهة وأساليب إفحامية توجيهية من جهة أخرى»<sup>(4)</sup>.

(1) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 1996، ص: 271.

(2) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 36.

(3) نفسه، ص: 37.

(4) نفسه، ص: 37.

ويعرف أرسطو "الخطابة بقوله: «الريطورية»<sup>(1)</sup> قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة»<sup>(2)</sup>، ويوسّع مجال الخطابة بقوله: «فقد استبان إذاً أن الريطورية ليست جنساً لشيء واحد مفرد [...]، وأنها جد نافعة وأنه ليس عملها أن تقنع لكن أن تُعرّف المقنعات في كل أمر من الأمور»<sup>(3)</sup>.

إن هذا ما نلحظه في البلاغة العربية القديمة وعند علماء الكلام والأصوليين والمفسرين حين يذكرون الإقناع والخطبة الاستدلالية، وقد اهتم أرسطو بالاستدلال وبالحجج وهي عنده على أنواع وأنّ الأهم من هذه الأنواع «هي تلك القائمة على التصديقات (الحجج) الصناعية التي يقوم بها المحاجج بصناعتها ونحتها اعتماداً على معايير عقلية منطقية لا على معايير عاطفية توجيهية»<sup>(4)</sup>.

والمقصود بتصديقات الحجج التي يُنشئها المتكلم أو المحاجج أي يصنعها ويصوغها اعتماداً على حالة المتلقي بمقدمات عقلية منطقية، وهذا بغية تغيير وظيفة الحجاج والانتقال من تحقيق أهداف عاطفية إلى تحقيق أهداف منطقية، ويميز أرسطو بين نوعين من الحجج: صناعية وغير صناعية:

أما الصناعية فهي: «ما أمكن إعداده وتثبيته على ما ينبغي بالحيلة وبأنفسنا [...] فأما التصديقات التي نختال لها بالكلام فإنها أنواع ثلاثة: فمنها ما يكون بكيفية المتكلم وسمته، ومنها ما يكون بتهيئة للسامع واستدراجه نحو الأمر ومنها ما يكون بالكلام نفسه قبل التثبيت. فأما بالكيفية والسمت فإن يكون الكلام بنحو يجعل المتكلم أهلاً أن يصدق ويقبل قوله»<sup>(5)</sup>.

وأما التصديقات غير الصناعية فهي تلك التي لا «تكون بحيلة منّا، لكن بأمر متقدّمة»<sup>(6)</sup>. والملاحظ أن الأولى «تكون جاهزة يوفرها المقام العام للخطاب، وعلى الخطيب أو المحاجج أن يستعمل منها بقدر مقتضى الحال، فقد رأينا أنّ الحجج ينبغي أن تتناسب مع درجة التصديق أو الإنكار الحاصلين لدى المعنيين بالخطاب»<sup>(7)</sup>.

أما ما يكون بكيفية المتكلم فيختص بالجانب الأخلاقي (أخلاق الخطيب)، وأما ما يكون بتهيئة السامع فذلك الجانب الانفعالي (انفعال المتلقي)، وما يكون بالكلام هو ما يختص بالجانب العقلي

(1) الريطورية: تعني الخطابة في اللغة اليونانية.

(2) أرسطو طاليس، الخطابة، الترجمة العربية القديمة، تحقيق، عبد الرحمن بدوي، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، لبنان، 1979، ص: 09.

(3) نفسه، ص: 08.

(4) محمد سالم محمد الأمين، الحجج في البلاغة المعاصرة، ص: 41.

(5) أرسطو طاليس، الخطابة، ص: 09، 10.

(6) نفسه، ص: 09.

(7) محمد سالم محمد الأمين، الحجج في البلاغة المعاصرة، ص: 47.

(الاستدلال المنطقي)، وبهذا يكون أرسطو قد أعطى في درسه للخطابة اهتماما كبيرا للجانبين العقلي والنفسي معا<sup>(1)</sup>.

ونجده - أيضا - يميز بين الحجج الخطابية، فثمة المشتركة والخاصة، وفي هذا يقول: «إذا كانت الحجج الفرعية والتي هي حجج مساعدة للخطيب على بناء حججه وتوجيهه، فإنّ الحجج المشتركة هي المؤسسة للحجاج بمختلف فروع وأنواعه، وبالتالي تكون هذه الحجج أشمل من الأولى، وتتضمنها، والحجج المشتركة في نظر أرسطو ثلاث الضمير والرأي والمثال، ولكنه يختزلها في الضمير والمثال؛ لأنّ الرأي مشمول في الضمير»<sup>(2)</sup>، ويشير إلى أنّ كل من هذه الأنواع له استعمالته ومقاماته وبلاغته الخاصة. ويذكر أرسطو أنواع الخطابة وغاية كل نوع، وأنواع السامع ومما يتركب الكلام والغاية منه، فيقول: «الكلام نفسه مركب من ثلاثة: من القائل، ومن المقول فيه ومن الذي إليه القول. والغاية إنما هي نحو هذا أعني السامع [...] يكون الكلام الريطوري ثلاث أجناس: مشورى، ومشاجري، وتبثيقي»<sup>(3)</sup>، كما يتطرق أرسطو إلى ذكر الأسلوب وسلامته وتناسبه، ووسائل الإطناب وغيرها من الأبحاث الحجاجية<sup>(4)</sup>. ويميز بين أنواع الحجاج، منها:

- الحجاج الفلسفي: وفي هذا النوع يُطرح التساؤل: هل يمكن أن يوجد حجاج فلسفي؟ قد يستغرب الواحد منا حين التحدث عن «بلاغة فلسفية» وحجاج فلسفي، «لكن الأمر لا يدعو مطلقا إلى الاستغراب، لأنّ التواشج والتعالق بين التفكير الفلسفي والفكر البلاغي ظلّا قائمين منذ أيام أرسطو -ذاته- وتواصلا لدى الفلاسفة المحدثين والمعاصرين»<sup>(5)</sup>. وإذا سلمنا بحجاجية كلّ خطاب فيكون للفلسفة طابع حجاجي، يمكن تسميته بالحجاج الفلسفي. والحجاج بوصفه نشاطا خطّابيا تداوليا، «يشكل مهادا منهجيا تقنيا للحوار الفلسفي الداخلي (الذاتي) والخارجي (الجماعي) على السواء؛ لأنّ الفلسفة هي خطاب العقل والفهم والتأويل، وهي أمور وثيقة الصلة بالحجاج»<sup>(6)</sup>.

(1) ينظر، جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000، ص: 108، 109.

(2) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 46.

(3) أرسطو، الخطابة، ص: 16، 17.

(4) ينظر، نفسه، ص: 198، 200.

(5) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 42، 43.

(6) نفسه، ص: 43.

وتتجلى صيغة الحجاج الفلسفية في قيمتها، «وقيمة هذا الحجاج الفلسفي قيمة خاصة تتجلى في كون عملياته تتوخى إفحام كل عقل مهياً للتفكير العقلاني، ومن ثم فالطريقة الفلسفية ليس هدفها التأثير في الأشخاص، بل منح الأفكار قوتها الإفحامية»<sup>(1)</sup>.

ولو أنعمنا النظر في الحجاج الخطابية، يكون هدف الحجاج فيها تحقيق الإقناع العقلي والعاطفي معاً، واستمالة الآخر ودفعه إلى الفعل والتغيير.

أما الحجاج في الفلسفة أو هدف الحجاج الفلسفي، من وجهة نظر أنها (الفلسفة) خطاب فهي تسعى لإرساء الحقيقة، وهذا ما جعلها ترتبط بالدليل والبرهان لا التعليل، مما جعل الحجاج يفتقر للمظاهر الإمتاعية التي نجدتها في نظيره الفني والأدبي بصفة عامة<sup>(2)</sup>.

- **الحجاج الجدلي:** يقوم الجدل عادة على «أمور الإثبات والنفي عبر استخدام الوسائل اللغوية البلاغية التي في مقدور المتكلم توظيفها، كما أنّ لمقام الجدل-أيضاً- دوراً في اختيار أنواع الحجج ومراحل إيرادها ودرجات كثافتها وفي تحديد مدتها تبعاً لطباع وتخصصات المتجادلين (فلاسفة، علماء، مهندسين، أدباء، فنانيين، مواطنين عاديين)»<sup>(3)</sup>، وفيما يتعلق بأمور الإثبات والنفي، يكون الإثبات للطرف المجادل الأول ويكون النفي للطرف الآخر.

ولكن نجاح كلا الطرفين في عمليتي الإثبات والنفي، يتعلق بمدى معرفة كل طرف باستخدام الآليات الحجاجية، والوسائل اللغوية البلاغية، والحجج الناجعة، لإثبات أو نفي القضية والموضوع، ويختلف هذا كلّهُ بالنظر إلى منزلة المتجادلين وتخصصاتهم، ليسهل تمييز نوع الحجاج الجدلي.

ومنبع الحجاج الجدلي هو التساؤل والخلاف والحيرة حول قضية أو جملة قضايا، ويعدّ السؤال والسائل في هذا المجال أهم من الجيب، لأنه منهما تتحدّد معالم الإشكالية المطروحة، والحجاج الجدلي أوثق صلة بالأمور العقلية السلوكية.

والسمة التي تميز الحجاج الجدلي هي السمة الفردية، وبالتالي يكون الحجاج الجدلي هو الذي يدور في أوساط المتخصصين، والاستدلال الموجّه فيه يتوجه به إلى سامع كوني، وبالتالي فهذا الحجاج لا يستغل الأخلاق والطبائع والانفعالات في كسب الاقتناع من محاوره<sup>(4)</sup>.

(1) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 43

(2) ينظر، نفسه، ص: 43.

(3) نفسه، ص: 44.

(4) ينظر، نفسه، ص: 52.

فالمجادل في الحجاج الجدلي يعالج قضية فكرية حادة وصفها أرسطو عدّة مرات بأنها أشبه بالنزاع والصراع بين أبطال الكلام. وهذا ما نلمسه لدى علماء الكلام العرب في الدفاع عن القرآن الكريم. ولقد أولى أرسطو اهتماما كبيرا في هذا الحجاج الجدلي بآليات القول وبنائه وإنتاجه، وكذلك بالقوى النازمة له، وهذا ما جعله يولي اهتماما بأطراف العملية التواصلية (المتكلم، المستقبل، الرسالة) في حدّ ذاتها<sup>(1)</sup>، وهذه هي عناصر الحجاج الخطابي، فالجدل - عند أرسطو - مؤسس على خطة حجائية «يتم من خلالها استدراج المعنى إلى التسليم بمضمون مقدّمات قد تمت محاصرته بلاغيا، لكنّه قد يقتنع بعكس ذلك لاحقا»<sup>(2)</sup>. وهذا ما يصبو إليه الجدال الذي يريد إثبات طرحه.

- **الحجاج الخطابي:** ومجاله توجيه الفعل والتوجيه إليه وخلق الاعتقاد، ولئن كان الحجاج الجدلي سمته الفردية فالحجاج الخطابي يميّزه السمة الجماعية. وما يميّز أيضا الحجاج الخطابي هو هدفه الذي يتمثل في بناء حكم وتوجيه الفعل<sup>(3)</sup>.

وأهم مرحلة من المراحل التي وضعها أرسطو لذلك في إنتاج القول حين يهتم بالخطيب من خلال إنتاج القول الحجاجي، وجعلها ثلاث مراحل هي: مرحلة البحث عن مواد الحجاج ومصادر الأدلة، والمرحلة الثانية ترتيب أجزاء القول، والمرحلة الثالثة تتعلق بالأسلوب من حيث اختيار الألفاظ والمحسنات، فالمواد الحجائية والأدلة مستورة خفية وعلى المتكلم أن يجد ما يناسب موضوعه<sup>(4)</sup>.

ويُصاغ هذا الحجاج الخطابي لجمهور معين يعرف الخطيب مسبقا خصائصه الكبرى، وبالتالي يتوجه إليه باستدلالات إقناعية محددة يسعى من ورائها لدفعهم إلى الفعل<sup>(5)</sup>. وهذا ما جعل الحجاج عند أرسطو عملية تقوم فيها الحركة الهادفة إلى تجسيد الإقناع على جوانب متعددة.

وتجدر الإشارة - هنا - إلى جنس الحجاج الجدلي وهذا نمط الحجاج في جنس المحاوراة الجدلية والحجاج الخطبي نمط حجاجي جنسه الخطبة.

وأهم مرحلة هي مرحلة البحث عن المصادر والأدلة ومواد الحجاج؛ لأنّ هذه الأخيرة يجب مراعاتها حسب المقام وحالة السامع وعلى المحاجج الناجح أن يعثر على الأدلة والحجج المناسبة لمستعمه ولموضوعه.

(1) ينظر، محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 56.

(2) نفسه، ص: 53.

(3) ينظر، نفسه، ص: 56.

(4) ينظر، نفسه، ص: 56.

(5) ينظر، نفسه، ص: 53، 54.

وفي هذا عرض لمواصفات الخطيب فعليه أن يكون عارفا بمستويات المعنيين، فالخطابة عند أرسطو: صناعة وتقنية<sup>(1)</sup>.

ثم يعرض أرسطو للشرط الذي يجعل الخطيب مقبولا وخطابه مقبولا، «إذ لا بد من ذكر الموضوع الذي نبحث فيه، ثم بعد ذلك نقوم بالبرهنة ولهذا من المستحيل بعد ذكر الموضوع أن نتجنب البرهنة، أو نقوم بالبرهنة قبل ذكر الموضوع أولا ذلك أنه حين نبرهن إنما نبرهن على شيء، ولا نذكر الشيء إلا من أجل البرهنة عليه. وأولى هذه العمليات هي العرض، والثانية الدليل»<sup>(2)</sup>. كما يشترط في الخطيب الأخلاق.

- **الحجاج القضائي:** يربط أرسطو هذا النوع من الحجاج «بالسلوك الإنساني بصفة عامة ويؤكد أن أهم جانب في هذه الخطابة هو تحديد السبب الداعي إلى الفعل لأنه تبعاً لهذا الفعل يكون بناء الحجاج، وتكون المحاسبة، والفعل الذي دافعه الغضب أو الغيرة مختلف عن الفعل الذي دافعه الإكراه أو الشهوة»<sup>(3)</sup>.

فاتسعت بذلك مناحي الخطاب القضائي وأقيمت له أبحاث خاصة تدرس الحجاج فيه باستخراج الآليات والوسائل البلاغية باعتباره حقلاً يكثر فيه الجدل مع قوة الحجج. فالقضاء من أهم المجالات التي يظهر فيها الحجاج، نظراً لما فيه من مرافعات ومداومات ومساجلات تعتمد كلها على التأويل وحذق اللغويين.

ولعل هذه المكانة الرفيعة للحجاج في القضاء هي التي دفعت بيرلمان (Birlman) إلى الاهتمام به أولاً في هذا الجنس، قبل أن يعمم بحثه فيه ليشمل المجالات الفنية عامة والإنسانية الاجتماعية خاصة<sup>(4)</sup>. وعلى المحاجج أن يكون صانعاً للقول الحجاجي في حقله ومجاله، حيث يسميها أرسطو الصناعة القولية. وهي عنده صناعة الخطابة والحجاج وهما مؤسسان على ركنين أساسيين: القول والقائل وما يتصل بهما من شروط<sup>(5)</sup>.

(1) ينظر، محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 55.

(2) أرسطو، الخطابة، ص: 228، 229.

(3) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 50.

(4) نفسه، ص: 50.

(5) ينظر: نفسه، ص: 46.

وبناء على ذلك « يكون أرسطو قد حوّل مسار الخطابة والحجاج عامة من كونهما قائمين على التأثير والتحرّيز والتملّق، إلى كونهما عمليتين برهائيتين عقليتين من جهة، وداخلتين في مجال الاجتماع الإنساني من جهة ثانية»<sup>(1)</sup>.

وأخيرا نخلص إلى أنّ أرسطو قد سعى من خلال كتابه هذا إلى بناء صرح حجّاجي جديد له علاقات شتى ومجالات عديدة، وتجسد ذلك في رفضه للأساليب السفسطائية، ودعوته لبلاغة قولية عمادها الحجاج، وقوامها عناصر العملية التواصلية: المتكلم، الخطاب، المستمع، وتعرضه لكل ماله علاقة بالحجاج.

---

(1) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 41



## المبحث الثاني الحجاج عند العرب

### 1 - عند الجاحظ؛

تناول الجاحظ ما يجب أن يكون عليه الخطيب، وهو عنصر في العملية الحجاجية، ثم نبّه إلى أهم الصفات التي تجعل من الخطاب ناجعا، وذلك بسلامة الخطيب من العيوب النطقية والعي. وما أتى به الجاحظ في كتابي البيان والتبيين<sup>1</sup> والحيوان<sup>2</sup> يعد من تلك الأبحاث التي ترتبط بالبيان، والتي يمكن أن نجعل بينها وبين البحث الحجاجي علاقة.

فالبيان عند الجاحظ «يرد بمعنى الإيضاح والإفصاح، من هنا يكون البيان ذو علاقة بالخطاب حيث يعنى بالإبانة والإرسال أو الإبلاغ المبين الذي يتم عبر اللغة وغيرها»<sup>(1)</sup>، وهو «اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع»<sup>(2)</sup>.

من تعريف الجاحظ للبيان تتبين العلاقة بين الحجاج والبيان، إذ يمكن أن نعهده من البحوث المهمة في الحجاج، وذلك للارتباطات الآتية: الكشف عن المعنى، ويكون هذا بدليل، الفهم والإفهام، والغاية من الكلام، وهتك الحجاب. وهذا يعني الإقناع والإفهام، ومجمل هذه العناصر تكون عملية حجاجية بين فعلي الإنتاج والتلقي.

ولنؤكد هذا الملمح الحجاجي أكثر، فالجاحظ لم يُعن بالكلام المبين فحسب، بل اعتنى بالمتكلم أيما عناية، وهدفه من خطابه المنتج وكيفية تحقيق الفائدة من الخطاب، إذ يقول: «في إصابة عين المعنى بالكلام الموجز يقلُّ الحزُّ، ويصيب المفصل، وأخذوا ذلك من صفة الجزار فجعلوه مثلا للمصيب الموجز»<sup>(3)</sup>. وهذا يتحقق إذا كان المخاطب عالما عارفا بأحوال السامعين وثقافتهم وطبقتهم، وذلك بتوجيه خطابه الوجهة الصحيحة، وترتيب حججه الترتيب النافع المفيد، لاستمالة المتلقي، ويتنقل الجاحظ بعدئذ إلى

(1) ينظر، جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص: 143، 144.

(2) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، المجلد الأول، الجزء الأول والثاني، وضع حواشيه، موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة 2، 2003، ص: 60.

(3) نفسه، ص: 80.

وسيلتين بيانيتين، «هما الصوت والإشارة، وقد عني الجاحظ في الاتصال الخطابي خاصة والخطابي الجدلي على نحو أخص، فحدد مقومات جودة الصوت في سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن»<sup>(1)</sup>.

ويشير الجاحظ إلى آليات البيان ووسائله «وأنّ البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة، وإحكام الصنعة والى سهولة المخرج، وجهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وأن حاجة المنطق إلى الخلاوة، كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وأن ذلك من أكبر ما تستمال به القلوب وتثنى به الأعناق، وتزّين به المعاني»<sup>(2)</sup>.

ويرى الباحث اللساني أن ما أتى به الجاحظ لحاجات البيان والمنطق تنطبق على الآليات والوسائل الحجاجية المعروفة في البحوث التداولية الحديثة، وكأن بقوله يعني الحجاج الناجح، الذي يحتاج إلى تمام الآليات واستراتيجيات تخص كل عناصر العملية الحجاجية، وما لها من أهداف فمن أهداف هذه الآليات استمالة القلوب والإفحام من جهة وبلاغة الأسلوب الحجاجي من جهة أخرى.

ويذكر الجاحظ قولاً يبين فيه أهمية الصوت والإشارة، وكان هذه الصفات تنطبق على المحاجج لتحصل حججه القبول لدى السامع وهو المحاجج المقصود، وفي هذا يضرب لنا الجاحظ مثالا من أجل إعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة، فيقول: «رام أبو حذيفة إسقاط الرّاء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقته...»[ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائله المخلّدة، لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنّما عنيت حاجة الخصوم ومناقلة الأكفّاء، ومفاوضة الإخوان]<sup>(3)</sup>، وهذا دليل على دور الصوت في العملية الحجاجية مع سهولة المخرج وجهارة المنطق وغيرها من الشروط السابقة التي يحتاجها المتكلم في البيان أو في الحجاج على حد السواء.

أمّا الوسيلة الثانية التي ركز عليها الجاحظ فهي الإشارة لما لها من الفائدة والنفع في الاتصال الخطابي أو في الحجاج، وما تزيده من تأكيد على الحجّة المقدّمة لحمل السامع على ذلك الرأي أو تلك القضية، فهي تعين الخطاب من حيث بيانه وفي هذا يقول الجاحظ: «الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط»<sup>(4)</sup>.

يتبين من هذا أن الإشارة وسيلة من وسائل الحجاج التي تؤكد حجة القول فهي تمثل تأكيده بالفعل، فالتكلم وهو يقدم حجة يؤكد بها بإشارة فتدعم وتعزز معنى اللفظ لتوضيح هدفه وقصده حتى من

(1) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 144.

(2) الجاحظ، البيان التبيين، مج 1، ص: 16.

(3) نفسه، ص: 16.

(4) نفسه، مج 1، ص: 16.

دون أن يصرح بذلك، وفي هذا يقول: «وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ولجهلوا هذا الباب البتة»<sup>(1)</sup>، وبين الجاحظ الأبلغ منهما بقوله: «ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت، فهذا أيضا باب تتقدّم فيه الإشارة الصوت. وهذا بعد ذكره لبعض الشواهد الشعرية، ومنها:

العين تُبدي الدّي في نفس صاحبها      من المحبة أو بغضٍ إذا كانا  
والعين تُنطق والأفواه صامتةً      حتى ترى من ضمير القلب تبياناً<sup>(2)</sup>

نخلص من هذا إلى أن الجاحظ من خلال معالجته للبيان يمكن عدّه هذه المعالجة إرهابات لبحث حجاجي يتم انطلاقاً من المتكلم المحاجج بالكيفية التي يكون هو عليها، والكيفية التي يكون عليها خطابه، وشروطه، ليكون خطابه ناجعاً صائباً، ثم يتطرق إلى السامع المحاجج وينبّه إلى ضرورة إفهامه، وقد ذكر مختلف الوسائل لذلك كما رأينا في أنواع من الخطاب الشفهي والحوار وفي الخطبة.

وكأن الجاحظ يؤسس نظرية لبلاغة الحجاج والإقناع، يكون مركزها الخطاب اللغوي بكل ما يصاحبه من وسائل إشارية ورمزية ودلالات لفظية، وأساسها - أي هذه البلاغة - مراعاة أحوال المخاطبين، والخطاب، وما يلزم المخاطب لذلك، والبيان عنده يتسع ويضيق بحسب المقام لكثته في كل الحالات هو البلاغة وهو الحجاج والبيان. والكلام في نظره لا يمكن تمييزه عن البلاغة، فهو يضطلع في حياة الفرد بوظيفتين أساسيتين، هما:

أولاً: الوظيفة الخطابية وما يتصل بها من إلقاء وإقناع واحتجاج ومنازعة ومناظرة. أما الوظيفة الثانية: فهي الفهم والإفهام أو البيان والتبيين<sup>(3)</sup>.

ويوضح محمد سالم محمد الأمين للباحثين أن: «مفهوم البيان تتنازعه وظيفتان أولاهما إفهامية والثانية حجاجية إقناعية»<sup>(4)</sup>.

ويرى محمد العمري أن مادة البيان والتبيين لا تخرج عن ثلاثة محاور:

1- وظيفة البيان وقيّمته.

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، مج 1، ص: 62.

(2) نفسه، ص: 62.

(3) ينظر، محمد سالم محمد الأمين الطلبة الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 211، 212.

(4) نفسه، ص: 213.

2- العملية البيانية وأدواتها.

3- البيان العربي<sup>(1)</sup>.

وترتبط الوظيفة الأولى «بالفهم والإفهام والخطابة، أما الوظيفة الثانية فتخص المقام الخطابي والمعاني وأدلتها، أما الوظيفة الثالثة: فكيفية الدفاع عن البيان العربي والحفاظ على تقاليدته ضد الشعوبيين والمتطرفين من حيث أخبار الخطباء وثقافتهم ومكانتهم وأساليبهم الحجاجية»<sup>(2)</sup>.

ويتسع مفهوم البيان أكثر حين يتصل بالمعرفة والإقناع، حيث «يتنازع البيان عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين مفهومان أو وظيفتان:

1- البيان معرفة: الوظيفة الفهمية.

2- البيان إقناع: الوظيفة الإقناعية»<sup>(3)</sup>.

إن مفهوم البيان ووظيفته من مفهوم الحجاج أو الإقناع، وقد «انحصرت وظيفة البيان في الفهم والإفهام في بعده المعرفي والإقناعي، الاستمالة والاحتجاج، ثم ربطت الأداة بالموضوع والمناسبة أي بالمقام الخطابي وقد شرح الجاحظ ما يقصده بالموضوع فأرجعه إلى أمرين: 1- أقدار السامعين - 2- أقدار الحالات»<sup>(4)</sup>.

فالجاحظ دائم الإلحاح على الشروط اللازم توفرها في المتكلم من حيث الخبرة والحذق للآلة والنصوص الاستشهادية الضرورية لكل حجاج، هذا علاوة على تخير قالب اللغوي الكفيل بإنجاح الفحوى والمقاصد ودفع السامع إلى تحقيق المضامين النصية ومن العناصر الحجاجية التي اهتم بها الجاحظ نذكر مقتضيات المقام وما تشمله من أحوال الخطيب وكفاءته اللغوية وهيئته وصفاته الخلقية وما يحسن وما يقيح<sup>(5)</sup>. والبليغ عنده: «من حصل كلامه وميزه، وحاسب نفسه، وخاف الإثم والدم، وأشفق من الضراوة وسوء العادة، وخاف ثمره العجب وهجنة النفخ، وما في حب السمعة من الفتنة، وما في الرياء من مجانبة الإخلاص»<sup>(6)</sup>.

(1) ينظر، محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 193.

(2) ينظر، محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 213.

(3) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 19.

(4) نفسه، ص: 201.

(5) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 214.

(6) الجاحظ، البيان والتبيين، مج 1، ص: 133، 134.

ويظهر هذا في قول للجاحظ عن البلاغة حيث يجب أن يتمكن المتكلم من البلاغة بامتلاك ناصيتها، «البلاغة إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق»<sup>(1)</sup>. ونستخلص من هذه النصوص التي قدمها الجاحظ أن مفهوم البيان «مفهوم إجرائي أي أنه العملية الموصلة إلى الفهم والإفهام»<sup>(2)</sup>، حيث تحدث «عن فعل البيان وأثره ومساوئ العي وضرره؛ فكشف عن مقصوده بصورة غير مباشرة، ومرجعه الدور الإقناعي للكلام وما يتصل به من عناصر إقناعية غير لغوية»<sup>(3)</sup>.

لقد بات واضحاً أن الجاحظ أسهم بمعالجته للبيان في إثراء البحث الحجاجي ومصطاحاته فالحجاج إن لم يكن مذكوراً، بهذا المصطلح فهو البيان عند الجاحظ ودليلنا في ذلك النصوص الحجاجية التي ظهرت في كتابه، ويمكن أن نقارن بين ما جاء به الجاحظ وما جاء به بيرلمان بيّن الفارق الجوهرى بين الخطابة التي يعينها بيرلمان والخطابة التي يعينها الجاحظ، ذلك أنه إذا كانت كلتا الخطابتين تستهدف الاستمالة، فإن الأولى تستهدف استمالة العقول، بينما الثانية تستهدف -في الغالب- استمالة القلوب»<sup>(4)</sup>. ويمكن «ذكر العوامل التي جعلت الجاحظ يهتم بالنزعة الحجاجية وبالوظائف اللغوية والبلاغية، وهي انتماءه المذهبي إلى المعتزلة وتصدره للدفاع عن العديد من أطروحاتهم، وكان من شأن هذا تحفيزه على التفكير في نصوص الخصوم وفرضياتهم، ثم البحث عن الآليات الكفيلة بمقارعتها ودحضها، وعمما يتعلق بهذا الهدف من ضرورة التقدير الجيد لحسابات التوقيع والاحتمال، ويضاف إلى هذا اهتمامه بالمقدمات بجميع ضروبها، وما يتصل بها من حالات الهيئة المساعدة وكذلك الأمور النفسية الخاصة التي تلعب دوراً في تغليب طرف على آخر»<sup>(5)</sup>.

من هنا يعدّ الجاحظ «أول مفكر عربي نقف في تراثه على نظرية متكاملة تقرر أن الكلام وهو المظهر العلمي لوجود اللغة المجردة، ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعى فيه، بالإضافة إلى الناحية اللغوية المحضة، جملة من العوامل الأخرى كالسامع والمقام وظروف المقال وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية من روابط، وتحتل الوظيفة وهي في مصطلحه الغاية ومدار الأمر حجر الزاوية في هذا البناء لأنها مولد اللحمة والهدف الذي تسعى هذه الأطراف إلى تحقيقه»<sup>(6)</sup>.

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، مج 1، ص: 152.

(2) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 192.

(3) نفسه، ص: 196.

(4) جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص: 150.

(5) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 212، 213.

(6) حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، 1981، ص: 185.

حينما يتناول المرء الظروف التي سبقت هذا الاحتفال بالبيان، باعتباره حجاجاً بمعناه البلاغي والاجتماعي، عندها «سيقتنع بأن كتاب البيان والتبيين وما سار في اتجاهه كان يمثل موقفاً حضارياً، هو محاولة إرساء مجتمع عقلاني تربط بين أفراده علاقات الإقناع بالمنطق أو الاستمالة بشتى صور الدلالة والتعبير الاجتماعي، اعتماداً على رصيد منتخب من مآثور الأقوال الشعرية التي تسمو إلى مستوى الحكمة والمثل، وكل ما يتصل بذلك من الأخبار والحكايات الكاشفة للطبيعة البشرية جادة وساخرة وهازلة»<sup>(1)</sup>.

نخلص من هذا إلى أن مفهوم البيان ذو علاقة بالحجاج والإقناع، وما توصل إليه أَلْجَاحُظٌ من شروط تخص المتكلم والسامع والوسائل اللغوية وغير اللغوية للتخاطب ثم للحجاج والإقناع، وما تطرق إليه من وظائف اللغة: تواصل، بيان، حجاج، إقناع، كلُّها تقع تحت البحث الحجاجي أو ما يعرف اليوم في الدرس اللساني الحديث بنظرية الحجاج .

## 2- عند السكاكي:

حقيق علينا أن نعرف القضايا التي تناوَلها السكاكي في "مفتاح العلوم" فهي حسب تعبيره علم الصرف وتمامه، وعلم النحو وتمامه، وتمام تمامه [...] من هنا انقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام: الأول علم الصرف والاشتقاق والثاني في علم النحو والثالث في علمي المعاني والبيان وما يكملهما من المعرفة بالحد والاستدلال<sup>(2)</sup>. ولعل المحطة الأولى للدرس الحجاجي تظهر حين يدرج السكاكي المقام في تعريفه لعلمي المعاني والبيان، فيقول: «إذا تحققت أن علم المعاني والبيان هو معرفة خواص تراكيب الكلام ومعرفة صياغات المعاني ليتوصل بها إلى توفية مقامات الكلام حقها بحسب ما يفي به قوة ذكائك، وعندك علم أن مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها وشعبة فردة من دوحتها، علمت أن تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي ومعرفة خواصها مما يلزم صاحب علم المعاني والبيان»<sup>(3)</sup>.

لقد جعل السكاكي الاستدلال بمثابة الشرط اللازم في الكلام ومن شروط صاحب علمي المعاني والبيان وذلك لعظمة الانتفاع بالدليل به كما يقول.

حيث ربط السكاكي علم المعاني والبيان بالاستدلال في توطئة له باحتياج «الكلام إلى تكملة علم المعاني وهي تتبع خواص تراكيب الكلام في الاستدلال ولولا إكمال الحاجة إلى هذا الجزء من علم المعاني

(1) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 209، 210.

(2) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظام المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2004 الطبعة 7، ص: 91.

(3) السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي، مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ص: 543.

وعظم الانتفاع به لما اقتضانا الرأي أن نرخي عنان القلم فيه علمنا بأن من أتقن أصلا واحدا من علم البيان كأصل التشبيه والكناية والاستعارة ووقف على كيفية مساقه لتحصيل المطلوب به أطلعته ذلك على نظم الدليل»<sup>(1)</sup>.

يشترط السكاكي في المتكلم - لئوفي حق كل مقام مقاله - أن يكون عالما بالبيان والمعاني خاصة إذا كان المقام مقام استدلال فعليه نظم الدليل ليتمكن قصده في السامع كتمكنه في نفسه، وهذا للعلاقة القائمة بين الخطاب والقصد منه وعلاقة السامع بالدليل، «فخصوصية التركيب تعني الربط بين كلفيته وصورته ووظيفته التخاطبية في هذا المقام أو ذاك، لذلك اعتبر السكاكي العلاقة بين التركيب والقصد منه بمثابة علاقة ملزوم ولازم يجري فيها قصد المتكلم الذي يضع عليه دليلا في التركيب مجرى اللازم عن التركيب»<sup>(2)</sup>.

وما التحام العلوم الثلاثة علم الصرف وعلم النحو وعلم المعاني والبيان إلا لجعل الخطاب ناجعا مقصودا وهادفا إذن العلوم التي يتناولها مفتاح السكاكي هي علوم الخطاب، أما ما يتوخاه منه فهو ضبط قوانين هذا الخطاب، « فالأولى تتوخى ضبط نظام الخطاب والثانية تروم ضبط معناه، ولما كان نظام معنى الخطاب هو ذاته نظام العقل، أو على الأقل يؤسسه نظام العقل، أمكن القول إن الإشكالية البيانية التي كانت من قبل تطرح من خلال الزوج اللفظ/ المعنى قد تحولت مع السكاكي إلى إشكالية تطرح من خلال الزوج نظام الخطاب/ نظام العقل، وبالتالي فالبلاغة التي كانت تقوم من قبل على نشدان التوافق بين اللفظ والمعنى ستصبح مع السكاكي كامنة في تحقيق التوافق بين نظام الخطاب ونظام العقل»<sup>(3)</sup>.

ولربط ما جاء به السكاكي بالدرس التداولي الحجاجي نظم الدليل، أي أن المتكلم حين تكون له نية التأثير في السامع عليه نظم الحجة والدليل في خطابه، ولهذا كان مفتاح السكاكي على علاقة بالحجاج، وما نظم الدليل إلا ما يقصده المحاجج من وضع حجة في كلامه ليقنع بها السامع. «ويبدو أن السكاكي يميز كذلك بين مقتضى الحال ومقام الكلام، وهو تمييز لطيف دقيق، فالظاهر من منطوق نصّه أن مقام الكلام عنده هو الأغراض التي يساق لها الكلام سواء أكانت أعمالا قولية كبرى كالتشكر، والشكابة والتعزية، أم أعمال تأثير بالقول كالترغيب والترهيب»<sup>(4)</sup>.

وموضوع علم المعاني إذن «هو خواص تراكيب الكلام العربي المبين وهي خواص مهمتها جعل الكلام مطابقا للحال: حال السامع، وذلك تطبيقا لمبدأ لكل مقام مقال، فلمقام التوكيد مقال أي نوع خاص من التركيب، ولمقام مجرد الإخبار مقال [...] ومقامات الكلام كثيرة متفاوتة: فإلى جانب مقام الشكر ومقام

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 544.

(2) شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، دار المعرفة والنشر بجامعة منوبة، تونس، الطبعة 1، 2006، ص: 100.

(3) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 92.

(4) شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، ص: 101.

الشكايه ومقام التهنته ومقام المدح ومقام الذم ومقام الترغيب ومقام الترهيب ومقام الجد ومقام الهزل...الخ، هناك مقام الكلام الذي يأتي ابتداء أي قصد الإخبار فقط ومقام الكلام الذي يأتي جوابا على استخبار أو ردا لإنكار أو جوابا لسؤال<sup>(1)</sup>.

يقول السكاكي في هذا: «لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة فمقام التشكر يباين مقام الشكايه ومقام التهنته يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ومقام الجد يباين مقام الهزل»<sup>(2)</sup>.

اختلاف المقام يعني اختلاف الخطاب من جهة، وقيمة المقام في التمييز بين نوعية التخاطب من جهة أخرى من شأنه أن يساعد الباحث في اكتشاف العلاقة بين المحاجج والمجاج وذلك بالنظر إلى المقام والمتكلم هل شكره أم ذمه، هنأه أم أهانه رغبه أم رهبه، وما دام الحجاج طبيعة في كل خطاب فهو أيضا مختلف من خطاب لآخر وكل خطاب له طريقة حجاج حسب مقامه.

وما نخلص إليه هو أن إنتاج الخطاب يُراعى فيه المقام واستعمال الحجج الناجحة ويُراعى لنجاحها حال السامع والمقام.

والمصطلح الحجاجي الذي يمكن رصده في أقوال السكاكي وإدراجه ضمن البحث والدرس الحجاجي، هو الكلام الاستدلالي، ونظم الدليل، والقصد ومراعاة حال المتكلم والسامع والمقام.

وقد ذكر السكاكي ما يتعلق بالمتخاطبين، ومحيط التخاطب القائم بينهما ونسوق هنا المثال الذي ورد في كتابه ليوضح به صياغة الخطاب مراعاة لحال المخاطب وهو مثال يتعلق بالتوكيد، فيقول: «فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده من مؤكدات القول وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحليته بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة [...] ومن المعلوم أن حكم العقل حال إطلاق اللسان هو أن يفرغ المتكلم في قالب الإفادة ما ينطق به تحاشيا عن وصمة اللاغية، فإذا اندفع في الكلام مخبرا لزم أن يكون قصده في حكمه بالمسند للمسند إليه في خبره ذاك إفادته للمخاطب»<sup>(3)</sup>.

والخبر عنده أنواع طلي وإنكاري... وهذا الأخير يلزمه توكيد ومثاله: «إني صادق لمن ينكر صدقك إنكاراً، وإني لصادق لمن يبالغ في إنكار صدقك، والله إني لصادق»<sup>(4)</sup>. بالنظر إلى سياق التخاطب والمقام نجد: المثال الأول المخاطب بصدد إخبار والمثال الثاني نفي للشك أو تردد حصل لدى المخاطب، أما المثال الثالث فهو رد لأن المخاطب ينكر صدقك، ويمكن صياغة مقتضيات الحال بالنسبة للأمثلة:

(1) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 96.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 256.

(3) نفسه، ص: 257، 258.

(4) نفسه، ص: 258، 259.



- 1- إذا كان القول مجردا من التوكيد فتيقن أن المخاطب خالي الذهن من الحكم والمقام مقام إخبار على الابتداء.
- 2- إذا أكد القول توكيدا ضعيفا فاعلم أن المخاطب متردد في الحكم والمقام مقام نفي للشك.
- 3- إذا أكد القول توكيدا قويا فاعلم أن المخاطب معاند للحكم والمقام مقام رد على إنكار.

يتضح أنّ علم المعاني يدرس ضروب الاستدلال المتولدة عن علاقة القول بدلالته الوضعية بمقتضى الحال في مقام من المقامات<sup>(1)</sup>. ويقول في علم المعاني: «أن مساق الحديث يستدعي تمهيدا وهو أن مقتضى الحال يتفاوت [...] فتارة تقتضي ما لا يفتقر في تأديته إلى مزيد من دلالات وضعية ألفاظ كيف كانت [...] وأخرى تقتضي ما تفتقر في تأديته إلى مزيد»<sup>(2)</sup>. ويقول أيضا: «واعلم أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره»<sup>(3)</sup>.

ويتضح من قول السكاكي "أن الحجاج يمكن وصفه من المتكلم، كما رأينا أهو يحاجج من أجل إثبات قضية؟ أو هو يحاجج من أجل نفيها هذا مع مراعاة حال السامع ومقامه أهو مساند أي جاهل لما يسمعه ويتلقاه أم رافض أم منكر.

ويظهر البحث الحجاجي أكثر عند السكاكي في تعريفه للبيان بقوله: «وأما علم البيان فهو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه»<sup>(4)</sup>، «وموضوعات أو أبواب علم البيان ثلاثة رئيسية: التشبيه ومنه التمثيل، والحجاز ومنه الاستعارة والكناية، ولكل أنواع وأقسام»<sup>(5)</sup>.

ما يمكنه القول أن لأبواب البيان وظائف حجاجية منها حجاجية التشبيه وحجاجية الاستعارة وحجاجية الكناية، ومصطلح المستدل عند السكاكي هو ما يقابل المحاجج في البحث الحجاجي. من هنا يجعل السكاكي المتكلم / المحاجج / الذي يتقن أحد أبواب البيان يبلغ مقصده من الخطاب ويحقق هدفه وبهذا تحصل الفائدة؛ بحيث تؤدي أقسام البيان التشبيه، الاستعارة والكناية وظائف حجاجية،

(1) ينظر، شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، ص: 104، 105.

(2) السكاكي، المفتاح، ص: 250.

(3) نفسه، ص: 247.

(4) نفسه، ص: 249.

(5) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 98.

وذلك يجعلها أساليب يعتمد عليها في إقناع المخاطب، ولنبيين أن الحجاج يظهر في البيان، نسوق الأمثلة الآتية:

- 1- زيدٌ كريمٌ.
- 2- زيدٌ سخِيٌّ.
- 3- زيدٌ كالبحرِ.
- 4- استضافنا البحرُ {وأنت تقصدُ زيداً}.
- 5- زيدٌ كثير الرماد<sup>(1)</sup>.

تحمل لفظة كُريمٌ "وسخي" في المثال الأول والثاني معنى واحدا ودلالة واحدة لكلمتين، أما المثال الثالث فهو أخفى منهما، لأن دلالته على الكرم مستفادة مما يكون بين زيد والبحر من علاقة ضمنية، وتمكننا ثقافيا على الأقل من أن نرى سخاء زيد كسخاء البحر ووجه الشبه هذا عقلي، يستخلص بالاستدلال.

وعلى الرغم من هذا الجانب الضمني المميز للتشبيه غير التام فإن المثال الثالث أقل خفاء من المثال الرابع، إذا قصدت بالبحر زيدا الكريم، وذلك لأن الاستعارة تتطلب استدلالات مقالیه ومقامیه أقوى بحكم إنبنائها على تشبيه سابق.

وهذه الآلية الاستدلالية نفسها تمكننا من أن نكتسب مفهوم سخاء زيد من القول الخامس وهي تمثل علاقات استدلالية كثيرة نكتشف بها علاقات ضمنية فينتقل من كثرة الرماد إلى كثرة إحراق الحطب فكثرة الطبايح، فكثرة الطاعمين، فكون زيد مقصودا وكونه مضييفا فكونه كريما<sup>(2)</sup>.

كل ما سبق الكلام عنه: علم المعاني وعلم البيان يرتبط بالدرس الحجاجي التداولي الجديد والخطاب وهذا يظهر في «أن البيان علم يهتم بمطابقة الكلام للمراد منه، بينما يهتم علم المعاني بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، وبعبارة أخرى أنه إذا كان علم المعاني يهتم أساسا بالموقف الخارجي: المقام، وبالتالي يجعل السامع مركز اهتمامه، فإن علم البيان يهتم أساسا بالموقف الداخلي أو المراد، وبالتالي يجعل قصد المتكلم مركز اهتمامه [...] أمكن القول إن علم المعاني يعنى أساسا بشروط إنتاج الخطاب بينما يعنى علم البيان أساسا بقوانين تفسير الخطاب»<sup>(3)</sup>.

(1) شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، ص: 106.

(2) ينظر، نفسه، ص: 106، 107.

(3) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 97.

أما ما يعتبر درسا حجاجيا بامتياز وبمحا راقيا في قوانين الخطاب فهي التكملة التي عقدها السكاكي بعنوان الحد والاستدلال، وهو مبحث يخص المنطق، وهي تكملة لعلمي المعاني والبيان، يخصصها لتحليل خواص تراكيب الكلام في الاستدلال.

ويريد السكاكي أن يبين مسألة أساسية واحدة وهي أن آليات التفكير عند ممارسة القياس المنطقي هي نفسها آليات التفكير عند ممارسة أي أسلوب من أساليب البيان<sup>(1)</sup>.

وحقيقة الاستدلال عند السكاكي أن يستلزم شيء شيئا آخر إما بالنفي أو بالإثبات، ويظهر هذا في حديثه عن أنواع الدلالات «لا شبهة في أن اللفظة متى كانت موضوعا لمفهوم أمكن أن تدل عليه من غير زيادة ولا نقصان بحكم الوضع، وتسمى هذه الدلالة المطابقة ودلالة وضعية، ومتى كان لمفهومها ذلك ولنسمه أصليا، تعلق بمفهوم آخر أمكن أن تدل عليه بوساطة ذلك التعلق بحكم العقل كالسقف مثلا في مفهوم البيت ويسمى هذا دلالة التضمن ودلالة عقلية أيضا أو خارجا عنه كالحائط من مفهوم السقف وتسمى هذه دلالة الالتزام»<sup>(2)</sup>.

وتعدّ الدلالة الالتزامية من أوضح الدلالات وأقربها إلى الحجاج بالنظر إلى القياس ومقارنته بصفة الانتقال في الجاز، مثلا من الملزوم إلى اللازم ومن اللازم إلى الملزوم «كما تقول رعينا غيثا والمراد لازمه وهو النبت [...] وإما نحو قولك أمطرت السماء نباتا أي غيثا من المجازات المنتقل فيها عن اللازم إلى الملزوم، فمنخرط في سلك رعينا الغيث [...] وإن الكناية ينتقل فيها من اللازم إلى الملزوم كما تقول فلان طويل النجاد والمراد طول القامة»<sup>(3)</sup>. ويشترط السكاكي أن يكون السامع عالما بها - بضروب البيان وأنواع الدلالات - «فالسامع إن كان عالما بكونها موضوعا لتلك المفهومات كان فهمه منها كفهمة من تلك من غير تفاوت في الوضوح وإلا لم يفهم شيئا أصلا»<sup>(4)</sup>.

نستنتج من كل هذا أن السكاكي يجعل البيان وسيلة للاستدلال، وأن الأساليب البيانية ذات طبيعة حجاجية استدلالية، إذ يعدّ الصورة البيانية مقدمة كبرى تؤدي في نهاية الأمر إلى استنتاج<sup>(5)</sup>.

ويفرق جميل عبد المجيد بين استدلال السكاكي أي الاستدلال الذي يقيمه البيان والاستدلال الذي يقيمه المنطق. «فإن الأخير ينطلق من مقدمة كبرى وهي من قبيل الحقائق أو الوقائع أو المسلمات أو المرجحات، بينما الصورة البيانية المعدة مقدمة كبرى ليست من هذا القبيل، بل هي من قبيل التخيلات التي

(1) ينظر، محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 99.

(2) السكاكي، المفتاح، ص: 437.

(3) نفسه، ص: 438.

(4) نفسه، ص: 437.

(5) ينظر، جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص: 167.

من شأنها عدم التقييد لواقع أو حقيقة، وعلى هذا يختلف الاستنتاج في كلا الاستدلاليين، فهو في الاستدلال المنطقي استنتاج صريح، بينما هو في الاستدلال البياني استنتاج متخيل<sup>(1)</sup>.

لكن الاستدلال سواء بالتصريح أم بالصورة البيانية هدفه الإقناع والنتيجة واحدة ويكمن الاختلاف فقط في طريقة الاستدلال، وهذا لا يعني أن تغير النتيجة لدى المتلقي.

فإذا نظرنا إلى هدف المخاطب وهو أعلم بالسامع فإنَّ اتخذ الاستدلال بالمنطق والتصريح ورآه ناجحا ناجعا أخذ به، وإن كان عكس ذلك اتخذ غير ذلك سبيلا لإقناع سامعه بالصورة البيانية.

ويبدو أن خصائص الخطاب الاستدلالي المنطقي، لا تتعلق بأساس العملية الاستدلالية وبنيتها اللزومية، بل تتصل بإمكان التصريح بمكونات الاستدلال أو الكناية عنها وهو أمر تستوجبه مقتضيات الأحوال<sup>(2)</sup>.

والواضح أن ما أراده السكاكي ليس إقحام المنطق اليوناني في البلاغة العربية، بل أراد أن يبين كيف أن الأساليب البيانية العربية والأساليب الاستدلالية المنطقية تلتقي عند نهاية التحليل، عند آلية واحدة هي اللزوم. وما يهمننا في هذا المقام ماثلة السكاكي<sup>3</sup> بين الاستدلال المنطقي وأساليب البيان العربي وإرجاعها معا إلى آلية واحدة هي اللزوم<sup>(3)</sup>.

وهذا يفتح الباب أمام الباحث الذي يسعى لتحديد الآليات الحجاجية الماثلة في طرق تعبير العربية بمعنى التي تظهر في الخطاب العربي، وتلك هي السمة البارزة التي تظهر في الخطاب العربي حجاجيته.

ولقد جعل السكاكي<sup>4</sup> علم المعاني والبيان تكميلا لعلم النحو، ثم إن علم المعاني والبيان يقوم عنده على علم الحد والاستدلال، كما يظهر هذا في المخطط الآتي:

#### النحو → المعاني والبيان → الحد والاستدلال

ويتبين من هذا المخطط أن السكاكي<sup>4</sup> جعل النحو والاستدلال -على حد سواء- في خدمة طرف ثالث موجود بينهما هو علم المعاني مكملا بعلم البيان<sup>(4)</sup>.

ويحلل محمد العمري<sup>5</sup> قول السكاكي<sup>4</sup> في تعريفه لعلمي المعاني والبيان فخصائص التركيب ترتبط بعلم المعاني وأنواع التشبيه ترتبط بعلم البيان، إذن المعاني والبيان يرتبط به علم النحو من جهة وعلم الحد والاستدلال من جهة أخرى:

(1) جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص: 167، 168.

(2) ينظر، شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، ص: 122.

(3) ينظر، محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 101.

(4) ينظر، محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 483.

### النحو ← علم المعاني والبيان ← علم الحد والاستدلال»<sup>(1)</sup>.

وما نخلص إليه هو أن السكاكي قدّم بحثاً في الحجاج تحت مصطلح الاستدلال ونلمس تنبيه السكاكي لأهمية هذا العلم حيث جعله لازماً لصاحب علم المعاني وعلم البيان، من هذا المنطلق نستشف علاقة الحجاج بالبيان والمعاني والنحو.

فالبيان يقع عند السكاكي «في منطقة ما بين الشعر والمنطق، بين وظيفة التخييل ووظيفة المعرفة والاستدلال، أما المعاني فتقع بين النحو والمنطق، مجالها التطبيقي المثالي الخطاب الإقناعي المرتبط بمقامات ملموسة محددة تساهم في تشكيل الخطاب»<sup>(2)</sup>.

ويساوي السكاكي بين الأدب والخطاب السليم الناجع، حيث يرى محمد العمري أن لكتاب السكاكي بعداً معيارياً يعدّه الأساس في إنتاج النصوص على وجه:  
الصواب: ملائمة قواعد اللغة العربية في النحو والصرف.

النّجاعة: في مناسبة المقام والأحوال والتصرف في المعاني حسب المقاصد<sup>(3)</sup>.

ويعدّ هذا تصوراً مبكراً لما يسمى حالياً بعلم النص في نظر محمد العمري<sup>(4)</sup>.

وبعد هذه الدراسة المتواضعة في «مفتاح العلوم» يبرز أن الحجاج انطلق من فكرة «مقتضى الحال» ولكل مقام مقال مروراً بعلاقته مع علم المعاني والبيان والنحو والمنطق، وصولاً إلى علم الحد والاستدلال. فكلمة الاستدلال فيها ما يكفي لترتبط من جهة بالحجاج ولتدل من جهة أخرى عن تناول البلاغيين العرب القدامى البحث الحجاجي، بحثاً في الخطاب بصفة عامة وفي الخطاب الحجاجي بصفة خاصة، ودليلنا في ذلك التكملة التي أفردها السكاكي بعنوان «تكملة في الحد والاستدلال»، إضافة إلى ما قدّمه فيما يخص المتكلم والسامع وما يتعلق بالخطاب من شروط الصواب والنجاعة والقصد والمقام، فهذه العناصر بتكاملها تشكل بحثاً في الخطاب الحجاجي من جانب أنّها عناصره.

### 3- الحجاج عند علماء الأصول؛

رأينا إرهابات البحث الحجاجي في البلاغة العربية القديمة مع الجاحظ والسكاكي، وسنركز هنا على اهتمام علماء الأصول بالحجاج، هذا الجانب لا يمكن إغفاله؛ لأنه منبع كل ما هو لغوي.

(1) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 484.

(2) نفسه، ص: 489.

(3) ينظر، نفسه، ص: 482.

(4) نفسه، ص: 481.

اهتم علماء الأصول بالخطاب الشرعي وهو عندهم «إما خطاب الله وإما خطاب الرسول ﷺ، وإما خطاب الأمة / الإجماع/ واهتموا بمقاصد الشريعة / أهدافها/ وهي مقاصد الخطاب، وربطوا الأحكام بمقاصدها»<sup>(1)</sup>.

ما يتضح من هذا أنّ الأصوليين توصلوا لأنواع من الخطاب وهي: الخطاب القرآني، خطاب الأمة، خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ثم ذهبوا لمقصد كل خطاب أي الهدف منه، لكن الذي يشغلهم هو الخطاب القرآني، كل هذا يرتبط من وجهة نظر تداولية بهدف العملية الحجاجية، وإذا ما عرفنا مقصد كل خطاب فنحن أمام سؤال هو: ماذا يريد المتكلم من إنشاء كلام؟ وإلى ما يرمي؟ ويظهر هذا الوجه أكثر حين يذكرون تعريفا للخطاب القرآني: «القرآن الكريم الذي يخاطب به البشر لإقناعهم بالتخلي عن معتقداتهم والإيمان بالمعتقد الجديد، وقد تعددت مظاهر هذا الإقناع في القرآن، ويمكن اعتبار القرآن خطابا حجاجيا نظرا لكونه جاء ردا على خطابات/ علنية كانت أم ضمنية/ فهو يطرح أمرا أساسيا يتمثل في الإيمان بالله الواحد الأحد»<sup>(2)</sup>.

قد بات واضحا أنّ بدايات الاهتمام بالحجاج كان عبر مراحل في الدرس الأصولي أولها التوصل لأنواع من الخطاب، وثانيها مقصد وهدف كل خطاب، وثالثها تعريفهم للخطاب القرآني ووصفه بالخطاب الحجاجي لكونه يمثل رد، هذا من جانب.

وجانب آخر، فإن عمل الأصولي هو: استنباط الحكم الشرعي من النصوص ويستلزم هذا الحكم دليلا عليه للعمل به والتقييد بمضامينه؛ أي حجة ذلك الحكم ليحمل السامع على المقصود بما في ذلك الحكم الشرعي، ولقد راعوا في ذلك ما يتعلق «بالسامع والقارئ في عملية دراسة الخطاب الشرعي، وشرحا عملية استنباط الحكم له، ويقسمون الخطاب باعتبار السامع إلى واضح في معناه، وقسم غامض أو خفي ومن حيث الوضوح يقسم الخطاب إلى نص وظاهر»<sup>(3)</sup>.

يلحظ الباحث اللساني أن هذا التقسيم للنص إنما هو تقسيم يلاءم وتقسيم أنماط النصوص المعروفة من نص حجاجي إلى تفسيري إلى حوارية وسردية ...

أما تقسيمه باعتبار السامع فهو يناسب المقولة العربية الشهيرة لكل مقام مقال، ولم يقف البحث الأصولي على دراسة الخطاب الشرعي من حيث حقيقته وموضوعه، «بل إنهم يدرسون العناصر السياقية

(1) خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق - مثل من صورة البقرة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، الطبعة 1، 2008، ص: 113.

(2) الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم سورة النمل نموذجاً، مجلة اللغة والأدب ملتقى علم النص، العدد: 12، ديسمبر 1997، جامعة الجزائر، ص: 332.

(3) ينظر، خلود العموش، الخطاب القرآني، ص: 115.

والمقامية للخطاب، لأن الألفاظ لا تثبت على معانيها التي وضعت لها، إذ للمتكلم الحق في أن يستعمل هذه الألفاظ فيما وضعت له وأن يستعملها وفق أساليب اللغة وقوانينها المعروفة للسامع والمتكلم»<sup>(1)</sup>.

بهذا الطرح تكون المسائل الأصولية ذات طبيعة حجاجية استدلالية تفسيرية لأنها تستنبط الحكم وتثبت الدليل على ذلك، «ومن طريف ما أتوا به، أنهم قابلوا بين القياس التمثيلي في أصنافه ومبادئه وبين الاستدلال البرهاني والصوري في ضروبه وقوانينه، وخلصوا بعد تقليب النظر فيهما إلى وجوب الأخذ بقياس التمثيل في تحليل الخطاب الطبيعي، الذي يمثل في أجلى مظاهره المصدران الإسلاميان القرآن الكريم والحديث الشريف. وذلك لما ينطوي عليه هذا الخطاب من خصوصيات تعبيرية ومميزات مضمونية تقصر عن أدائها إمكانات البرهان الصوري»<sup>(2)</sup>.

ولئن كان الأصوليون يرتكزون في الأساس على تحليل مكونات الخطاب الشرعي، وعلى البحث في علاقته بالسامع، ومراعاة المقام وسبب النزول؛ فإنهم بطريقة ما أثروا البلاغة بدرسه هذا وهو ما يثبته الدرس اللغوي المعاصر، وخاصة في تحليل الخطاب. فالقياس التمثيلي وأصنافه ومقابله بالاستدلال البرهاني والصوري والأخذ بقياس التمثيل تعد ممارسة عقلية إقناعية حجاجية تتزاحج بين النزعة الدينية والنزعة العقلية العلمية اللسانية الأدبية.

وأما اهتمامهم بالسامع، فقد وجدوا «أن المخاطب يتنوع في الخطاب، وتنوع الأحكام تبعاً لنوعه»<sup>(3)</sup>. ذلك التنوع هو ما يفسر تنوع الخطاب، لأن كل مخاطب له خطاب معين وحجج وطريقة استدلال دون غيرها تناسبه، ليسلك مراد الشارع من الخطاب الشرعي، وهو هدف الخطاب بعامة وعلى ذكر الهدف من الخطاب، فقد اهتم علماء الأصول به، فإذا عُرف مراد المتكلم بدليل من الأدلة وجب إتباع مراده.

ويذكر ابن القيم طرق الاستدلال لبلوغ هدف الخطاب أو مقصده فيقول: «والألفاظ لا تقصد لذواتها، وإنما يستدل بها على مراد المتكلم، فإذا ظهر مراده ووضح بأي طريق كان، عمل بمقتضاه، سواء كان بإشارة أو كتابة، أو بأمانة أو دلالة عقلية أو قرينة حالية أو عادة له مطردة لا يخلّ بها»<sup>(4)</sup>.

(1) خلود العموش، الخطاب القرآني، ص: 115، 116.

(2) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان والتكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الرباط - المغرب، الطبعة 1، 1998، ص: 285.

(3) خلود العموش، الخطاب القرآني، ص: 122.

(4) شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، الجزء 01، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الجديدة 2003، ص: 173.

فالهدف أن تحمل المتلقي على الخطاب بإقناعه بما في الخطاب الشرعي وباستنباط الحكم منه، كل هذا يقع تحت سلطة القول وتأثير الخطاب. وبصفة عامة إن أبرز آثار الحجاج عند الأصوليين نجدها في أبحاثهم المتعلقة بهدف الخطاب ومقصده.

ولنستدل على أن علماء الأصول قد أفاضوا في البحث الحجاجي، باعتبارها جميعا تشكل ركائز أساسية لوجود التخاطب، «بل يتجاوزون تلك الدراسات إلى دراسات أخرى تتعلق بما يحيط الخطاب من قضايا دينية وثقافية، وقيم أخلاقية»<sup>(1)</sup>.

ومن هنا نرى أن علماء الأصول قد فرقوا بين دلالة العبارة ودلالة الإشارة ودلالة النص ودلالة الاقتضاء، وهي طرق دلالة النصوص على المعاني والأحكام الشرعية<sup>(2)</sup>. ومنهم من حدد النص؛ فالذي لا يقبل التأويل أي الذي له دلالة قطعية أطلقوا عليه مصطلح النص، أما الذي يحتمل التأويل إذا توفر دليل يعضد هذا الاحتمال فهو الظاهر.

إذن «فالنص ذو الدلالة القطعية يمثل الحقيقة والظاهر ما يحتمل التأويل، وهو يمثل مجاز النص»<sup>(3)</sup>. وهذا ما ينطبق بما هو موجود في البلاغة العربية، فالاستدلال المنطقي يرتبط بالنص ذو الدلالة القطعية، أما الاستدلال التخيلي (الاستعارة) فيرتبط بالنص الظاهر ذو الدلالة التأويلية.

وقد تحققت بعض خصائص الحجاج من هذه الدراسات الأصولية، بل أصبح يتخذ منها وسائل كالمقياس، والتأويل...

ويرى حسين خمري أن عمل الأصوليين التنظيري الذي بدأ مع الشافعي، قد سبق بكثير الممارسات النظرية التي تمت في حقل النص، وقد فصلوا في كل نوع من أنواع التصوص، وهذا العمل كان هدفه توفير الأدوات التحليلية لعلماء التفسير والفقهاء وعلماء الكلام وأصحاب الشرع لفهم النص القرآني.

قد تعرض الأصوليون إلى تداولية الخطاب وأن المعنى يتحدد بالمتكلم، إذ نلاحظ أن البحث الأصولي فرق بين الدلالة الحقيقية والدلالة المجازية للغة، وعلى هذا التمييز صنفوا النص إلى ظاهر ونص. والمصطلحات: نص، ظاهر، تأويل، دليل، مخاطب، دلالة، سياق، وجل المباحث الأصولية بعامه، تمثل إرهابات لبحث لغوي ألا وهو البحث الحجاجي، ويمكن رصد العلاقات القائمة بين الخطاب الشرعي والحجاج وما يُقدّم اليوم من بحوث الحجاج في القرآن الكريم، والهدف من الخطاب في الإطار

(1) خلود العموش، الخطاب القرآني، ص: 12.

(2) ينظر، نفسه، ص: 124.

(3) حسين خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة 1، 2007، ص: 156.



الإقناعي باستخدام وسائل وآليات: القياس، التمثيل، التفسير وهذه الأخيرة تعتبر من ملامح الحجج الأصولي في اللغة<sup>(1)</sup>.

ويمكن القول في فائدة البحث الأصولي إننا «لن نجانب الصواب إن ادعينا أن أوائل الأبحاث في تحليل الخطاب يجب طلبها فيما أفاض فيه الأصوليون من مقدمات في تحديد الدلالات وتصنيفها، وما أفردوه من أبواب في بيان الاستدلالات وطرق التأويل. ولن نزداد بعدا عن الصواب إن قلنا بأن في أبحاث الأصوليين ما يمكن أن نستفيد منه من إنشاء نظرية صالحة لمقاربة أنواع الخطاب الطبيعي وينهض دليلا على ذلك ما أثبتوه في باب الاقتضاء والمفهوم من قواعد خطابية تفاجئنا بمضاهاتها لما يعرض اليوم في سياق نظريات التخاطب المعاصرة وكأنه فتح علمي جديد»<sup>(2)</sup>.

ولو وصفنا ما وصل إليه البحث الأصولي في بناء نظرية حجاجية استدلالية لمختلف الخطابات، لقلنا بأنه يمثل حجر الزاوية للأبحاث اللسانية اليوم؛ لأن الوسائل الخطابية الاستدلالية التي توصل إليها البحث الأصولي يُعتمد عليها في فهم كنه الخطاب الحجاجي والنظرية الحجاجية وتأسيس أبعادها وتحديد نياتها ومبادئها التداولية، وفي هذا كله تتضافر جهود اللسانيين والبلاغيين والمناطقة والفلاسفة.

#### أ- عند المفسرين:

كان اهتمامهم مُنصبا على النص القرآني، وذلك بتفسير آياته وألفاظه وتناسب الآيات مع أسباب التنزيل، وما يمكن ربطه بين جهود المفسرين في بيان آي القرآن وبين الدرس الحجاجي هو أن: «القرآن بوصفه كلاما دالا على ذاته ودالا على مبدعه، يضع نفسه في قلب التواصل اللساني لعملية الكلام في الخطاب القرآني تحتوي على عناصر التواصل الثلاثة: المتكلم، الخطاب، المستمع، وهو يتضمن دلالة الكلام على منشئه، دلالة الكلام على ذاته، ودلالة الكلام على متلقيه مع الأخذ بعين الاعتبار جلال المرسل في الخطاب القرآني»<sup>(3)</sup>.

يمكن القول إن عمل المفسر يقوم على البيان وهو عمل يجنب إلى اختيار الحجج والبراهين المبيّنة لذاك النص، وتقوم على منطق العقل الذي وظيفته الإقناع، لأن المتلقي قد لا يعي النص القرآني من الوهلة الأولى لكن المفسر يبسطه بطريقة حجاجية تحمل ذاك المتلقي على التقيد بما ورد فيه أو العمل به.

(1) ينظر، حسين خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، ص: 158 وما بعدها.

(2) طه عبد الرحمان، اللسان والميزان والتكوثر العقلي، ص: 292.

(3) خلود العموش، الخطاب القرآني، ص: 145.

ومن المباحث التي اهتم بها المفسرون والتي يمكن القول عنها بأنها حجاجية، تناسب الآيات وأسباب النزول، هذا ما يطابق في البلاغة العربية القديمة لكل مقام مقال، وهو ما يطابق - أيضا - في اللسانيات مناسبة خطاب المتكلم لموقف المستمع.

والهدف المرجو من هذه العملية إقناع المتلقي على ما ورد في النص القرآني من جهة، ومن جهة أخرى ذكر سبب التنزيل وهو المقام؛ إذ يتحكم هذا الأخير في عمليتي إنتاج الخطاب وتلقيه، مع مراعاة حال المتلقي والظروف المحيطة.

لهذا «يُرَاعَى المفسرون عند الكلام عن شروط المفسر ضرورة إلمامه بالظروف المحيطة بالنص عند تفسيره من أثر تعميم الدلالة أو الحكم الشرعي أو تخصيصها فبيان سبب النزول مثلا طريقة إلى فهم معاني الكتاب العزيز»<sup>(1)</sup>.

وفي هذا اهتمام بالسياق، حيث «يتمثل السياق لدى المفسرين في نسق الآيات وما يصل بينها من روابط كالعطف والمضادة التي تظهر في ذكر الرحمة بعد العذاب أو الرغبة بعد الرهبة، أو حسن التخلص وهو الانتقال من مقام إلى آخر من غير الشعور بالانقطاع وترتيب الآيات»<sup>(2)</sup>.

وما مراعاة هذه العناصر المكونة للخطاب من جهة وللحجاج من جهة أخرى إلا للوقوف عند أبعاد النص القرآني وتفسير آياته.

وقد اعتمد المفسرون على بعض الآليات في تفسيرهم، يمكن اعتبارها آليات ووسائل حجاجية، نذكر منها الاستشهاد بالشعر «بما أنّ النص الشعري الذي يعتبر ديوان العرب قد زحزح عن مكانه، فإن المفسرين لم يتخلوا، عنه بل اتخذوه مصدرا من مصادر لتفسير بعض الكلمات الغريبة، أو لتوضيح بعض الدلالات البعيدة»<sup>(3)</sup>.

ولا يعتمد المفسرون على الشاهد الشعري فحسب، فقد يكون الشاهد من القرآن والحديث، ويعتبر توظيف الشاهد عند المفسرين تأكيدا لمعنى الآية، وهذه بلاغة بيانية انصب اهتمام المفسرين بها لإنتاج خطاب تفسيري هدفه التأثير في السامع، ويرتبط الاستشهاد من ناحية بالبيان والبلاغة، وبالحواسن من ناحية أخرى وهو طريقة أو آلية حجاجية يُؤتى بها لدعم القول.

وبالإضافة إلى هذه الأبحاث السابقة أو الاستعمالات الحجاجية التي تعد بحق أمثالا حجاجية لدى المفسرين، وضعوا بعض المسائل تحت المعالجة يمكن النظر إليها من زاوية حجاجية، كمراعاة السياق الذي سيق له الكلام ومعرفة القرائن بنوعها المعنوية والحالية والعلم بأحوال البشر.

(1) خلود العموش، الخطاب القرآني، ص: 128.

(2) نفسه، ص: 129.

(3) حسين حمري، نظرية النص، ص: 186.

ومن هذا فقد وعى المفسرون مسألة ارتباط الآي، ومجثوا في أنواع المناسبة والعلاقات القائمة بين الآيات والسور، واجتهدوا في إبراز اتساق النص القرآني وانسجامه، كما اهتموا بالخطاب من جميع جوانبه، والنص، وسياق الحال.

وتجدر الإشارة إلى أنّ المباحث التي اعتمد عليها المفسرون -كما رأينا- هي أبحاث كان لها الفضل في تطوير نظرية الحجاج إلى جانب غيرها من المباحث اللسانية والبلاغية، وهي مباحث تصب كلها في الحقل الحجاجي.

### ب- عند علماء الكلام:

الحجاج له معان كثيرة تظهر في عدة مجالات واستخدامات، وهو في مجال واستخدام الفلاسفة والمتكلمين أجدل. من هنا وجب أن نورد مفهوم المذهب الكلامي الذي تتجلى به صورة الحجاج عند المتكلمين.

ويعرفه الزركشي بقوله: «هو الاحتجاج على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع له المعاند فيه»<sup>(1)</sup>. وهنا يظهر الحجاج في إفحام المستمع المجادل باستخدام الحجج العقلية. والحجاج يظهر بمعنى الجدال أكثر في تعريف ابن حجة في قوله: «هو أن يأتي البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة قاطعة عقلية، يتضح نسبتها إلى علم الكلام إذ علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدّين بالبراهين العقلية القاطعة»<sup>(2)</sup>. من هذا نخلص إلى أن المذهب الكلامي في بعده التواصلية الإقناعية لون من ألوان الحجاج، يعمد فيه المتكلم إلى إلزام خصمه وإقناعه بالحجج والبراهين العقلية، كما يتجسد الارتباط الوثيق بين ماهية المذهب الكلامي والحجاج البلاغي في بعده الخطابية، وهذا يومية بمصادر البلاغة العربية ومنطلقاتها وأبجهاها المختلفة النحوية والخطابية، الحجاجية.

وما يمكن ربطه بين ما قدّم من تعريفات للمذهب الكلامي تتقاطع مع ما يُقدّم اليوم في الدراسات اللسانية الحديثة في حين معنى هذه التعريفات يرتبط ويتوافق مع تعريفات الحجاج في البحث الجديد للنظرية الحجاجية.

(1) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، الجزء الأول والثاني والثالث والرابع، المحقق، مصطفى عبد القادر عطا، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة 01، 2006، ص: 710.

(2) تقي الدين أبي بكر علي (ابن حجة الحموي)، خزنة الأدب وغاية الأرب، شرح: عصام شعيتو، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان، الجزء الأول، الطبعة 01، 1987، ص: 346.

والمغزى من هذه المقارنة «السياق التخاطبي الحوارى الذى تشير إليه بعض التعريفات يُرسخ المذهب الكلامى فى بعده الخطابى المحاجى»<sup>(1)</sup>.

وقد عالج طه عبد الرحمن المنهج الكلامى فى ممارسة المتكلمين فأثبت قضيتين:

- **أولاهما:** الخطاب الكلامى والخطاب الفلسفى التداولى لا يختلفان من حيث شروطهما الاستدلالية الحجاجية.
- **ثانيهما:** علم الكلام يتصف بخصائص تداولية لا تشاركه فيها الفلسفة البرهانية، كما عالج الاستدلال الكلامى فى صورة القياس من زاوية التحليل الخطابى فحدد مسلماته وعملياته وقواعده البيانية<sup>(2)</sup>.

لقد تبلورت لدى المتكلمين بمنهجهم الاستدلالي أولى لبنات الدراسات الحجاجية والنظريات التى تعرف اليوم، لما اتسمت به الدراسات والأبحاث الكلامية من خصائص حجاجية تتقاطع فى كثير من النقاط والبلاغة المعاصرة، حيث تشترك هذه النقاط وتتفاعل فى حقل البلاغة والمنطق والكلام والحجاج.

ويقدم المذهب الكلامى نموذجاً من نماذج عديدة عن هذه التحولات التى عرفتها البلاغة العربية تاريخياً ونظرياً وإجرائياً، فقد اعتُبر من البديع فى معناه العام لدى ابن المعتز<sup>(3)</sup> والعسكري<sup>(4)</sup> وابن رشيق<sup>(5)</sup>. ويمكن تصنيف كل ما تطرق إليه علماء الكلام تأصيلاً للحجاج بامتياز، فقد «برزت أهمية الحجاج خاصة فى البرهنة على الفرضيات الكلامية المتعلقة بكلام الله وقضية خلق القرآن والصفات، حيث بدأ مع تناول هذه القضايا الاهتمام الفعلى بتوظيف الآليات اللغوية والبلاغية والسياقية المقامية من أجل ترجيح قضية على غيرها»<sup>(4)</sup>.

يظهر من هذا أنّ حاجة المتكلمين للحجاج وآلياته باتت ضرورية، ذلك أن «الحاجة إليه والاهتمام به قد برزا بشكل جليّ فى فترة الاهتمامات الكلامية عندما صار التسلّح بالوسائل الحجاجية البلاغية اللغوية أمراً ضرورياً للدفاع ضدّ مزاعم المشبهين والمتناولين للمتشابه من القرآن الكريم من جهة وللمقارعة الفرضيات المضادة التى يقدمها الخصوم من جهة ثانية»<sup>(5)</sup>.

(1) شكري المبخوت، الاستدلال البلاغى، ص: 178.

(2) ينظر، طه عبد الرحمن، فى أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافى العربى، الرياض - المغرب، الطبعة 02، 2000، ص: 31.

(3) ينظر، شكري المبخوت، الاستدلال البلاغى، ص: 170.

(4) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج فى البلاغة المعاصرة، ص: 261.

(5) نفسه، ص: 216.

وما يهمنا هنا هو كيف كان علماء الكلام يردون على الطعون في إثبات التنزيه القرآني؟ وكيف كانوا يُدافعون عن النص القرآني؟

«لقد اجتهد المتكلمون والإعجازيون منهم خاصةً في ردّ هذه الطعون في اتجاهين:

- بيان انسجام النص القرآني في ما أمكنهم ذلك.
- إظهار حكمة ما يبدو من اختلاف أو مفارقات.

ويعد كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة أحسن تجسيد لهذا المستوى الذي يمثل انتقالاً من المجاز اللغوي إلى التنزيه الكلامي<sup>(1)</sup>. فنجده «قبل الردّ على الطاعنين في القرآن يقوم أولاً بتصنيف مطاعنهم ثم الردّ عليها بصفة إجمالية من خلال أربعة أبواب: باب الردّ عليهم في أبواب القراءات، باب ما ادّعى على القرآن من اللحن، باب التناقض والاختلاف، باب المتشابه»<sup>(2)</sup>.

وكان ردّ ابن قتيبة مباشراً في أبواب وغير مباشر في آخر. والقضايا التي تناوّلها ابن قتيبة:

- 1- قضايا تتعلق بضبط النص وانسجامه من حيث اختلاف القراءات والإعراب.
- 2- قضايا انسجام النص ما ادّعى من التناقض والاختلاف.
- 3- قضية المتشابه الذي تفرعت عنه فصول تتعلق بالتركيب أو النظم بصفة عامة، المجاز، الاستعارة، الحذف، التكرار<sup>(3)</sup>.

هذه القضايا الثلاث أبحاث كلامية من جهة وبلاغية حجائية من جهة أخرى؛ فإن أولى هذه القضايا كانت لغوية كلامية، والثانية خطابية نصّية قى حين أنّ الثالثة متعلقة بالغموض والإشكال في العبارة، وما يتصل بها من مباحث دلالية ونحوية، كان تناوّلها في الحقيقة من العوامل الرائدة في بلورة البحث البلاغي في وقت مبكر.

ومنه يتحدد أنّ المباحث ذات المنشأ الكلامي أفضت بحق - وهذا هو المهم - في تطوير البحث البلاغي بصفة عامة والحجائي بصفة خاصة، عمداً أو عن غير عمد<sup>(4)</sup>.

وإذا نظرنا إلى مفهوم المذهب الكلامي فهو يعتمد على الاستدلال بالحجج ليصل إلى نتيجة، فمثلاً

في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبْتُوهُ ۗ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ

(1) ينظر، محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 143.

(2) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 261.

(3) ينظر، محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 144، 145.

(4) ينظر، محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 262.

بِذُنُوبِكُمْ<sup>(1)</sup>. والمعنى أتمتعذبون، ولو كنتم أبناء الله لا تعذبون، إذن أنتم لستم بأبنائه<sup>(2)</sup>، يتبين علاقة الحجاج بعلم الكلام في اعتماده على الاستدلال بالحجج للوصول إلى نتائج، وأكثر ما تتجسد أساليب المذهب الكلامي في: المناظرة، الحوار، الجدل، وهذا ما يجعل أصحاب هذا العلم في تفاعل، والأمر نفسه يمنحه صفة الحجاج وقوته، والسبب نفسه يدخله في باب الإقناع، ومن هذه الأساليب: حسن التعليل، والاستقراء، والتمثيل، والقياس، والاستدلال...

وترجع «وظيفة هذه الأساليب في البلاغة العربية إلى التأثير والإقناع، بحيث يمارس المخاطب على المتلقي نوعاً من الضغط يهدف حمله على التصديق بمدلول الخطاب والتسليم به والركون إليه، ويتميز هذا الإقناع بأنه نظري خيالي يقوم على الحجة ويسعى إلى إثبات الرأي بالدليل»<sup>(3)</sup>. من هذا نستطيع القول: إن بعض أشكال الحجاج كان معروفاً حين ارتسمت آلياته ووسائله في ثنايا أبحاث دينية، ثم تجلّى نظرياً في العصر الحديث ساهم في تكوينها المنطق والفلسفة والدين، لاسيّما علم الكلام.

الدليل على هذا الاستنتاج هو التطابق الذي يجمع بين الحجاج والمذهب الكلامي وهذا سبب مقنع يسمح لنا بإنزال المذهب الكلامي في صور حجاجية.

### ج- الحجاج عند ابن وهب:

عالم ابن وهب البيان وذكر له أربعة وجوه في كتابه البرهان في وجوه البيان وهي: باب الإعتبار، باب الاعتقاد، باب العبارة، باب الكتاب؛ إذ يقول: «البيان على أربعة أوجه: فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تُبن بلغاتها، ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكر واللّب، ومنه البيان باللّسان، ومنه البيان بالكتاب الذي يُبلّغ من بعد غاب»<sup>(4)</sup>.

ونذكر هنا البيان باللّسان هذا ما يخص طريقة أهل الكلام المناطقة ويتعلق بالخطاب الشفاهي وأنّ المخاطب حاضر وهذا يتجلى أكثر في المناظرة والجدل والحوار. ومراعاة السامع - حضوره لدى المتكلم أو غيابه - ميزة حجاجية مبثوثة في مباحث كلامية.

(1) سورة المائدة، الآية: 18.

(2) محمد الواسطي، أساليب الحجاج في البلاغة العربية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المعراز، فاس العدد 12، 2001، ص: 32، 33.

(3) محمد الواسطي، أساليب الحجاج في البلاغة العربية، ص: 33.

(4) ابن وهب أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان، البرهان في وجوه البيان، تحقيق حفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، القاهرة، ص: 56.

أما إن اصطَلحنا على أن البيان هو الحجاج، فالأوجه الأربعة أوجه حجاجية بامتياز، وينقسم البيان إلى ظاهر وباطن، أما الظاهر فهو «ما أدرك بالحسّ كتيبنا حرارة النار وبرودة الثلج عند الملاقاة لهما، وما أدرك بفطرة العقل التي تتساوى العقول فيها مثل تبيّننا أن الزوج خلاف الفرد وأنّ الكل أكثر من الجزء»<sup>(1)</sup>.

أما الباطن فهو «ما غاب عن الحسّ واختلفت العقول في إثباته»<sup>(2)</sup>، والظاهر على حد قول ابن وهب لا يحتاج إلى تفسير وتوضيح، وهذا حين توضع الألفاظ في معانيها الحقيقية، وهذا يتطابق مع ما ورد في البلاغة العربية مطابقة مقتضى الكلام، ويقابله في البحث الحجاجي الاستدلال المنطقي الحقيقي. والباطن هو المحتاج إلى تفسير<sup>(3)</sup>، لأنّ اللفظ يخرج عمّا وُضع له من معناه الحقيقي إلى معناه المجازي، وهذا ما يعزز حجاجية الاستعارة والتشبيه وألوان المجاز في البيان لدى البلاغيين العرب، ويقابل هذا في الحجاج الاستدلال التخيلي القائم على حجج غير يقينية. إذن فالبيان هو إقامة الحجة على صحة الخطاب، وهذا ما يؤيد شرعية وصف الخطاب بالحجاجي.

والقياس عند ابن وهب في اللّغة «التمثيل والتشبيه وهما يقعان بين الأشياء في بعض معانيها لا في سائرهما، لأنّه ليس يجوز أن يشبه شيء شيئا في جميع صفاته ويكون غيره. والتشبيه لا يخلو من أنّ يكون تشبيها في حد أو وصف أو اسم»<sup>(4)</sup>، ويؤكد نجاعة القياس في البيان الباطن بقوله: هو «الذي يتّوَصَل إليه بالقياس والتّظن والخبر»<sup>(5)</sup>، وهذا يتقاطع مع الممكن أو المختلف الذي عدّه بيرمان المجال الحقيقي للحجاج<sup>(6)</sup>.

وهذا ما يظهر حقيقةً في كلام ابن وهب عن النتائج المستنبطة من القياس، فالنتائج عنده «ما صدر عن قول مُسَلَّم في العقل لا خلاف عليه، فتكون النتيجة عنه برهاناً، كقولنا: إذا كان الزوج ما رُكِب من عددین مُتساويين فللأربعة زوج، والأخرى ما صدر عن قول مشهور إلّا أنّه مختلف فيه فتكون النتيجة عنه إقناعاً كقولنا: إذا كان حق البارئ عزّ وجلّ واجبا لأنّه علّة وجودنا فقد وجب حق الوالد أيضا علينا. وصحة هذه النتيجة إنّما تقع بالاحتجاج لمقدّماتها حتّى يعترف بها من لا يعترف، ثم تصح، والثانية ما صدر

(1) ابن وهب أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان، البرهان في وجوه البيان، ص: 65.

(2) نفسه، ص: 65.

(3) ينظر، نفسه، ص: 92.

(4) نفسه، ص: 67.

(5) نفسه، ص: 92.

(6) ينظر، جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص: 155.

عن قول كاذب وُضع للمغالطة كقولنا: إنَّ اللصوص يخرجون بالليل للسرقة، ففلان سارق لأنه خرج بالليل وهذا باطل لأنَّ السارق ليس هو سارق من أجل خروجه، ولا كلَّ من خرج بالليل فهو سارق»<sup>(1)</sup>.

يظهر هنا أن «عمل ابن وهب أقرب إلى نظرية معرفية، في حين أن عمل الجاحظ يندرج ضمن النظرية البلاغية، بلاغة الخطابة»<sup>(2)</sup>.

من هذا التعريف نلاحظ توجهها منطقيًا في معالجة البيان الذي يقابل مصطلح الحجاج عند ابن وهب، ففي حين توجه الجاحظ توجهًا بلاغيًا خطابيًا، نجد السكاكي قد توجه توجهًا بلاغيًا، حيث تتضافر التوجهات الثلاثة في خدمة توجه واحد نصطلح عليه بالتوجه الحجاجي. إنَّ «ما نفيده من هذا الاتجاه أنَّ البيان ليس قضية بلاغية فحسب، بل هو قضية منطقيّة أيضًا، وأنَّ حاجة البلاغة إلى المنطق في الخطاب الحجاجي إنتاجًا وتحليلًا حاجة طبيعية وضرورية. ولعل هذا يضفي شرعية على اعتماد الاستدلال أو إقامة الحجة المعقولة ركنًا أساسيًا في دراسة بلاغية عربية منشودة لذلك النوع من الخطاب»<sup>(3)</sup>.

وما نلاحظه أنَّ البيان الفقهي والبيان البلاغي بمختلف ضروبه وبموافقته لمعنى الحجاج في هذا العصر قد نفى أسبقية هذا البحث (الحجاجي) للغرب، وأكد أنَّ للعرب باعًا طويلًا في هذا المضمار وأنَّه منح العديد من الخصائص اللسانية لمصطلح الحجاج، وبالتالي صار للحجاج أساليبه وصوره ومكانته في اللسانيات الحديثة.

والجدير بالذكر هو التقاطع الذي حدث بين البلاغة والحجاج، ويمثله مصطلح البيان عند الجاحظ وعند السكاكي والتقاطع الذي حدث بين الحجاج والبيان في ما أتى به المذهب الكلامي من أساليب وآليات حجاجية، إذ يمكن لحظ هذه العلاقة أكثر في تعريفات المذهب الكلامي كما سبق.

نخلص إلى أنَّ معالجة العرب القدامى في بلاغتهم ودراساتهم للحجاج بمصطلح البيان ظهرت في ثلاثة اتجاهات أساسية:

- الأول: اتجاه أدبي خطابي ويمثله الجاحظ في كتابه: «البيان والتبيين».
- الثاني: اتجاه منطقي فقهي ويمثله ابن وهب في كتابه: «البرهان في وجوه البيان».
- الثالث: اتجاه بلاغي منطقي ويمثله السكاكي في كتابه: «مفتاح العلوم»<sup>(4)</sup>.

(1) ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص: 69.

(2) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 213.

(3) جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص: 157.

(4) ينظر، نفسه، ص: 143.



ويوافق مصطلح الحجاج مصطلح البيان في البلاغة العربية القديمة، ويظهر هذا من خلال وظائف البيان الثلاثة:

- «أولاً: الوظيفة الإخبارية المعرفية التعليمية ويكون المستمع في حالة حياد ويكون إظهار الأمر هنا على وجه الإخبار قصد الإفهام.
- ثانياً: الوظيفة التأثيرية وفي هذه الحالة يكون المستمع في حالة اختلاف مع المتكلم، ويُقدّم الأمر هنا على وجه الاستمالة.
- ثالثاً: الوظيفة الحجاجية وحالة المتكلم مع المستمع هنا حالة خصام ويظهر الأمر هنا على وجه الاحتجاج والاضطرار، وهو الإكراه إلى حد ما. وهذه الوظائف كلّها ضروب من الحجاج»<sup>(1)</sup>.

لعل الأبحاث التي تتفاعل في حقل المذهب الكلامي ودورها الإيجابي، خاصة الأساليب الإقناعية التي تتقاطع لغوياً مع الحجاج اللساني والبلاغة، قد سمت بالواقع الحجاجي الحديث وبلاغته إلى أفق أوسع وعالم أرحب، ونشير هاهنا إلى دور الأساليب الكلامية هذا الدور لا يُستهان به في إرساء آليات ووسائل الحجاج في النظرية الجديدة.

إن عمل البلاغيين القدامى الذين نظّروا لمصطلح البيان ومجالاته ووظائفه، يلتقي مع عمل المتكلمين والمناطق والمذهب الكلامي في قيام البحث الحجاجي وأساليبه، كما ساهم في بلورة مجموعة من النظريات والمصطلحات والمفاهيم البلاغية تنظيراً، وإجراء، تعريفاً وتمثيلاً، وعلى رأس هذه النظريات نظرية الحجاج.

#### - الخلاصة:

الدرس البلاغي العربي القديم للحجاج، كان متبلوراً في الدراسات البلاغية القديمة والدراسات الإسلامية.

وتجسد هذا البحث الحجاجي ومصطلحه مع مفهوم البيان بشكل واضح مع السكاكي وأجاحظ وغيرهم من البلاغيين، وأما ظهوره فقد تعزز أكثر مع ابن وهب من خلال كتابه البرهان في وجوه البيان، وبرز جلياً مع الدرس الأصولي والتفسير وعلماء الكلام.

وبهذه الإطلالة يتبين أنّ البلاغة العربية القديمة ثرية بالثقافات اللسانية التي تُعنى اليوم بدراسة اللّغة من كل الجوانب، وهذا ما جعل الدراسات البلاغية تعدّ بحق مهادا لكثير من الأبحاث والدراسات اللسانية الحديثة، حيث ظهرت دراسات تعنى بالخطاب الحجاجي المصطلح عليه بلفظ البيان وهذا الأخير

(1) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 212.

يوافق مصطلح الحجاج في أبعد صورته وآلياته، من خلال مراعاة المخاطب وما يكون عليه كلامه وما يشترط فيه، والمتلقي بمعرفة محيطه ومستواه، والخطاب كيف يُفسَّر وكيف يُنتج ومتى يكون ناجعا محققا لمقصده. ولا نغفل الدرس الأصولي وما أسهم به في تطور الأبحاث الحجاجية خاصة - بقصد أم بغير قصد- والبحث اللساني عامة. كما لا نغفل عن الإسهامات الغربية وخاصة أبحاث أرسطو اللغوية. وتجدر الإشارة إلى المصطلحات التي وردت بمعنى الحجاج وهي: البيان والاستدلال والبرهان، فالأول ظهر مع الجاحظ وهو اللبنة الأولى لهذا البحث. وظهر الثاني مع السكاكي حيث أفرد له بابا خاصا، والثالث ظهر مع ابن وهب في البحث الأصولي وعلاقته بالبلاغة الجديدة البرهانية. وصفوة القول أن البحث الحجاجي كان منثورا بين ثنايا البلاغة العربية والإسلامية، وإن لم يعرف بمصطلحاته الحديثة.



## الفصل الثاني

# الحجاج والتداولية

المبحث الأول: الحجاج

المبحث الثاني: التداولية

المبحث الثالث: في حدّ مصطلح الحجاج



## المبحث الأول

### الحجاج

#### 1- تعريف الحجاج: 'ARGUMENTATION'

##### أ- الحجاج لغة:

تدور معاني الجذر اللغوي لكلمة "حجاج" (ح، ج، ج)، المجادلة بسبب خلاف الوجهة أو الرأي أو ما شابه، ومنه الدليل على الرأي المرغوب إثباته وهذا ما نجدّه واردًا في بعض المعاجم العربية، فمنها مَنْ أورد معنى الحجاج «غلبه بالحجة، أو حاجة محاجة، وحجاجا جادله، واحتج عليه، أقام عليه الحجة، وعارضه مُستنكرا فعله، وتحجّجوا: تجادلوا، والحجة الدليل والبرهان»<sup>(1)</sup>.

يظهر من هذا أنّ الحجاج يكوّن لخصومة، وهذا ما دلّت عليه كلمة غلبة وتكون الغلبة في الكلام والخطاب للدّليّ يُقيم الحجة والبرهان على صحة ما يدّعي، وما دام هناك خصومة فالجدال هو المظهر الدّليّ يُجسد صورة الخطاب الحجاجي.

وقد ورد في أساس البلاغة «حاج خصمه فَحَجَّه، وفُلان خصمه محجّج»<sup>(2)</sup>.

ومعنى "محجّج" أي: مغلوب والشخص المتكلم الغالب المحجّج، والسامع المُحاجّج المغلوب، أي أنه اقتنع بحجة المتكلم.

وما يزيد هذا المعنى قوة ما أتى به ابن منظور في لسان العرب، «فالحجّة ما دُوّفع به الخصم، ورجلٌ محجّج أي جدلٌ، والتحاج التخاصم، واحتجّ بالشيء اتخذه حجة»<sup>(3)</sup>.

هذا ما يُظهر أنّ الدّليّ يدّعي صحة رأيه عليه إثبات ذلك، وقد ورد لفظ الحجاج في عدّة آيات من القرآن الكريم منها: قال تعالى:

- ﴿هَاتِنْتُمْ هَاتُورَآءِ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهٖ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّوْنَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهٖ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(4)</sup>.

(1) إبراهيم مصطفي، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، الجزء الأول، المكتبة الإسلامية، الطبعة 2، ص: 106. 107.

(2) جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق، عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت- لبنان، الطبعة 1، 1998، ص: 74.

(3) جمال الدين محمد بن مكرم أبو الفضل بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، مادة (ح ج ج)، دار صادر، بيروت، الطبعة 1، 2000، ص: 38.

(4) سورة آل عمران، الآية: 66.

- ﴿وَاحْجُرْ قَوْمَهُ<sup>ع</sup> قَالَ اُنْحَرُونَ<sup>ع</sup> فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَلْنَا<sup>ع</sup> وَلَا أَحَافَ مَا تُشْرِكُونَ<sup>ع</sup> بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا<sup>ع</sup> وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا<sup>ع</sup> أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ<sup>ع</sup>﴾<sup>(1)</sup>.
- ﴿وَالَّذِينَ يُخَاجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾<sup>(2)</sup>.
- ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الصُّعْفَتِيُّ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾<sup>(3)</sup>.

## ب- الحجاج اصطلاحاً:

منذ نهاية عقد الخمسينيات في القرن العشرين شهدت مباحث الدراسات البلاغية صحة نوعية، فكانت الدعوة لما سُمي بالبلاغة الجديدة، وهي محاولة لإقامة علم عام لدراسة الخطابات بأنواعها، فأصبحت تسعى لأن تكون علماً واسعاً يشمل حياة الإنسان كلها في المجتمع، فهي محاولة لوصف الخصائص الإقناعية للنصوص، عملت اللسانيات والتداولية ونظريات التواصل على إنضاجها، فالمناهج اللسانية الحديثة التي تأثرت بها البلاغة، تنظر إلى اللغة كنسق تتفاعل عناصره في إطار علائقي يرفض دراسة الكلمات في ذاتها وقد انبثق عن هذا كله البلاغة البرهانية الجديدة.

وهدفها هو دراسة تقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض التي تُقدّم لهم أو تُعزز هذا التأييد.

ظهر هذا المنطق مع "حاييم بيرلمان" Perelman ثم تبنته مدرسة "بروكسل"، وأول ظهور له في أحد مؤلفات الكاتب والمفكر "بيرلمان"، وهو مقال في البرهان: "البلاغة الجديدة"، وقد اعتمد محاولة لإعادة وتأسيس البرهان أو الحاجة الاستدلالية<sup>(4)</sup>.

وحقيق أن نبين حقل الحجاج بعدما بينا مصدره -البلاغة- إذ عُرف: بالبلاغة الجديدة.

(1) سورة الأنعام، الآية: 80.

(2) سورة الشورى، الآية: 16.

(3) سورة غافر، الآية: 47.

(4) ينظر، فرحان بدري الحربي، الأسلوبية في النقد العربي الحديث، دراسة في تحليل الخطاب، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة 1، 2003، ص: 32.

**أولاً:** أن الأصل في تكوثر الكلام هو صفته الخطابية بناء على أنه لا كلام بغير خطاب إذ حقل الحجاج هو الخطاب، والأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الحجاجية، بناء على أنه لا خطاب بغير حجاج إذ الحجاج بوصف بأنه طبيعة في كل خطاب، والأصل في الحجاج هو صفته المجازية، بناء على أنه لا حجاج بغير مجاز<sup>(1)</sup>.

ويقدم "بيرلمان" تعريفاً للحجاج يُركز فيه عن وظيفة هذا الحجاج وهي «حمل المتلقي على الاقتناع بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الاقتناع»<sup>(2)</sup>.

يظهر هنا جلبي الفائدة من الحجاج أن تقنع شخصاً بقضية أو تزيد من شدة اقتناعه عن طريق الحجاج، لحمله إلى عمل أو تهيئته لذلك.

إذن يتعلق الخطاب الحجاجي بالتعامل وأن المنطوق به الذي يستحق أن يكون خطاباً هو الذي يقوم بتمام المقتضيات التعمالية الواجبة في حق ما يسمى بالحجاج «إذ حدُّ الحجاج أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّ له الاعتراض عليها»<sup>(3)</sup>. وهذا هو الذي أدى بـ"بيرلمان" بأن يُطلق مصطلح الخطابة الجديدة the new rhetoric عام 1958، وهي دراسة تتناول الحجاج بوصفه خطابة تستهدف استمالة عقل المتلقي، والتأثير في سلوكه، وبهذا يتخذ الحجاج مفهوماً:

**أولاً:** طريقة تحليل واستدلال، بقصد تقديم مبررات مقبولة للتأثير في الاعتقاد والسلوك.

**ثانياً:** «عملية اتصالية يُستخدم فيها المنطق logic للتأثير في الآخرين»<sup>(4)</sup>. وبالنظر للحجاج وكيفية تطبيقه بأن تعرض المقدمة ثم الحجة فالنتيجة، وهو التعريف على آراء وسلوكيات المخاطب أو المستمع، وذلك يجعل أي قول مدعماً صالحاً أو مقبولاً وذلك بمختلف الوسائل بالنظر لقول آخر: «الحجة، المعطاة، الأسباب، نقول على سبيل التعريف أن المعطاة، الحجة تهدف إلى إثبات أو نقض قضية»<sup>(5)</sup>.

يغدو الحجاج كسمة في الخطاب وطابع فيه ووظيفة له ووسيلة لتحقيق هدفه، وهذا الشيء الذي أدى بالبلاغة الجديدة للاهتمام بالحجاج.

(1) ينظر، طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 213.

(2) ينظر، سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنياته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الطبعة 1، 2001، ص: 21.

(3) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 226.

(4) ينظر، جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص: 105 - 106.

(5) الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم مجلة ملتقى النص، ص: 330.



ونرصد هنا تعريفا للحجاج بالنظر إليه على أنه: «وسيلة المتكلم في جعل المتلقي يتقبل آراءه واتجاهاته، وانتقاداته وتوجيهاته»<sup>(1)</sup>.

ويأخذ مفهوم الحجاج أو المحاجة المجادلة، وهو أيضا طريقة عرض الحجج وتنظيمها وبدل اللفظ على مجموع الحجج الناتجة عن ذلك العرض.  
كما تدل كلمة حجة في المنطق الصوري على قيمة محددة يمكن أن يتم تعويضها لمتغير في دالة وهذا معنى فني وتقني.

و«الحجة في معناها السائر هي إمّا تمش ذهني بقصد إثبات قضية أو دخصها، وإمّا دليل يُقدّم لصالح أطروحة ما أو ضدّها»<sup>(2)</sup>.

والجدير بالذكر افتتاح الحجاج، إذ يُعدُّ الحجاج حلقة ضرورية تُمرُّ عبرها كلّ العلوم وقد يكون التوجه الحجاجي فلسفياً، نصياً أو توجهاً لفظياً بحسب زوايا التناول، كالتركيز على المتكلم مثلا بكونه زاوية للتفاعل، وبإمكاننا أن ندرس الحجاج «من خلال علاقة المتكلم بالمتلقي في إطار الحال التي تفرض (أ) أن يُحدث في (ب) تأثيرا باستعمال آليات الإرسال، كما تفرض على (ب) أن يفهم بطريقة معينة، ما يقول (أ) وبالمفهوم القديم تسند الحال إلى بلاغة معينة (كلام معين تصرفا ما...)، ومن هذه الزاوية يُراعى الإطار الحالي للمتكلمين، أمّا الزاوية الثانية فتتمثل في رؤية الحجاج على أساس أنه بنية نصية، وهنا يكون التركيز على الجوانب اللغوية فقط، وذلك بالحديث على الأدوات اللغوية، التي تلعب في النص دوراً حجاجياً، وهي المفردات، الأفعال، الظروف الأسماء... الخ»<sup>(3)</sup>.

وما تجدر الإشارة إليه أيضا الحجاج عند اللغوي الفرنسي أرفالد ديكرود (O.DUCROT) فهو يُفرّق بين معنيين لفظ الحجاج: المعنى العادي، والمعنى الفني أو الاصطلاحي والحجاج موضوع النظر في التداولية المدججة هو بالمعنى الثاني.

الحجاج بالمعنى العادي يعني طريقة عرض الحجج وتقديمها، ويستهدف التأثير في السامع فيكون بذلك الخطاب ناجعا فعّالا غير أنه ليس معيارا كافيا إذ يجب ألا تُهمل طبيعة السامع (أو المستقبل) المُستهدف من هذا الحجاج، فنجاح الخطاب يكمن في مدى مناسبه للسامع ومدى قدرة التقنيات الحجاجية المستخدمة في إقناعه.

(1) يمينة تابي، الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي، دورية أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث العلمية في اللغة والآداب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، العدد 02، ماي 2007، ص: 284.

(2) صابر الحباشة، التداولية والحجاج مداخل نصوص، دار صفحات للدراسات والنشر، سوريا، دمشق، الطبعة 1، 2008، ص: 68.

(3) يمينة تابي، الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي، ص: 286.

أما الحجاج بالمعنى الفتي فيدلُّ على صنف مخصوص من العلاقات المودعة في الخطاب والمدرجة في اللسان ضمن المحتويات الدلالية<sup>(1)</sup>.

لقد أشار "ديكرو" إلى الحجاج داخل اللغة كما رأينا من خلال كتابه الحجاج في اللغة الذي شاركه في تأليفه "جون كلود أنسكومبر" (Ansambr, Jean-Claude) إذ تركزت الدراسة في هذا الكتاب في أديم لساني بحث، ويحتوي عن حجاج مختلف عند "بيرلمان" فهو حجاج يقوم على اللغة بالأساس بل يكمن فيها، بينما الحجاج عند "بيرلمان" وتيتكه" من خلال الكتاب المعنون بـ "مصنف في الحجاج" Traité de l'argumentations الذي شكل ظهوره فتحاً جديداً وأساسياً في عالم الخطابة الجديدة، قد مثل نظرة منطقية للحجاج وكان حريصاً على الظهور بمظهر المنطقي المتمكّن من آليات التفكير، وهذا ما يُنزل الحجاج في صميم التفاعل بين الخطيب وجمهوره، فلئن استندا في تعريفهما للحجاج على صناعة الجدل من ناحية وصناعة الخطابة من ناحية أخرى، فإنهما حرصاً كل الحرص على جعل الحجاج أمراً ثالثاً مفارقاً لهما رغم اتصاله بهما، فالحجاج حسب التعريف الذي قدّمناه يأخذ من الجدل التّمشي الفكري الذي يقود إلى التأثير الذهني في المتلقي، ويأخذ من الخطابة توجيه السلوك أو العمل والإعداد له لكنّه يظل مختلفاً عن الخطابة والجدل، من زاوية كسره للثنائية التقليدية وجمعه بين النظري والتأثير السلوكي العملي، فهو خطابة جديدة متسعة<sup>(2)</sup>.

وينزل الحجاج عند "ديكرو" وأتباعه في صميم المدرسة البرغماتية، فمقتضى انشغالها بوظائف الخطاب يُصبح مفهوم التفاعل مؤسساً في أبحاث أصحابها، إذ في وضع معين يُحدث الباحثُ جملة من الأعمال الإقناعية ذات طبيعة بلاغية معقدة تفعل في المتلقي الذي يُحدث بدوره جملة من الأعمال. على هذا النحو أقرّ "ديكرو" بسلطة الخطاب الحجاجي فهو في نظره خطاب يَسدُّ المنافذ على أيّ حجاج مضاد فيحرص على توجيه المتلقي إلى وجهة واحدة دون سواها، وبذلك ننتهي إلى ميزتين أساسيتين هما:

- التأكيد على الوظيفة الحجاجية للبنى اللغوية.

- إبراز السمة التوجيهية للخطاب<sup>(3)</sup>.

لقد رأينا الحجاج عند "بيرلمان" وتيتكان" والحجاج عند "ديكرو" وأنسكومبر، وكيف أنّ الأول اهتم بالتفاعل القائم بين الخطيب والجمهور، وأنّ الحجاج غير الخطابة والجدل في العلاقة الموجودة بينهما، في حين اهتم الثاني بالمدرسة البرغماتية التداولية وعدم إغفال الباحث والمتلقي.

(1) ينظر، صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص: 21.

(2) ينظر، سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 21، 22، 23، وما بعدها.

(3) ينظر، نفسه، ص: 23، 24.

وما يجب ذكره في هذا المقام أنّ المدرسة البلجيكية تُعدّ الرائدة في مجال الدراسات البلاغية والحجاجية، حيث شكلت حلقة بحثية دراسية داخل قسم الاجتماع والفلسفة وصدر عنها الكتاب الرائد السابق الذي ألفه بيرلمان<sup>1</sup> وصديقه تيتكان<sup>2</sup>، ويحمل إلى جانب عنوانه الكبير المذكور عنوانا فرعيا تفسيريا هو البلاغة الجديدة، وكان هذا العنوان إيذانا بدخول الدراسات البلاغية مرحلة جديدة يُعنى فيها بدراسة الحجاج الذي يُعنى بصفة عامة دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تُؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذاك التسليم<sup>(1)</sup>.

والمسار الذي يتبّونه يطابقون فيه بين البلاغة والحجاج، منطلقين في ذلك من فكرة أنّ كلّ خطاب يسعى إلى تدعيم وضع أو تغيير آخر أو إيجاد موقف تجاه قضية ما، وأنّ كلّ تلك الخيارات لا بُدّ لها أن تتأسس على خطط حجاجية مقصودٌ بها المخاطبون<sup>(2)</sup>، وتتأسس هذه البلاغة الجديدة تعاضد فكرتين جوهريتين:

- أولاهما وجودية ظاهرانية في آن عمادها مقولة هيدجر<sup>3</sup> التي اعتبر فيها اللّغة هي الوجود بكلّ أبعاده وأزمته. أمّا الثانية فتأويلية مفادها ضرورة الانطلاق من اللّغة المرسلّة في مقام معين ثم تفكيكها والغوص فيها للوصول إلى مكوناتها الأساسية.

لذا فقد اهتمت المدرسة البلجيكية في بلاغتها الجديدة هذه بدراسة التنوع المعاصر للمخاطبين، كما تُعنى بلاغة الحجاج أيضا بثنائية بلاغة الحجّة وبلاغة أسلوبها معا كشرطين متلازمين لتحقيق الخطاب ونفاذه<sup>(3)</sup>.

بعد التعرف على الخطاب الحجاجي وما يعنيه، وبعد أنّ كان فكرة تجول في خلد الكثيرين انتقل ليتطور من الفكرة إلى النظرية، ومن هذا تكونت لدراسته مدارس وأصبح الحجاج نظرية شاملة على مختلف الميادين، فما هي المدارس التي تبنت هذا البلاغ الجديد حتّى شبّ نظرية وعلماء؟

(1) ينظر، محمد ولد سالم الأمين، حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، منشورات المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، الجماهيرية العظمى، الطبعة 1، 2004، ص: 15.

(2) ينظر، نفسه، ص: 16.

(3) ينظر، محمد ولد سالم الأمين، حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، ص: 16.

## 2- المدارس الحجاجية:

سنين في هذا الباب أهم المدارس على اصطلاح اللسانيين التي اهتمت بالحجاج كمبحث رئيسي:

### أ- المدارس الغربية:

#### 1- المدرسة البلجيكية:

لقد أصبح مفهوم الحجاج شاملا، وأضحى حقلا تُرعى فيه كل العلوم لانفتاحه على أكثر من نسق، وهذه المدرسة البلجيكية تُعدّ أول من تعرضت لهذا البحث الجديد - كما سبق وذكرنا- وقد تأسست إثر ظهور كتاب: "مصنف في الحجاج" لبيلمان<sup>(1)</sup> كما سبق، لكن ما يجب ذكره هو كيف اكتشف "بيلمان" هذه البلاغة الجديدة؟

يشرح لنا بيلمان في كتابه "إمبراطورية البلاغة" كيف أنّ دراسته للبلاغة الأرسطية قادته من خلال التساؤل عن إمكانية وجود منطق خاص للقيم على نتائج لم تكن متوقعة، وأهم ما كان يبحث فيه «كان قد فصل القول فيه في علم شديد القدم منسي حاليا أو مستهجن هو فن بلاغة الحجاج عند القدماء»<sup>(1)</sup>. بالإضافة إلى تعريف الحجاج كما سبق، وتطرّقه لمواضيعه ومتعلقاته من خلال: المخاطب والموضوع وما يستدعيه كلّ منهما من نوعية خطابية، وذكره لغاية الحجاج ومميزاته.

أمّا الغاية من الحجاج فهي عنده «أن يجعل العقول تذعن لما يُطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجم الحجاج ما وُفقَ في جعل حدّه الإذعان لقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازه أو الإمساك عنه)، أو هو ما وُفقَ على الأقل في جعل السامعين مهينين لذلك العمل في اللحظة المناسبة»<sup>(2)</sup>.

أما مميزاته فهي عند "بيلمان" بخمسة ملامح «أن يُتوجّه إلى مستمع، أن يُعبّر عنه بلغة طبيعية، أن تكون مسلماته كونها احتمالية، أن لا يفتقر تقدمه (تناميه) إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة، أن تكون نتائجه غير ملزمة (احتمالية غير حتمية)»<sup>(3)</sup>.

هذا بالنسبة للتعريف والغاية، والمميزات ويعمدُ "بيلمان" وتيتكان<sup>(4)</sup> إلى تبيين نقطة الانطلاق للحجاج وهي المقدمات التي تتضمن: الوقائع، والحقائق، والافتراضات، والقيم والمواضع وكلّ هذه المقدمات، كما يرى "بيلمان" تنفرح إلى ضربين أحدهما مداره على الوقائع وهو الخاص بالوقائع والحقائق والافتراضات والآخر مداره على المفضل وهو المتعلق بالقيم ومراتبها والمواضع، بالإضافة إلى هذا نبّه "بيلمان" إلى أغلبية

(1) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 106.

(2) محمد نفسه، ص: 107، 108.

(3) نفسه، ص: 108.

العناصر الأسلوبية من نفي وشرط وتوكيد (تأكيد) وعناصر بلاغية بديعية وبيانية ومعنوية ، وأدوات ربط وعطف تُعتبر كلها موجّهات تعبيرية ذات دور حجاجي كبير.

ويولي "بيرلمان" أدوارا حجاجية لا يُستهان بها للمُوجه الاستفهامي لأنّ له في نظره أهمية بلاغية كبيرة، فالسؤال يفترض موضوعا ما، وانطلاقا منه يتوقع أن ثمة اتفاقا حول وجود هذا الموضوع.

ثم إنّ لهذه الموجّهات عند توظيفها في الخطاب الحجاجي دورا آخر يتمثل في أنّها تتيح التعبير عن الفكرة الواحدة بطرق متعددة، إضافة إلى الموجه الاستفهامي يوجد التوجيه الإثباتي، والموجه الإلزامي.

أما شأن المخاطب: فيحذر "بيرلمان" هنا من الوقوع في خطأ التصور أو التقدير للمخاطب، لأنّ من ذلك من شأنه أن تترتب عليه نتائج خطيرة على مسار العملية الحجاجية برمتها وبالتالي تكون معرفة المقام والمعنى بأفاقه وظروفه من أهم معايير نفاذ الخطاب، ومن شأن هذه الأمور السابقة الذكر أن تجعل الحجاج ناجحا وإهمالها وعدم مراعاتها من شأنه أن يجعل الحجاج بلا غاية وبلا تأثير، وهذا ما أدّى إلى اهتمام "بيرلمان" بمعايير انسجام الخطاب مع المخاطبين<sup>(1)</sup>.

ويمكن أن نستنتج من هذا أنّ "بيرلمان" يحاول أن يجعل من الحجاج نظرية مطابقة للبلاغة، بحصر هذه الأخيرة فيه، وقد وافقه في هذا التصور العديد من البلاغيين المعاصرين<sup>(2)</sup>.

هذا ما ذهب إليه العرب ومنهم الجاحظ الذي يجعل في كثير من المواضع البيان هو نفسه البلاغة، وقد رأينا أنّ البيان عند الجاحظ هو مفهوم الحجاج، إذن هو يطابق أيضا كما يطابق "بيرلمان" الحجاج والبلاغة.

إنّ تيار البلاغة المعاصرة من خلال اهتمامه بجميع عناصر العملية التواصلية وبمقامها وبآليات التحقيق الفعلي للخطاب، وما يرجى ويتوقع منه، من خلال اهتمامها بهذا فإنّها «تفتح بابا جديدا في البحث البلاغي خاصة واللغوي عامة، هذا إضافة إلى ما تحقق عقب ذلك من انفتاح على مختلف العلوم الإنسانية الحافّة بهدف توظيف آلياتها وخطاباتها من أجل إنجاز المضامين الفعلية للخطابات المقدّمة»<sup>(3)</sup>.

## 2- المدرسة الفرنسية:

لقد حظي الحجاج الواقع تحت اسم البلاغة الجديدة ببحوث جادة حولته من فكرة إلى نظرية ومن الانزواء إلى الشمول على كلّ الميادين، حيث كانت هذه البحوث الكاشفة الذي هتك الحجب أمام عيوب الدرس البلاغي القديم، حيث «بدأ الاهتمام باللّغة، بصفة فعلية في البحوث السويسرية التي بحثت في

(1) ينظر، محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 107، 117.

(2) نفسه، ص: 108.

(3) محمد ولد سالم الأمين، حجاجية التأويل، ص: 21.

علاقات الدوال والمدلولات، وفي العلامة وخصائصها، وفي دلالة الاختلاف اللغوي صوتيا وموقعا وسياقيا<sup>(1)</sup>.

وما يمكن رصده هو الإشارة إلى أنّ البلاغيين الجدد يهتمون في مستوى بلاغة الخطاب حجاجيا، بتحليل العلاقات التركيبية والدلالية وعلاقات التضام الصوتية.

كما أنّهم حللوا في هذا الإطار الجمل وآليات بنائها والخيارات المتاحة أمام المبدعين ومحاولة معرفة سبب اختيار كاتب لجملة بدلا من أخرى تتقاطع معها في الحقل الدلالي نفسه، وذلك في سعي منهم لدراسة دلالات الانحراف ووظائفه الحجاجية في المكتوب ودور العناصر التركيبية الحذف، الوصل، الإضافة، العطف، التكرار، التأكيد<sup>(2)</sup>، إلى جانب هذا تراعي التحليلات اللفظية والتركيبية في البلاغة البنائية، التحولات الدلالية التي تُمسّ جوهر العلاقات المعنوية والتراتبية في الكلام، والمستوى الشامل للأدوار التي تلعبها: الاستعارة، والمجاز في الخطاب بصفة عامة وفي الاستمالة والإقناع خاصة، وبصفة عامة فإنّ أبرز آثار البنيوية في مجال الحجاج تلك التي نجدتها في تناول بعض أصحاب هذا الاتجاه لسلطة القول وتأثير الخطاب على المتلقين له (سماعا وقراءة)، حيث إنهم حللوا ما تختزله اللّغة من مظاهر القوة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأيدولوجية<sup>(3)</sup>.

من هنا نكون أمام بلاغة بنيوية جديدة «يحاول بعض روادها، وخاصة بول دي مان ( Paul de Man) الانتقال بنويويا من مرحلة الصياغة البلاغية للتحو إلى الصياغة النحوية للبلاغة، حيث إنّ المستوى الأول يتعلق بتغير الدلالات وتوالدها في حين يتعلق الثاني بطرق الفهم والقراءة والتأويل»<sup>(4)</sup>.

والجدير بالذكر في هذه المدرسة رولان بارت (Roland Barthes) الذي حاول أن ينظر إلى البلاغة البنيوية نظرة شاملة وبمنظار الدرس البلاغي المعاصر من خلال كتابه المعنون: «قراءة جديدة للبلاغة القديمة»، وقد ضمّن كتابه هذا فقرتين كبيرتين هما: الرحلة والشبكة، فتناول في الأولى: نشأة البلاغة وأقسامها وأنواع الحجج والبراهين وأجزاء الكلام الخطابي، وناقش في الثانية: التقنيات البلاغية والعديد من الآليات الحجاجية، وما يتصل بذلك من مساعدات خطابية<sup>(5)</sup>.

(1) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 139

(2) ينظر، نفسه، ص: 140، 141.

(3) ينظر، نفسه، ص: 142، 143.

(4) نفسه، ص: 144.

(5) ينظر، نفسه، ص: 146، 149.

لقد اكتشف "بارت" أنّ نشأة البلاغة تعود إلى بواعث حجاجية إقناعية، هذا للممارسة الحجاجية الخطابية ساعدت على التمييز بلاغيا بين مستويين خطبيين هما: الخطاب الصادق، والخطاب المتصنع<sup>(1)</sup>.  
 فالبلاغة تقنية لإنتاج - وتحقيق - الممكن وغيره، لذا فهو يسميها "آلة البلاغة" التي تدخل إليها مواد نسيجية، فنحصل في النهاية على الجوارب، كذلك في الآلة البلاغية فما نضعه في البداية هو مواد قابلة للاستدلال، الأحداث "موضوع" وما نجده في النهاية هو خطاب مكتمل مُبَيَّن، مسلح من أجل الإقناع، وهذه التقنية تضم خمس عمليات أساسية على الترتيب: 1- الابتكار، 2- الترتيب، 3- الصياغة، 4- الفعل، 5- الذاكرة<sup>(2)</sup>.

ومن الأبحاث الفرنسية التي عززت الدرس الحجاجي، البحث الذي قدّمه "جاك ديوران" (Jacques Durand) في مقاله المعنون: "البلاغة والصورة الإشهارية"، وهو بحث يؤكد ما ذهب إليه "بارت" في كتابه المذكور إذ انطلق "بارت" من ثلاث مراحل هي: البلاغة القديمة، وبلاغة الصورة، والتحليل البلاغي وهذا ما أدّى بالبحث أن يكتسب صبغة جديدة تبرز فيها مفاهيم الحجاج والجدل وأساليب استمالة المخاطب<sup>(3)</sup>.

ويعد "بول ريكور" من النقاد الفلاسفة الذين أثروا بشكل واضح في الدرسين البلاغي واللّساني المعاصرين ويُعدّ اهتمامه بالحجاج فارقا بين كتاباته البلاغية التي تظهر بصورة ضمنية وبأبرز تجلياتها في المباحث التأويلية (الميرمينوطيقية)<sup>(4)</sup>، كما أنّها تلتقي ثانيا مع بلاغة الحجاج في أنّ التعامل مع النّص قراءة وتأويل ليس في الحقيقة سوى حوار حجاجي<sup>(5)</sup>. وقد ظهر هذا في كتاب "ريكور" "صراع التأويلات" والتأويل بوصفه - أهم مظهر فكري تتجلى فيه كل الطاقات الحجاجية عند "ريكور" بعده عملية وجودية تُحقق فيها الذات إنسانيتها من خلال اللّغة ونصوصها.

فالنّص عالم مفتوح تعيه الذات إلّا عندما تُؤول نفسها، وتأويلها لذاتها يعني استحضرها للنصوص الحجاجية التي ستقرأ بها النّص الجديد، وتبلغ العملية الحجاجية أوجّها عندما ينجح القارئ فيتوقع ملامح ذات النّص وروافدها<sup>(6)</sup>، ومن البلاغة الريكورية كتابه "الاستعارة الحيّة" «حيث يُقدم في هذا الكتاب تعريفا للبلاغة يشير فيه إلى الوظيفة الحجاجية، التي تتصف بها فهي عنده سلوكا فلسفيا يهدف إلى

(1) ينظر، محمد ولد سالم الأمين، حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، ص: 146، 147.

(2) ينظر، نفسه، ص: 149، 150.

(3) ينظر، نفسه، ص: 157، 145.

(4) ينظر، نفسه، ص: 158.

(5) ينظر، نفسه، ص: 24.

(6) ينظر، نفسه، ص: 159.

السيطرة على القوانين الأساسية للاستعمال اللغوي يظهر من هذا التعريف كيف للبلاغة أن تؤدي وظيفة حجاجية إذا وُضعت في الإطار الفعلي للفهم والتواصل، إذ هي نظرية الخطاب»<sup>(1)</sup>.

نخلص إلى أن «البلاغة بقدر ما تُعنى بالخطابة والإلقاء وما يتطلبه من أساليب حجاجية هي تعنى كذلك ببلاغة المكتوب، نقدا وإبداعا، وما يتضمنه من حوار ونقاش ضمنيين مؤسسين أولا وقبل كل شيء على التأويل والفهم والتفسير من جهة والتعدد الدلالي من جهة ثانية، لأن المكتوب لو نظرنا إليه نظرة متعمقة لوجدناه مؤسسا حتما على خطة حجاجية تهدف إما إلى الإقناع بطرح معين أو على جذب المتلقين الأكفاء لإثراء النص ومحاورته، فالنصوص عند التأويلين، فضلا عن أنها غير محددة الدلالة فهي تُظَل أيضا غير مستقلة عن ضرورات القراءة والإضافة، لأنّ تُجدد النصوص واستمراريتها مرهونان بحسن التواصل مع الآخر»<sup>(2)</sup>.

كانت المدرسة البلجيكية والمدرسة الفرنسية قد تبنتا الحجاج منذ ميلاده وطفولته بعد أن كان فكرة أو مجموعة آراء متناثرة إلى أن شب وغدا نظرية لها مدارس ورؤا، وإن كان حال الحجاج عند الغرب كما رأينا، فما هو حاله عند العرب؟

معلوم أنّ الحجاج كان أبحاثا جادة في التراث العربي كما رأينا مع السكاكي والمنطق والجاحظ والبيان، وابن وهب والبرهان أو الفقه من الجانب الديني - مثلت هذه البحوث حجر الزاوية لبناء نظرية حجاجية عربية، انطلق منها اللغويون المحدثون.

## ب- المدارس العربية:

### 1- المصرية:

إنّ المتتبع للدراسات البلاغية المعاصرة داخل المدرسة المصرية يجد كتاب بلاغة الخطاب وعلم النص لصلاح فضل، من بواكير المصنفات في حقل الدراسات النقدية العربية التي تهتم ببلاغة الحجاج وبرائدها بيرلمان<sup>(3)</sup>، ولهذا المصنف علاقة مباشرة بموضوعنا حين يقدم مؤثرات القول للتركيب الاستعاري . ويؤكد صلاح فضل «أن هذه المباحث الجديدة منحت بلاغة الحجاج آفاقا منها: الفلسفة القضاء، الإعلام [...] وأصبح الحجاج نظرية لها اتصاها بمختلف المجالات الحافة»<sup>(4)</sup>.

(1) محمد ولد سالم الأمين، حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، ص: 163.

(2) نفسه، ص: 24.

(3) ينظر، محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 220، 226.

(4) نفسه، 234.



كما يؤكد: «من الخلط الشنيع الذي وقع فيه بعض الدارسين الذين اعتبروا الأسلوبية هي الوريث للبلاغة القديمة بكل مباحثها»<sup>(1)</sup>.

فالأولى مجالها الخاص ابتكار الأشكال وتحليل الأساليب وإبراز الملامح الفردية في النصوص والخطابات، أما الثانية البلاغة فقد اكتسبت تسمية عالمية متعددة المشاغل والاختصاصات فهي تسعى لإقامة قوانين للدلالة الأدبية بكل ثرائها، والوقوف على مظاهر القوة في الخطابات وكل ما من شأنه زيادة الوعي بماهية الإبداع والقراءة والتأويل<sup>(2)</sup>.

هذا بالنسبة للتصور الذي قدمه عن البلاغة الحجاجية (البرهانية)، أما فيما يتعلق بالموضع الاستعاري، «فقد احتلت الاستعارة في البلاغة المعاصرة مكان الصدارة، لما تلعبه في خطاباتنا اليومية والفنية على السواء وذلك لطبيعتها المرنة المقارنة بين قطبيها والمجاز في قربه والمجاز في رمزته وتجريده وبنيته العقلية»<sup>(3)</sup>.

هذا بالنظر إلى حجاجية المجاز بصفة عامة، وهناك من الدارسين من يُفرد ميدان الحجاج في المجاز دون غيره وخاصة الاستعارة.

وفي النهاية نقول إن "صلاح فضل" في كتابه هذا قدّم للقارئ العربي قراءة واعية وصورة جلية للبلاغة المعاصرة واتجاهاتها عامة والحجاجي منها خاصة، ونذكر هنا الكتب التي ساهمت في إثراء البلاغة العربية: دراسة أحمد الشايب وخاصة كتابة: الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، ودراسات أحمد مطلوب التي تناول فيها حال البلاغة القديمة، وعلاقتها بالأسلوبية الحديثة مثل البلاغة عند السكاكي، ومن الذين أولوا اهتماما بالبلاغة العربية بالوقوف على خصائص بعض الأبواب البلاغية وتحليلها فلسفياً لمعرفة المميزات والعلاقات الموجودة بينها وبين اللغة والإبداع العربي، ولغة الخطاب، لطفي عبد البديع، من خلال كتابه: "فلسفيات المجاز والبديع واللغة"<sup>(4)</sup>.

## 2- المغربية:

من بين الدراسات الأولى التي تطرقت للحجاج بشكل فني دقيق كتاب "فن الإقناع" لمحمد العمري لانتباهه المبكر إلى دور الحجاج في قراءة النصوص البلاغية والخطابية، وأهمها البلاغة العربية أصولها

(1) محمد ولد سالم الأمين، حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، ص: 234.

(2) ينظر، نفسه، ص: 234، 235.

(3) نفسه، ص: 237.

(4) ينظر، نفسه، ص: 217، 218.

وامتداداتها<sup>(1)</sup>، وبذلك يرى الباحث محمد العمري في دراسته هذه «أنه فضلا عن عوامل نشأة البلاغة العربية وتطورها وروافدها فإنّ ثمة ثلاث مستويات أساسية لا بدّ من الوقوف عندها لأنها تمثل نظرية بلاغية تستجيب للمتطلبات السياسية والفنية والاجتماعية من جهة أخرى. وهذه المستويات الثلاثة تتمثل في البدايات التداولية، ثم البلاغة المدعومة بالنحو والمنطق وأخيرا البلاغة النقدية أو النقد البلاغي»<sup>(2)</sup>.

كما أنه أفرد كتابا يتناول فيه الحجاج وبلاغته: في بلاغة الخطاب الإقناعي - مدخل نظري وتطبيقي - لدراسة الخطابة العربية، وفيه مهّد لسبب هذا البحث، لماذا البحث في بلاغة الخطاب الإقناعي؟ ثم أسس بلاغة الخطاب الإقناعي، والحجج والبراهين الخطابية، مروراً بالمقام وأسس وتصنيف الخطاب والحوار، وصولاً إلى صور الحجاج والأسلوب وترتيب أجزاء القول حيث ربط هذه البحوث بما وصل إليه أرسطو، وذكر أن من صور الحجاج: القياس، المثال، الشاهد.

وقد توصل إلى أنّ الخطابة العربية هي: «خطابة منافرة ومفاخرة ميّالة إلى المدح والهجاء، ولم تعتمد الحوار، الهادئ القائم على الحجة إلاّ في مناسبات محدودة ولذلك ينتظر أن يكون عنصر الحجاج والبرهنة أضعف عناصر بنائها»<sup>(3)</sup>.

ونراه في كتابه الأول البلاغة العربية أصولها وامتدادها يُشير إلى البلاغة المدعومة بالنحو والمنطق في المشروع الذي قدّمه "حازم القرطاجني" "مؤسساً على أصول منطقية فلسفية، فإنّ القراءة التي قدّمها السكاكي مؤسسة على دعائم نحوية ومنطقية"<sup>(4)</sup>.

### 3- التونسية:

وتتمثل هذه المدرسة: في جهود "حمادي صمود" صاحب كتاب: التفكير البلاغي عند العرب - أسسه وتطوره إلى القرن السادس - وهي أطروحة ظهرت في فترة السبعينيات، إذ يرى أنّ «أهم قضايا التفكير البلاغي حتى القرن السادس يمكن أن تتلخص تحت ثلاثة أقسام كبرى: المفاهيم، والمنهج والإجراء»<sup>(5)</sup>.

أما القسم الأول: فمن هذه المفاهيم: ثنائيتا الحقيقة والمجاز، البلاغة والمجاز، البلاغة والفصاحة.

(1) ينظر، صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص: 45.

(2) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 264.

(3) محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 26.

(4) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 268.

(5) نفسه، ص: 272.

**أما القسم الثاني:** وفيه يقول: «الأسس والطرائق المعتمدة في تحليل الكلام من الوجهة البلاغية والوقوف على أسباب تلك البلاغة وأسرارها»<sup>(1)</sup>.

**أما القسم الثالث:** الإجراء فهو عنده «مختلف المقاييس التطبيقية التي حددوا بها بلاغة النص وجودته على صعيد الشكل والمضمون [...] ويندرج في هذا الإطار دور الصورة الفنية في هذه الأحكام، والبحث في هذا الجانب يسمح بمعرفة ما إذا كانت قد تطورت نظرتهم إلى وظيفة للنص وملابسات إنجازها، أم أن أسس الحكم التي طرحتها فترة التأسيس بقيت مستحكمة في ذوقهم الأدبي»<sup>(2)</sup>.

كما نذكر هنا كتابه: «من تجليات الخطاب البلاغي» وهو يعتبر أن بلاغة الحجاج أدق بحث في الدرس البلاغي والحائز على اهتمام الجميع، لأن الحجاج يُعد أهم مظهر، ولأن بلاغته تقوم على استغلال جميع العناصر المجاورة المساعدة في فهم الخطاب وتوصيله.

ومن هنا كانت أقسام الخطابة الأساسية المتعلقة بالخطاب ثلاثة هي:

**القسم الأول:** «البصر بالحجة، وتعني حسن الاختيار والتقاط المناسبة بين الحجة وسباق الاحتجاج في صورتها المثلى، حتى يسد المتكلم السبيل على السامع فلا يجد منفذاً إلى استضعاف الحجة أو الخروج عن دائرة فعلها»<sup>(3)</sup>.

**أما القسم الثاني:** فهو «تركيب الأقسام أي ترتيب الحجج التي اختارها المتكلم بحيث يضع كل واحدة في مكانها المناسب الذي يمنحها الفعالية»<sup>(4)</sup>.

**وأما القسم الثالث:** فهو العبارة، حيث يُعقَّب اختيار الحجج وترتيبها البحث عن الأسلوب الأمثل القادر على حمل تلك المضامين وتوصيلها على أكمل وجه، لذا فلا غرو أن يلقي هذا القسم أهمية كبرى في تاريخ البلاغة على حساب الأقسام الأخرى.

ويقدم حمادي صمود تعريفاً للحجاج بأنه «علاقة بين طرفين، تتأسس على اللّغة والخطاب يحاول أحد الطرفين فيها أن يؤثر في الطرف المقابل، جنسا من التأثير يوجه به فعله، أو يُثبت لديه اعتقاداً أو يُميله عنه أو يصنعه له صنعا»<sup>(5)</sup>.

ثم نذكر له إشرافه على الفريق البحثي الذي شكّل لتقصي بلاغة الحجاج في التقاليد الغربية. ونذكر في هذا المقام كتاب: «الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية» لعبد الله صولة، وهو

(1) حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 393.

(2) نفسه، ص: 393.

(3) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 276.

(4) نفسه، ص: 276.

(5) حمادي صمود، من تجليات الخطاب البلاغي، دار قرطاج للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة 1، 1999، ص: 102.

رسالة دكتوراه أشرف عليها "همادي صمود" نوقشت في كلية الآداب بمنوبة، حيث ينطلق عبد الله صولة من نظريات الحجاج الحديثة ليتخذها خلفية ينظر من خلالها إلى مبحث الحجاج في القرآن، كما يبرز أنّ الحجاج يُعتبر قاسما مشتركا بين الجدل والخطابة ثمّ قصد القرآن بعدّه خطاب، وكونه خطاب يقتضي أنّه إقناع وتأثير ثم ينتقل إلى الخصائص الأسلوبية، والمقصود بها ظواهره اللغوية، وللقرآن خصائص أسلوبية في مستوى المعجم، والتركيب والصورة، ويرى "عبد الله صولة" أنّ أسلوب القرآن ذو بعد حجاجي وأنّ الحجاج فيه ناشئ عن طريقة له في القول مخصوصة، فضلا على نشوئه من مضامين هذا القول وعلى العموم فههدف الأطروحة يتمثل في:

- 1- الكشف عن حجاجة الكلام القرآني في مستوياته الثلاثة، مستوى المعجم أي مستوى المفرد من القول، ومستوى التراكيب أو المركب منه، ومستوى الصورة وهي تمثل جانب المجاز فيه، فهو يريد البرهنة على الحجاج في القرآن إفرادا وتركيبا حقيقة ومجازا.
- 2- هدم الثنائية الضدية التي قامت عليها البلاغة في الغرب (بلاغة الحجاج/ بلاغة الأسلوب).
- 3- الإسهام في الكشف عن جانب من جوانب قدرة القرآن على التأثير في متلقيه، تأثيرا حجاجيا، ومن ثم عقليا بالإضافة إلى ما له من قدرة على التأثير العاطفي في قلوب أولئك المستلقين و بالإضافة إلى النحو والتداولية<sup>(1)</sup>.

وهذا التتبع لهذه المدارس الثلاث من فوائده توعية القارئ العربي بهذا التيار ومفاهيمه، ثم بدور البلاغة الحجاجية، ونؤكد أننا لم نوفهم حقهم من هذا، فبحوثهم متواصلة ومكثفة، كما تجدر الإشارة أن هذه المدارس الأشهر في الوطن العربي وهناك محاولات في بلدان عربية أخرى.

بعد ما رأينا التناول الغربي والعربي الحديث للحجاج، نورد هاهنا ما يشارك الحجاج وما يعنيه من **مصطلحات**، الجدل والاستقراء، والقياس إضافة إلى البرهان والاستدلال. وسنبين الأقرب إلى مفهوم الحجاج:

#### - الاستدلال:

يرتبط الاستدلال بالحجاج من حيث أنّه يمثل «سياقه العقلي أي تطوره المنطقي، ذلك أنّ النصّ الحجاجي نص قائم على البرهنة فيكون بناؤه على نظام معين ترتبط فيه العناصر وفق نسق تفاعلي وتهدف

(1) ينظر، صابر الحباشة، التداولية والحجج، مداخل نصوص، ص: 140، 143.

إلى غاية مشتركة، ومفتاح هذا النظام لساني بالأساس فإذا أعدنا النص الحجاجي إلى أبسط صورة وجدناه ترتيباً عقلياً للعناصر اللغوية، ترتيباً يستجيب لنية الإقناع<sup>(1)</sup>.  
ونخلص إلى أنّ الاستدلال يرتبط بالبرهنة من جهة وبالإقناع من جهة أخرى.

#### - البرهنة:

ويعتمد فيها على «الأمثلة والحجج وكل تقنيات الإقناع مروراً بأبلغ إحصاء وأوضح استدلال وصولاً إلى اللفظ فكرة وأنفذاها»<sup>(2)</sup>.

وتكمن علاقة الحجاج بالبرهنة على طبيعة الأمثلة والحجج المقدمة، وترتبط بالإقناع باكتشاف طريقة عرضها وتقنياتها بالإقناع، ولطبيعة العملية الحجاجية دور في تحديد نوع النص أو الخطاب، وذلك راجع لطبيعة العملية البرهانية. «إنّما تتحد بالنظر والبرهنة أي محاجة في مقابل: Argumentation، وبرهنة في مقابل Démonstration وفي هذا الصدد يرى بيرلمان أنّ البرهان Argument لا يُنقل من المقدمات إلى النتيجة خاصية موضوعية كالحقيقة مثلاً كما هو الحال في البرهنة الرياضية، لكنّه يسعى من أجل أن ينقل الموافقة التي تحظى بها المقدمات إلى النتيجة، هذه الموافقة مرتبطة دائماً بجمهور معين، وهي تختلف من جمهور لآخر. إنّ أي واحد يجب أن يصل إلى نفس النتائج في نظام شكلي منسجم، لكنّ المسألة ليست بهذه الصورة في العملية البرهانية الحجاجية، حيث مواجهة عقول حيّة متوقّدة ميّالة إلى فحص الأمور عن كثب، ومن هنا تكمن أهمية المرسل إليه في توجيه العملية البرهانية واختيار المعطيات والمقدمات»<sup>(3)</sup>.

وهذا يدلّ على أنّ مصطلح الحجاج «يُحيل على المحاجة ويوحى بأنّ هناك طرفين حاضرين يتنازعان الرأي، وليس المقصود من المصطلح، بل إنّ المتكلم الحاضر واحد أغلب الأحيان، يسعى إلى إقناع مخاطب متخيّل بموقف أو فكرة والتأثير عليه، لكنّ النموذج الشكلي هو واحد في العمليتين، والفرق بينهما يتمثل في صحة ومصداقية العناصر المكونة لهما.

وفي هذه الحالة يمكن ترجيح مصطلح الحجاج لأنّ هناك طرفين حاضرين فعلاً ويتنازعان من أجل أن تتم الغلبة لأحدهما من خلال عملية جدالية تُقدّم فيها معطيات ترجح كفة طرح ومعطيات أخرى ترجح كفة الطرح الثاني»<sup>(4)</sup>.

(1) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 27.

(2) نفسه، ص: 27.

(3) عبد القادر بوزيده، نموذج من المقطع البرهاني، ص: 317، 318.

(4) نفسه، ص: 326، 327.

إن كان الاستدلال معناه طلب الدليل «بحيث يكون المطلوب عند الطلب غير حاصل بالضرورة، فإنه لفظ جارٍ في ما وقع به الدليل، ومهما يكن تصنيف الفلاسفة للأدلة فالاستدلال في الأصل، قول: كأخبر، واستخبر، واستفسر واغتاب، فجميعها أعمال قولية تصدر عن فاعلها لأجل ما فيها من الطلب أو اقتضاء اللفظ، ولما ترك من الطلب للجعل والاتخاذ لم يخلُ من اقتضاء النطق فلم يكن الاستدلال يجعل الشيء دليل آخر، بقدر ما هو جعل القول دليلاً على قول آخر، أما الأشياء في مواضع الأقوال تقع فيها موقع المفعول بإدعاء المتكلم كون بعضها دليل بعض، وهو قائم عند طلبك، قيام كل إنشاء، وهو عند الجهل حاصل ولو يجعلك الشيء بلا مناسبة دليلاً على ما اتفق لك»<sup>(1)</sup>، والاستدلال في الجدل «غير شخصي، وإنما هو منطقي محض، لا اعتبار فيه لخصوصية المتلقي والمقام الاجتماعي والثقافي الذي يحيا فيه، فما يقدمه في الجدل لا يعقد بحسب نمط اجتماعي ثقافي، وإنما يوجه على سامع كوني، كما يقول بيرلمان في نظريته، أما الخطابة فهي مقامية إذ تنبني على خصوصية المتلقي بمختلف جوانبه العقلية والنفسية وما يحيا فيه من مقام اجتماعي وثقافي»<sup>(2)</sup>.

والشكل الآتي يوضح ذلك<sup>(3)</sup>:



والدور الأكبر للخطاب البرهاني يتجسد في تطعيم الحجاج بالأساليب الأدبية البلاغية، هذا من جهة فنية، «ومن جهة ثانية أقرب إلى التربية منه على الدعاية ففي حين يكون موضوع التربية مما يقربه الجمهور ويعتقده ويؤمن به، فإنّ موضوع الدعاية يكون جديداً على أذهان الجمهور، والنوع البرهاني غايته مجرد إنشاء الاستعداد للعمل، شأنه في ذلك شأن الخطاب التربوي»<sup>(4)</sup>.

(1) شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، ص: 07.

(2) جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص: 109، 110.

(3) نفسه، ص: 112.

(4) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 110.

## - الإقناع:

غاية المتكلم الحجاج «الإبداع يأتي في درجة ثانية [...] والإقناع بما هو Persuasion، إنما هو الوجه الغائم للحجاج ومرادفه الآخر، عبر مقولة المواضع المنطقية، وقد حاول العديد من الدارسين وضع الفروق بينهما: أي بين الإقناع والحجاج، وذلك أنّ الإقناع هو ما به يحاول الإنسان إقناع نفسه، في حين أنّ الحجاج هو ما به يحاول إقناع الآخر، وذلك بوسائط متنافرة، منها ما يعود للغة وما توفره من بُنى وأساليب ومفردات وتركيب، وروابط مؤثرة حجاجياً»<sup>(1)</sup>، لهذا يُفصل بين الحجاج والإقناع النص الخطابي نص إقناعي، ولكنه ليس نصاً حجاجياً.

ومن هذا يطغى الحجاج الذي صورته الإقناع في كلّ موضع ويمكن فصل الحجاج والإقناع بالنظر إلى الحجج المعتمدة ذلك «لأن الحجاج عملية اتصالية، تعتمد الحجة المنطقية بالأساس وسيلة لإقناع الآخرين والتأثير فيهم»<sup>(2)</sup>. إضافة إلى وظيفة التأثير في هذه الحجج.

وبالنظر إلى طبيعة المتلقي، فإن كان المتكلم يجبره بكلام جديد فهو يُقنع، أما إن كان المتلقي رافضاً أو منكراً للكلام، فيتحوّل الخطاب من إقناعي إلى حجاجي، لأنّ المتلقي متى سلم بالمقدمات التي قدّمها المتكلم فهو مقتنع من طرفه، ومتى ردّها أو رفضها فهو محاجج، ويتمثل ردّ ورفض المتلقي في استخدامه لحجج قد تعيق حجج المتكلم من بلوغ هدفه .

ويتوقف الإقناع على التأثيرات التي يحدثها الكلام بفعل المتكلم سواء تعلّق الأمر بالفتنة، أو الانفعال، أو إحداث مجرد تقدّم، وهو يُنمّ من هذا الوجه عن ذكاء صاحبه وبشي بمعرفته الدقيقة بنفسية المتلقي وقدراته وآفاقه، لذلك نراه يعلن أمراً ويذكر آخر، يختزل فكرة ويسهب في تحليل أخرى، يسأل ويحجب، بل قد يأتي بالفكرة الواحدة على أنحاء مختلفة فيتجلى في خطابه سحر البيان وتتأكد فتنة الكلام.

ولإحداث أثر ما في المتلقي أي إقناعه بفكرة معينة، وهو ما يُعبّر عنه اللسانيون بالوظيفة الإيحائية (Conative) للكلام، وهو وضع لإقناع المتلقي بفكرة ما أو بحقيقة معينة عن طريق تقنيات مخصوصة، ويظهر ذلك أكثر في الخطاب الإشهاري حين يحاول الإشهار بمنتوج معين إقناع المتفرج واستمالاته كزبون<sup>(3)</sup>، ويشترط في الإقناع البيّنة التي تكون «فيه بمنزل الدليل الذي بلغ درجة الوضوح يصير معها المتوسل به قادراً على الظهور على خصمه، كما لو كان هذا الدليل الظاهر مُستغنياً بظهوره عن جانب الاستدلال فيه»<sup>(4)</sup>.

(1) عز الدين الناجح، المفهوم من خلال الملفوظ الإشهاري الخطاب، دورية أكاديمية، جامعة تيزي وزو، العدد: 02، ماي 2007، ص: 271.

(2) جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص: 105.

(3) ينظر، سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 26، 27.

(4) طه عبد الرحمن، اللسان الميزان أو التكوثر العقلي، ص: 136.

وهنا يتداخل الاستدلال والإقناع، لأنّ الدليل الذي هو جزء من عملية الاستدلال يوصف بأنه مقنع أو غير ذلك.

وعلى العموم فإنّ الاستدلال، والبرهان، والإقناع هي مصطلحات تُمثل وجوه الحجاج من جهة وتعرف سمات الخطاب الحجاجي بهم من جهة أخرى، بالنظر إلى المتكلم أهو يستدل؟ أو يبرهن؟ أم أنّه يقنع؟

ويمكن لهذه الوجوه وهذه السمات أن تحدد المراتب التي يترتب بها الحجاج ويمكن للمتفحص الواعي أن يدرك منزلة قطبي التواصل من هذا، بالإضافة إلى أنّه يوافق مصطلح البلاغة، والبيان، وغيرهما.

### 3- مراتب الحجاج؛

#### أ- الحجاج والبرهنة:

نطلق من الحجّة ومن «معناها السائر هي إمّا تمشى ذهني يقصد إثبات قضية أو دحضها، وإمّا دليل يُقدّم لصالح أطروحة ما، أو ضدها بهذا المعنى نقابل بين الحجّة "Argument" والبرهان "Prevue" وبين الحجاج "Argumentations" والبرهنة "Demonstration" وفي هذه الحالة فحسب يمثل الحجاج خصوصية تستحق دراسة مخصوصة»<sup>(1)</sup>.

من هنا ندرك أنّ البرهان تكون الحجّة خادمة له لإثبات قضية أو دحضها ويمكن تسميتها بالحجّة البرهانية، والسامع في هذه الحالة يكون مدرك لنتيجة القضية المُقدّمة وإمّا عمل المحاجج أن يبرهن له عن صحتها، وإمّا أن تكون في ذهنه نتيجة أخرى لنفس القضية المُقدّمة، وعمل المحاجج هنا البرهنة على صحة نتيجة مقدمته.

ويمكن «دراسة الحجاج من تحليل التقنيات الخطابية التي تسمح بأحداث ميل السامع إلى الأطروحات التي نعرضها على مسامعه أو التي تسمح بتعزيز ذلك الميل، وهذا ما يجعل الاختلاف بين الحجاج والبرهنة أمرا من قبيل المسلمات. أمّا البرهنة: فهي استنباط يهدف إلى الاستدلال على صدقِة النتيجة أو احتماليتها القابلة للاحتساب، وذلك انطلاقا من المُقدّمات المعتبرة صادقة أو محتملة وفي تقابل مع البرهنة التي يمكن أن تتخذ شكل حساب فإنّ الحجاج يُطلب به الإثبات والإقناع»<sup>(2)</sup>.

كما يمكن عدّ البرهنة مرتبة أولى بسيطة من الحجاج، ذلك لأنّ الحجاج «لا يتم توجيهه إلّا في سياق نفسي اجتماعي، فإن كانت البرهنة تقع بطريقة مجردة في استقلال عن كل سياق عدا سياق النظام وكانت

(1) صابر الجباشة، التداولية والحجاج، ص: 68.

(2) نفسه، ص: 69.



صحيحة أو خاطئة، مطابقة لقواعد الاستدلال في النظام أو غير مطابقة، فإنّ الحجاج ينهض على حجج مفيدة أو غير مفيدة قوية أو ضعيفة، موافقة للخطاب الذي نتوجه إليه، ولا يقوم التفكير الحجاجي على حقائق عامة ولكن على آراء تهتم بأطروحات من كل طائفة، فمجال تطبيق نظرية الحجاج يتجاوز مجال تطبيق نظرية البرهنة أيما تجاوز، ذلك أنّ الحجاجات تنهض على كل ما يمكن أن يكون موضوع إبداء رأي أو إصدار حكم قيمة أو حكم واقع أو موافقة نظرية أو مناسبة قرار، توفر البرهنة أدلة ضرورية، أما الحجاج فيقدّم أدلة لصالح أطروحة محدودة أو ضدها<sup>(1)</sup>. يغدو الحجاج من هذا هو الصورة الأكبر وتكون البرهنة جزءاً من هذه الصورة أو مرئية له.

### ب- الإفحام والإقناع:

يتجلى من العنوان أن يكون المتكلم ذا ملكة حجاجية هدفها إقناع السامع وإفحامه. «وتركز هذه النظرية على التنوع الشديد للمخاطبين الذين يُتوجّه لهم خطاب مكتوب حجاجي، هؤلاء المخاطبون الذين يُتوجّه نحوهم الحجاج يتراوحون كمياً من فرد واحد إلى البشرية جمعاء، ويتراوحون كيفياً من مجموعة من العوام المجتمعين في الساحة العامة إلى الفرق الدقيقة التخصص والعالية الكفاءة فئمة مخاطب من صنف خاص، إذ يوازن المتكلم بين الانتصار لشيء أو معارضته، جاعلاً نفسه كائناً مضاعفاً، إذ يتخذ المتكلم ذاته مخاطباً له»<sup>(2)</sup>.

نخلص إلى أنّ لكل سامع مرتبة من مراتب الحجاج تُمارس عليه من قبل المتكلم، وذلك بالنظر إلى ثقافة السامع ومحيطه والمجتمع الذي يعيش فيه ويتفاعل معه فمنه من يسمع يقتنع ولكنّ منهم من يسمع ليحاجج، ومن هنا ينتقل المحاجج إلى مرتبة الإقناع ومن بعدها الإفحام وفق آليات حجاجية تستميل ذهن أيّ نوع من السامع. ولكي تكون للمتكلم فكرة عن السامع عليه أن يعمل العقل «أي إنّ استعمال العقل ليس أمراً ذاتياً خالصاً، بل هو يستحضر الآخر / المخاطب) ويقرأ له حساب»<sup>(3)</sup>.

معنى هذا أن هناك عقول تقبل أيّ أطروحة وأيّ مقدمة لكن هناك عقول متوقّدة تستفسر وتساءل لتقنع في الأخير، و«يتمثل هدف الحجاج التأثير في الجمهور، والمعيّار الأول الذي نقيس به خطاباً ما هو نجاعته، بيد أنّه ليس معياراً كافياً لأننا لا يمكن أن نُهمّل نوعية الجمهور الذي يُوجّه الخطاب إليه، إنّنا نستطيع التمييز بين خطابات رجل السياسة والحامي، والعالم والمفكر والمتكلم (نسبة إلى علم الكلام) والفيلسوف، لا فقط بمواضيعها بل نميزها أيضاً وخاصة بالجمهور الذي تتوجّه إليه تلك الخطابات، وبحسب التقنيات

(1) صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص: 69.

(2) نفسه، ص: 70.

(3) نفسه، ص: 70.

المستعملة، فالإقناع سامع مخصوص تستعمل آليات لا تصلح لإقناع جمهور كوني، ويتسم الحجاج بالعقلاني لكونه قادرا على إقناع جمهور كوني»<sup>(1)</sup>.

لا يتحقق الإقناع والإفحام إلا إذا كان السامع لا يقبل المسلمات والمقدمات مجرد سماعها، ووجب على المتكلم أن يمتلك ناصية الإقناع في الكلام وطرق الإفحام به، من هنا يبرز شساعة المدى الذي تكون عليه الممارسات الخطائية الحجاجية مستقرة، والمدى الذي تكون عليه قابلة للتغيير.

#### 4- بواعث الحجاج:

إن الخطاب ممارسة كلام بين طرفين أو أكثر، لكن قد توجد هذه الممارسة لإقامة علاقة تخاطبية، هذه العلاقة قد تكون لنقل قول، أو الإخبار عن شيء، وقد تنشأ لإقناع الطرف الآخر، ويحمله على ما يتكلم به، وهنا يكون للخطاب عدّة مقاصد «قصد التوجه إلى الآخر وقصد إفهامه مرادا مخصوصا، من غير أن يسعى إلى جلب اعتقاد أو دفع انتقاد، ولا أن يزيد في يقين أو ينقص من شك، وإنما حقيقة الخطاب تكمن في كونه يضيف إلى القصدتين التخاطبيتين المذكورين قصدتين معرفيتين هما قصد الإدعاء وقصد الاعتراض»<sup>(2)</sup> نراهما من بواعث الحجاج.

وقصد الإدعاء يقتضي «أن المنطوق به لا يكون خطابا حقا، حتى يحصل من الناطق صريح الاعتقاد، لما يقول من نفسه، وتمام الاستعداد لإقامة الدليل عليه عند الضرورة، ذلك لأن الخلو عن الاعتقاد يجعل الناطق، إما ناقلا لقول غيره، فلا يلزمه اعتقاده، وإما كاذبا في قوله، فيكون عابثا باعتقاد غيره، ولأن الخلو عن الاستعداد للتدليل يجعل الناطق إما متحكما بقوله، فلا يتوسل إلا بالسلطان، وإما مؤمنا بقول غيره، فلا يحتاج إلى برهان»<sup>(3)</sup>.

ولا شك أن هذا الإدعاء «يقابل المقدمات بمصطلح آخر التي تُدعم بأدلة وحجج ثم النتائج، وأما قصد الاعتراض فبمقتضاه أن المنطوق به لا يكون خطابا حقا حتى يكون للمنطوق له حق مطالبة الناطق بالدليل على ما يدّعيه، ذلك لأن فقد المنطوق له لهذا الحق يجعله، إما دائم التسليم بما يدّعيه الناطق، فلا سبيل إلى تمحيص دعاويه، وإما عديم المشاركة في مدار الكلام»<sup>(4)</sup>.

نشير إلى أن المعارض هو المخاطب والمدّعي هو المخاطب، فلفظة معارض تدلّ على كل سامع يطالب بدليل على ما يقوله له المدّعي وهو المتكلم، ومن هنا الإدعاء والاعتراض يشاركان في تكوين سبب

(1) صابر الحياشة، التداولية والحجاج، ص: 70.

(2) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 225.

(3) نفسه، ص: 225.

(4) نفسه، ص: 226.

للحجاج وعليه فلا متكلم من غير وظيفة الإدعاء ولا سامع من غير أن تكون له وظيفة المعترض، ونبين أن هذا من بواعث الحجاج مما يتعلق بوظيفة طرفي التواصل، أما المتكلم فيدعى أمرا، والسامع يعترض ذلك الادعاء بطلبه الدليل وإقامة الحجة.

رأينا الباعث الأول من حيث قصد المتكلم والسامع، وهناك من بواعث الحجاج - أيضا - التي تُعدّ المحرك الأول له، وهو الاختلاف Disagreement، فالحجاج لا يكون فيما هو يقيني أو إلزامي، فلا نحاجج في أمور حقيقية يقينية راسخة كالحقائق الرياضية مثلا، أو في أمر مأخوذ على أنه أمر صارم واجب النفاذ وإثما يكون الحجاج كما يقول "بيرلمان" فيما هو مرجح Likley، وممكن Plausible، ومحمتم Probable، كما أن الأدلة التي تُقدّمها المحاجة ليس من شأنها أن تكون حاسمة فاصلة فيما تثبت أو تنفي، بحيث تقرر ما تقرر أو تنفي ما تنفيه على سبيل الحقيقة المؤكدة الراسخة، التي لا تقبل شكاً، أو لا تقبل احتمال خطأ ما تثبته أو صحة ما تنفيه، إذ ليس لمسألة ما تدور حولها محاجة حقيقية واحدة أو مطلقة، بل لها حقائق متعددة ومتدرجة، وعلى الأدلة أن ترجح إحداها على الأخرى أو أن تصل إلى ما هو أقرب إلى الصواب<sup>(1)</sup>.

يتبين لنا من هذه الأفكار أن الاختلاف يكون بين المتكلم والسامع في أمور ومواضيع ممكنة ومرجحة، أي تكون الغلبة لطرف ولا يكون الحجاج قائم على الاختلاف في أمور وحقائق ومعارف متفق عليها ومشروعة في المجتمع على اصطلاحيتها، بالإضافة إلى الحقول التي يكون الحجاج فيها والتي ذكرها "بيرلمان". «فيري أن مقدمات الحجاج هي التي تؤسس نقاط الانطلاق للحجاج Points du départ de l'argumentation ومن أهم هذه المقدمات الوقائع les faits والحقائق ratites والافتراضات présomption والقيم valeurs وهرمية القيم Hiérarchies des valeurs والمواضع Lieux، وكل هذه المقدمات كما يرى "بيرلمان" تنفرع إلى ضربين: أحدهما مداره على الواقع le réel وهو الخاص بالوقائع والحقائق والافتراضات والآخر مداره على المفضل le préférable وهو المتعلق بالقيم ومراتبها وبالمواضع<sup>(2)</sup>.

فالوقائع تمثل باعثا للحجاج من زاوية أنها مشتركة بين عدة أشخاص أو بين جميع الناس... والافتراضات، فهي تسلم من طرف المعنيين بها ولكنها ليست ثابتة وهي متغيرة تبعا للوسط والمقام والمتكلم والسامعين، أما القيم فاحترامها يمثل فاعلية في نجاح الحجاج، إذ الاختلاف يقع في نقاط وهو يقوم بين متخاطبين بما يسمى بالحجاج، إذن تكون الممارسات الخطابية حجاجية ومداها أكبر في هذه البواعث: المقدمات، الاختلاف، الإدعاء، والاعتراض وتكون مختلفة متى اختلفت هذه البواعث.

(1) جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص: 106.

(2) محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 111، 113.

## 5- أنواع الحجج:

يتميز الحجج بالتنوع وذلك بالنظر لقصد المخاطب المحاجج، وبالنظر إلى قيمته وبالنظر إلى طبيعة الحجج المقدمة.

### أ- الحجج التوجيهي:

والتوجيه يختص به المحاجج وهو طريقة بها يوصل أدلته إلى غيره «وهو إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه الذي يختص به المستدل، فقد ينشغل المستدل بأقواله من حيث إلقاءها، ولا ينشغل بنفس المقدار بتلقي المخاطب لها ورد فعله عليها، فنجده يُولي أقصى عنايته إلى قصوده وأفعاله المصاحبة لأقواله الخاصة غير أن قصر اهتمامه على هذه القصور والأفعال الذاتية يقضي به إلى تناسي الجانب العقلاني من الاستدلال، هذا الجانب الذي يصله بالمخاطب ويجعل هذا الأخير متمتعاً بحق الاعتراض عليه»<sup>(1)</sup>.

### ب- الحجج التقويمي:

وهو أن إقامة مخاطب وهمي للحوار معه «وهو إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يُجرد نفسه ذاتاً ثانية ينزها منزلة المعارض على دعواه، فهنا لا يكتفي المستدل بالنظر في فعل إلقاء الحجّة إلى المخاطب واقفاً عند حدود ما يوجب عليه من ضوابط وما يقتضيه من شرائط، بل يتعدى ذلك إلى النظر في فعل التلقي باعتباره هو نفسه أو متلق لما يلقي، فيبني أدلته أيضاً على مقتضى ما يتعين على المستدل له أن يقوم به مستقباً استفساراته واعتراضاته ومستحضراً مختلف الأجوبة، ومستكشفاً إمكانات تقبلها واقتناع المخاطب بها»<sup>(2)</sup>، وهذا لبلوغ الهدف ومقابلة المعارض بما يجب في الوقت المناسب.

### ج- الحجج التجريدي:

وهو «الإتيان بالدليل على الدعوى على طريقة أهل البرهان، علماً بأن البرهان هو الاستدلال الذي يعنى بترتب صور العبارات بعضها على بعض بصرف النظر عن مضامينها واستعمالاتها»<sup>(3)</sup>. وهذا يعني توظيف الحجّة للبرهنة على صحة مقدمة نتيجتها معلومة لدى السامع، لكن يحاول المتكلم الزيادة والتأكيد على صحتها في ذهنه.

(1) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، التكوثر العقلي، ص: 227.

(2) نفسه، ص: 228.

(3) نفسه، ص: 226.

#### د- الحجاج وجه / ذات:

وهو أقدم صورة أو نوع للحجاج وهو حجاج يقوم على مواجهة الخصم بكلامه أو بأفعاله كحجة عليه، «ومعناه إدانة المتكلم من كلامه، أي استغلال كلامه وتوظيف أسلوبه في الردّ عليه إن أمكن ذلك»<sup>(1)</sup>.

#### ه- الحجاج وجه / ذات الاستهجاني:

ويتجلى من «خلاله الفرق بين الكفاءة وعدمها فعلى مرسل الخطاب، وخاصة الإبداعي، أن تكون توقعاته كبيرة وصادقة بحيث لا يصل إليها الأفراد العاديون، وذلك لكي يحدث لديهم المفاجأة التي تلعب طرفتها وممتعتها دورا كبيرا في الدفع على الفهم المطلوب»<sup>(2)</sup>.

#### و- الحجاج السلطوي:

ويقصد «بالسلطة في نظر وودز وزميله دوغلاس والتون، معنى قريب من الخبرة المعرفية، أي أن تكون للشخصية المتكلمة (مرسل الخطاب) قدم راسخة وباع طويل في المجال الذي يتحدث فيه، ويمكن أن يُضاف إليه الاحتجاج المستمد من المكانة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية التي يتمتع بها المتكلم»<sup>(3)</sup>.

#### ز- حجاج القوة:

وفي هذا الحجاج يكون المستمع أقل منزلة من المتكلم، فيطبق ما أمر به خوفاً من العقاب، وهدف هذه الخطابات هو الإذعان والإخضاع، أما الاقتناع فيمثل المرحلة الثانية، فيعمد المخاطب ويستند إلى التهديد ومنه يستمد الحجة ليؤسس الاقتناع على شكل الاستسلام ويغلب هذا المنحنى في الحجاج على الخطابات المسلطة مثل، الخطاب التربوي أو الديني أو السياسي<sup>(4)</sup>.

#### ح- الحجاج الجماهيري:

وهو نمط من الحجاج أصبح مشهورا خاصة «في وسائل الإعلام المرئية والمقروءة، لذلك نجد توظيفها على الأصعدة السياسية والتجارية الإشهارية كثيرا، وفي هذا الحجاج يتوجه متكلم إلى جماعة معينة بغية إقناعهم بأمر معين فإذا تمسوا له وتحركوا في سبيل انجازه كان الحجاج قد أدى غايته»<sup>(5)</sup>.

(1) محمد سالم محمد، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 198.

(2) نفسه، ص: 199.

(3) نفسه، ص: 199.

(4) ينظر، نفسه، ص: 200، 201.

(5) نفسه، ص: 201.

## ط- المحاججة بالتجهيل:

ويعتمد هذا الحجاج على قاعدة ترى «أن المخاطب إذا لم يدل بما من شأنه دحض أقوال المتكلم، فحجج هذا الأخير صحيحة. لكن هذا ليس مطلقا، فإن لم يتوفر للمحاجج دليل ينفي حجة خصمه لحظة الحوار، فليس معنى هذا أن الحجة صحيحة بشكل مطلق، فقد تغيب الحجّة أو الدليل على المحاجج لعدّة اعتبارات منها النفسي والسياقي والمعرفي والاجتماعي بتعريفاته المتعددة»<sup>(1)</sup>.

هذه الأنواع تقع تحت ما يسمى بالحجاج المغالط وهو حجاج يعتمد في المتكلم إيقاع المخاطب في شراك أقواله وأفعاله لتؤخذ كدليل وحجة عليه، وقد يدفعه لنقض ما كان يدعى، ليكون هذا التناقض حجة عليه وخروج المخاطب من شراك هذه المغالطات الحجاجية مرهون بخبراته الاجتماعية وكفاءته المعرفية بهذا الضرب من الحجاج.

وأنواع الحجاج تؤخذ من عدّة اعتبارات: فمثلا باعتبار نوع النص: فهناك حجاج فلسفي، وقضائي وإعلامي، وجدلي، وحواري، وباعتبار نوع الحجّة حجاج منطقي باعتبار الحجّة المنطقية وحجاج علمي، وحجاج لغوي وغير لغوي، أما اللغوي فهو كل الآليات اللسانية التي يعتمد عليها المحاجج، وأما غير اللغوي فهو يتمثل في وظائف: كالإشارة والصوت حجاجيا، ويُعرف أيضا بالحجاج داخل اللّغة كما هو عند ديكرو.

أما أنواع الحجاج من ناحية الشكل أو باعتبار الشكل: فهو نوعان:

أولا: «المعطاء (مقدمة تطرح إشكاليتين أ و ب):

✓ حجج تخدم (تدعم) (أ)

✓ حجج تخدم (تدعم) (ب)

✓ نتيجة ظاهرة أو مضمرة»<sup>(2)</sup>.

ويمكن أن نضع لهذا النوع الشكل الآتي:



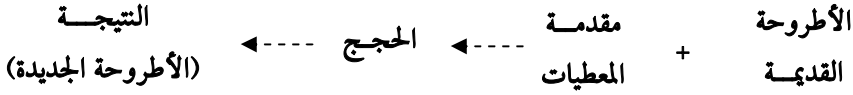
مثل قول ابن باديس<sup>3</sup> في كلمات حكيمة: «لا شرف لمن لا يحافظ على شرف وطنه، ولا سمعة لمن لا سمعة لقمومه»<sup>(3)</sup>.

(1) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 202.

(2) الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن سورة النحل أمودجا، مجلة ملتقى علم النص، ص: 331.

(3) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وأثاره، الجزء 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة 1، 1983، ص: 306.

- المعطاة: المقدمة وهي: انعدام الشرف، وانعدام السمعة.
  - الحجج: • عدم المحافظة على شرف الوطن حجة لانعدامه (الشرف).
  - عدم وجود سمعة القوم حجة لانعدام السمعة الشخصية.
  - النتيجة: • الظاهرة: الشرف والسمعة من شأنها المحافظة على الوطن والسمعة القومية.
  - المضمر: الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي وحرية الوطن.
- ثانيا: ويتمثل في الدفاع عن أطروحة (معطاة) بالحجج ويمكن أن تمثل لها بالرسم التالي<sup>(1)</sup>:



مثال: قول ابن باديس "في سبيل التعلّم والتقدّم: «ما من شك في أنّ الشعب الجزائري شعر بسوء الحالة التي وصل إليها في جميع نواحيه، ما من شك في أنّه قد آلمه ما شعر به فأخذ يعمل للتخلص من تعاسته والنهوض من كبوته بكل ما يستطيع، الشعب الجزائري شعب مسلم طبعه الإسلام على تعظيم العلم، وحب التعلم، واحترام المتعلمين فلما دبّت في الحياة وهباً للنهوض، اندفع للتعلم اندفاعاً أدهش قوماً وحيّر آخرين»<sup>(2)</sup>.

- فهنا يظهر ابن باديس "مدافعا، عن الجزائر وسبيلها في التعلم والتقدم ويدحض المقولة المتمثلة في:
  - الأطروحة القديمة: عدم إقبال الجزائر على دور العلم، وعدم الأخذ بأسباب التقدم.
  - المعطيات المقدمة: سوء حالة الجزائر في جميع النواحي، الشعور بالألم والرغبة في التخلص من هذه الحالة.
  - الحجج: ذكر صفات الشعب الجزائري: مسلم، يُعظم العلم، يجب التعلم، يحترم المتعلمين.
  - النتيجة (الأطروحة الجديدة): النهوض والاندفاع للتعلم، هذا الاندفاع أدهش قوماً وحيّر آخرين.
- تمثل دفاع ابن باديس "بنفي الشك وعمّا يُقال عن الشعب الجزائري من طرف أعدائه وهذه هي الأطروحة القديمة، والأسباب التي أدّت لذلك الاستعمار الفرنسي وسوء الحالة، وهذه هي المقدمة والمعطيات، وقدّم الحجج بإسلامية الشعب الجزائري وتقديره للعلم وميادينه.

(1) الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن سورة النحل أمودجا، مجلة ملتقى علم النص، ص: 331.

(2) عمار الطالبي، ابن باديس، حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 255.

أما النتيجة (الأطروحة الجديدة): الشعب الجزائري بهذه الحجج شعب مندفع للعلم ويسعى للتقدم رغم صدمات الحوادث، وقوارع الزمان، ومناخيس البلايا التي خرقت الجلد واللحم والعظم وبلغت إلى شغاف الفؤاد.

يتبين لنا أنّ الحجاج أنواعه تُؤخذ من اعتبارات عدّة منها باعتبار الخطاب ونوعه وباعتبار المقام ونوعه، وباعتبار نوع الحجة المعتمدة وباعتبار الهدف والغاية، وباعتبار الوسائل المعتمدة في الحجاج.

## 6- أنواع الحجج:

وتنقسم إلى أنواع عدّة، حيث يعتمد المتكلم الحجة المناسبة لإقناع المستمع ويدعم ذلك بحجج أخرى تخدم الأولى، تحسباً لأيّ اعتراض عكسي أو حجاج عكسي من المستمع. وقد تكون الحجة - نوعها وطريقة توظيفها - هي الملاذ الوحيد للمتكلم لبلوغ هدفه في استمالة المتلقي وإقناعه، لذلك وجب اختيار الحجة المناسبة التي تدعم ما يقدمه المتكلم من مقدمات من جهة وتقنع المتلقي من جهة أخرى، وقد يتوقف نجاح الحجاج عليها إذا لم تُوظف توظيفا مناسباً، ويمكننا تقسيم الحجة إلى أنواع عدة:

أ- الحجج شبه المنطقية: وتعتمد هذه الحجج على كسب القوة الإقناعية من «بعض البنى المنطقية مثل التناقض، والتماثل التام أو الجزئي وقانون التعديّة»<sup>(1)</sup>.

أما الأولى (البنية الأولى التناقض): فيعمد هنا المتكلم في الجمع بين حكّمين متعارضين في خطابه وهنا يكون هدفه إثبات حكم وإقصاء آخر، ليقنع المتلقي بالحكم المثبت وعادة ما يكون إقصاء الحكم الآخر بالسخرية.

أما التماثل التام أو البنية الثانية فتكون فيها الحجة بلفظ مشابه للفظ الأول كما في قولك الجزائر هي الجزائر "وتكون حجاجية أكثر أي لا تكتسب قيمتها الحجاجية إلّا في مقامات بالغة الخصوصية"<sup>(2)</sup>.

أما حجج التعديّة أو البنية الثالثة فتعمد هذه الحجج لكسب صفتها الحجاجية على «توظيف قيمة عنصر ثالث يتم المرور عبره لتأكيد صدق العلاقة بين العنصرين الأول والثاني»<sup>(3)</sup>، وهذا التوظيف يُؤدي على استنتاج علاقات أخرى، مثل: عدوّ فرنسا صديق الجزائر، نستنتج من هذا علاقة أخرى منطقية هي: حليف الجزائر عدوّ فرنسا.

(1) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 128.

(2) نفسه، ص: 128.

(3) نفسه، ص: 129.



- ب- الحجج المؤسسة على بنية الواقع: وهي حجج يَعمدُ فيها المتكلم إلى جعل أحكامه مثبتة ومقبولة، كالمسلمات ويسعى إلى جعلها في كل واحد، «بحيث لا يمكن التسليم بأحدها دون أن يسلم بالأخر»<sup>(1)</sup>.
- ج- الحجج المؤسسة لبنية الواقع: أي «تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة، كالمثل l'exemple الذي يُؤثر به لتأكيد الفكرة المطروحة و يلحق بالمثل الاستشهاد بالنصوص ذات القيمة السلطوية على المخاطب كالمقولات الدينية أو كلمات القواد الخالدين»<sup>(2)</sup>.
- وهذه الأنواع تتصل وتكون جلية أكثر - بالحجاج الاتصالي الذي أتى به بيرلمان<sup>3</sup> وتصنف الحجج أيضا بالنظر إلى أدواتها:
- د- حجة التبرير: وأداتها «بما أن»<sup>(3)</sup> وتعتمد على المسلمات اليقينية للحجاج بمقدمات أقل يقينية من المسلمات، وقد يقتنع بها المستمع وقد لا ينجح ذلك، وتعتبر «بما أن» أداة تبرير تقدم الحقيقة المسلم بها أولاً لتصل إلى النتيجة، وتتحقق أكثر في المجالات الفكرية.
- هـ- حجة الاتجاه: وهدفها تحقيق الغاية من الحجاج، حيث توجه المستمع على التحذير من القيام بفعل، أو الترغيب للقيام به، وهي تخدم أكثر الحجاج إذا تعلقت بالتعليم والدين، ومجالها تربوي.
- و- الحجة التواجدية: ويمكن تسميتها بحجة السلطة، «وُبنى على علاقة الشخص بعمله»<sup>(4)</sup>، وفيها يتحول المتكلم إلى سلطة و«يحرص على الظهور بمظهر من لا يُردّ له قول ولا يُفند له رأي»<sup>(5)</sup>.
- ز- الحجة الرمزية: تؤثر قوة الرمز «في الذين يُقرّون بوجود علاقة بين الرموز والمرموز إليه كدلالة العلم في نسبه إلى وطن معين»<sup>(6)</sup>.
- ح- حجة المثل: إن الغاية من اعتماد المثل في الحجاج «هو التأسيس للقاعدة والبرهنة على صحتها»<sup>(7)</sup>.
- ط- الحجة التاريخية: وفيها يعمد المتكلم إلى حدث تاريخي أو ظاهرة، ليُقنع المتلقي بصحة دعواه وتكون هذه الحجة رابطة للنتيجة.
- ك- الحجة الطبيعية، الحجة الدامغة، الحجة النافذة: وتعتمد على العقل ومعارف واقعية.

(1) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 131.

(2) نفسه، ص: 131.

(3) صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص: 48.

(4) نفسه، ص: 48.

(5) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر القديم، ص: 235.

(6) صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص: 48.

(7) نفسه، ص: 48، 49.

ل- **الحجة المضادة (المعاكسة):** وتكون في الحوار وهو حدس يستعمله المتكلم في حالة ما رفض السامع مقدماته، أو قدّم حججا لذلك، فيكون المتكلم مستعدا بوضع حجج مضادة لحجج المتلقي (المحاور). فنقول: تُصنّف الحجة باعتباريات عدّة كما يُصنّف الحجاج، باعتبار مصدرها، ووظيفتها، وأدواتها، وهذا ما أدى إلى انفتاحها على ثلاثة نماذج:

لو أعدنا النظر للعلاقة الموجودة بين الحجاج والتواصل، فإننا نتوصل إلى أنّ كلّ حجاج يُجسد التواصل بكلّ أبعاده ونظرياته، متضمنا عناصره وعلاقاته، وبموجب تغيّر التواصل يتغير الحجاج إن كان هو النموذج المتواصل به، وبتغيره تتغير الحجج فإن كانت الحجة بناء استدلالي مستقلا بنفسه فهذه الحجة المجردة أو التجريدية.

أما إن كانت الحجة فعلا استداليا يعمد إليه المتكلم بغرض إفادة المستمع بشرط أن تكون هذه الإفادة مصاحبة لتقويم هذا الفعل لدى المستمع، فهذه الحجة المقومة أو التقويمية. أما إذا وردت الحجة فعلا استداليا يأتي به المتكلم دون شرط التقويم، فهذه الحجة الموجهة أو التوجيهية.

هذه الحجج الثلاث: الحجة التجريدية والحجة التقويمية والحجة التوجيهية، وبمحكم أنّ الحجاج تواصل، ترتبط بنماذج ثلاثة من التواصل هي على الترتيب:

- **النموذج الوصلي للحجة:** ويرتبط هذا النموذج بالحجة المجردة ويعاملها معاملة البناء الاستدلالي (للحجة) المستقبل، ووظيفتها التواصلية ووظيفة وصل.
- **النموذج الاتصالي للحجة:** ويرتبط هذا النموذج بالحجة التقويمية، إذ يعامل الحجة بوصفها فعلا مشتركا بين المتكلم والمستمع، جامعا بين توجيه الأول وتقويم الثاني<sup>(1)</sup>.
- **النموذج الإيصالي للحجة:** ويرتبط هذا النموذج بالحجة التوجيهية، من زاوية أن الحجة فعل استدالي يبدأ من متكلم متوجها بكلامه إلى مستمع<sup>(2)</sup>.

عموما أنواع الحجج يستند الباحث لتصنيفها إلى عدّة اعتبارات كما رأينا، والواقع أن النظرية التواصلية تقودنا على تقاطع دقيق تتصل فيه مع النظرية الحجاجية عن طريق وظيفة كل حجة، ودور المتكلم، والمستمع، ونوع الخطاب.

(1) ينظر، طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 255، 256.

(2) ينظر، نفسه، ص: 255، 256.

## 7- علاقات الحجاج :

يُقيم الحجاج علاقات مختلفة وكلّ علاقة لها مجالها الخاص، يمكن التعرف على وسائل وتقنيات الحجاج بعد أن نتعرف على هذه العلاقات.

### أولاً: العلاقة الاستدلالية:

بين المتكلم والمستمع، ويقيم هذه العلاقة ما يبعث المتخاطبين للحجاج، الإدعاء والاعتراض، فيمكن أن يأخذ المتكلم أي المحاجج الناجح ما يدركه عن المعارض ليكون حجة عليه سواء قولاً أو فعلاً، أي يمكن أن يكون المستمع هو الوسيلة والتقنية للحجاج في حال ما قدّم اعتراضاً.

### ثانياً: العلاقة التخاطبية :

ومن هذه العلاقة «يكون المتكلم فيها فضل السبق في إقامتها كما يكون له حق الانتهاض فيها بأدوار مختلفة مما يجعله لا ذاتاً واحدة، وإثماً ذوات متعددة»<sup>(1)</sup>، فباختلاف ذوات المتكلم من ناقل، مبلغ، قائل، متأدب، متخلق، هذه الذوات تجعل المستمع يقتنع ويتنفع، ويمكن أن يكون هذا الاختلاف للمتكلم وسيلة حجاجية لإقناع المستمع.

### ثالثاً: العلاقة المجازية:

يُعرف المجاز بأنه «كل منطوق به مُوجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها بحسب القيمة التي تحملها»<sup>(2)</sup>.

وفي هذه العلاقة يمكن أن يكون المجاز تقنية حجاجية بكل أنواعه: استعارة، كناية، تشبيه. هذا بالنظر إلى علاقات الحجاج التي يقيمها.

نخلص إلى أنّ هذه الوسائل: متعلقة تارة بالمتكلم وتارة أخرى بالمستمع وتارة أخرى بالخطاب، وكلّها تعود إلى المتكلم المحاجج الذي يعتمد آليات، تقنيات، استراتيجيات لخطابه ليدعم به حججه بهدف الإقناع.

(1) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 224.

(2) نفسه، ص: 231.

## 8- تقنيات ووسائل الحجاج؛

أما تقنيات الحجاج فيقسّمها (بيرلمان وزميله) إلى فئتين - هذا التقسيم يخص تقنيات الحجاج اللغوية، متمثلة في تقنية طرق الوصل وتقنيات طرق الفصل «ويقصد بالأولى ما يتم به فهم الخطط التي تُقرب بين العناصر المتباعدة في الأصل لتمنح فرصة توحيدها من أجل تنظيمها، وكذلك تقويم كل منها بواسطة الأخرى سلباً وإيجاباً وتقنيات الفصل هي التي تكون غايتها توزيع العناصر التي تُعدّ كلا واحداً أو على الأقل مجموعة متحدة ضمن بعض الأنظمة الفكرية أو فصلها أو تفكيكها»<sup>(1)</sup>.

ويمكن تقسيم تقنيات الحجاج إلى:

- «الأدوات اللغوية الصرفية: مثل ألفاظ التعليل، بما فيها الوصل النسبي والتركيب الشرطي وكذلك الأفعال اللغوية والحجاج بالتبادل والوصف وتحصيل الحاصل.
- الآليات البلاغية: مثل تقسيم الكل إلى أجزائه، والاستعارة، البديع، التمثيل.
- الآليات شبه المنطقية: ويجسدها السُّلم الحجاجي بأدواته وآلياته اللغوية، ويندرج ضمنه كثير منها، مثل الروابط الحجاجية: لكن، حتى، فضلاً، عن، ليس، كذا، فحسب، أدوات التوكيد ودرجات التوكيد والإحصاءات، وبعض الآليات التي منها الصبغ الصرفية مثل التعديّة بأفعال التفضيل والقياس وصبغ المبالغة»<sup>(2)</sup>.

أما بالنظر إلى استراتيجية الحجاج وهي الإقناع التي يعتمدها في قيامه، وتكون هدفاً لممارسته من قبل المتكلم فإنّ الوسائل والتقنيات التي تقع تحت استراتيجية الإقناع هي:

### 1- الوسائل اللسانية:

ونقصد بها أدوات الاتساق والترابط والانسجام.

وقد تُستعمل أدوات الاتساق استعمالاً حجاجياً ومن أهمها:

- أ- الإحالة: وتكمن حجاجيتها في «أنّ العناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكتف بذاتها من حيث التأويل، إذ لا بُدّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها»<sup>(3)</sup>، وهي تنقسم إلى نوعين: إحالة مقامية، وإحالة نصية، وتنقسم الإحالة النصية إلى قبلية وبعديّة.

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، الطبعة 1، 2004، ص: 477.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 477.

(3) محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص، دار المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة 1، 1991، ص: 16، 17.

- بهذا تُؤخذ الإحالة بنوعها كوسيلة لسانية للحجاج تُؤثر على المستمع، لعمله العقلي في إيجاد الشيء المُحال له وأدوات الإحالة ولإيجاد معناها يجب مراعاة ما تسند إليه.
- ب- الحذف: وهو علاقة داخل النص، تكمن حجاجيته في جعل القارئ يملأ هذا الفراغ، بالاعتماد على ما ورد في الجملة الأولى أو استنادا لما سبق.
- ج- الوصل: هو «تحديد الطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منظم»<sup>(1)</sup>. ويمكن أن تُؤخذ أدوات الربط خدمة لهذا الوصل بكل أنواعه: الوصل الإضافي، العكسي، السببي، والزمني.
- د- التكرار: هو «شكل من أشكال الاتساق المعجمي يتطلب إعادة عنصر معجمي أو ورود مرادف له أو شبه مرادف أو عنصرا مطلقا أو اسما عاما»<sup>(2)</sup>.

تكمن حجاجية التكرار في إعادة اللفظ أو معناه، فهو بقدر ما يؤكد المعنى تُعدّ له هذه الوظيفة حجاجية.

## 2- الوسائل الأصولية والفلسفية:

- أ- القياس: وقد سمّاه طه عبد الرحم<sup>ن</sup> بالاستدلال الكلامي<sup>ن</sup> في كتابه في أصول الحوار وتجديد علم الكلام وهو ما يُعرف بالقياس والمماثلة، ويعتبر أبرز وسيلة حجاجية استوحاها الخطاب الحجاجي من الأصوليين والفلاسفة.
- فالقياس «فعالية استدلالية خطابية»<sup>(3)</sup> ونفهم من هذا أنّ القياس يُؤثر به كوسيلة حجاجية في الخطاب ليكون أكثر نجاعة وإقناعا علما أنّ هذا القياس أنواع: القياس البياني، المماثلة أو القياس العرفاني، القياس البرهاني.
- ب- التمثيل: وفيه تعقد «الصلة بين صورتين ليتمكن المرسل من الاحتجاج، وبيان حججه»<sup>(4)</sup>، ومن هنا يتقاطع القياس مع التشبيه في العناصر، ويظهر هذا في كون القياس «إظهار لوجود الشبه بين الشئين»<sup>(5)</sup>، بمعنى أنّ «القياس أيّاً كانت صيغته التعبيرية التي يرد بها إن مقارنة أو تشبيها أو

(1) محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص، ص: 22.

(2) نفسه، ص: 24.

(3) طه عبد الرحم<sup>ن</sup>، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص: 98.

(4) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 497.

(5) طه عبد الرحم<sup>ن</sup>، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص: 99.

استعارة أو غيرهما، فإنه يقوم في الربط بين شيئين على أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما»<sup>(1)</sup>.

ويمكن القول: «إنّ القياس هو البنية الاستدلالية لكل قول طبيعي، حقيقة كان أو مجازاً، فإنّ الأول مجازاً، فإنّ استعاري أو غير استعاري، فإن كان الأول فلا منازعة في صفة المشابهة القياسية التي تقوم بها الاستعارة، وإن كان الثاني، فمردّه إلى دلالة المفهوم المعبر في القياس، وأمّا إن كان القول حقيقة فلا مندوحة من التسليم بأن تعقله»<sup>(2)</sup>.

نخلص في الأخير إلى أنّ القياس آلية منطقية حجاجية، يمكن للمحتاج أن يعتمد عليها في إقناع المعارض عن كلامه وعليه: فإن «الاستدلال القياسي يحتوي الآليات التي يتوالد بها كلّ خطاب طبيعي وتتكاثر بها أجزاؤه، وتتماسك فيما بينها»<sup>(3)</sup>.

وما دام القياس يُعدّ وسيلة وآلية حجاجية وجب أن نبين أن فعالية الاستدلال القياسي تبنى على ثلاث مسلمات وأهمها المسلمة الحوارية، «ومقتضى هذه المسلمة أنّه لا كلام مفيد إلاّ بين اثنين، لكل منهما مقامان، هما مقام المتكلم ومقام المستمع، ولكل مقام وظيفتان هما وظيفة المعتقد ووظيفة المنتقد، بحيث إذا كان المتكلم معتقداً كان المستمع منتقداً، وإذا كان المستمع معتقداً كان المتكلم منتقداً»<sup>(4)</sup>.

ويمكن تلخيص فائدة اعتماد القياس في الخطاب الحجاجي، فالقائس «لا يُصدر حكماً من عنده، لا يبتدئه، بل إنّما يمدد حكم الأصل إلى الفرع، إثباتاً أو نفيًا، اعتماداً على ما يجده هو من شبه بينهما يبرر القياس»<sup>(5)</sup>.

وهذا ما يظهر قوة القياس الحجاجية لأنّه يزيد من القوة الإقناعية لخطاب المتكلم، ومن هذا نخلص إلى المكانة التي يحتلها القياس بأنواعه في نجاعة الخطاب الحجاجي، بل يمكن القول إنّ الخطاب الحجاجي إنّما هو حجاجي، لأنّه يقوم على القياس، كما توصف الفلسفة، والفقه، والأصول، والبلاغة... بأنها حجاجية (استدلالية) لاعتمادها القياس آلية حجاجية ووسيلة لتثبيت قضاياها، وهكذا فإنّ القياس آلية من الآليات الحجاجية في الحقل الخطابي الحجاجي، وللقائس «دور كبير في هذه الصناعة عند من يحذق استعماله، لأنّ لمقدماته صوراً عديدة فمنها مثلاً ما هو معلوم علم اليقين ومنها المظنون، ومنها المحسوس،

(1) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص: 98.

(2) نفسه، ص: 115.

(3) نفسه، ص: 115.

(4) نفسه، ص: 99.

(5) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 139.

ولكل منها درجته الحجاجية، بحيث يعتمد الحجاج إلى التركيز على الجزء الذي يخدم بناء الحجاجي<sup>(1)</sup>، ومعنى هذا إن القياس يساهم في صبغ الخطاب بصبغة حجاجية ويفيه حقه من الإقناع، فمن الخطاب «يستمد مسلماته وفيه يبني عملياته، وبه يربط قواعده [...] لذلك اختص بصفات تداولية منطقية متفردة تجعل الآليات القياسية لا ينحصر عملها في قطاع فكري معين، وإنما يشمل كل خطاب طبيعي أيّا كانت لغته، وأيّا كان مجاله وأيّا كان مستواه»<sup>(2)</sup>.

### 3- الوسائل البلاغية:

ميزة الكلام بين اثنين التخاطب مع وجود نية التأثير وبصور مختلفة «واللغات تتفاضل في حقيقتها وجوهرها بالبيان، وهو تأدية المعاني التي تقوم بالنفس تامة على وجه يكون أقرب إلى القبول وأدعى إلى التأثير، وفي صورتها وأجراس كلمها بعدوبة النطق، وسهولة اللفظ والإلقاء، والخفة على السمع وإن للغة العربية من هذه المميزات الميزان الراجح، والجواد القارح. يعرف ذلك من أخذها بحق، وجرى فيها على عرق، فكان من مفرداتها على علم، وضرب في أساليبها بسهم»<sup>(3)</sup>.

وفحوى هذا الكلام أنّ الذي يُجيد استعمال اللّغة، بفنونها، يبلغ مراده من السامع، ونشير هنا إلى الحجاج بالمجاز أي باستعمال الصور البيانية «واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية، إلى صورته كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستشار لها من أقاصي الأفئدة صباة وكلفا، وقسّر الطباع على أن تُعطيها محبة وشغفا»<sup>(4)</sup>.

ويكون التمثيل أو التشبيه أبلغ إذا وُفق المتكلم في اختيار صورته وطبيعة المقام: فما يصلح ويكون أبلغ في الفخر والتعظيم لا يصلح في الذم والمدح «وإن كان حجاجا كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر [...] وإن كان وعظا كان أشفى للصدر، وأدعى للفكر، وأبلغ في التبيين والزجر، وأجدر بأن يجلى الغيابه، ويُبصر الغاية، ويُبْرِئ العليل ويُشفي الغليل»<sup>(5)</sup>.

(1) محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 197.

(2) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص: 140.

(3) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة 2، المقدمة، ص: 01.

(4) نفسه، ص: 92، 93.

(5) نفسه، ص: 94، 95، 96.

نخلص من هذا إلى أنّ ضروب الكلام متعددة: المدح، الذم، الحجاج، الوعظ، الافتخار الاعتذار. والكلام على هذه الأغراض ضربان: حقيقة ومجاز، ولكل منهما مقامه وتأثيره، وإذا أخذنا أنّ الكلام ذو طبيعة حجاجية حقيقية كانت أم مجازاً، فتسند تلك الأغراض إلى الحجاج، لكن عن طريق المجاز. والحجاج «ينطوي على قدر من الالتباس في الوظيفة الذي لا نجد له نظير في غيره من الاستدلال، ولولا تَضْمَن الحجاج لهذا الالتباس لما تميزت طريقته عن طريق البرهان، فهذا الالتباس هو إذن الفاصل بين الحجاج وبين البرهان، وإذا كان الالتباس لا ينفك عن الحجاج، فإنّ الأدلة الحجاجية، تصير في نهاية المطاف أشبه بالمغالطات التي هي أدلة فاسدة»<sup>(1)</sup>.

وهذا راجع لطبيعة الحجاج أهو بالكلام الحقيقي، أم بالكلام المجازي، وذلك لأنّ «الأصل في الالتباس الذي يقوم بالحجاج ليس هو تعدد معاني اللفظ الواحد في الدليل بحيث يحمل هذا اللفظ في قضية منه على معنى وفي قضية أخرى على معنى ثان»<sup>(2)</sup>، وتكون العبارة المُحاجَّج بها الموصوفة بالمجازية حاملة لاذواج «بين واقع الدعوى وقيمتها، وما واقع الدعوى إلّا ظاهرها أو قُلْ عبارتها، وما قيمتها إلّا باطنها وإشارتها بحيث يكون المجاز هو الاستدلال بعبارة الدعوى على إشارتها»<sup>(3)</sup>.

وتعد الاستعارة أفضل ضروب المجاز وأشدّها وقعاً على النفس وتأثيراً في العقل في كونها تركيب يتناسى التشبيه، كما تُؤخذ أنواع المجاز الأخرى على حدّ الاستعارة في قوتها، إذا كانت في مقامها، فالمجاز يكون أبلغ من مجاز في مواقف ومقامات، فهذا المقام يكون أنسب للكناية من التشبيه والاستعارة، وآخر الاستعارة أنسب منهما، وهذا يتوقف على معرفة المتكلم للصواب والمجاز الناجح لمختلف الخطابات.

وتكمن حجاجية الاستعارة مثلاً في «الخاصية التي تُغلبُ على القول المجازي الاستعاري، هي أنّ الجنس الذي يدخل فيه المستعارُ أو قل إن شئتُ المستعار منه يكون مبايناً للجنس الذي يدخل فيه المستعار له»<sup>(4)</sup>.

والأمر نفسه يؤخذ على التشبيه في كونه وصف بقوة للتأثير في السامع وأيضاً الكناية من زاوية بلاغتها إشفاء الغليل من الخصم، وما الحجاج إلّا تأثير في الخصم بالمجاز يعمد فيه المتكلم للحجاج بمعناه الباطن المشار إليه، لأنّ الكلمة في المجاز تنقل من معناها وعن حكم كان بها إلى معنى وحكم ليس بحقيقة فيها.

(1) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 229، 230.

(2) نفسه، ص: 230.

(3) ينظر، نفسه، ص: 231.

(4) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 297.



وفضل الحجاج بالمجاز وبكل ضروبه «ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك» [...] وليس إذا كان الكلام في غاية البيان، وعلى أبلغ ما يكون من الوضوح، أغناك ذاك عن الفكرة، إذا كان المعنى لطيفا فإنّ المعاني الشريفة اللطيفة لأبّدَ فيها من ثان على أول، ورد تال إلى سابق»<sup>(1)</sup>.

---

(1) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 122، 123.

## المبحث الثاني

### التداولية

#### 1- مفهوم التداولية:

لم يتم استعمال التداولية من حيث هو مفهوم عام في الثقافة اللاتينية قبل سنة 1938 للميلاد، ويعود في أصله الأجنبي إلى اللغتين الإغريقية "Pragmatikas" واللاتينية بالمعنى القانوني "Pragmatika"<sup>(1)</sup>.

واستعمل هذا المفهوم لأول مرة في الثقافة اللاتينية لسنة 1439 الميلاد، وهو يعود في أصله الأجنبي إلى اللغتين الإغريقية واللاتينية معا "Pragmatikas" و"Pragmatika-Sanction"، ولهذا المفهوم في الثقافة الغربية عدّة استعمالات قانونية وهو الاستعمال الأصل في اللغة اللاتينية، فيما يبدو، ثم فلسفية، ومنطقية ورياضياتية، ثم أخيرا لسانياتية وسميائية<sup>(2)</sup>.

ويهتم هذا البحث باستعمالات هذا المصطلح اللسانياتية، السيميائية، ويورد "عبد الملك مرتاض" تعريفا لهذا المصطلح باختلاف المنظرين الغربيين لهذا المصطلح فهو عند "جان دييوا" (Jean dubois) وأصحابه «المظهر البرقماتي للغة يعني خصائص استعماله الدوافع النفسية للمخاطبين، وردود فعل المخاطبين، والأنماط التي يتم بموجبها إخضاع الخطاب للنزعة الاجتماعية وموضوع هذا الخطاب»<sup>(3)</sup>. ويعرفه - أي مصطلح التداول - "روبير نادو" (Robert Nadou) على أنه «جزء من السيميائية التي تشكل توسعة كل من النظم، وعلم الدلالة [...] فهو يضع النقط على حروف السياق الوارد في التلخيص»<sup>(4)</sup>.

ويحصر "دكرو" و"جان ماري شيفر" (Jean Marie Schaeffer) مفهوم هذا المصطلح في «أنّ التداولية بما هي دراسة لكل ما ينصرف إلى معنى الملفظ، تحرص على طبيعة الوضع الذي يُستعمل فيه الملفظ وليس على مجرد البنية اللسانياتية للجملّة المستعملة»<sup>(5)</sup>. ما يلاحظ من استعمالات التداولية الغربية وتعدد المعاني التي تُطلق على هذا المصطلح أنّه مصطلح تذبذب في أوليات ظهوره اللسانياتية.

(1) عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2007، ص: 390.

(2) نفسه، ص: 396، 397.

(3) نفسه، ص: 399.

(4) نفسه، ص: 398، 399.

(5) نفسه، ص: 402.

وما تجدر الإشارة إليه هو أنّ التداولية تدرس المنجز، وكل ما يجعل الخطاب فاعلا، «لأنّ الخطاب نسيج من اللّغة المنجزة أي الخطاب المستعمل في إطاره التواصلي ولهذا فالدرس اللّغوي التداولي يدرس المنجز اللّغوي في إطار التواصل وليس بمعزل عنه، لأنّ اللّغة لا تؤدي وظائفها إلّا فيه»<sup>(1)</sup>.

ويتضح لنا مفهوم التداولية أكثر في هذه التساؤلات، فالتداولية محاولة للإجابة عن أسئلة كالتالي: ماذا نصنع حين نتكلم؟ من يتكلم وإلى من يتكلم؟ من يتكلم مع من يتكلم؟ من يتكلم ولأجل من؟ ماذا علينا أن نعلم حتّى يُرفع الإبهام عن جملة أو أخرى؟

كيف يمكننا قول شيء آخر غير ما كنّا نريد قوله؟ هل يمكن أن نركن إلى المعنى الحر في لقصد ما؟ ما هي استعمالات اللّغة؟ أيّ مقياس يحدد قدرة الوقع الإنشائي اللّغوية<sup>(2)</sup>.

إذا أنعمنا النظر في السؤال: من يتكلم ومع من يتكلم؟ وإذا نظرنا إلى السؤال الآخر: من يتكلم ولأجل من؟. أدركنا أن التداولية تهتم بالمرسل (المتكلم) والهدف المرسوم في ذهنه الذي يسعى لتحقيقه ولأجله تكلم، فكانت اللسانيات التداولية هي التيار المهيمن على ساحة الدراسات اللسانية، بعد التيار البنيوي والتوليدي، «فقد أفرزت المعرفة نظريات ومفاهيم لغوية متباينة في الأسس المعرفية، انبثقت عنها تيارات لسانية جديدة منها التيار التداولي، وهو مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللّغوي بمستعمليه، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللّغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي يُنجز ضمنها الخطاب والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللّغات الطبيعية»<sup>(3)</sup>.

يتجلى من كل هذا أنّ التداولية تدرس نظام اللّغة المستعمل في الواقع الاجتماعي التواصلي ولا يمكنها أن تعزل عن الجانب التواصلي للّغة، لأنّ اللّغة نظام في ذهن الجماعة، وهذا لا يمكن للدراسة التداولية أن تصفه، أما اللّغة تطبيق لذلك النظام فتلك هي التداولية، واهتماماتها، ولذلك أصبحت ظاهرة توصف بظواهر وتسمى علم العلم الذي يُعنى بظواهر التواصل اللّغوي.

إذن تغدو اللسانيات التداولية بهذا أحد «أحدث فروع العلوم اللّغوية وتُعنى بتحليل عملية الكلام والكتابة، ووصف وظائف الأقوال اللّغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام»<sup>(4)</sup>.

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 24.

(2) فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، الطبعة 1، 1987، ص: 110.

(3) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت - لبنان، الطبعة 1، تموز (يوليو) 2005، ص: 05 (المقدمة).

(4) خلود العموش، الخطاب القرآني، ص: 28.

فالتداولية «ليست علما لغويا محضا بالمعنى التقليدي، علما يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية، ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة ولكنها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، ويدمج من ثمّ مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة التواصل اللغوي وتفسيره»<sup>(1)</sup>.  
 والمهم في فائدة اللسانيات التداولية عندما يتعلق الأمر بالبحث في الاستعمال اللغوي ليس وصف البنية اللغوية فقط، بل تتعدى ذلك إلى وظيفة الاستعمال اللغوي في عالم اللّغة ونظرية التواصل<sup>(2)</sup>.  
 وعلى هذا اختلفت وجهات النظر بين الدارسين حول «التداولية وتساؤلاتهم عن القيمة العلمية للبحوث التداولية وتشكيكهم في جدواها» [...] فإنّ معظمهم يُقرّ بأنّ قضية التداولية هي: إيجاد القوانين الكليّة للاستعمال اللغوي والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي»<sup>(3)</sup> لهذا تعرف بأنها «علم الاستعمال اللغوي». إذ تنطلق التداولية من هدف أساسي «هو استثمار الممكن والمتاح من الآليات لتوصيل رسالة لغوية معينة وجعل المعنى بها يعيها ويتحرك في إطار إنجازها»<sup>(4)</sup>. وهذا هو الاستعمال اللغوي في شكله التواصلية فهي تسعى إلى تفسيره، من هنا كان للتداولية وظائف ومهام، فما مهامها وما وظائفها يا ترى؟

#### - مهام التداولية:

وتذكرها سامية الدريدي<sup>1</sup> كما يأتي في تعريف للتداولية: «لا تستغرب الاختلافات القائمة بين هؤلاء الباحثين في صلب النظرية البرغماتية سواء في طرائق البحث أو غايته إلى حدّ يتيح لنا الحديث عن برغماتيات<sup>2</sup> لا عن برغماتية واحدة إذ تُعرّف البرغماتية بكونها، مجموعة البحوث اللسانية المنطقية "Logico Linguistique" التي تهتم:

- «دراسة استعمالات الكلام وتبحث في مطابقة الأشكال الدالة للسياقات المرجعية دراسة استعمالات الكلام كظاهرة استدلالية وتداولية في الوقت ذاته هي نظام لساني فرعي يهتم تحديدا باستعمال الكلام في التواصل»<sup>(5)</sup>.

ومن مهامهما-أيضا-: «دراسة استعمال اللّغة» [...] باعتبارها كلاما محمدا صادرا من متكلم محدد وموجهاً إلى مخاطب محدد بلفظ محدد، في مقام تواصلية محدد لتحقيق غرض تواصلية محدد.

(1) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص: 16.

(2) نفسه، ص: 18.

(3) صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل نصوص، ص: 11.

(4) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 175.

(5) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة- بنيته وأساليبه، ص: 16.

- شرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالم الملفوظات.
- شرح أسباب فشل المعالجة اللسانية البنيوية الصرف في معالجة الملفوظات.
- دراسة الوجوه الاستدلالية للتواصل الشفوي<sup>(1)</sup>.

تتعدى التداولية في دراستها لاستعمال اللّغة الكينونة اللّغوية بمعناها البنيوي الضيق إلى أحوال الاستعمال في الطبقات المقامية المختلفة حسب أغراض المتكلمين وأحوال المخاطبين. ما يُلاحظ من مهام التداولية أنّها أصبحت الملجأ الذي يُعول عليه الدارسون، وذلك للوصول إلى كيفية وصف الاستدلالات في عملية التواصل. وعليه ما هو نموذج التواصل الأمثل؟ أهو الترميز أم الاستدلال؟ وما هي العلاقة بين الفروع المعرفية المنشغلة بهذه الأنشطة؟ (أي علم اللّغة، وعلم التواصل، وعلم النفس المعرفي)<sup>(2)</sup>.

تُعالج اللسانيات الاجتماعية ما تعالجه من التّغيرات اللّغوية وأسبابها وحالة المتكلم ونوع الخطاب اللّغوي الذي يستعمله، ووظيفة الأفراد المخاطبين ومستوياتهم<sup>(3)</sup>.

أمّا علاقتها بعلم الدلالة فإنّ التداولية هي العلم الذي يُعنى بالشروط اللازمة لكي تكون الأقوال اللّغوية مقبولة وناجحة وملائمة في الموقف التواصلية في حين تعني الدلالة بالشروط التي تجعل هذه الأقوال مفهومة أو قابلة للتفسير<sup>(4)</sup>. ووجه العلاقة يكمن في أنّ الدلالة وظيفتها جعل الأقوال ذات معنى والتداولية تجعلها قابلة للتواصل في موقف ملائم.

وأمّا علاقتها بالبلاغة هو ما دفع بعض التداوليين المعاصرين يُعرّفون البلاغة «بأنّها فن الوصول إلى تعديل موقف المستمع أو القارئ. لأنّ البلاغة في نظر هؤلاء نظام له بنية من الأشكال التصورية واللّغوية، ويصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدد»<sup>(5)</sup>.

وتتجسد هذه العلاقة أكثر وتتجلى في نظرة بعض اللّغويين للبلاغة بأنّها: «تداولية في صميمها، إذ أنّها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يخلّان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير

(1) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص: 26، 27، 28.

(2) ينظر، نفسه، ص: 26، 27.

(3) ينظر، خلود العموش، الخطاب القرآني، ص: 29.

(4) نفسه، ص: 28.

(5) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 175.

على بعضهما. ولذلك فإن البلاغة والتداولية البرجماتية تتفقان في اعتمادهما اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي»<sup>(1)</sup>.

ومن جهة أن التداولية تُعنى بتحليل عملية الكلام والكتابة فهذا له علاقة بعلم النص بحيث استفاد علم النص من التداولية من هذا الجانب.

ثم نشير «إلى أن أقرب حقل معرفي إلى التداولية "La pragmatique" في منظورنا هو اللسانيات»<sup>(2)</sup>، ووجه العلاقة أن اللسانيات هي علم يدرس (اللغة من ذاتها ولأجل ذاتها والتداولية تبحث في قوانين الاستعمال اللغوي. وإذا نظرنا إلى علاقتها بالخطاب والنص فمن زاوية أن التداولية تدرس المنجز اللغوي هذا ما يجعل الخطاب يشكل أحد أبرز المحطات التداولية، وللتوضيح بعلاقة التداولية بالعلوم الأخرى.

بالنظر إلى ما تقدم من تعريفات للسانيات التداولية ورصد مهامها وأهم نشاطاتها ووظائفها فإنها تُعدّ نظرية منفتحة على كثير من الفروع والحقول المعرفية.

نشير أولاً إلى مصدرها، فقد انبثقت التداولية من عدة ينابيع، وتُعدّ الفلسفة التحليلية هي ينبوع المعرفي لأول مفهوم تداولي وهو الأفعال الكلامية، فقد كانت هذه الفلسفة تدعو إلى أن مهام الفلسفة هي البحث في اللغة، وقد يعتبر فلاسفة التحليل هذا المبدأ المنهجي علامة قوة لمنهجهم، ولذلك يُعتبر هذا المذهب الفلسفي التحليلي ردّة فعل قوية على الفكر الفلسفي القديم برمته، لأنه لم يلتفت إلى اللغات الطبيعية ولم يُوها ما تستحق من الدراسة والبحث<sup>(3)</sup>.

هذا «وإنّ للمفاهيم التداولية الأخرى أصولها المعرفية الخاصة بمفهوم نظرية المحادثة قد انبثقت من فلسفة قرايس في مبدأ التعاون ومسلماته الحوارية، وأما نظرية الملائمة فقد ولدت من رحم علم النفس المعرفي»<sup>(4)</sup>.

فهذه مفاهيم تداولية فالمفهوم الأول أفعال الكلام له علاقة بالفلسفة التحليلية التي أتى بها: أوستن (John Austin) وتلميذه "سيرل" (John Searle) التي تُعنى باللغة.

ومفهوم المحادثة له علاقة بالفلسفة التي أتى بها قرايس ومفهوم الملائمة له علاقة بعلم النفس التربوي. ما نلاحظه على التداولية أنّها علم منفتح ونظرية تشمل العديد من الأنساق. «هذا ما يجعل الحقل

(1) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري، القاهرة، الطبعة 1، 2004، ص: 121.

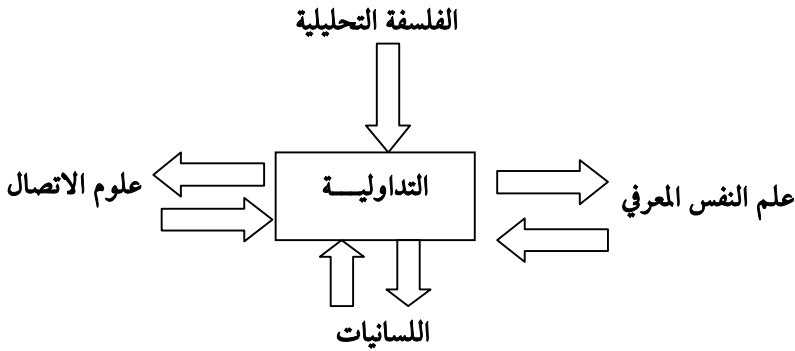
(2) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص: 15.

(3) ينظر، نفسه، ص: 20.

(4) نفسه، ص: 25، 26.

المعرفي للبرغماتية شاسعا، إذ يمكن أن يضم اللسانيات والاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي<sup>(1)</sup>.

فما دامت التداولية تدرس الاستعمال اللغوي والمنجز فهذا له علاقة بين التداولية وعلم اللسان وعلم الاجتماع، ووجه العلاقة بين التداولية واللسانيات الاجتماعية هو أن اللسانيات الاجتماعية تأخذ بعين الاعتبار حالة المتكلم كمعطى اجتماعي من حيث أصله السلالي، ووضع الاجتماعى ومستواه المعيشي والثقافي وربط هذه الحالة بنوع اللغة التي يستعملها انطلاقا من مجموع القواعد التي نضبطها. ومن العلوم التي تفتح عليها أيضا التداولية بالنظر إلى مهام التداولية دراسة الآليات المعرفية. فالتداولية تقيم روابط وشيجة بين اللغة والإدراك عن طريق بعض المباحث في علم النفس المعرفي. الشكل<sup>(2)</sup>:



- وأما باعتبار وظيفة التداولية أنها تدرس وتُعنى بالوجهة الاستدلالية للتواصل فمن هنا تبرز إقامة علاقة بين التداولية وعلمي اللغة والتواصل.
- لقد هيمنت اللسانيات التداولية الحديثة على مختلف الدراسات اللغوية والاجتماعية والنفسية، وذلك بسبب انفتاحها وإقامة وشائج قرى وعلاقات نسب بين مختلف العلوم: كاللسانيات: الاجتماعية، وعلم النفس التربوي والمعرفي، وعلوم الاتصال، والبلاغة والدلالة وعلم النص والخطاب.
- ولعل أبرز ما يميز مفاهيم التداولية وبحثها الغزير هو مفهوم الأفعال الكلامية. فما يقصد بالأفعال الكلامية يا ترى؟

(1) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 16.

(2) ينظر، مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص: 26.

ويربط "صلاح فضل" بين التداولية وفكرة مقتضى الحال مُعرِّفًا إياها: بالعلم الذي يُعنى بالعلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلية المرتبطة به بشكل منظم مما يطلق عليه بسياق النص. لقد غطي مفهوم التداولية «المساحة التي كان يُشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة مقتضى الحال وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية لكل مقام مقال»<sup>(1)</sup>.

كما ذهب أيضا عبد الملك مرتاض بأنّ هذا المفهوم كان موجودا بالفعل والقوة منذ العصور الموعلة في القدم، وأنه ظل مستعملا في تحليل الخطاب، وأنّ البلاغيين القدماء العرب واليونانيين، كانوا يجتزون بأنّ يطلقوا عليه السياق<sup>(2)</sup> أو ما في حكمه أو ما يطلق عليه أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي (المتوفى سنة 626) "مقتضى الحال".

هذا إذا رجعنا إلى ما يتنازع مفهوم السياق البلاغي، فقد كانت تنازعه نزعتان إحداهما المرجع وإحداهما الأخرى تداولية اللّغة<sup>(3)</sup>.

## 2- الأفعال الكلامية؛

ارتبط هذا المفهوم باسم "جون لانشو أوستين" (J.L.AUSTIN). وما يعنى مفهوم الأفعال الكلامية هو: "فاعلية أو إنجازية" Performative بعض الأفعال في اللّغة المستعملة، أو قل ما يستعمله اللسان ويستخره في التخاطب بهذه الأفعال، ويضرب أوستين للأفعال الإنجازية مثلا بعبارة قول شخص تعرض لحادث خطير مثلا، فاندقت ساقه فعالجه الطبيب المتخصص في جراحة العظام حتّى شفي وأمسى يمشي بصورة عادية... فلما رأى طبيبه خاطبه: رأيت إني أمشي. فأوستين يرى أنّ الملفظ لا يكون له معنى مفهوم إلّا إذا اتخذ معنى "أراني أمشي" في الوقت ذاته<sup>(4)</sup>.

وبهذا أصبح «مفهوم الفعل الكلامي» Speechait نواة مركزية في الكثير من الأعمال التداولية وفحواه أنّه كلّ ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، فضلا عن ذلك يُعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعالا قولية "Actes Loventions" لتحقيق أغراض إنجازية "Actes Illocutoires" الطلب والأمر والوعد والوعيد... الخ، وغايات تأثيرية "Actes Perlocutoires" تخص ردود فعل المتلقي

(1) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 32.

(2) عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص: 400.

(3) ينظر، نفسه، ص: 400.

(4) نفسه، ص: 393.



(كالرفض والقبول) ومن ثمّ فهو يطمح إلى أنّ يكون فعلا تأثيرياً، أي يطمح إلى أنّ يكون ذا تأثير في المخاطب اجتماعياً أو مؤسسياً، ومن ثمّ إنجاز شيء ما<sup>(1)</sup>.

بما أنّ التداولية هي علم الاستعمال اللغوي كان من مهامها دراسة الأفعال المنجزة لغوياً أفعالاً اجتماعية ومن هنا غدت هذه الدراسة الفرعية للتداولية نظرية تسمى: نظرية الأفعال الكلامية، ثمّ بالنظر إلى غايات الاستعمال اللغوي وغايات الأفعال الكلامية (الإيجازية، التأثيرية...).

ويمكننا القول إنّ أوستين بهذا الدرس الخصب لكل ما يحيط بالعملية التواصلية من لحظة استعمال اللّغة إلى النتيجة، ووصف الظاهرة اللغوية التواصلية، بتأسيسه للسانيات التداولية والأفعال الكلامية، يسعى لبنية صرح تكون التداولية والأفعال الكلامية علماً له وهذا الصرح هو الحجاج.

وبهذا تُعد نظرية الأفعال الكلامية من أهم المحاور التداولية "Pragmatique" المعاصرة، «حيث إنّ صاحبها يُعطي مكانة كبيرة لدور اللّغة وأفعالها الكلامية في صنع الأحداث، ونقل المعنيين من مستوى التلقي إلى مسارح الفعل والتجسيد، وتكتسي هذه الأفعال قيمتها خاصة عندما يكون موجهو الخطاب من ذوي الكفاءات في المحاجة والإبانة»<sup>(2)</sup>.

بهذا يُعدّ أوستين وتلميذه "سورل" قد أسسا نواة البرغماتية في حقل فلسفي يهتم بالكلام بالرغم من أنّ هذا الاهتمام الفلسفي باللّغة ليس مستحدثاً ومبتدعاً، حيث يُعتبر أوستين هو أوّل من أسس نظرية مكتملة في ذلك<sup>(3)</sup>. التداولية بمجالاتها واهتماماتها نظرية مكتملة ساهمت في تطوير بلاغة تُعرف ببلاغة الحجاج.

والدال على ذلك من معنى الأفعال الكلامية وهي القيام بالأعمال بواسطة الكلام، أي أنّ الكلام هو الفاعل والسبب الرئيس في حمل المتلقي على القيام بأمر والكف عنه، وهذا بدوره يولج هذه التّظرية على آفاق مقامية، وتقسيم الخطاب دلالياً إلى وحداته الجزئية لمعرفة الظروف النفسية والاجتماعية والثقافية لمبدع الخطاب، ومعرفة دور وحدات الخطاب لمعرفة فاعليتها، ودورها الحجاجي والتحفيزي.

كما أنّه يستخدم مصطلح فعل الكلام "Acte Locutoire" الذي يدل على التّظرية التي تُعنى بتحليل دور الملفوظات في علاقتها بسلوك المتكلم والسامع في عملية التواصل المشترك يجعل الكلام نشاطاً تواصلية يقوم به المتكلم بقصد، وما نتج عن فعل الكلام أي آثاره أو أثره على السامع<sup>(4)</sup>.

(1) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص: 40.

(2) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 183.

(3) ينظر، سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 17.

(4) ينظر، محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 182.

لا تقف التداولية عند حدّ الاستعمال اللّغوي في التواصل، بل ربطت التداولية بنظرية الأفعال الكلامية العوامل التبليغية، بمعنى السياق والتركيّب، ما دامت اللّغة المستعملة ينتج عنها أفعالا كلامية تؤدي إلى حمل المتلقي أو التأثير في معتقده وسلوكه، حيث يبنثق من الفعل الكلامي الذي هو جزء من الكلام ضمن التعامل الاجتماعي قوتان؛ قوة بلاغية وهي الوظيفة الكامنة في الفعل الكلامي، تتحدد بفحص الفعل ذاته حيث علاقتها بالمعتقدات السائدة في اللحظة ذاتها مثل: "سيغادر المكان في الحال" تصنف على أنّها نوع من الوعد لو تصورنا أنّ المتلقي سيسعد لهذا الخبر.

والقوة الثانية هي القوة التأثيرية الفعلية خاصة بأثار الفعل الكلامي ونتائجه سواء مقصودة أم لا، فالقوة التأثيرية لها قد تكون إسعاد المتلقي وقد لا تكون<sup>(1)</sup>.

وقد قسم أوستين<sup>2</sup> الأفعال الكلامية إلى أنواع وردت على تسميات مختلفة في الكتب اللسانية، ويميز بين الأقوال الخبرية والأفعال الإنشائية، فالأقوال الخبرية هي أخبار تتمثل في وصف الظواهر والمسارات أو حالة الأشياء في الكون، وهذه الأقوال خاصية تتمثل في كونها يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة، أمّا الأقوال الإنشائية فليس لها قيمة الحقيقة إذ نستعملها لنصنع شيئا ما، لا نقول إنّ شيئا ما صادق أو كاذب<sup>(2)</sup>.

وقد أجرى أوستين<sup>3</sup> تمييزا ثانيا داخل الأقوال الإنشائية بين الإنشائيات الأولية والإنشائيات الصريحة، إذ يمكن أن ننجز مثلا عمل الوعد بطريقتين مختلفتين في العربية: كما في الفرنسية والإنجليزية:

1- سأكون هنا على الساعة الثانية.

2- أعدك بأنني سأكون هنا على الساعة الثانية.

فالقول 1 إنشاء أولي، أمّا 2 الذي يحتوي فعلا إنشائيا (وعد) فهو إنشاء صريح<sup>(3)</sup>.

ومن هنا «يتبنى أوستين بعد ذلك تمييزا ثلاثيا بين الأعمال اللاقولية، وأعمال أثر القول كما يلي: العمل القولوي، والعمل اللاقولي، وهو عمل يُنجز بالقول شيئا ما وعمل أثر القول: هو عمل ننجزه بفضل ما نقوله جعل شخص ما يعتقد أنّ شيئا ما هو كذلك، إقناعه بالقيام بأمر ما، إغضابه، شدّ أزره»<sup>(4)</sup>.

وبهذا التقسيم نستنتج أنّ للّغة دورا في إنجاز أعمال، وذلك بإقناع المخاطب ونتيجة هذا الفعل أو القيام به هو أثر القول، أي مدى تأثر السامع بأقوال المتكلم حتّى غيرت سلوكه ومعتقداته، ويمكن أن

(1) ينظر، ذهبية هو الحاج، اللسانيات وتداولية الخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 2005، ص:126.

(2) صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص:76.

(3) نفسه، ص:78.

(4) صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص:80.

نصطلح على أثر القول: بأنه ردة فعل المستمع، وهذه نتيجة بعد عملية الحاجة، فالمخاطب يُحاجج من أجل أن يُقنع المخاطب نتيجة هذه العملية هي أثر القول عند أوستين، ولهذا سُبِّبَ الفعل الذي يُخدم عملية الحاجة والحجاج في التقسيم الآتي: يطرح أوستين على نفسه سؤالاً بأي معنى يمكن أن يكون قول شيء إنجازاً له تماماً؟

والإجابة عن هذا السؤال: قسم الأفعال اللغوية إلى ثلاثة أقسام:

- 1- القول في حد ذاته: أي فعل إنتاج الأصوات وتركيب الكلمات في بناء يلتزم بقواعد اللغة ويحمل دلالة معينة.
- 2- القول الفاعل: أي الفعل الذي ننجزه أثناء القول ونؤكد به بالقوة البلاغية.
- 3- الفعل التأثيري: ويمكن تسميته نتيجة القول الفاعل وأثره وهو ما ننجزه في الواقع أي تحقيق فعل الكلام بالإنجاز. وهذا ما ورد في كتابه: كيف ننجز الأشياء بالكلمات<sup>(1)</sup>.

فيمثل النوع الأول: فعل القول أي الفعل اللغوي ويمثل النوع الثاني: الفعل المتضمن في القول ويمثل النوع الثالث الفعل الناتج عن القول. ويمثل النوع الثاني: الفعل المتضمن في القول: وهو الفعل الإنجازي الحقيقي، ويُعدّ هذا الصنف من الأفعال الكلامية هو المقصود من إنشاء هذه النظرية<sup>(2)</sup>. ولكي نوضح أكثر الأنواع الثلاثة: «الفعل الأول يمثل أيضاً: الفعل الصوتي والفعل الثاني يمثل الفعل التحدثي بمعنى أن الأصوات لديها أشكال والفعل الثالث يمثله الفعل الكلامي: بمعنى أن الكلمات لديها معنى»<sup>(3)</sup>. بمعنى الحجاج نفسه نشاط فكري والفعل التأثيري فكري إنجازي بمعنى لغوي، خاضع لإنتاج القول وذو نظام يخضع للتركيب بمعنى أن لكل قول بعد حجاجي. ويستعين أوستين في توضيح دلالة الفعل التأثيري «بمفهوم القيمة أو القوة بمعنى أننا حين ننجز قولاً في حد ذاته، فإننا بذلك وفي الوقت نفسه ننجز قولاً ثانياً ذا طبيعة أخرى من شأنه أن يقوم بالإخبار أو الاستفهام أو التحذير أو التهديد، كما أن هذا الفعل التأثيري يُعرف من خلال مفهوم الأثر أو التأثير في مشاعر المتلقين وأفكارهم وتصرفاتهم»<sup>(4)</sup>.

(1) ينظر، محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 182، 183.

(2) ينظر، مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص: 41، 42.

(3) ينظر، ذهبية هو الحاج، لسانيات التلغظ وتداولية الخطاب، ص: 127.

(4) ينظر، محمد سالم أحمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 183.

إنّ الفعل التأثيري وما قدمته نظرية الأفعال الكلامية، بوصف الحجاج كمنظ له آليات من القول ذاته والإنجاز أو الأداء ثم التأثير، هي عملية تتناول بالدراسة بعض العناصر اللغوية التي لا تُعرف دلالتها المرجعية إلا من السياق<sup>(1)</sup>.

بمعنى أنّ نظرية الأفعال الكلامية مرتبطة بالسياق «لأنّه لا توجد فائدة من الحديث على ضروب إنجاز أفعال الكلام خارجا عن السياق المحدد تحديدا اجتماعيا ولغويا، أي السياق الذي يكون فيه المخاطب حاضرا، ويحدث تغييرا- أيّا كان نوعه- على المخاطب طبقا لأغراضه ومقاصده التي عليه أن يؤسس لها البناء الحجاجي اللازم»<sup>(2)</sup>.

من أهم الأهداف التداولية لأفعال الكلام هو أنّ «نجاح الخطاب تداوليا مرهون بسياقه المنجز له»<sup>(3)</sup>. ومن هذا نذكر خصائص وشروط الفعل الكلامي:

**أولا- خصائصه:** «إنّه فعل دال، إنّه فعل إنجازي (أي ينجز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات)، إنّه فعل تأثيري (أي يترك أثارا معينة في الواقع، خصوصا إذا كان فعلا ناجحا، ويقوم بكل فعل كلامي على مفهوم القصدية وتقوم مسلمة القصدية على أسس تداولية»<sup>(4)</sup>. وقد وضعها تلميذه "سورل".

أما شروطه وتخص العمل اللاقولي ليكون محققا وناجحا، وعدم احترام إحدى هذه المجموعات من الشروط يجعل الملفوظ خائبا بشكل خاص. أما شروطه:

- 1- **الشروط التمهيديّة:** الشخص الذي ينجز العمل يجب أنّ يكون له الحق أو السُلطة للقيام به.
- 2- **شروط النزاهة:** إذا كان الشخص الذي ينجز العمل لا يقوم به بشكل نزيه، فإنّ عمله اللاقولي لا يُصبح لاغيا ولكنّه يكون مسؤولا حقاً عمّا يدعوه أو يستين بسوء الاستخدام؛ إذا شكر "س" - "ص" من أجل هدية أهدها إيّاها أو خدمة صنعها له، فيجب على "س" إن كان نزيها أنّ يبين امتنانه ل"ص". وأنّ يكون مُقدّرا لحركته النبيلة تجاهه.
- 3- **الشروط الجوهرية:** الشخص الذي يُنجز العمل مربوط من جهة القوة اللاقولية للملفوظه ببعض العقائد أو المقاصد<sup>(5)</sup>.

(1) ينظر، ذهبية هو الحاج، تداولية الخطاب ولسانيات التلطف، ص: 128.

(2) محمد سالم أحمد الأمين، الحجاج في البلاغة العربية، ص: 186.

(3) نفسه، ص: 183.

(4) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص: 44.

(5) ينظر، صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص: 84، 85.

وما أثارته نظرية أفعال الكلام مع أوستين «انتباه الدارسين إلى وجود طبقة من الأفعال التي لا يمكن أن تتحقق إلا بواسطة اللّغة، فاللّغة هي الأداة الوحيدة التي تُمكن الكائن من إنجاز هذه الأفعال»<sup>(1)</sup>. وهذه الأفعال الكلامية ذات علاقة كبيرة بالوظائف النفسية والاجتماعية خارج الخطاب المرسل، ويرغم إسهاماتها في البحث اللّغوي التداولي، فقد قوبلت بأصوات نقدية تُعارض أوستين حول نفاذية فعل الكلام، من طرف ألان بيروندينييه<sup>(2)</sup> (A. Berrenedonnies) فالفعل الإنجازي في نظر بيروندينييه يستخدم لإحلال الكلام محل الفعل المادي فعندما أقول مثلا أعطيت نسختي من الكتاب لفلان فيأتي أكون قد استبدلت حركة الإعطاء بصيغة كلامية تعادل تلك الحركة. وقد تمثل نقده في كتاب له «مبادئ في البرغماتية».

فإن كان أوستين كتابه «كيف ننجز الأشياء بالكلمات» فإن بيروندينييه نقده ضمن كتابه السابق في عنوان: «حينما نقول فنحن لا نفعل شيئاً»<sup>(2)</sup>.

لم يحاول أحد من المنظرين تطوير نظرية الأفعال الكلامية، «فظلت تراوح مكانها، ولم تتقدم خطوة واحدة» [...] وسيلاحظ القارئ غموض تقسيم أفعال اللّغة»<sup>(3)</sup>.

وليكون «فعل الكلام ناجحاً يجب أن يتدخل المتحدث ليُجعل المتلقي على علم بنيته في تأدية فعل معين»<sup>(4)</sup>، فالفعل الكلامي «يعني التصرف (أو العمل) الاجتماعي أو المؤسساتي الذي ينجزه الإنسان بالكلام»<sup>(5)</sup>.

ومن هذا تبرز «الطاقة الحجاجية للأفعال الكلامية من هذا المنظور لا تستمد فعاليتها إلا من الشروط الاجتماعية لإنتاج وإعادة المعرفة باللسان السائد في منطقة السُلطة والمُعترف به داخل المؤسسة الاجتماعية»<sup>(6)</sup>.

لقد لعبت اللسانيات التداولية بنشاطها الشامل دوراً لا يُستهان به في تطوير الخطاب الحجاجي والإحاطة به، ومن ثم إثرائه وفتحه على الكثير من المجالات والحقول والأصعدة - من خلال - نظرية الأفعال الكلامية.

(1) ينظر، عبد الواسع الحميري ما الخطاب وكيف نحلله، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر (مجد)، بيروت، الطبعة 1، 2009م، ص: 41.

(2) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 182، 187، 188.

(3) عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص: 405.

(4) ذهبية هو الحجاج، تداولية الخطاب ولسانيات التلفظ، ص: 128.

(5) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص: 190.

(6) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة العربية المعاصرة، ص: 191.

وَتُعنى التداولية بعدة جوانب في الخطاب «إذ يمكن تصنيف هذه الجوانب إلى ثلاثة مسارات، يتضمن كل منها عددا من الدراسات بتطوراتها المتلاحقة: الأفعال الكلامية - القصد أو المعنى التداولي- الإشارات. ولا يتم تحديد هذه الجوانب بدقة إلا في الخطاب المستعمل»<sup>(1)</sup>.

يُمكننا القول أنه أصبح للتداولية منهج تدرس من خلاله الخطابات، فهي درس غزير وجدير وهي قاعدة اللسانيات، كما يذهب أكثر الباحثين، ويراها البعض الآخر منهجا وحلاً لبعض المشكلات التي تتعلق بالمرسل، والمرسل إليه.

فالمرسل يبحث عن الطريقة المثلى «لينتج خطابا يؤثر في المرسل إليه، كما أن المرسل إليه يبحث عن أفضل كيفية للوصول إلى مقاصد المرسل، كما يريد لها عند إنتاج خطابه لحظة التلفظ، وهذا يكون عبر تقدير ذهني عام ومُحتمل وفقا لعناصر السياق»<sup>(2)</sup>.

ومن هنا تشترك البلاغة «مع ما تتناوله اللسانيات التداولية الحديثة وتحمل كثيرا من القيم التداولية في دراسة اللّغة مثل: تداولية المتكلم-تداولية الخطاب، تداولية المخاطب»<sup>(3)</sup>.

ولنتقف عند تداولية عناصر الموقف الكلامي نطرح السؤال: ماهي الأوجه التداولية لعناصر الخطاب؟ وكيف السبيل إلى بلوغ المقصد وتحقيق الهدف المرغوب من تلاحم هذه العناصر؟

أما تداولية المتكلم، فقد تعددت الدراسات التي تهتم به من طريقة الأداء إلى طريقة الإلقاء لأنه ذو دور بارز في عملية الخطاب، والدرس العربي لم يغفل العناصر التي تشارك في عملية التواصل، ومنها المتكلم وما يُشترط أن يتصف به، ومدى علمه بأشكال الخطاب والسامع ليجعل الخطاب بما يُناسب كل سامع.

ووجه التداولية في المتكلم يكمن في أنه هو الذي يُنتج كلاما، هذا الكلام هو الذي افتعله ويقصد به شيء ويهدف به إلى نتيجة.

فعل الكلام والقصد هي مفاهيم تداولية مرتبطة بإحداث الكلام حقاً في الواقع. ولا يُعدّ المتكلم متكلماً إلا بهذه العناصر، و«الواقع أن ما يُذكر بشأن المتكلم لا يستقيم إلا بدور السامع، حتى إن ما يرتبط بقصد المتكلم يفترض وجود سامع مقصود بالخطاب، ولذلك فالحديث عن المتكلم هو حديث ضمني عن السامع أيضا»<sup>(4)</sup>؛ لأنّ السامع له دور في توجيه الخطاب فعلى المتكلم مراعاة كل ما يُحيط بالسامع ثمّ

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 24.

(2) نفسه، ص: 24.

(3) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس اللغوي القديم، بيت الحكمة، الطبعة 1، 2009، ص: 162.

(4) نفسه، ص: 167.

مخاطبته للتمكن من التأثير فيه وتحقيق الهدف، ويمكن عدّ المتكلم سامعا لحظة إنتاجه لحظة إرساله. و المتكلم كالسامع «لأنّ المتكلم هو السامع الأول لكلامه، يسمعه حين إرساله وتبليغه للغير»<sup>(1)</sup>، بالنظر إلى المتكلم وأنواعه: واصف، حاكي... وإلى قصده وهدفه كلّ هذه أوجه تداولية تنبثق من تداولية المتكلم نفسه. أما تداولية السامع (المخاطب) فهو بقدر الأهمية التي أخذها المتكلم من الدراسة والحديث عنه أيضا يتضمن الحديث عن المتكلم وعن الخطاب، فالمتكلم هو الذي ينتج الخطاب والسامع يُوجّه له الخطاب، فهو عنصر أساسي في إنتاج الخطاب لأنّ المتكلم حين يريد إبلاغه بشيء ما فإنّه يُراعي حاله والمقام الذي هو فيه...

من هنا تبرز فعاليته «في العملية الإبلابية التواصلية، لأنّ الخطاب يُنتج من أجله بل إنّ الخطاب في ذاته يكون في أغلب الحالات حسب ما يُريده السامع لا المتكلم وتلك هي سمة اللسانيات التداولية الحديثة، التي تتقاطع فيها البلاغة العربية»<sup>(2)</sup>. ويتعلق فهم السامع بوضوح الكلام (الخطاب) على ما هو متداول ومستعمل في اللسان.

أما تداولية الخطاب الذي يرتبط بالاستعمال والتداول وما استعماله إلّا ليكون هادفا مُقنعا مُحققا لأغراض المتكلم، باعتبار مقصد المتكلم، وحالة السامع، يتضح لك معرفة نوع الخطاب وأقطابه. ووجه التداولية في الخطاب أنّها علم الاستعمال اللغوي في شكله التواصلية والخطاب تكمن فعاليته ونجاعته في استعماله؛ لأنّه نسيج من اللّغة المُنجزّة بمعنى الخطاب المستعمل في إطاره التواصلية. ومن المعلوم أنّ الدراسات التداولية تدرس هذا الإنجاز اللغوي في التواصل بمعنى الخطاب، ومن هنا تبرز علاقة الخطاب بالتداولية لأنّ مفاهيمها ومبادئها ونظرياتها لا تظهر إلّا في الخطاب وأنواعه... بتحليله واكتشاف بنياته وآلياته.

يبرز للدارس والباحث اللغوي علاقة عناصر الخطاب والتداولية الحديثة أنّ اللسانيات التداولية تحكمها ثلاث عناصر تداولية:

- 1- المتكلم وتلزمه القدرة الخطابية، الإنتاج، الخطاب، وقدرة وكفاءة لغوية لتوظيف قواعد اللّغة.
- 2- السامع وتلزمه القدرة الاستقبلية التفكيكية لاستقبال الخطاب وتفكيك رموزه وشفراته لبلوغ مرمى المتكلم من إنتاج هذا الخطاب.
- 3- الخطاب وتلزمه شروط نفعية لأنّ الغرض من الخطاب التواصل بمعنى يشترط فيه القدرة التواصلية والتي تتحقق بمدى تداولية هذا الخطاب واستعماله.

(1) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 108.

(2) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 167.

وكلّ من هذه العناصر يقتضي الآخر وبهذا تتقاطع اللسانيات التداولية ونظرية التواصل لتكون هذه الأخيرة نتيجة للأولى وسببا لنشأتها.

ووجه التقاطع يكمن في أنّ نظرية التواصل تمّ تحديدها «باعتبارها بحثاً تأملياً في المميزات الخاصة في كل نظام من العلامات مستعمل بين كائنين يهدف إلى غايات تواصلية»<sup>(1)</sup>. الغاية من نظرية التواصل هي هدف الدراسة التداولية «ويقتضي هذا التعريف أطرافاً مكونة تؤثر في كل سيرورة تواصلية تبدأ من السنن المشترك بين المتكلمين إلى قناة الاتصال وإبلاغ الرسالة لعناصرها السياقية والمضمونية وقُطبي التواصل المحوريين المرسل "Emetteur" والمتلقي "Récepteur"<sup>(2)</sup>.

فالمرسل هو مصدر إنتاج الرسالة، فهو «العقل الإنساني للغة المنطوقة والمكتوبة، والكلام الإنساني بالنسبة للتلفون أو الإذاعة، ويمكننا أن ندرج تحت مصطلح المتلقي كلّ آليات تلقي الرسالة وكذا المرسل إليه الذي يتلقى الرسالة»<sup>(3)</sup>.

- نشير إلى أنّ نظرية التواصل وبهذه المفاهيم تشترك مع ما تتناوله اللسانيات التداولية مثل: المتكلم، السامع، القصد، الهدف.

نخلص إلى أنّ التداولية بكل تقاطعاتها مع النظريات الأخرى والعلوم (نظرية الأفعال الكلامية، النظرية التواصلية)، قد بنت وشيّدت نظرية أخرى تعرف: بنظرية الحجاج وهذه الأخيرة موسومة بالشمولية.

لكن السؤال: كيف اهتمت اللسانيات التداولية بالحجاج، وهل تفردت بهذا الاهتمام؟ أم هناك نظريات أخرى تأخذ الحجاج في أحضانها بغية تطويره واكتشاف وسائله وآلياته؟ حقيق علينا أنّ نذكر ما وصلت إليه البلاغة العربية في مباحث الحجاج، والتداولية والأفعال الكلامية ونظرية التواصل، إذ يبرز للباحث تقاطعات بين هذه المباحث والبلاغة العربية فنذكر: إضافة إلى ما رأيناه مع السكاكي "والجاحظ" والبحث والأصولي. فالفاحص في الدرس العربي يجد بعض المفاهيم التداولية الحديثة وبين فكرة مقتضى الحال، في البلاغة العربية تقاطع المفاهيم التداولية أيضاً مع المقولة الشهيرة في البلاغة العربية: (لكل مقام مقال).

كما أنّ الدرس البلاغي العربي لم يغفل عناصر العملية التواصلية: مخاطب، مخاطب، خطاب، وقصد وهدف... وشروط كل من هذه العناصر.

(1) عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، الطبعة 1، 2003، ص: 24.

(2) نفسه، ص: 24.

(3) نفسه، ص: 25، 26.



وما ذهب إليه أوستين<sup>1</sup> بنظرية الأفعال الكلامية: فهو منشور في ثنايا التراث: كمنهاج البلغاء وسراج الأدباء لحزام القرطاجني في بابه أثر اللفظ. والصاحبي لابن فارس، وما وصل إليه البحث الأصولي: ابن القيم، ابن خلدون.

- يبرز هنا: أنّ العلوم والنظريات التي تقاطعت مع اللسانيات التداولية والتي من أهمها: نظرية الأفعال الكلامية وخاصة الفعل التأثيري، ونظرية التواصل والبلاغة... كل هذه التقاطعات قد ساهمت من قريب ومن بعيد في بلورة ووصف ظاهرة لغوية تُعرف بالحجاج.

- قد انبثقت بعد اللسانيات التداولية نظرية أخرى تعرف: بنظرية التلفظ أو لسانيات التلفظ، وقد عُنت بالحجاج أيما عناية وعلاقتها باللسانيات التداولية علاقة تكامل في تحديد هذا الصرح ألا وهو الحجاج.

ككيف تساهم هذه النظرية والتداولية في دراسة العملية الحجاجية؟

تحدد معالم الخطاب الحجاجي ضمن هذه المفاهيم انطلاقاً مما يملك المخاطب من قدرات لغوية تخاطبية والممارسة النافعة للغة، ومن خلال التأثير على المخاطب بعد التفاعل (التخاطب) في حدود: الإقناع والحجاج.

### 3- لسانيات التلفظ:

من خلال ما سبق الحديث عنه: عن التداولية ونظرياتها يستلزم من هذا كله الحديث عن أحدث نظرية ضمن اللسانيات التداولية وهي نظرية التلفظ.

«فالخوض في المنهج التداولي الحديث يعني إلقاء نظرة تحليلية على إحدى نظرياته وهي التلفظ» Théorie de L'éronéition لفهم آلياتها وعناصرها<sup>(1)</sup>.

وقد انبثقت «إشكالية التلفظ لتعيد الاعتبار لعناصر بقيت مجهولة في البحث اللغوي، لتجعل من المتكلم فاعلاً في العملية التخاطبية، غير مستغن عن المخاطب والمحيط الزماني والمكاني الذي يحيط بهما، ناهيك عن مجموعة من العوامل اللغوية التي يُخضعان لها»<sup>(2)</sup>.

نلمس من الاعتبارات التي تقيمها نظرية التلفظ عناية كبيرة نظراً لاهتمامها بفاعلية المتكلم والعملية التخاطبية، والسامع والمحيط... بالإضافة إلى العوامل التي تلزم كل عنصر لمعرفة الدور الحجاجي لكل فعالية تحدث أثناء وبعد العملية التخاطبية.

(1) ذهبية هو الحجاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 06.

(2) نفسه، ص: 06.

وترتبط نظرية التلفظ بنظرية الأفعال الكلامية وذلك لأن: «التلفظ بقول يعني إنجاز عمل لا قولي (كالوعد، والأمر...) وإنجاز عمل أثر للقول (كالإقناع والتخويف...)» ومن ثمّ ظهرت نظرية اقتضاء المعنى واستلزامه، وهذا يدل على توجّه اللسانيات إلى ضريين من الانفتاح الداخلي بين مختلف فروعها والخارجي مع القطاعات العملية المجاورة كالمعلوماتية وعلم النفس، وغيرها<sup>(1)</sup>.

لئن كانت التداولية هي الأم الرؤوم لمختلف النظريات: فإنّ بين هذه النظريات علاقات تكمل هذه الأخرى فهذه نظرية التلفظ ونظرية الأفعال الكلامية، قد أثبتنا وأزالا الوشاح عن طبيعة العلاقة التي تربط اللّغة بالإنسان وبالعلم ومن ثم العملية التخاطبية ومن ثم قصد المخاطب، والتأثير على المخاطب.

- وما يجب التفريق ما بين التلفظ / الملفوظ:

يحدد الملفوظ حسب "قريماس" و"كورتاس" Grimas et Kaurtes على أنه: «تتابع من الجمل المحققة أي كلّ ما يتلفظ به الإنسان منطوقاً أو مكتوباً، يتحدد ضمن إنية من التلفظ [...] أمّا التلفظ فهو العملية ذاتها لإنتاج الملفوظ، فيجب الفصل بين الفعل ونتيجة الفعل»<sup>(2)</sup>.

يمثل التلفظ الفعل والملفوظ نتيجة ذلك الفعل «وكثيراً ما يختلط التلفظ بعملية [الحديث أي فعل الكلام] ومن هنا يكون التلفظ هو الفعل الذي يجعل الأدلة اللغوية تتحقق من طرف متلفظ في ظروف زمانية ومكانية، خاصة فعل تحول اللّغة إلى خطاب»<sup>(3)</sup>.

وما ارتباط التلفظ بالزمن والمكان إلا لتحديد المشاركين في التلفظ وتعيين المتلقين. في هذه النقطة بالذات تتقاطع نظرية التلفظ بنظرية التواصل وهذا التقاطع موضوعة في الشروط التي تعتبرها نظرية التواصل ضرورية في كل وضعية تواصلية.

وتفرض الوضعية التواصلية شرطان «يتمثل الأول في الأفراد المشاركين في التواصل، أمّا الثاني، فيتمثل في العلاقات الزمنية والفضائية.

[ ومركز التقاطع يكمن في:

- 1- المشاركين في التواصل ويتمثل دورهم في أنا (eyo) مركز للتلفظ.
- 2- الأبعاد الفضائية- الزمنية - للملفوظ أو السياق الموضوعي ويتفرع عن الشرط الثاني تبعاً لطبيعة العلاقة ما يلي: العلاقة بين زمن التلفظ وزمن الملفوظ- العلاقة بين الذات وموضوع الملفوظ- العلاقات السوسولوجية والتاريخية بين المتكلمين»<sup>(4)</sup>.

(1) صابر الحياشة، التداولية والحجاج، ص: 23.

(2) ذهبية هو الحجاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 14.

(3) نفسه، ص: 14.

(4) عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل، ص: 26.

ويتحدد مفهوم التلفظ "L'énonciation" «في تناول العلاقة بين المتكلمين وسياق الحديث، فيمكن النظر إلى هذه العلاقة من خلال أقوال المخاطب التي تتحول إلى أفعال، الحالة التي يمكن أن يُعرّف فيها التلفظ بفعل الكلام "Act Parole" ليس ذلك الفعل الذي يمكنه التحقق فقط في الكلام ولكن الفعل المحقق سواء انتمى إلى نظام اللّغة أو أنتج بتوافر ظروف سيو- نفسانية للتواصل»<sup>(1)</sup>.

وما يُحدد مفهوم التلفظ أيضا عدة علاقات تحكم عملية التواصل وشروطه، ويمكن النظر إلى هذه العلاقات من خلال: المشاركين، أي مركز التلفظ، وزمن الملفوظ وعلاقة الذات وموضوع الملفوظ التي تحقق بتضافرها عمل تواصلية هذه الحالة يمكن أن يُعرّف فيها التلفظ بفعل التواصل (Acte) وهذا الفعل ينتمي إلى نظام اللّغة ويُنتج بتلاحم ظروف سيولوجية للتواصل اللّغوي.

نخلص إلى أنّ التلفظ فعل كلام المقصود به إنجاز عمل وهذا نتيجة الفعل، ويمثل التلفظ فعل التواصل انطلاقا بتفاعله مع ظروف نفسانية واجتماعية تواصلية.

ومعنى التلفظ «القصد والأثر حيث يذهب "جين آدم" إلى أنّ كل تلفظ لقصة ما، يسعى إلى إنتاج أثر في مستقبل»<sup>(2)</sup>. وما التأثير في مستقبل، وإنتاج أثر فيه ما يؤكد أنّ القصدية تأخذ صبغة رئيسية في عملية التلفظ، ومن هنا تُعنى نظرية التلفظ بالحجاج من ناحية أنّ التلفظ مقصود موجه إلى متلفظ إليه ويكون من هذا الأخير: أثر، رد فعل، إنكار، إذعان، قبول، اقتناع.

إذن يمكن القول: إنّ التلفظ عن نشاط لغوي يقوم به فاعل لغوي هو المتلفظ، تنعكس آثاره واضحة في الملفوظ الذي يُنتج عن هذا النشاط التلفظي، ومن ثم جاءت عبارة "ديكرو الشهيرة: «أن القول (يعني التلفظ) منطبع في المقول (الملفوظ)»<sup>(3)</sup>.

ويوصف التلفظ بعدّه عالما «يتفاعل فيه التأس وتبرز فيه العلاقات البشرية، بكل زخمها وحمولتها الاجتماعية والنفسية»<sup>(4)</sup>.

إذن افتتاح عملية التلفظ على هذا النحو هو ما جعل التلفظ بوصفه نشاطا إنسانيا دالا، خاصا بالإنسان، فالإنسان هو وحده الكائن الذي يتكلم ويدل<sup>(5)</sup>.

ونبين أن التلفظ نظرية من أهم النظريات التداولية، وتكمن أهميتها في عنايتها بالحجاج ونبرز ذلك في «إنّ التلفظ نشاط اجتماعي، وأنّ التلفظ عند "باختين" نتاج لسياق محدد، هو بالضرورة سياق

(1) ذهبية هو الحجاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 12.

(2) ينظر، عبد الواسع الحميري، ما الخطاب وكيف نحلله، ص: 36.

(3) ينظر، نفسه، ص: 38.

(4) نفسه، ص: 41.

(5) نفسه، ص: 42.

اجتماعي، وهذا يقتضي أنّ التلفظ - وفقا لباختين- ليس مجرد فعل أو عمل خاص بالتلفظ وحده، ولكنّه نتيجة لتفاعل التلفظ مع طرف آخر، هو التلفظ إليه الذي يدمج تفاعله هو أيضا، ويكامله مع التفاعل الخاص بالتكلم سلفا»<sup>(1)</sup>.

والحجاج ما هو إلا تفاعل بين شخصين يبدأ بالتكلم بالتلفظ ليخلف أثرا في التلفظ إليه. هذا فضلا عن أنّ كل تلفظ هو تلفظ موجه في الأصل، باتجاه أفق اجتماعي.

وما يمكن أنّ يوصف به التلفظ أو يلاحظ عليه: «الدور المزدوج: فهو من جهة (وبحكم أنّه) توجهه باتجاه التلفظ إليه (السامع) يوطد من علاقة التلفظ بالتلفظ إليه، بوصفه حليفاً أو شاهداً، وهو من جهة ثانية موجهه باتجاه غاية التلفظ (لتعزيز المقصدية)، وعلى نحو تغدو معه هذه الغاية بمثابة طرف ثالث مشارك في عملية الحوار الخطابي يفترض أنّه طرف حي»<sup>(2)</sup>.

وتبرز عناية لسانيات التلفظ أو نظرية التلفظ بالحجاج، بوصفه ممارسة فكرية لحمل المخاطب «التلفظ بوصفه ممارسة سلطة، تقع على التلفظ إليه وتظهر من حيز الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، فكل قوة هي قدرة على التأثير في قوة أخرى وقابلية لأن تتأثر في الوقت ذاته بقوة أخرى»<sup>(3)</sup>.

كما حدد ميشال فوكو (Michel Foucault) هذه ممارسة «كعلاقة بين قوتين، هي علاقة سجال وصراع أو علاقة تأثير وتأثر، ما دامت القوة تتحدد هي نفسها بقوتها على التأثير في قوة أخرى (ترابطها بها علاقة) وبقابليتها للتأثر بقوة أخرى، فالتحريض والإثارة والإنتاج (وسائر المفردات مؤثرات فاعلة أما التعرض للتحريض والحث و... الخ فهي مؤثرات استجابية (منفصلة)<sup>(4)</sup>. كل هذا يقع عند فوكو تحت معنى جديد وطريف ألا وهو التأثير والتأثر»<sup>(5)</sup>.

مما سبق تبرز العلاقة القائمة بين لسانيات التلفظ واللسانيات التداولية، إذ لا جرم أنّ اللسانيات الجديدة (لسانيات التلفظ) تُعدّ نظرية من النظريات التداولية فالتداولية «هي الفرع العلمي من مجموعة العلوم اللغوية الذي يختص بتحليل عمليات الكلام، خاصة ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام»<sup>(6)</sup>.

(1) ينظر، عبد الواسع الحميري، ما الخطاب وكيف نحلله، ص: 43، 44.

(2) نفسه، ص: 44، 46.

(3) نفسه، ص: 48، 49.

(4) نفسه، ص: 48.

(5) ينظر، نفسه، ص: 49.

(6) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 31، 30.

ومن هنا تدرج لسانيات التلفظ ضمن اللسانيات التداولية بحكم أنّ هذه الأخيرة تحلل كل عملية كلامية «وما التلفظ إلا عمل كلامي، ومن ناحية أنّ الاعتبار الذي تقيمه لسانيات التلفظ للمتكلم حتّى أنّه دُعيّ بمتكلم صانع الأقوال [...] وبجاجة إلى مستمع، إذ يُعتبر المتكلم والسامع جزئين من الحالة التلفظية»<sup>(1)</sup>. فقد تكونت لسانيات التلفظ بهدف وصف العلاقات التي تنشأ بين المفووظ ومختلف عناصر الإطار التلفظي بمعرفة كلّ من:

- المشاركين في الخطاب.
- سياق العملية التخاطبية (الظروف المحيطة بالعملية التخاطبية).
- الظروف العامة لإنتاج وتلقي المفووظ: طبيعة القناة، المحتوى، السوسيو- ثقافي والتاريخي، قيود وعوائق العالم التخاطبي<sup>(2)</sup>.

وبذلك تكون التداولية قد حققت ضمن التّظرية الحديثة (التلفظ) تقدماً وأحرزت نتائج مهمة في مجال دراساتها ونذكر منها: الحجاج ذلك أنّ التلفظ فعل وممارسه للفرد فهو الحجاج يتجسد في التلفظ كطريقة هدفها التأثير على معتقد وسلوك المتلفظ إليه وما تحليل الخطاب وفق هذه النظرية (لسانيات التلفظ) إلاّ تحليل تداولي عام.

وذلك أنّ تحليل بنية المفووظ (النّص) قد انتقل إلى تحليل بنية التلفظ (الخطاب) فلسانيات التلفظ تحلل بنية التلفظ (الخطاب) وما التداولية إلاّ دراسة في الخطاب المستعمل أي وقت تلفظه<sup>(3)</sup>.

والانتقال في التحليل: من بنية المفووظ (النص) إلى بنية (التلفظ) (الخطاب) فسببه راجع إلى: «إن بنية المفووظ هي بنية النص/ القول المفرد من ناحية، وهي بنية النص/ القول المركب، من ناحية ثانية، أمّا بنية التلفظ، فهي بنية الخطاب، بوصفه نظام بناء النصّ، أو بوصفه التّسق أو المنوال الذي تُنسج خلاله النّصوص (نصوص الأقوال ونصوص الأفعال)، وهذا يقتضي أن الأولى (بنية النص/ القول) تعد بنية سطحية أو فوقية، أما الثانية (بنية الخطاب) فتعد البنية العميقة أو التحتية ككل النصّ منجز»<sup>(4)</sup>.

ولهذا تحلل «المفوظات/ كنصوص البحث في كل ملفوظ عن بنية التلفظية الخطابية التي تتألف في الأصل من ذات متلفظة تربطها بملفوظاتها علاقة تلفظ، تتم أو تتحقق في إطار متلفظ فيه (مقام أو سياق بعينه) لتحقيق غاية أو غرض (مقصدية بعينها) نطلق عليها المتلفظ له أو لأجله، وهي عملية مشروطة في

(1) ينظر، ذهبية هو الحجاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 88.

(2) ينظر، نفسه، ص: 89، 90.

(3) ينظر، عبد الواسع الحميري، ما الخطاب وكيف تحلله، ص: 13.

(4) نفسه، ص: 14.

الغالب مجذور طرف سادس نطلق عليه: المتلفظ إليه (مباشر أو ضمني) والأمر نفسه بالنسبة للمكتوب أو (الملفوظ الكتابي)»<sup>(1)</sup>.

ومقتضى الوصول إلى بنية التلفظ هو «بنية الملفوظ المُنجز (القول أو التص) نفسه ما يُحتم علينا النظر إلى الملفوظ، بوصفه تلفظاً، أو بوصفه نشاطاً إنسانياً دالاً على المتلفظ في علاقته بعناصر ملفوظاتية، أو بما هو فعل أو فاعلية ينجزها فاعل، من شأنه أنه محكوم بظروف اجتماعية، ويخضع لأوضاع وقوانين وأفكار وقيم، ويسنن ويهدف إلى تحقيق أهداف وغايات واعية، وليس هو مجرد شكل لغوي منجز»<sup>(2)</sup>.

ويمكن طرح الأسئلة هذه للإعانة على عملية التحليل، فمثلاً تحليلنا لعلاقة المتلفظ بملفوظاته نسأل: ما الذي استدعى من المتلفظ أن يتلفظ بهذا الملفوظ بالذات؟

وهو سؤال يتضمن طرح سؤال المقام أو السياق الخارجي، وواقع حال المتلفظ وملفوظاته في آن واحد وهو الضرورة التي يفترض أنّ المتلفظ قد انطلق منها خلال عملية التلفظ وللكشف والبحث في مقام التلفظ من جهة، وفي الغاية أو المقصدية التي يسعى إلى تحقيقها المتلفظ خلال عملية تلفظه الشفاهي، أو الكتابي نطرح السؤالين: ما الذي استدعى من الكائن المتلفظ التلفظ بهذا اللفظ دون غيره؟ ولماذا لفظه أو تلفظ به بمعنى بناء أو أخرجه من حيز الوجود بالقوة إلى حيز الوجود بالفعل بهذه الكيفية المشخصة، دون غيرها من الكيفيات الأخرى الممكنة؟

ولاكتشاف الهوية الخاصة بالمتلفظ، يكون السؤال على النحو التالي:

ما هدف المتلفظ في هذا الملفوظ؟ وإلى من يتلفظ؟

هذا عن علاقة المتلفظ بالملفوظ، بالنظر إليها من زاوية المتلفظ، أما عن هذه العلاقة منظوراً إليها من زاوية الملفوظ: فالسؤال الذي من شأنه الكشف عن طبيعة هذه العلاقة هو: ما الذي يحمله إلينا الملفوظ من آثار المتلفظ؟ وما الذي تعكسه علاقته المباشرة به؟<sup>(3)</sup>.

وهذا ما سيتم اكتشافه بتحليل نصوص ومختارات أدبية من منظور لسانيات التداولية ولسانيات التلفظ للعلامة عبد الحميد بن باديس، للوصول إلى: الخطاب الحجاجي كنتيجة لتحليل نصوصه، وإبراز خطابه الحجاجي.

إذن تغدو لسانيات التلفظ كإحدى النظريات التي تطلقها التداولية لتدرس الاستعمال اللغوي واكتشاف أشكاله الخطابية التواصلية وأنواعه ومدى نجاعته وأثره على المتلقي، ويتحدد هدفها في «تثبيت

(1) عبد الواسع الحميري، ما الخطاب وكيف نحلله، ص: 14.

(2) نفسه، ص: 15.

(3) ينظر، نفسه، ص: 17، 18، 19.

علاقة المتكلم بسياق الكلام»<sup>(1)</sup>، وأهداف أخرى «حددت التداولية ماهيتها على أنها ميدان من السيميائية Sémiotique» بينما التلفظ كنظرية أساس ضمنها، بالمقابل هناك اعتقاد لسانني أو سيميائي للتلفظ حيث تتناول العلاقة بين العلامات ومستعملها (استعمال اللّغة) وبذلك يتم المرور باللّغة من ميدان كونها نظاما من الأدلة إلى ميدان الفعالية والنشاط»<sup>(2)</sup>.

فالتلفظ يدرس الأداء الكلامي، وهذا يعني «دراسة الحدث الذي تتأكد فيه ذات الفرد»<sup>(3)</sup>.

وعملية التلفظ تعني الوقوف عند عناصر مثل المبهمات، كعلامات تشير إلى المتخاطبين. المتكلم الذي يتدخل كطرف في العملية التلفظية، أما المستمع كطرف ثان يصبح متكلمًا بفضل الخاصية التناظرية للخطاب، وتتوافر الشروط أو الظروف التي تتحقق ضمنها العملية التلفظية وهي الزمان والمكان، وبالاستناد إلى بعض الآليات المنظمة للخطاب من افتراض مسبق وأقوال مضمرة واحتجاج وتأويل، وشرح... والتي يلتجئ إليها المتكلم عندما يأخذ الكلمة مُعلنًا عن مرتبة كمتكلم مُنصّبًا في الوقت نفسه شخصا آخر أمامه...

«أما البحث عن المرجعية في التلفظ فتحيلنا إلى المتكلم وما يحيط به من أحوال بحيث يتجلى المتكلم حينما يكون فاعلا في الخطاب مع توفر علاقة بينه وبين المخاطب»<sup>(4)</sup>.

وتتصافر نظرية التلفظ والتداولية «في علاقة الملفوظ بالسياق، هذا الأخير الذي يتحدد من خلال العوامل غير اللغوية التي تنضاف إلى العوامل اللغوية وبفضلها تتضح الماهية التبادلية للّغة (ماهيتها الاستعمالية)»<sup>(5)</sup>، وكتلثهما تبحثان في العملية التواصلية والسياق هذا العنصر المجهول الذي نوذ العثور عنه في تبعية الخطاب وفي دروبه، حتى نستطيع فهم فحواه وكشف كنهه والفائدة منه.

نخلص إلى أنّ التداولية ولسانيات التلفظ تشتركان في العديد من المباحث، متمثلة في كيفية العملية التواصلية، وما الجدوى منها، وكيف تحلل الخطابات والهدف منها، وأهمية السياق... وهذا يُفضي إلى نتيجة هي أنّ «التلفظ يشكل أساس التداولية إذ بدون الأولى لا تتحقق الثانية كعملية، ذلك عندما تتخذ التداولية معنى جريان الكلام على اللسان أي اكتساب اللّغة وتوظيفها في ممارسة وتفاعل L'interaction»<sup>(6)</sup>.

(1) ذهبية هو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 11.

(2) نفسه، ص: 12، 11.

(3) نفسه، ص: 73.

(4) نفسه، ص: 77، 78.

(5) نفسه، ص: 07.

(6) نفسه، ص: 07.

إذن التداولية ونظرياتها: نظرية الأفعال الكلامية، نظرية التواصل، نظرية التلفظ تُعنى بالحجاج. وتكون هذه الأخيرة النظرية الأهم كونها مبدأ الكلام وتمثل نظرية أفعال الكلام تجسيدها وتطبيقا لعملية التلفظ أي الإنجاز ولتكون نظرية التواصل: نتيجة لها. هذه النظريات ترعرعت في أحضان التداولية لتنتقل بهم في دراسة الاستعمال اللغوي في شكله التواصلية.

لكنّ السؤال: ما الهدف من هذه اللسانيات التداولية؟ أليس الهدف هو: اكتشاف كل ما يحيط بالعملية التواصلية وكيف تم التكلم والاستقبال، ثم: لماذا نتكلم ولمن؟ ألتحريك أعضاء النطق فقط؟ ، بل لنحاجج ولنستدل ولنبرهن. فالحجاج أهم المباحث التداولية التي عُتبت بالدرس والتحليل وهذه العناية ساهمت في بلاغة الخطاب الحجاجي.

إذن نخلص في الأخير: إلى أن التداولية ولسانيات التلفظ وجهان لعملة واحدة هي: الخطاب الحجاجي، وما هذا التداخل بين اللسانيات التداولية ونظرياتها من جهة والتداولية ومختلف الفروع العلمية من جهة ثانية إلاّ لتعزيز مبحث الحجاج وانفتاحه على أكثر من جانب.

فالتداولية تتحقق في الخطاب المستعمل، هذا الأخير يتحكم فيه التحول الزمني ويساهم في تغييره، ومن المعلوم أنّ الميدان الذي تُستعمل فيه اللغة هو الخطاب، إذن استعمال الخطاب لا يتجسد إلاّ بعملية قولية تسمى التلفظ بالخطاب. «فالتلفظ هو النشاط الرئيس الذي يمنح استعمال اللغة طابعها التداولي بوصفه نقطة التحول بالممارسة الفعلية لها، مما يبلور عناصر السياق في الخطاب من مرسل ومرسل إليه. كما أنّه به يتحدد القصد والهدف، وهذا ما نلمسه عند النحاة مثلا عند التمثيل على قواعدهم بالإحالة على عملية التلفظ»<sup>(1)</sup>.

إذن: التلفظ مصطلح تداولي يهتم بالملفوظات في طابعها التداولي ويحدد دورها وتداولها، ويُبيّن دلالة كل ملفوظ ليكشف عن آلية التعامل اللغوي في مختلف أنواع السياق.

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 27، 28، 29.



## المبحث الثالث

### في حد المصطلح

#### 1- الخطاب الحجاجي:

الخطاب هو مصطلح يشمل أكثر من نسق، ونحن في هذه الدراسة بصدد تحديد معالمه المتعلقة بالحجاج.

تعريفه لغة: ورد في معجم مقاييس اللغة للرازي: «خطب: الخاء والطاء والباء أصلان: أحدهما الكلام بين اثنين. يُقال خاطبه يُخاطبه خطاباً [...] والخُطبة من ذلك والخطبة الكلام المخطوب به [...] وأما الأصل الآخر فاختلف لوتين»<sup>(1)</sup>.

يظهر من معنى الأصل الأول الكلام بين اثنين استلزام متكلم ومتلقي بينهما كلام، والخطبة تستلزم مستمعين.

وجاء في لسان العرب لابن منظور: «خطب: الخطب: الشأن أو الأمر، صَعَرَ أو عَظَمَ يُقال ما خطبك؟ أي ما أمرك؟ والخطب الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن والحال ومنهم قولهم جلّ الخطب [...] يُقال: خطب فلان إلى فلان فخطبه وأخطبه أي أجابه والخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً وهما يتخاطبان»<sup>(2)</sup>.

كما أن الخطاب عند الزمخشري: «هو المواجهة بالكلام»<sup>(3)</sup>.

يأتي معنى الخطاب في سؤال ما خطبك؟ والسؤال يتطلب رداً وإجابة، يستدعي السؤال والرد أو الإجابة مخاطباً ومخاطباً، فكان المصطلح في أصله يعني إفهام السامع بعد الرد على سؤاله وجوابه، أو إقناعه وإفحامه.

فالكلام بين اثنين والمواجهة بالكلام، وهما يتخاطبان استعمالاً للمادة (خطب) قد تعني لحد بعيد الإفهام بمعنى الإقناع والحجاج، وورد مصطلح الخطاب في آيات من القرآن الكريم ومنها: قوله تعالى:

(1) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، معجم مقاييس اللغة المجلد الأول، دار الكتب العلمية، المحقق، إبراهيم شمس الدين، الطبعة 2، 2008، لبنان، ص: 368، مادة (خ ط ب).

(2) ابن منظور، ص: 275، مادة (خ ط ب).

(3) الزمخشري، أساس البلاغة، ص: 255.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَإَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ الْخِطَابَ﴾<sup>(1)</sup>. ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾<sup>(2)</sup>. ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾<sup>(3)</sup>.

مُجْمَل التعريفات اللغوية «لا تُخرج الخطاب عن صيغته التخاطبية بين شخصين، إذ تستوجب المخاطبة الإجابة وردة فعل. تستدعي الإجابة تحويل الكلام من المتلقي إلى المرسل فذلك يعني تبادل الكلام»<sup>(4)</sup>.

ألا يمثل الخطاب الحجاجي نوعاً ونمطاً من هذا الإرسال والتلقي، لأنّ المخاطب أثناء العملية التواصلية لا يخاطب المتلقي لمجرد الكلام ولا ليخبره أو يشرح له أو يفسر لمجرد الإخبار والشرح والتفسير بل هناك هدف ما قابع في ذهن المتكلم حمله على التكلّم ألا وهو الإقناع أو الحجاج L'argumentation.

#### تعريفه اصطلاحاً:

من المعلوم أنّ للغة وظيفة رئيسية ألا وهي: التواصل ولتحقيق هذه الوظيفة عدّة وسائل منها: الخطاب الذي يُعدّ وسيلة اتصال لأتّه كلام بين اثنين من متكلم إلى مستمع.

والخطاب كما يبدو في البحوث المختلفة عملية اتصال تتم في إطارين الإطار اللغوي، فقد يكون متوالية من الجمل المكتوبة أو المنطوقة، يُنتجها مرسل واحد أو عدّة متخاطبين، كما يحدث في الحوار أو غيره<sup>(5)</sup>.

كون الخطاب مجموعة من الجمل يتم إنتاجها من طرف مرسل وعدم إغفال الإطار غير اللغوي بمعنى مراعاة (السياق)، فهو من جهة يُحقق عملية اتصالية، وهو من جهة ينتج خطاباً، نستنتج أنّ نية المخاطب إقناع المخاطب والتأثير فيه.

حيث يُعرفه إميل بنفينيست (E. Benveniste) بأنّه: «كلّ تلفظ يفترض متكلماً ومستمعاً وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما»<sup>(6)</sup>.

(1) سورة ص، الآية: 20.

(2) سورة النبأ، الآية: 37.

(3) سورة الفرقان، الآية: 36.

(4) ذهبية هو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 14.

(5) ينظر، خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، ص: 23.

(6) ينظر، سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، الطبعة 04، 2005، ص:

ولتحقيق هذا الهدف (التأثير) يجب تطبيق استراتيجية تُعرف باستراتيجية الإقناع «وُعدَّ الهدف الإقناعي من أهم الأهداف التي يسعى الإنسان إلى تحقيقها، وبذلك يُمكننا أن نصنف استراتيجية نسميها إستراتيجية الإقناع، انطلاقاً من أنّ المرسل يتوخاها لتحقيق مآرب كثيرة»<sup>(1)</sup>.

وهذا يرتبط بصورة جلية بالحجاج إذا ما نظرنا إلى هدف المتكلم وهو التأثير على المستمع، وبهذا يُنظر إلى الخطاب بوصفه: «استراتيجية التلّفظ أو بوصفه نظاماً مركباً من عدد الأنظمة التوجيهية والتركيبية والدلالية والوظيفية (النفعية) التي تتوازي وتتقاطع جزئياً أو كلياً في ما بينها»<sup>(2)</sup>.

والمراد بالأنظمة التوجيهية أنّ المخاطب يُوجّه خطابه إلى مخاطب خاص، وذلك لهدف ومقصد يَعيّ المتكلم إلى تحقيقهما، ثم إذا نظرنا إلى ذلك التقاطع المشار إليه وبنوعيه الجزئي والكلبي بين النظام التركيبي والدلالي التوجيهي في صناعة الخطاب والغاية منه أدركنا العلاقة بين التركيب والدلالة (المعنى). وهذا التقاطع من شأنه أن يُحقق الوظيفة النفعية لهذا الخطاب.

قد تحيل الأنظمة التوجيهية والوظيفية النفعية لخطاب ما إلى مدى تَمَوُّع الحجاج في شتى أنواع الخطاب، أو مدى حجاجية الخطاب.

والخطاب يحوي في نظامه حجاجاً -أو بوصفه حجاجاً- «يقتضي أنّ الخطاب هو نظام السلوك الاجتماعي والتواصلية بوصفه نظاماً للتفاعل والجدل بين أطراف العملية التواصلية أي بين المتلفظ وملفوظه من جهة وبين المتلفظ وملفوظه والمتلفظ فيه، وبه وله وإليه من جهة ثانية. أو بوصفه نظاماً للفعل الفاعل من طرف واحد فقط (خطاب التعالي). أو بوصفه نظاماً للتبعية والخضوع، أو التبعية والاستتباع، لاستتباع المتلفظ للمفوضات وفرض شروط تبعتها له»<sup>(3)</sup>.

والخطاب هو ما تُعبّر عنه بلغة القول أو الفعل، وهو «نظام العقل الذي نعقل من خلاله الأشياء ونصرف إزاءها بمقتضاه، إته نظام الوعي الواعي بنفسه، وبما هو وعيٌ به، وبما هو وعيٌ فيه وله ولأجله»<sup>(4)</sup>.

ويقول طه عبد الرحمن: «كلّما وقفنا على لفظ (خطاب) سبقت إلى أفهامنا دلالاته على معنى التعامل [...] أو قل إنّ الخطاب أصل في كلّ تعامل، كائناً ما كان»<sup>(5)</sup>.

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، المقدمة، ص: IVK.

(2) عبد الواسع الحميري، ما الخطاب وكيف نحلله؟، ص: 09.

(3) نفسه، ص: 12.

(4) نفسه، ص: 12.

(5) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 225.

ومن شأن هذا التعامل أن ينشئ علاقة تخاطبية تكون وظيفتها التواصل. لكن ماهية الخطاب ليست مجرد إقامة علاقة تخاطبية بين جانبيين فأكثر ذلك أن حقيقة الخطاب ليست هي مجرد الدخول في علاقة مع الغير وإنما هي الدخول معه فيها على مقتضى الإدعاء والاعتراض بمعنى أن الذي يُحدد ماهية الخطاب إنما هو العلاقة الاستدلالية، وليس العلاقة التخاطبية وحدها، فلا خطاب بغير حجاج، فإن تضمّن الخطاب علاقة تخاطبية، فيجب إذن ردها إلى العلاقة الاستدلالية<sup>(1)</sup>.

معنى هذا أن الحجاج صفة في كلّ خطاب بالنظر إلى العلاقة التخاطبية والاستدلالية والتعاملية لمختلف الخطابات.

للخطاب دور كبير «في تقريب وجهات النظر وإيضاح الحقائق وتوجيه الناس صوب الوجهة التي نرتضيها»<sup>(2)</sup>، وذلك لا يتحقق إلا إذا تظافرت عناصر الخطاب والموقف الكلامي في تحقيق العملية التواصلية الحجاجية.

إذن الحجاج نظام في لغة الخطاب «وهذا النظام ليس في جوهره إلا بناء فكريا يحمل وجهة نظر، وقد تمت صياغته في بناء استدلالي أي بشكل مقدمات ونتائج»<sup>(3)</sup>.

## 2- النص الحجاجي:

ما يميز مفهوم النص تعدد معانيه، وهو مقارنة بالبحوث الموازية له يُعدّ مبحثا صعبا لتداخله مع مجموعة من المصطلحات كالخطاب، الجملة...

أ- تعريفه لغة: جاء في مقاييس اللغة لابن فارس: «نص: النون، الصاد أصل صحيح يدل على رفع وارتفاع وانتهاء في الشيء: منه قولهم: نص الحديث إلى فلان: رفعه إليه ونص كل شيء منتهاه وفي حديث الرسول ﷺ: إذا بلغ النساء نص الحقائق أي إذا بلغن غاية الصغر وصرن في حدّ البلوغ»<sup>(4)</sup>. وهذا الرفع بنوعيه الحسي والمجرد أشهر ما يعنيه النص.

وورد في القاموس المحيط للفيروز أبادي: «نص ناقته استخرج أقصى ما عندها من السير ونص فلانا استقصى مسألته عن الشيء»<sup>(5)</sup>.

(1) ينظر، طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 225، 226.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، المقدمة، ص: IVK.

(3) محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، الطبعة 2، ص: 128.

(4) الرازي، معجم مقاييس اللغة، المجلد (2)، ص: 526، باب النون، مادة (ن ص ص).

(5) مجد الدين محمد بن يعقوب بن إبراهيم الفيروز أبادي الشيرازي الشافعي، القاموس المحيط، الجزء 2، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة 1، 1999، ص: 488، باب الصاد، مادة (ن ص ص).

أي من أجل الإفادة والاستثمار يُستخرج أقصى ما يوجد في سيرها من قوة، وقد يستخرج المتكلم أقصى ما يوجد في كلامه من قوة ليُقتنع المستمع ويحمله على ما يقول أي أنه يجعل كلامه في الحلة التي يراها مفيدة لما يقصده أو يهدف إليه من ذلك الكلام وما يدل عليه تركيب (ن.ص.ص) الإظهار والرفع «نص الحديث ينصّه نصا: رفعه وكلّ ما أظهر فقد نُصّ، ونصّت الظبية جيدها رفعته، والنص أصله منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها، ووضع على المتصّة أي على غاية الفضيحة والشهرة والظهور»<sup>(1)</sup>.

إذا كان النص استخراج أقصى ما يوجد في كلام المرسل من قوة، فهذا يتناسب ويتكامل مع معنى الشهرة والظهور، أي بعد تحوير المعنى والهدف من الكلام والفائدة نظهر هذا المعنى ونشهره ليكون ذا فائدة مقنعا هادفا، وهو الحجاج والدليل على ذلك بتعبير (رولان بارت) النص هو استخراج ما في الكتابة من دلالة وقوة وجمال وقيمة<sup>(2)</sup>. إذا ما نظرنا للكتابة أنها آلة يستخرج أقصى ما فيها من قوة (دلالة) لفائدة ما وهدف.

وما يعنيه النص: «في أصل الاشتقاق والوضع في معظم اللغات الأوربية الحديثة يعني باتفاقها النسيج، نجده على ذلك في الفرنسية والاسبانية (Texta) والانجليزية (Text) والروسية (Texta) [...] وقد أخذت هذه الألفاظ كلها من أصل واحد هو اللاتينية التي تُطلق على النص "Textus" ويعني في هذه اللغة المنقرضة أيضا (النسيج)»<sup>(3)</sup>.

ولفظ النسيج «لفظ عربي وهو لفظ مُنتزع الدلالة من صميم البنية العربية»<sup>(4)</sup>.  
ما نخلص إليه إذن النص بمعناه اللغوي أو بالأحرى بمعانيه اللغوية الرفع الظهور، استخراج أقصى ما في الشيء لاستعماله استعمالا مفيدا، قد يكون المنطلق لوضع مفهوم النص وتحديد معناه الاصطلاحي.

#### ب- تعريفه اصطلاحا:

من بين الوظائف التي يؤديها النص هي التواصل بين منتج ومنتلق. سبب تأدية هذه الوظيفة قد يكون التفاعل القائم بين عناصره، القارئ، السياق، اللغة.

لذا «النص هو كلام متصل ذو وحدة جلية: تنطوي على بداية ونهاية ويتسم بالتماسك والترابط، ويتسق مع سياق ثقافي عام أنتج فيه، وينسجم مع سياق خاص أو مقام يتعلق بالعلاقات القائمة بين القارئ والواقع من خلال اللغة. وبين بداية النص وخاتمته مراحل من النمو القائم على التفاعل

(1) ابن منظور، لسان العرب، المجلد(2)، ص: 196، باب النون، مادة(ن ص ص).

(2) ينظر، عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص: 44.

(3) نفسه، ص: 45.

(4) نفسه، ص: 51.

الداخلي، وهذا التفاعل يؤدي بالتّص إلى إحداث وظيفته التي تتمثل في خلق التواصل بين منتج ومتلقيه»<sup>(1)</sup>.

فالإشارة إلى وظيفة النص والتفاعل الذي يُحدثه لخلق التواصل بين المنتج والمتلقي، قد تكون هذه الوظيفة حجاجية يعمد فيها المنتج إلى إقناع المتلقي، وقد تظهر هذه الوظيفة جليا إذا اعترض القارئ أو المتلقي عن ما أنتجه المخاطب (الكاتب).

ما نستنتجه من الوظيفة الحجاجية أو الإقناعية هو ممارسة فكر عن طريق النص لإقناع المتلقي، وبالنظر إلى هذه الزاوية يُعرّف النصّ بأنه: «محاولة لوصف كل الممارسات الإنسانية في جانبها التواصلية والمعرفي، وتُعتبر الدليل المادي على النشاط الفكري»<sup>(2)</sup>.

ما نستشفه من كلمة الممارسات ممارسة فكر على متلقي من شأن هذه الممارسة الفكرية أن تحمل المتلقي على تصديق اعتقاد أو القيام بعمل أو تغيير سلوك وهذه النتائج هي الصورة المادية التي تنتج عن المتلقي بفعل هذا النص إذا وُصف بأنه ممارسة ونشاط فكري حجاجي.

ألا يتقاطع هذا في أكثر من موضع مع ما يعنيه الحجاج بأنه ممارسة فكرية هدفها إقناع المتلقي، والتأثير على معتقده وسلوكه.

هل يمكن النظر إلى النصّ على أنّه وحدة صرفية أو رموزا أو أنّه بنية خاصة؟

«لا يمكن النظر إلى النصّ بزعم أنّه مجرد صورة مكونة من الوحدات الصرفية أو الرموز إنّ النصّ تجلّ لعمل إنساني، ينوي به شخص أن يُنتج نصا ويوجه السامعين به إلى أن يبنوا عليه علاقات من أنواع مختلفة، وهكذا يبدو هذا التوجيه مسببا لأعمال إجرائية»<sup>(3)</sup>، معنى هذا أنّ النصّ لم يُنتج هكذا بل لهدف أو لنية التأثير على السامع من خلال أنّه عمل إنساني، ويظهر هذا أكثر ويتجلى إذا كان النصّ موجها للسامع بمعنى أنّ منتج النصّ على دراية بمتلقيه لهذا يكون نصه موجها بمقصد وهدف.

أما أنّه بنية خاصة: بل هو مجموعة بنيات تتظافر لتكوّن أو تُنتج نصا دالا.

يذهب سعيد يقطين إلى تعريفه بأنه «بنية دلالية تُنتجها ذات (فردية أو جماعية) ضمن بنية نصية منتجة، وفي إطار بنيات ثقافية واجتماعية محددة»<sup>(4)</sup>.

فالنصّ يُنتج في إطار تضافر هذه البنيات: البنية الدلالية والبنية الثقافية والبنية الاجتماعية، وتفاعلها يكون في خدمة أو تجسيد بنية تُعدّ هي الهدف من تفاعل البنيات الخاصة السابقة ألا وهي البنية

(1) خلود العموش، الخطاب القرآني، ص: 22.

(2) حسين حمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، ص: 47.

(3) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب القاهرة، الطبعة 1، 1998، ص: 92.

(4) سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، النص والسياق، ص: 32.

الحجاجية من منظور أنّ النص بنية دلالية « وأنه مظهر دلالي يتم من خلاله إنتاج المعنى من لدن المتلقي»<sup>(1)</sup>.

ولهذا يُوصف النص بأنه «متنوع مترابط مُنسق ومنسجم وليس تابعا عشوائيا لألفاظ وجمل وقضايا وأفعال كلامية»<sup>(2)</sup>.

معنى هذا أنه يتميز بالفاظ وجمل وقضايا وأفعال كلامية محكمة التركيب والنسيج. ما نفهمه من كلمة ليس تابعا عشوائياً بل هو إذن تابع مُوجه. من كلّ الاعتبارات والزوايا، من ألفاظ وجمل وقضايا وأفعال كلامية، كل هذا التابع اللاعشوائي يؤدي وظيفة قد تكون لحد بعيد الإقناع والحجاج.

### ج- أنواع النصوص وميزتها:

أولاً نذكر سبب تناولنا لأنواع النصوص: «فلربّما كان في استطاعة الناس أن يستعملوا النصوص دون أن يجدوا أنواعها، غير أنّ الكفاءة عندئذ تقلّ وطريقة التفاعل بين المتكلم أو الكاتب وبين السامع أو القارئ تظل غامضة»<sup>(3)</sup>.

سنعرض أنواع النصوص كما عرضها روبرت دي بوجراند:

- 1- النصوص الوصفية.
- 2- نصوص القصص.
- 3- النصوص الجدلية ويغلب فيها التعارض بين القضايا التي تتصادم فيها القيمة كونها موصوفة بالصدق.
- 4- نصوص أدبية.
- 5- نصوص شعرية.
- 6- نصوص علمية.
- 7- نصوص تعليمية.
- 8- نصوص المحادثة، وطابعها التناوب في الكلام.
- 9- نصوص روائية وحوارية<sup>(4)</sup>.

(1) سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، النص والسياق، ص: 32.

(2) خولة طالب الإبراهيمي، قراءة في اللسانيات النصية، ص: 117.

(3) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص: 419.

(4) ينظر، نفسه، ص: 415 وما بعدها.

ما يجب قوله أنّ اللسانيات النصية قطعت أشواطاً كبيرة في دراسة التصوص وتصنيفها، مع العلم أنّ هذا التصنيف لازال محل نقاش إلى أيامنا هذه.

وقد اعتُبر النص الحجاجي، صنفاً أو نمطاً مستقلاً له مميزات وخصائصه من ناحية الشكل والمضمون<sup>(1)</sup>.

ونشير هنا أنّ الحجاج محتوى في كل أنواع النصوص ولتبيين هذا أكثر نذكر السبب الذي أدى بالكاتب أو المرسل بصفة عامة إلى إنتاج نص، ثم ما هي الفائدة والهدف الذي خطط له المرسل ليحققه بهذا النص؟

فالمرسل يصف، هذا نص وصفي. إذن ما السبب الذي أدى بالمرسل لأن يصف دون أن يروي أو يُحاور...؟ ثم ما الهدف الذي يسعى له ومن أجله نسج نصاً وصفيًا؟ والأمر نفسه في كل أنواع النصوص... فالمرسل يُحاور، يروي، يفسر، يخبر، يحاجج، كلّها نصوص، ولكل منها حالته المعلوماتية والانفعالية والاجتماعية، ولها هدف، وأنتجت لسبب.

قد يكون الهدف إقناعياً أو حجاجياً يسعى به المرسل لإقناع متلقيه ومستقبله إذا نظرنا إلى النص بأنه مُعَيَّر لمن يستعمله أو يستهلكه، فهو «توال من الحالات (STATES)، فالحالة المعلوماتية، الحالة الانفعالية، والحالة الاجتماعية الخ، لمستعملي النص عرضة للتغير (CHANGE) بواسطة النص»<sup>(2)</sup>.

أليس هدف الحجاج التغيير في معتقد المتلقي أو تغير سلوكه، من هنا يمكن أن نطلق على هذه الأنواع من النصوص أنّها نصوص حجاجية.

ثم ليحقق المرسل الهدف وهو التغيير أو الإقناع لأبداً أن يكون نصه موجهًا وهذا معناه القصد، فأي نص يكون موجهًا، يكون له بالضرورة أبعاداً حجاجية.

وما يبرهن أكثر على أنّ الحجاج كامن في جميع أصناف النصوص هو ميزة هذه النصوص، فهي تتميز باللاتجانس أي بالإضافة إلى وجود البنية الكبرى لكل نص قد تكون هناك بنى تخدم البنية الأصلية الكبرى.

فمثلاً النص السردى، بنية سردية لكن هذا لا يمنع بأن يكون في هذا النص بنى يحملها في طياته تكون ذات صبغة حجاجية، وينطبق الأمر نفسه في باقي أنواع النصوص، كما «يُمكن لنص واحد أن ينتقل حقاً من نوع إلى نوع بأن يتغير فيه الموقف وطريقة العرض»<sup>(3)</sup>.

(1) ينظر الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم، ص: 328.

(2) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص: 92.

(3) نفسه، ص: 418.



والتّص بنية غير متجانسة «حيث أنّنا نجد مثلا أن مقطعا مختلفا أُدرج في بنية مقطعية أصلية (الحوار في السرد، السرد في الوصف، أو أنّ مقطعا يُهيمن على المقاطع الأخرى في النص»<sup>(1)</sup>، تكون هذه البنيات موظفة توظيفا حجاجيا من قبل المرسل (المنتج)، والذي يتناول البنيات هو علم النص، حيث تتمثل مهمته في «وصف العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية النصية بمستوياتها المختلفة وشرح المظاهر العديدة لأشكال التواصل واستخدام اللغة»<sup>(2)</sup>.

كما يتناول علم النص أنواع النصوص ومميزات كل نوع عن غيره من النصوص وإذا نظرنا إلى علم النص وبلاغة الحجاج نجد أنّ «علم النص يتكئ بصفة خاصة على مجال اللسانيات ومن هذه الزاوية، فإنّ علم النص يقترب من الميدان الذي كان مخصصا للبلاغة بحيث يرى العلماء أنّه الممثل الحديث لها»<sup>(3)</sup>. ويسعى علم النص إلى تحقيق هدفين «الأول: هو تحليل كلّ الأنماط النصية أدبية كانت أو غير أدبية، والثاني هو محاولة اكتساء طابع الشمولية أي بوصفه نشاطا متعدد الاختصاصات»<sup>(4)</sup>، وبهذا الطرح فإنّ «وظيفة علم النص لا تتوقف عند دراسة النصوص الأدبية فحسب ولكنها تمتد إلى دراسة خطاب العلوم الإنسانية بصفة عامة»<sup>(5)</sup>.

وتظهر الأساليب الحجاجية من خلال أهم تعريفات النص الحجاجي التي يكون مركزها النص، وما عناية علم النص بالنصوص وتصنيفها وأنواعها وتحليلها، وبعناصر العملية التواصلية، إلا لأنّ الحجاج نظرية تأخذ بعُدا تكاملي وتفاعلي مع جميع أنواع النصوص وفروع المعرفة الإنسانية. تلزمنا الإشارة إلى ضرورة استنتاج مفهوم الخطاب الحجاجي وعلاقته بالنص الحجاجي وقد بين البحث ذلك من مفهوم النص والخطاب عموما، ويمكن القول إنّ النص الحجاجي هو ذلك النص الذي يبيّنه المحاجج المخاطب بقصد الاتصال بالمحاجج المخاطب حاملا إيّاه على ما يقدمه من قضايا وأفكار بهدف إقناعه، وهذا يتعلق بالحجاج البلاغي، وببلاغة وحجاجية النص، عاملا على إثارة أفكار القارئ التي تتعلق بالموضوع الحجاجي.

أمّا الخطاب الحجاجي فهو جملة النصوص المتعلقة بموضوع بلاغة الحجاج التي يحاول المتكلم إقناع السامع فيها بعالمه الفكري والحضاري.

(1) خولة طالب الإبراهيمي، قراءة في اللسانيات النصية، ص: 121.

(2) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 292.

(3) نفسه، ص: 10.

(4) حسين حمري، نظرية النص، من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، ص: 27.

(5) نفسه، ص: 28.

فالخطاب الحجاجي هو خطاب إيصالي وحجاجي في الوقت ذاته ومجئنا فيه يتلخص بتوجيه (خطاب حجاجي) للإقناع، فهو أقرب للجانب الأول (الإيصالي) على الرغم من جعل الجانب الآخر هدفاً له، فنحن إذن إزاء خطاب علمي بلاغي يستسقي مادته من الواقع البلاغي الاجتماعي... ويهيمن فيه جانبين الجانب المعرفي (ما يمسُ الاتفاق العام في ثقافة المجتمع أي مستوى الحقائق اليقينية والجانب (الإيديولوجي)، وهو ما يتعلق بمصالح الناس من الوعي الجماعي لهم. وإنّ أهم ما في عملنا هو كشف واقع القول الحجاجي بما يشمل من عناصر الخطاب، والسلطة الموجهة لهذا الخطاب، ثم بعد ذلك تكون مهمة الكشف عن آلياته وكذلك منطلقاته الفكرية فضلاً عن عرضنا آليات القول الحجاجي في الخطاب.

### 3- في حد المصطلح:

البحث العربي اللساني تتجاوزه الكثير من المسائل على مستوى المصطلح ونظراً للتعلق والتواشج الموجود بين النص والخطاب، قد اختلف اللغويون ومنهم من اتخذ بين التفريق والتوحيد بين هذين المصطلحين.

#### أ- النص والخطاب:

يتداخل النص والخطاب تداخلاً كبيراً، وذلك لأنّ «الخطاب كلمة تُستخدم للدلالة على كل كلام متصل اتصالاً يمكنه من أن ينقل رسالة كلامية من المتكلم أو الكاتب، وليس كل خطاب نصاً وإن كان كل نص بالضرورة خطاباً فالكلام المتصل خطاب، ولكنّه لا يكون نصاً إلا إذا اكتمل ببداية ونهاية، وعبر عن موضوعه ببناء متماسك منسجم»<sup>(1)</sup>.

ويُفَرَّقُ سعيد يقطين بين النص والخطاب وذلك يجعله النص بنية تتضمن الخطاب والخطاب إنتاج لفظي «والنص وحدة مجردة لا تتجسد إلا من خلال الخطاب كفعل تواصلية [...] إنّ الخطاب هو في آن واحد فعل الإنتاج اللفظي ونتيجته الملموسة والمسموعة والمرئية، بينما النص هو مجموع البنات النسقية التي تتضمن الخطاب وتستوعبه، وبتعبير آخر، إنّ الخطاب هو الموضوع الأمبريقي والمجسد أمامنا كفعل، أمّا النص فهو الموضوع المجرد والمفترض، إنّ نتاج لغتنا العلمية»<sup>(2)</sup>.

(1) خلود العموش، الخطاب القرآني، ص: 24.

(2) سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، النص والسياق، ص: 16.

ويرى قريماس (A.J.Grimas) أن المفهومين يتداخلان «بحيث أنّ كلمة النَّصّ غالبا ما تأتي مرادفة لكلمة خطاب، خاصة أثناء التفسير المفهومي في اللغات الطبيعية، التي لا تمتلك مقابلا لكلمة الخطاب (الفرنسية، الإنجليزية) مثلا»<sup>(1)</sup>.

الخطاب رسالة من متكلم أو كاتب، والنص وحدة مجردة لا تتجسد إلا من خلال الخطاب، فهما مندمجان متداخلان، إلا أنّ الكتابة تخص النص دون الخطاب، وبهذا يستلزم الخطاب متلقيا (آنيا) بينما النص فمتلقيه يمكن أن يكون غائبا.

ويميزُ فإن دايك بين النص والخطاب تمييزا دقيقا « إذ أنّ الخطاب هو عملية الإنتاج الشفوية ونتيجتها الملموسة، أما النص فهو مجموع البنيات الآلية التي تحكم هذا الخطاب، وبتعبير آخر فإن الخطاب ملفوظ (تلفظ) ذو طبيعة شفوية لها خصائص نصية بينما النص هو الشيء المجرد والافتراضي الناتج عن لغتنا العلمية»<sup>(2)</sup>.

يتجلى لنا أنّ النص هو القلب الذي يشكل الخطاب.

وتتفق خلود العموش مع فإن دايك في أنّ «النص بوصفه بنية عميقة بينما يمثل النص بنية سطحية، أو يُنظر إليهما بوصفها مظهرين، المظهر التجريدي والمظهر الحسي، والنص مظهر تجريدي بينما الخطاب يُجسد وحدة لسانية تتجلى في ملفوظ لغوي»<sup>(3)</sup>، إذ هو «الفضاء الأرحب لتجربة العشق في ممارسة الكتابة [...] فكأنّ النص إطلاق عام، على حين أنّ الخطاب إطلاق خاص يتمحض لتعيين مواصفات تُحدد شكل الكتابة في خصوصيتها التصنيفية»<sup>(4)</sup>.

لقد ميّز اللغويون بين الخطاب والنص باعتبار: المتلقي، الكتابة، البنية، وباعتبار التواصل يتضح أن الخطاب يؤدي وظيفة تواصلية عن طريق المشافهة ويؤديها النص عن طريق التدوين والكتابة، والنص في بنيته العميقة والخطاب في بنيته السطحية، يمثلان وظيفة تواصلية. إذن إنّ كلا من النص والخطاب -بهذا المفهوم- يمثلان المظهر النسقي للتواصل الإنساني<sup>(5)</sup>، وذلك بوصف النص وحدة مجردة لا تتجسد إلا من خلال الخطاب كفعل تواصلية<sup>(6)</sup>.

(1) حسين خمري، نظرية النص، ص: 60.

(2) نفسه، ص: 60.

(3) خلود العموش، الخطاب القرآني، ص: 24.

(4) عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص: 12.

(5) ينظر، حسين خمري، نظرية النص، ص: 35.

(6) ينظر، خلود العموش، الخطاب القرآني، ص: 24.

نستنتج أنّ الوظيفة التواصلية محققة في الخطابات الشفوية والنصوص المكتوبة، ومنه، هل يمكن أن يتحد النص مع الخطاب في وظيفة إقناعية؟  
ويجيبنا عبد الملك مرتاض<sup>(1)</sup> «لم لا يكون النص خطابا، والخطاب نصا؟ ذلك شيء قيل به ولكننا نحن نأبي القول به، فالنص لدينا أشمل وأرحب أما الخطاب فتضييق داخلي، تفصيل من مجمل، وفرع من أصل كبير»<sup>(1)</sup>.

فإذا أعدنا النظر إلى النص والخطاب بمنظور تواصلية ومن زاوية نفعية نجد أنّ الخطاب لا ينتجه المرسل إلا لقصد وهدف، والنص لا ينتجه الكاتب إلا لقارئ وبهدف التأثير فيه وما غيابه لحظة الكتابة سببا يُفقد العملية التواصلية قيمتها، أو لم يكتب هذا النص لأجله، ولنية التأثير فيه، من هذا المنطلق يمكن أن نصلح على صلاحية المصطلحين ولا إشكال خطاب حجاجي أو نص حجاجي، لأنّ كلاهما يُنتج لهدف التأثير على المتلقي، وأنهما يُنتجان بقصد من المتكلم في الخطاب ومن الكاتب في النص.  
وما القصد إلا توجيه أي يكون الكلام موجّها لمتلق خاص، سواء أكان الكلام منظوقا أم مكتوبا، وما الخصوصية إلا من خصوصية الخطاب/ النص ليكون هادفا محققا لمقصد المرسل.

نقول: خطاب حجاجي بالنظر إلى عناصر الموقف الكلامي والهدف من الخطاب. وقد نقول نص حجاجي إذا كنّا بصدده تحليل نص وإخضاعه للتحليل ولاكتشاف البنيات والوسائل الحجاجية، ووجه الاستدلال، لهذا أنّ الخطاب بنية فكرية، تنبعث في نص ينتمي إلى سياق خطابي معين<sup>(2)</sup>. إذن فهذا الخطاب محتوى في النص.

وأنّ الخطاب هو «مجموعة من النصوص ذات العلاقات المشتركة أي أنه تتابع مترابط من صور الاستعمال النصي، يمكن الرجوع إليه في وقت لاحق»<sup>(3)</sup>.

وما يحتمل أنّ النص والخطاب تجمعهما علاقة الاحتواء هو الوظيفة الاتصالية فإنّ «كان عالم النص هو الموازي المعرفي للمعلومات المنقولة والمنشّطة بعد الاختزان في الذاكرة من خلال استعمال النص فإنّ عالم الخطاب هو جملة أحداث الخطاب ذات العلاقات المشتركة في جماعة لغوية أو مجتمع ما»<sup>(4)</sup>.

(1) عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص: 12.

(2) ينظر، فرحان بدري الحربي، الأسلوبية في النقد العربي الحديث، ص: 43.

(3) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والأجراء، ص: 06، مقدمة المترجم.

(4) نفسه، ص: 06، مقدمة المترجم.

ويصبح هذا الرأي في الخطاب (النص محتوى) «إذ النص هو أداة من أدوات التخاطب أي أنه مقولة لغوية أسقطت في إطار نظام الاتصال اللفظي البشري كما يُشخصه (ياكسون)»<sup>(1)</sup>. وهكذا فإنّ مفهوم الخطاب يظهر بوضوح من خلال الفصل بين اللّغة بوصفها مفهوما مجردا وهي نظام متجانس في الوقت نفسه، وبين اللّغة في الاستخدام. إذ تكون ممارسة اجتماعية، وهي تكون عندئذ ظاهرة اجتماعية محكومة بمجملة شروط وظروف تكون بها جزءا من صيرورة المجتمع. فما علاقة الخطاب باللّغة وما علاقة الخطاب بالكلام!؟

#### 4- علاقة الخطاب باللّغة والكلام:

##### أ- الخطاب واللّغة:

من المعلوم أنّ اللّغة هي الظاهرة الاجتماعية التي حظيت بالدرس اللساني، ونالت حصة الأسد من التحليل والتنظير، هذا مقارنة بالظاهرة (الطبيعية) الإنسانية ألا وهي اللسان التي أبعدت عن الدراسة اللسانية بوصفها ظاهرة على مستوى عال من التفكير المجرد، ومقارنة بالظاهرة الفردية ألا وهي الكلام والتي أبعدت أيضا وقت ذاك من الدراسة اللسانية بوصفها فردية على مستوى عال من الاختلاف فلا يمكن ضبطها.

وبهذا نالت اللّغة الحظ الأوفر من الدرس اللساني لأنها ظاهرة اجتماعية تقبل الخضوع للتحليل اللساني.

فاللّغة إنتاج اجتماعي يُظهر علاقة اللّغة باللسان والكلام، فهي (اللّغة) تجلي للسان وتمثيل له، وهي لا تتجسد إلا من خلال الكلام، فهي نظام والكلام تطبيق لذلك النظام (أداء فردي). ويحتل الخطاب مرتبة أكبر إذا ما نظرنا إلى اللّغة بأنها مادة ليست «مجهولة إلى حدّ عدم الكشف عنها فهي موجودة في أذهاننا، تصرفاتنا وأقوالنا[...] تحولت إلى نشاط واستعمال عندما اتخذت مفهوم الخطاب»<sup>(2)</sup>.

توصف اللّغة بأنها نظام، لكن أثناء ممارستها تتحول إلى كلام وهو مفهوم للخطاب والدليل على ذلك أنّ اللّغة تأخذ نوع الخطاب فمثلا: الخطاب الحوارية، الخطاب الحجاجي كسمية لشكل ونوع الممارسة اللغوية فنقول: اللّغة الحوارية، اللّغة الحجاجية، فثمة فرق كبير بين اللّغة النظام واللّغة ممارسة (الخطاب)،

(1) عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشرحية، قراءة في نموذج إنساني معاصر، النادي الأدبي الثقافي، السعودية، الطبعة 1، 1985، ص: 07.

(2) ذهبية هو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 86.

فكل أنواع الخطابات والنصوص لغة، لكن تأخذ اللّغة اسم ونوع الخطاب إذا استعمل ومارسه البشر، لهذا يُعرف "بنيفينست" الخطاب بأنه «عبارة عن اللّغة في حالة فعل»<sup>(1)</sup>.

قد كانت اللّغة جوهر الدراسة اللسانية، وتناولها الباحثون اللغويون بالدرس والتحليل كما كانت ركيزة ارتكزت عليها معظم المدارس اللسانية من نواحي عدة منها اللّغة شكل أم مادة، غاية أم وسيلة... مثل: مدرسة براغ، مدرسة كوبنهاجن، المدرسة البنوية والتوليدية، وأُسست لدراستها علوم: علم اللّغة، فقه اللغة، اللسانيات، علم النص... الخ، لكن لماذا هذا الاهتمام باللّغة؟

نشير من خلال هذه الإجابة عن السؤال إلى لغة الخطاب، «ففي جدلية اللّغة والكلام نستشف استحالة دخول شيء في اللّغة، ما لم يكن الكلام قد اختبره، وبصورة عكسية يستحيل تصوّر كلام لا يأخذ من مخزون اللّغة شيئاً، ذلك أن اللّغة مصطلحية وفي الوقت عينه مجموعة من القواعد التي يستظل الكلام بظّلها»<sup>(2)</sup>، والاهتمام باللّغة بهذا الشكل الفائق العناية يرجع إلى وظائفها، يتجسد فيها الخطاب أيما تجسيد، ومنها تظهر علاقة اللّغة بالخطاب.

**وظيفة الإخبار:** أي نقل فكرة من متكلم إلى سامع بوساطة ناقلة هي قناة تنقل الرسالة، وقد اقترح "جاكيبسون" اختصاصاً جديداً لمعالجة هذه المسائل ضمن نظرية التواصل، هذا الاختصاص سمّاه: لسانيات الخطاب، أو لسانيات فعل القول.

وبهذا يتقاطع الخطاب واللّغة في هذه الوظيفة، ونقطة التقاطع ذلك أنّ العملية الإخبارية تقوم من اللّغة<sup>(3)</sup>.

أما «الوظيفة الحقيقية للغة المتمثلة في الاتصال: كيف يتم؟ لمن يُوجه؟ في أي مناسبة؟ مما يدخل ضمن تحليل الخطاب، إذ تُعتبر اللّغة نظاماً للاتصال والتعبير قصد التفاهم بين بني البشر»<sup>(4)</sup>. فالاتصال يتم بالتخاطب، وهو عملية يقوم بها المرسل لإبلاغ المرسل إليه خبراً ما ويوجّه إليه الخطاب قصد إقناعه أو إمتاعه في موضوع معين.

وبناء على ذلك فإنّ اللّغة عُرّف مكتسب ونتاج اجتماعي للملكة اللسان، وحين يُخضعنا المجتمع لقواعد اللّغة فإنّه ييسر لنا المجال للتفاهم المشترك إذ نفهم ما يقوله غيرنا ويفهمون ما نقوله<sup>(5)</sup>، وهذا ما يفسر الفعالية الحجاجية بأنّها صفة لكل لغة طبيعية ذات نظام تتحول بالممارسة إلى خطاب.

(1) عبد الواسع الحميري، ما الخطاب وكيف نحلله، ص: 28.

(2) ذهبية هو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 56.

(3) ينظر، رابح بوحوش، الخطاب والخطاب الأدبي وثورته اللغوية على ضوء اللسانيات وعلم النص، ص: 171، 172.

(4) ذهبية هو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 57.

(5) نفسه، ص: 78.

## ب- الخطاب والكلام:

لقد أبعاد الكلام عن الدراسة في الدراسات اللسانية منذ "سوسير"، لكن عاد ليكون هو محور الدراسة وذلك بالانطلاق من أنّ اللّغة لا يمكن اكتشافها إلّا من خلاله، فكلما «وقفنا على لفظ (الكلام) تبادرت إلى أذهاننا دلالاته على معنى (التواصل) حتى أنّ ما سواه من وسائل التواصل المعلومة، إنّ حركات ملحوظة أو إشارات مبثوثة أو رموز منظومة، تبدو لنا موضوعة على قانونه ومفهومه على مقتضاه، أو قل إنّ الكلام أصل في كل تواصل، كائن ما كان»<sup>(1)</sup>.

فإذا كان الخطاب تعاملًا فإنّ الكلام تواصل، ويتعدى هذا التواصل الكلام المنطوق إلى الحركات والإشارات والرموز، «ذلك أنّ اللّغة نظام والكلام ممارسة لذلك النظام فهو تطبيق وانجاز لنظام اللّغة فهو تواصل، وذلك لأنّ الفرد الذي يتكلم ويستمع لا يستعمل نظامًا غامضًا وغير شخصي (غير نظام لغته)، ولكن نظامًا واضحًا ينسبه إلى ذاته ذلك النظام الذي استطاعت تجربته أن تنشئه في فكره»<sup>(2)</sup>.

والكلام نتاج فردي «يصدر عن وعي، وإرادة ويتصف بالاختيار الحر وحرية الفرد الناطق تتجلى في استخدامه انساقًا للتعبير عن فكره الشخصي»<sup>(3)</sup>.

تتجلى هنا علاقة الكلام بالحجاج بأنّه يصدر عن وعي وإرادة واختيار. فوعي المتكلم يعني أنّه يعي ما يقول وما يتكلم به، وبفعل منه أي أنّه صادر منه بإرادته وباختياره الأنساق التعبيرية التي يراها مقنعة ومحققة لهدفه وفعله الكلامي.

ولذلك مرد الأنساق والتراكيب الجديدة إلى فعل الكلام «فالجديد في اللّغة يأتي دائمًا عن طريق الإنجاز (الكلام)، هو الذي يجعل اللّغة تتطور، إذن وجود اللّغة رهين بوجود الكلام»<sup>(4)</sup>.

لكن هل تقوم حقيقة الكلام بمجرد النطق بالفاظ والتعبير عن عواطف؟! وهل حقيقة الكلام الدخول في علاقة تخاطبية بالفاظ معينة؟

لا تقوم حقيقة الكلام بمجرد النطق بالفاظ «لأنّ هذا النطق قد يقع عرضًا في حال النوم والترتيب قد يأتي صدفة كما في حال اللّعب والدلالة قد تُنتزع كما في حال فلتة اللسان، وإمّا حقيقة كامنة في كونه يبني على قصدين اثنين: أحدهما يتعلق بالتوجه إلى الغير، والثاني يتصل بإفهام هذا الغير»<sup>(5)</sup>.

(1) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 213.

(2) ذهبية هو الحجاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 83.

(3) ينظر، رابح بوحوش، الخطاب والخطاب الأدبي وثورته اللغوية على ضوء اللسانيات وعلم النص، ص: 158.

(4) ذهبية هو الحجاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 81.

(5) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 214.

فالتوجه بمعنى القصد أي الكلام يكون المرسل إليه خاص ومعلوم، ليفي الكلام بغرضه وهو الإفهام وهذه العناصر: التوجه، القصد، الإفهام، الغرض الكلامي كلها عناصر تندرج ضمن الحجاج، فلا يُعقل أن يتكلم الإنسان هكذا، بل لهدف وهو إفهام السامع، ولا يصح أن يُوجّه كلامه لأيّ كان فيجب أن يكون مقصودا، فما يفهمه هذا يُبهم عند آخر، إذ حقيقة الكلام «الدخول في علاقة مع الغير بمعنى أنّ الذي يُحدد ماهية الكلام إنّما هو: العلاقة التخاطبية وليس العلاقة اللفظية وحدها، فلا كلام بغير تخاطب، ولا متكلم من غير أن تكون له وظيفة المخاطب»<sup>(1)</sup>.

إذن نستنتج أنّ التوجه إلى الآخر للإفهام، يحصل من متكلم ويقع على مستمع فهذه عناصر الخطاب الناجع الهادف، وهو الخطاب الحجاجي.

نخلص من هذا الطرح أنّ اللّغة والكلام والخطاب والحجاج قد تحمل في علاقاتها علاقة تكامل، فاللّغة نظام والكلام شكل لها والخطاب يستلزم مرسلا ومرسلا إليه فهو كلام مرسل مقصود. ومن هذا تتضح وظيفة اللّغة وهي التواصل وتحقق بتفاعل هذه العلاقات، إذ «الكلام والخطاب والحجاج أسماء مختلفة لمسمى واحد، وهو الحقيقة النطقية الإنسانية»<sup>(2)</sup> التي غرضها التأثير في المرسل إليه بقصد من المرسل ويلزمه لذلك خطاب ويراعي السياق والمقام والحجج المناسبة.

فالخطاب عند سوسير مرادف «لمفهوم الكلام بالمعنى المتعارف عليه في علم اللّغويات البنوية، أي دراسة الكلام وليس اللّغة بما يُستنتج ذلك من وضع المتكلم في الاعتبار دون الاهتمام باللّغة كبنية وكقواعد»<sup>(3)</sup>.

ويؤكد "بول ريكور" (Paul Recours) «أنّ الخطاب هو عكس ما يُطلق عليه اللّغويون نظام كود لغة، فالخطاب هو حدث الكلام وإذا كان الرمز (الصوتي أو المعجمي) هو الوحدة الأساسية للكلام، فإنّ الجملة هي الوحدة الأساسية للخطاب، ولهذا فإنّ التركيب اللّغوي للجملة هو الذي يساند نظرية الخطاب كحدث، وهناك أربع مستويات للخطاب تميزه عن اللّغة نذكر منها:

أنّه يتحقق دائما بشكل مادي وفي الحاضر، بينما نظام اللّغة هو نظام فرضي وخارج عن الزمن، وأنّه يُشير إلى فاعله نظرا لوجود مجموعة معقدة من الآليات مثل: الضمائر، بينما اللّغة لا تتطلب بالضرورة وجود أي فاعل»<sup>(4)</sup>.

(1) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 215.

(2) نفسه، ص: 235.

(3) محمد شومان، تحليل الخطاب الإعلامي، أطر نظرية ونماذج تطبيقية، ص: 118.

(4) نفسه، ص: 120.



لكن ما يلاحظ على الخطاب أنّ مفاهيمه متعددة ويتداخل مع كثير من المصطلحات، وإن كان يتميز عن بعضها في جوانب فإنّه يتداخل معها في جوانب آخر ومن هذه المصطلحات والمفاهيم: النص، اللّغة والكلام، الرسالة، المنطوق، لكن الثابت «أنّ المصطلح يُعتبر تاريخياً مقولة من مقولات علم المنطق، تعني التعبير عن فكر متدرج بوساطة قضايا»<sup>(1)</sup>.

ويتجه الخطاب باستخداماته المختلفة صوب الوجه الحجاجي، ذلك انطلاقاً من غرض هذا الخطاب، «حيث يتجلى الخطاب كرسالة من مرسل إلى متلق بغرض التأثير في الأخير، أي أنّه خطاب غرضي يتم إنتاجه وكذلك قراءته في ظروف مادية ومعنوية محددة، ممّا يؤشر إلى أهمية دراسة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المحيطة بالخطاب بوصفه حدثاً تاريخياً»<sup>(2)</sup>.

تعدّ اللّغة بعداً حجاجياً بجميع مستوياتها «ويظهر ذلك في نظام بنيتها، لأنّ المتكلم يستخدم الوحدات اللسانية، حسب ما يُريد إبلاغه من أفكار وبالقدر المقصود»<sup>(3)</sup>.

### ج - عناصر الخطاب:

ما يُحقق العملية التواصلية هو الخطاب، هذا الأخير يستلزم عناصر لتحقيقه وبلوغ غايته والهدف من إنشائه، وبالنظر إلى نوع الخطاب وآلياته نكتشف العناصر الفاعلة فيه، ومن وجهة نظر تداولية كون الخطاب قائماً على جملة من العناصر الأساسية وهي:

**أولاً المرسل:** هو طرف الخطاب الأول الذي يتجه به إلى الطرف الثاني ليكمل العملية التخاطبية، هدف إفهامه مقاصده أو التأثير فيه، ويختار ما يتناسب مع منزلته ومنزلة المرسل إليه، كما يتوخى اختيار ما يتناسب مع السياق العام. فخطاب التاجر يختلف حتماً عن خطابه مع زبونه وخطاب تاجر آخر مثله، كما يختلف خطاب ملك مع أحد رعاياه عن خطابه مع آخر من أُناده.

كما أنّ مقاصده وأهدافه تتنوع بتنوع بعض العناصر السياقية، فإن كان هدفه الإقناع فيختار من الأدوات اللّغوية والآليات الخطابية ما يبلغه مراده، وإن كان هدفه السيطرة فيعتمد إلى الأدوات التي تكفل تحقيقها، وتنعكس هذه العوامل بشتى ضروبها في شكل الخطاب وآلياته، وتصبح عنصراً فعالاً، في تحقيق الخطاب آثاره ونتائجها<sup>(4)</sup>.

(1) محمد شومان، تحليل الخطاب الإعلامي، أطر نظرية ونماذج تطبيقية، ص: 120.

(2) نفسه، ص: 121.

(3) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 232، 233.

(4) ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية، ص: 8.

فالمُرسل (المتكلم، المتحدث، المبلِّغ...) هو عماد العملية التخاطبية ونجاحها يتوقف عليه، وهو المنتج لهذا الخطاب فيعمد به إلى مستمع قصد إعلامه بخبر، أو إقناعه [...] ولتحقيق هذه المقاصد، يجب على المرسل أن يعرف ما يتوخاه في خطابه.

وأن يعلم في أيّ مقام هو ومقصده من هذا الخطاب، وتناججه وأثر هذا الخطاب في السامع. فتحقيق هذه المبادئ وبظاferها مع أخرى تخص السامع مدعاة لتحقيق هدف الخطاب. وللتأثير على السامع يجب أن يُمنهج طرائق في طرح خطابه ويتوقف ذلك على قدرته وكفاءته في تحقيق مآربه من هذا الخطاب. ثانيا المرسل إليه: هو طرف الخطاب الثاني «وإليه تتجه لغة الخطاب التي تعبر عن مقاصد المرسل»<sup>(1)</sup>.

ويتمثل دور اللّغة (لغة الخطاب) «في التعبير عن المقاصد التي ينيهاها المتكلم فاللّغة هنا لا تؤدي فقط وظيفة مرجعية تُحيل إلى مدلول، بل تؤدي إلى وظيفة تداولية تتفاوت بحسب القصد والهدف الذي من أجله يسوق المتكلم خطابه»<sup>(2)</sup>.

ومن هذا المنطلق فإنّ لغة الخطاب تكون مقصودة أي يُوجّه هذا الخطاب بالذات إلى مستمع خاص، وكأنّ هذا الخطاب لا يصلح ولا يكون ناجحا إلّا لمن أُنتج له.

وبشكل غير مباشر يمارس المرسل إليه «دورا في التوجيه، توجيه المرسل عند اختيار أدواته وصياغة خطابه، وذلك بحضوره العيني أو الذهني، انطلاقا من علاقاته السابقة بالمرسل وموقفه منه من الموضوعات التي يتناولها الخطاب كل ذلك يترك أثره بوصفه هو الذي يمارس تفكيك الخطاب ويؤوّله لمعرفة مقاصد المرسل وأهداف الخطاب التي يرى أنه يريد تحقيقها»<sup>(3)</sup>.

ووجه العلاقة بين المتكلم والسامع هي علاقة تخاطبية، لكن قد يصبح المتكلم مستمعا ويتحول المستمع إلى متكلم، ويعرف هذا بالتبادل الخطابي (بالمحادثة)، ومنه قد يفقه المتكلم ثقافة وحالة السامع، فيتحول خطابه ويوجهه حسب ما يراه نافعا محققا ومفيدا.

ومن هنا «يلعب السامع دورا سلطوي على حالة الخطاب وقد يظهر هذا أكثر في الخطاب الحجاجي، فيجب على المرسل أن يطرح استدلالاته على حسب ما سمعه من مقدمات فمثلا إذا كان المعلم هو المرسل، والطلاب هم المستمعون، فالمعلم يحتاج إلى استعمال أكثر من استراتيجية في خطابه مع طلابه لاختلافهم في التكوين ولتعدد ميولهم»<sup>(4)</sup>. فما يصلح من الخطاب لهذا الطالب قد لا يكون واضحا جليا

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية، ص: VI-V (المقدمة).

(2) نفسه، ص: 8.

(3) نفسه، ص: VI-V (المقدمة).

(4) نفسه، ص: IVK -NI (المقدمة).

لآخر، لذلك وجب الإحاطة بكل ما له علاقة بالسامع، لأن ذلك من شأنه أو يتوقف عليه نجاعة الخطاب بشكل عام.

ويلعب السياق دور الشرط في نجاح العملية التخاطبية، فالسياق قد يجعل المرسل خطابه على نحو معرفة السياق وعناصره.

**ثالثاً: السياق:** هو «الإطار العام الذي يُسهم في ترجيح أدوات بعينها واختيار آليات مناسبة لعملية الإفهام، والفهم بين طرفي الخطاب، وذلك من خلال عدد من العناصر. فمعرفة عناصر السياق، تُسهم في عملية التعبير عن المقاصد والاستدلال لإدراكها، وعليه فإن اختيار الأدوات والآليات اللغوية يُعد انعكاساً للعناصر التي تشكل في مجموعها سياقاً معيناً يبرز من خلال لغة الخطاب، وبمعرفة تفكيك هذه اللغة للوصول إلى المعنى المقصود أو الغرض المراد»<sup>(1)</sup>.

ويتميز السياق بالتنوع باختلاف المجتمعات، ولهذا يتنوع الخطاب. وهذا مرده إلى أن «الكل مجتمع سياقات كثيرة، هذه السياقات تتطلب خطابات متنوعة، في كل مجالات الحياة منها المجال الاجتماعي والتعليمي والسياسي والاقتصادي، لذلك فالحاجة قائمة لاكتشاف هذه الاستراتيجيات، ومعرفة كيفية تطويعها واستعمالها، وتطوير ذوات الناس التخاطبية، بما يواكب متطلبات السياق وما يكفل التكيف مع تقلباته»<sup>(2)</sup>.

فالسبب يُعِينُ على نجاح العلاقة التخاطبية والتعاملية بين المتخاطبين وقد يفرض على المرسل خطاباً معيناً واستراتيجية خاصة.

ومن خصائص السياق نذكر الخصائص التي ذكرها ديل هايمس (DELL HYMES)، ويصنفها كالآتي:

- 1- المرسل: وهو المتكلم أو الكاتب الذي ينتج القول.
- 2- المتلقي: وهو المستمع أو القارئ الذي يتلقى القول.
- 3- الحضور: وهم مستمعون آخرون حاضرون يساهم وجودهم في تخصيص الحدث الكلامي.
- 4- الموضوع: وهو مدار الحدث الكلامي.
- 5- المقام: هو زمان ومكان الحدث التواصل، وكذلك العلاقات الفيزيائية بين المتفاعلين بالنظر إلى الإشارات والإيماءات وتعبيرات الوجه...
- 6- القناة: كيف تم التواصل بين المشاركين في الحدث الكلامي: كلام، كتابة، إشارة.
- 7- النظام: اللغة أو اللهجة أو الأسلوب المستعمل.

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية، ص: VI-V (المقدمة).

(2) نفسه، ص: VI-V (المقدمة).

- 8- **شكل الرسالة:** ما هو الشكل المقصود: دردشة، جدال، عظة، خرافة، رسالة غرامية...  
 9- **المفتاح:** ويتضمن التقييم، هل كانت الرسالة موعظة حسنة، شرحا مثيرا للعواطف.  
 10- **الغرض:** أي أنّ ما يقصده المشاركون ينبغي أن يكون نتيجة للحدث التواصلي<sup>(1)</sup>.

وكلّ هذه العناصر تجعل الخطاب فاعلا «ومما يؤكد ذلك ارتباط المرسل بالسياق الخارجي إذ يستجيب له عند التلفظ بخطابه، من خلال التنبّه إلى ما يستلزمه، فيغدو معنى الملفوظات هو القيمة التي يكتسبها تركيب الخطاب في سياق التلفظ، أي أنّ المعنى، كقيمة الملفوظ لا تتحكم فيه اللّغة بقدر ما يتحكم فيه مستعملوها»<sup>(2)</sup>.

ويشترك المخاطب والمتلقي في مجموعة المعطيات (السياق) «إلى جانب المعلومات المشتركة بينهما وما يربطهما من تجارب وثقافة» [...] فاستعمال اللّغة يقتضي الخضوع لهذه الشروط<sup>(3)</sup>؛ لأنّ «الدرس اللّغوي التداولي يدرس المنجز اللّغوي في إطار التواصل وليس بمعزل عنه لأنّ اللّغة لا تؤدي وظائفها فيه»<sup>(4)</sup>.

**رابعا: الخطاب:** ويعد «ثمرة اجتماع العناصر الثلاثة السابقة، ففيه تبرز الأدوات اللّغوية، والآليات الخطابية المنتقاة، ومن خلال تتبع خصائصه التعبيرية يمكن معرفة الكيفية التي تعامل بها المرسل مع ذاته ومع المرسل إليه، هل أجله واحترمه، أم أهانه وحقره هل حاول أن يقربه أم يُبعده؟ هل حاول إقناعه أم فرض سلطته عليه مباشرة؟ هل تنازل عن موقعه الاجتماعي أو الوظيفي تقديرا للمرسل إليه أم أنّه مكث في عليائه؟ كل هذه الاعتبارات وغيرها، تبين كيف للّغة الخطاب أن تقود الفاحص إلى إجابات واضحة على هذه التساؤلات»<sup>(5)</sup>.

إذن المرسل، المرسل إليه، السياق، الخطاب، عناصر العلاقة التخاطبية التفاعلية بتظايرها تتحقق وظيفة اللّغة التواصلية، ومن شأنها أن تصل لتحقيق هدف الخطاب الذي يرجوه المرسل ويسعى إلى تحقيقه، بواسطة آليات تخص كل عنصر من عناصر الخطاب ومراعاتها لحظة التلفظ.

هذا الهدف المرجو من الخطاب يتعدد، باختلاف أنواع الخطاب وأشهر وأغلب ما يهدف إليه المرسل هو الإقناع أو الحجاج، ولتحقيق هذا الهدف ينجح إلى استخدام «آليات متعددة وحيلا لغوية مختلفة منها ما يخاطب العواطف ومنها ما يتعامل مع عقل المرسل إليه مثل الآليات الحجاجية التي يمكنه عن طريق

(1) محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص: 53.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 23، 22.

(3) ذهبية حو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 15.

(4) نفسه، ص: 24.

(5) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: VII (المقدمة).

البراعة فيها أن يتخذ الأقوال أدلة، تساق أمام المرسل إليه حتى يُقنعه دون تلاعب بعواطفه أو التعزيز به، ويوظف لها كافة العمليات شبه المنطقية التي تتجسد باللّغة الطبيعية»<sup>(1)</sup>، وثُحِق نجاحه الخطاب الحجاجي. وتغير خصائص الوضعية الخطابية «يعني اختلاف الخطابات من حيث أنواعها ولكن على اتفاق في كيفية تحليلها، فبنفس الطريقة ندرس المبهمات، الأحكام، الزمان والمكان متضمنات الخطاب وآيته، أفعال الكلام»<sup>(2)</sup>.

يرتبط الخطاب بالسياق الذي تحدده ثقافة المجتمع، فبانعدامه يصبح التلقي من الأمور المستحيلة، ونشير إلى أنّ عنصر السياق أحد أبرز هذه العناصر، ولهذا فقد أُهتَم به في كل ميدان في النقد، في الدلالة في اللسانيات، «ومع تعدد هذه الميادين واختلاف الاتجاهات النظرية لأصحابها، فإنها تتفق في أنّ السياق يُفسّر الكثير من العمليات المصاحبة لأداء اللّغة في وظيفتها التواصلية والإبلاغية لدى كلّ من مُنتج الكلام والمتلقي، وأنه ركن أساس في فهم الرسالة اللّغوية»<sup>(3)</sup>.

من هذا المنطلق يكتسي السياق تلك الأهمية التي تتوقف عن مدى وصف خطاب بالنجاح المفيد الهادف لمقصده.

والسياق نوعان، «السياق اللّغوي والسياق الحالي والأول منهما هو الذي يُعطي الكلمة أو العبارة معناها الخاص في الحديث أو النص، فهو يزيل اللبس عن الكلمة بينما سياق الحال أو المقام يُزيل اللبس عن الجمل والنصوص، والسياق بهذا المفهوم يتعدى ما هو معروف من حيث أنّه تتابع للأصوات والألفاظ ليشمل فضلا عن ذلك الجو البيئي والنفسي المحيط بكل من المتكلم والسامع»<sup>(4)</sup>، يكون السياق والمقام بهذا الطرح على أهمية كبرى في تحديد نوع الخطاب واكتشاف أدوار المخاطب أهو يُحاجج، يُفسر، يُخبر. وبشكل عام فإنّ تلاحم وتظافر عناصر الخطاب أيّاً كان نوعه (المخاطب، السياق، المقام، المتلقي، الخطاب) يأتي قصد تحقيق هدف الخطاب والمخاطب، فالهدف أن تحمل المستمع على خطابك الموجه له، وكل هذا يعتمد الإقناع والتأثير على المتلقي، وهذا هو الحجاج في أقرب معانيه.

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: IX (المقدمة).

(2) نفسه، ص: 13.

(3) نفسه، ص: 139.

(4) خلود العموش، الخطاب القرآني، ص: 26.

## الفصل الثالث

### الحجاج في النثر الباديسي

المبحث الأول: الحجاج في التفسير الباديسي

المبحث الثاني: الحجاج في المقالة الباديسية

المبحث الثالث: الحجاج في الخطبة الباديسية.



## المبحث الأول

### الحجاج في التفسير الباديسي

#### 1- الحجاج في تفسير القرآن من خلال 'مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير':

سنخصص هذا الفصل للكشف في تقنيات ووسائل الخطاب التفسيري الحجاجي؛ أي كيف يُوظف الخطاب التفسيري في الحجاج مشكلا بذلك خطابا حجاجيا.

وتأتي ضرورة هذا الفصل من كون الخطاب التفسيري بنية حجاجية، شدّ أنظار كثير من اللغويين وعلماء الإسلام.

ورغبة في الإحاطة بالخطاب التفسيري أثرنا أن نقدم تعريفا له ونذكر شروطه وشروط المفسر، ومنهجا للشيخ "عبد الحميد بن باديس" في التفسير، على أن ما يهمننا بالذات هو استخراج بعض الوسائل والتقنيات والآليات الحجاجية الكامنة في تفسير القرآن للشيخ عبد الحميد بن باديس.

وسنرى كيف أن هذه الوسائل متعددة وتختلف باعتبارات المفسر وباعتبار الخطاب التفسيري، وإلى من يوجه هذا الخطاب، ومدى مساهمة الخطاب التفسيري ونجاعته في إقناع المتلقي والتأثير فيه.

ويتبين هذا من خلال شخصية الشيخ "عبد الحميد بن باديس"، من خلال تفسيره لآية من سورة النحل، لأنها حوت مضامين حجاجية مفسرة بأساليب الحجاج مما يؤهلها في- نظرنا- لأن تقدم نموذج يكشف عن مجمل الوسائل والآليات المتعلقة بالحجاج في الخطاب التفسيري. من الوهلة الأولى نلاحظ أن التفسير هو فعل عمدي واع، بحيث لا يمكن تفسير شيء من لاشيء، فالتفسير يتم إنتاجه من نصوص سابقة، لتكون كفعل موجه لبلوغ أهداف حددها المفسر سابقا، ولا يمكن أن يكون هذا التفسير إلا بانتقاء وسائل، ولغة، وإجراءات مختارة وأسلوب ومستوى تعبير، حيث تنظم هذه العناصر لتشكيل بنية، وهي طبيعة الخطاب التفسيري، وهذا ما يمنحه خصوصية، تكمن في أن المفسر يعيد بعض الدلالات المهجورة للنص المفسر وفق مستوى لغوي جديد وهيئة جديدة، حيث تتماشى والوقت الراهن أو ما يتطلبه الحال.

ومنه يأخذ الخطاب التفسيري مستوى لغوي جديد، فيه تنشر المقولات الجديدة للدلالات وصيغ تعبيرية ذات أشكال وبنيات غير مألوفة، وهذا ما يجعل للخطاب تركيبا حجاجيا جديدا، وهذا ما تحاول نظرية الحجاج أن تبين حدوده ووسائله من خلال اللغة وتركيب الخطاب.

ونطرح التساؤل التالي: ما هي الوسائل التي يعتمد عليها الخطاب التفسيري؟ ليكون أكثر حجاجية، هل بمقارنته مع معنى النص الأصلي؟ أم من خلال آليات لسانية وغائية وبلاغية.



ويعدّ النص المفسر بطبيعة الحال إعادة إنتاج وتذليل لدلالاته ضمن بنية معينة وآلية محددة تضمن إقناع المتلقي، وحتى إفحامه، وهذا ما سنراه من خلال تفسير الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس للقرآن الكريم. فلماذا عمد العلامة عبد الحميد بن باديس لتفسير القرآن؟ وما هي طريقته في ذلك؟ وما هي الشروط التي يتصف بها المفسر؟ وما هو الخطاب التفسيري؟

فالتفسير شرح للقرآن إلا أنه يشمل شرح لغة القرآن ودراسة إعجازه وبيان أحكامه، ومعرفة سبب نزول الآيات والسور وترتيبها<sup>(1)</sup>. ويعني هذا أن التفسير أشمل وأكبر من الشرح، بعدّه آلية من آلياته. بالإضافة إلى مصطلح "التفسير" وتداخله مع الشرح فإنه في المقابل يتداخل مع مصطلح التأويل الذي يعني: «أخذ المعنى على غير محمل الكلمات وتجاوز الظاهر إلى الدلالة الخفية»<sup>(2)</sup>.

قد يقع التأويل - أيضا - تحت جناح التفسير لأنه الأشمل، ليكون الآلية الثانية بعد الشرح إذ «التفسير: ما كان راجعا إلى الرواية، والتأويل ما كان راجعا إلى الدراية»<sup>(3)</sup>. ويعرفه عبد القادر منصور بأنه: «علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية»<sup>(4)</sup>.

من هذا يتحدد الفضاء الأرحب للتفسير وهو الفضاء العربي الإسلامي؛ لأن القرآن الكريم قد فسر بعدد من التفاسير بمختلف توجهاتها، وعلوم القرآن وعلم أصول الدين والفقه بالإضافة إلى جمع السنة الحمديّة المطهرة وتفسيرها وقصص الأنبياء ونصوص المذاهب الفقهيّة وأصحاب الملل والنحل ومذاهب السنة والشيعة بكل تياراتها<sup>(5)</sup>.

من هذا عدّ علم التفسير أكثر صيغ إنتاج النصوص انتشارا، ويعرفه إدموند باربوتان (Edmond Barbatin) بأنه «عمل على عمل، وخطاب على خطاب، بغرض خدمة معنى يُعتقد أنه ذو قيمة كبيرة مع ما يحمل ذلك من أخطار لتشويه المعنى أو إفقاره أو تذيويه في تفاهة المدارس»<sup>(6)</sup>.

ويمكن القول: إن التفسير «كتابة عن الكتابة ووظيفته تتمثل في تجلية الجوانب الأكثر بروزا في العمل الأدبي والأكثر إثارة أو التباسا»<sup>(7)</sup>.

نخلص إلى أن طبيعة التفسير حجاج، مظهره، وطبيعته ونظامه، فالنص الأصلي والمفسر، وتراپطهما وغاية المفسر والمتكلم الأصلي وهدفهما، كلها مظاهر حجاجية للتفسير بالنظر إلى آلياته ووسائله

(1) ينظر، حسين حمري، نظرية النص، ص: 87.

(2) نفسه، ص: 87.

(3) عبد القادر منصور، موسوعة علوم القرآن، دار القلم العربي، سورية، حلب، الطبعة 1، 2002، ص: 175.

(4) نفسه، ص: 173.

(5) ينظر، حسين حمري، نظرية النص، ص: 84.

(6) ينظر، نفسه، ص: 84.

(7) نفسه، ص: 85.

وأهدافه، كما أن إنتاج النصوص تساهم فيه العديد من العمليات: الشرح والتفسير والتأويل والترجمة، وأن النص الأصلي علة لإنتاج خطاب جديد، كما يمكن القول أن النص يمكن أن يتساوى مع النص المفسر لأنهما بمعنى واحد ويختلفان من حيث الحجم والمعاني الأصلية، كما يمكن تحديد الفرق ودرجة التباين بين عمليات التفسير: الشرح والتأويل من الناحية الإجرائية وأن ينهض كل مفهوم بوظيفته الخاصة.

## 1-2- شروط المفسر المحاجج:

يمكن عدّ هذه الشروط، آليات حجاجية مكنت الشيخ "عبد الحميد بن باديس" من بلوغ هدفه وتوعية الفرد الجزائري من الجهل والسعي وراء الحرية:

- 1- أن يكون عالماً باللغة.
- 2- أن يكون عالماً بالنحو فالمعنى التفسيري يختلف باختلاف الإعراب.
- 3- أن يكون عالماً بالصرف.
- 4- أن يكون عالماً بالاشتقاق لأن الاسم إن كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما.
- 5- أن يكون عالماً بعلوم اللغة الثلاثة: المعاني، البيان، البديع.
- 6- أن يكون عالماً بالقرآن.
- 7- أن يكون عالماً بأصول الدين (العقيدة) وبفن الناسخ والمنسوخ وبالحدِيث.

لذا فإن الآية الكونية يجب في تجلية معناها الاستعانة بما جد من علم تجريبي<sup>(1)</sup>. ويعرف أحمد بن عثمان رحماني "التفسير الموضوعي بأنه «منهج مستحدث في الدراسة القرآنية، يستهدف سبر أغوار الموضوعات المختلفة من اجتماعية وأخلاقية وكونية وغيرها، من خلال تفسير سور القرآن، بعدّها كلا يعبر عن موضوع واحد أو من خلال تفسير الآيات المجموعة للتعبير عن عناصر موضوع معين، لغرض الخروج بتصوير سليم أو نظرية عملية فيه»<sup>(2)</sup>.

الغرض الذي يعمد المفسر إلى تحقيقه يخضع إلى آليات ووسائل، هي تلك التي تمثل الدراسة الحجاجية في التفسير الباديسي يبقى أن نبين علاقة التفسير بالمشاهدة، ذلك أن الشيخ "عبد الحميد بن باديس" تفسيره كان شفوياً وذلك لشيء في نفسه «وكان يرى حين تصدى لتفسير القرآن، أن تدوين التفسير بالكتابة

(1) ينظر، عبد القادر منصور، موسوعة علوم القرآن، ص: 179، 180.

(2) أحمد رحماني، مناهج التفسير الموضوعي وعلاقتها بالتفسير الشفاهي، عالم الكتب الحديث أربد، الأردن، الطبعة الأولى، 1429هـ، 2008، ص: 12.

مشغلة عن العمل المقدم، لذلك آثر البدء بتفسيره درسا تسمعه الجماهير فتعجل من الاهتداء به ما يتعجله المريض المنهك من الدواء، وما يتعجله المسافر العجلان من الزاد»<sup>(1)</sup>.

وقد اقتصر الشيخ على تفسير القرآن مشافهة «لولا أنه كان مشغولا مع ذلك بتعليم جيل وتربية أمة، ومكافحة أمية، ومعالجة أمراض اجتماعية ومصارعة استعمار»<sup>(2)</sup>.

لقد كان تفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس في الشمال الجزائري والشيخ إبراهيم بيوض في الجنوب الجزائري والشيخ الغزالي المصري الذي فسر القرآن مشافهة في الجزائر، ومن ثم فهي تفسير تستهدف الإصلاح العقدي والخلقي والاجتماعي والسياسي للمجتمعات التي فسرت فيها.

لم يكن مقدرًا أن تكون هذه التفاسير متداولة في يوم من الأيام بين أيدي القراء، فقد تحولت هذه التفاسير من الطابع الشفهي إلى مؤلفات مكتوبة، وهذا ما يميزها عن بقية التفاسير، وصارت ظاهرة علمية مميزة تتطلب البحث والتنقيب لاكتشاف خصائصها بهدف الاستفادة منها في المجال الدعوي والإصلاح، كانوا جميعًا يهدفون إلى الإصلاح بمنهج الرسول ﷺ نفسه وهو تبليغ معاني القرآن الكريم تبليغًا مباشرًا، ليفهم فيؤدي دوره في إصلاح النفوس وما ينبثق عنها من أعمال وأقوال وسلوكات<sup>(3)</sup>.

إن الهدف من التفسير الشفاهي هو التغيير الآني وإحداث انقلاب وتغير في النفوس من أجل إحياء الشعوب الميتة، «فالشيخ عبد الحميد بن باديس كما يذكر أحد طلابه قد أدلى بتفسيره الشفوي أثره البالغ في النفوس في تلك الحقبة المظلمة»<sup>(4)</sup>.

ما يمكن اكتشافه ولحظه من هذا التفسير سمته الشفهية؛ فهو حديث موجه للمستمعين الخاصة منهم والعامّة على حد سواء، ومن ثم روعيت فيه خاصية التيسير التي من شأنها تسهيل التلقي المعرفي دون جهد كبير قد لا يطيقه جميع الناس، فضلًا عن كون التفسير القرآني ليس له من هدف سوى أن يفهم فهما عمليًا ليعمل به طبقًا لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾<sup>(5)</sup><sup>(6)</sup>.

وقد قدّر للشيخ عبد الحميد بن باديس أن يبلغ مراده وغايته من تفسيره للقرآن الكريم، كما يذكر مالك بن نبي «أنه أحاط منهجه بالشروط التي أحاط بها النبي محمد ﷺ دعوته؛ ففي رأيه لكي يتم تغيير الفرد لم يستخدم ذلك الزعيم سوى الآية القرآنية، ولكنه كان يستخدمها في نفس الظروف النفسية التي كان

(1) توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 20.

(2) نفسه، ص: 20.

(3) ينظر، أحمد بن عثمان رحمان، مناهج التفسير الموضوعي وعلاقتها بالتفسير الشفاهي، ص: 215.

(4) نفسه، ص: 219.

(5) القمر، الآية: 17.

(6) ينظر، نفسه، ص: 215، 216.

يستخدمها النبي ﷺ، وهذا هو السر كله أن تستخدم الآية كأنها فكرة موحاة لا فكرة محررة مكتوبة، وإذا كان قد أتيح لذلك الزعيم أن يؤثر تأثيرا عميقا في سامعيه فما ذلك إلا لأنه لم يكن يفسر القرآن بل كان يوحيه إلى الضمائر التي يزلزل كيانها، فالقرآن لم يكن يفسر القرآن بل كان يوحيه إلى الضمائر التي يزلزل كيانها... فالحقيقة القرآنية تتجلى هنا بأثرها المباشر على الضمير وبتأثيرها على الأناسي والأشياء»<sup>(1)</sup>.

ويحصل النجاح للمفسر إذا كان متمكنا من اللغة، «وليس من شك في أن أحسن قاعدة للتلقي هي التمكن من اللغة بكل ما تعبر عنه كلمة اللغة من إمكانات»<sup>(2)</sup>.

يتسم تفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس بالطابع الموضوعي إذ يمكننا «من تحديد معالم المنهج ويأتي على رأس تلك المعالم والشروط التحكم في طريقة التوالد المعرفي، تجاوز أسلوب التكريس إلى أسلوب البناء، والإدراك المهيمن للموضوع والقدرة على جمع الآيات بوعي، وتفكيكها بوعي ونضج المفسر، ذهنيا وتصوريا وإتقان اللغة، وإحضار البعد الحقيقي، وسيادة الفقه الخالص، وتحديد غرض الموضوع وصياغة النتائج صياغة علمية»<sup>(3)</sup>.

## 2- منهاج الشيخ ابن باديس في التفسير:

يستهل الشيخ تفسيره بتمهيد، حيث:

- 1- يضع القارئ في جو النص القرآني المراد تفسيره، معتمدا في ذلك على سبب نزول الآيات المفسرة، أو ربطها بما سبقها أو بذكر ما يثير انتباه القارئ إلى المعنى الذي تعالجه الآية الكريمة. ثم يعقب الشيخ على ذلك:
- 2- شرح لغوي للمفردات الأساسية، شرحا يساعد القارئ على فهم مضمون النص، يبسر ووضوح. ثم يعمد إلى:
- 3- تحليل، مركزا على الآيات والعبارات والتراكيب، ليبرر خصائص الأسلوب العربي. وبعد هذا ينتقل الشيخ إلى:
- 4- استخراج ما في النص القرآني من حقائق وقيم مختلفة وكونية واجتماعية وأخلاقية، نفسية، وتاريخية، ومركزا في ذلك على البيئة الجزائرية بصفة خاصة، وهذا يظهر لماذا عمد الشيخ لتفسير القرآن والسنة لجلاء حالة الجزائريين ومعرفة العمل على تغيير تلك الحالة بطريقة غير مباشرة... ثم يظهر

(1) ينظر، أحمد بن عثمان رحمان، التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا، منشورات جامعة باتنة، ص: 75.

(2) نفسه، ص: 72.

(3) نفسه، ص: 76.

ذلك بصفة عامة على الأمة الإسلامية وعلى المجموعة الإنسانية بصفة أعم، وهذا ما كان له الأثر الفعال في نفس كل من يسمعه أو يقرأه<sup>(1)</sup>.

ويتضح مما سبق أن المنهجية التي اتبعها الشيخ "عبد الحميد بن باديس" منهجية حجاجية تسعى للتأثير في نفس القارئ أو السامع، لإحداث التغيير الأنبي، لأنه في تلك الفترة لم يكن ليصرح بالجهاد، فأثر أن يرمز إليه ويحمس له النفوس ويشعل الهمم بتفسيره، فالؤمن العربي العالم لأصول دينه يجب أن يعيش حراً.

بالنظر إلى منهج الشيخ في تفسيره يمكن تحديد الآليات الحجاجية التي اعتمدها وذلك من خلال تفسيره الآية: 125 من سورة النحل، قوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

نرى أن الآلية الحجاجية الأولى المتمثلة في التمهيد الذي يقدمه الشيخ، تضع القارئ أو المتلقي في جو النص القرآني المراد تفسيره، فيقول: «شرع الله عباده - بما أنزل من كتابه، وما كان من بيان رسوله - ما فيه استنارة عقولهم وزكاء نفوسهم واستقامة أعمالهم»<sup>(2)</sup>.

نخلص إلى أن الشيخ كان يعمد في تمهيدته إلى جعل المستمع أو القارئ هو المخاطب في هذه الآية، ويظهر هذا جلياً في ذكره سبب تسمية كلمة "سبيل" في الآية، إذ يقول: «وسماه سبيلاً ليلتزموه في جميع مراحل سيرهم في هذه الحياة، ليفضي بهم إلى الغاية المقصودة، وهي السعادة الأبدية في الحياة الأخرى»<sup>(3)</sup>. ثم يعمد الشيخ "عبد الحميد بن باديس" إلى بيان أن كلمة "سبيل" أضافها الله إلى نفسه ليعلموا أنه هو الذي وضعه وأنه لا شيء يوصل إلى رضوانه سواه.

وهذا الهدف منه جعل القارئ أو السامع يعمل بما تنص به الآية بعد أن شرعه لرساله وأضافه إلى اسمه، وأن السعادة ونيل الجنة لا تكون إلا بإتباع سبيل الله. ثم ينتقل الشيخ إلى الجانب اللغوي فيقول: «وأمر نبيه ﷺ أن يدعو الناس، وحذف معمول "أدع" لإفادة العموم إلى هذه السبيل فقال: أدع إلى سبيل ربك»<sup>(4)</sup>.

(1) ينظر، عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، الطبعة 1، 1982، ص: 11، 12.

(2) توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 318.

(3) نفسه، ص: 318.

(4) نفسه، ص: 319.

فقد اكتسب التفسير حجته من القائل الأول للكلام الأصلي عزّ وجل، ثم الموجه إليهم وهم الرسل، ثم إلى الناس عامة وهذا ما اهتدى إليه الشيخ، إذ يقول: «أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام، أن يدعو إلى سبيل ربه وهو الأمين المعصوم، فما ترك شيئاً من سبيل ربه إلا دعا إليه، فعرفنا بهذا أن ما لم يدع إليه محمد ﷺ فليس من سبيل الرب جل جلاله، فاهتدينا بهذا إلى الفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال ودعاة الله ودعاة الشيطان»<sup>(1)</sup>.

هنا يعلم القارئ أو المستمع أنه معني بهذه الدعوة وأن كلام الله معمم يقصده هو أيضاً بهذه الآية، وفي هذا قال الشيخ: «فمن دعا إلى من دعا إليه النبي ﷺ، فهو من دعاة الله يدعو إلى الحق والهدى، ومن دعا إلى ما لم يدع إليه محمد صلى الله عليه وآله سلم فهو من دعاة الشيطان يدعو إلى الباطل والضلال»<sup>(2)</sup>.

بعد هذا الاهتداء يطلب أو يخضع السامع أو القارئ إلى الإقتداء بالآية الكريمة بقوله: «فالمسلم المتبع للنبي ﷺ لا يألو جهداً إلى كل ما عرف من سبيل ربه، وبقيام كل واحد من المسلمين بهذه الدعوة بما استطاع، تتضح السبيل للسالكين ويعم العلم بها عند المسلمين، وتخلو سبيل الباطل على دعائها من الشياطين»<sup>(3)</sup>.

بعد أن يضع الشيخ القارئ أو السامع في الموضوع المقصود من الدعوة، وهذه سلطة ترغيبية تكون مقترنة بفعل قائلها، فلن يحصل الاقتناع ولا التأثير في ذهن المستمع إلا إذا كان القول الحجاجي مطابقاً لعمل قائله، لأنه يمثل حجة مادية، والشيخ ابن باديس<sup>ط</sup> من الذين يطابق قولهم فعلهم، فالسامع يعرفه حق المعرفة وسنعرض لهذا في شروط المفسر.

ينتقل الشيخ من وضع السامع وجعله مقصوداً إلى تذكيره بأركان الدعوة وبعد هذا ينتقل إلى بيان كيفية الدعوة، وبماذا تؤدي، وكيف يدافع عنها فقال تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ<sup>ط</sup> وَجِدْ لَهُمِ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾<sup>(4)</sup>.

ثم يعمد الشيخ إلى تعريف الحكمة وهي الوسيلة المثلى للدعوة فيعرفها بقوله: «الحكمة هي العلم الصحيح الثابت، المثمر للعمل المتقن المبني على ذلك العلم، فالعقائد الحقّة والحقائق العلمية الراسخة في النفس رسوخاً تظهر آثاره على الأقوال والأعمال -حكمة- والأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة التي

(1) توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 319.

(2) نفسه، ص: 319.

(3) نفسه، ص: 319.

(4) سورة النحل، الآية: 125.

أثمرتها تلك العقائد -حكمة-. والأخلاق الكريمة كالحلم والأناة، هي علم وعمل نفسي -حكمة-، والبيان عن هذا كله بالكلام الواضح الجامع -حكمة- تسمية للدال باسم المدلول<sup>(1)</sup>.

نلمح أن الشيخ عبد الحميد بن باديس يمارس سلطة ترغيبية، ليؤثر على المخاطب واستدراجه للتسليم والعمل بالدعوة، حيث نراه يستعمل القرآن الكريم للاستدلال بعرض أصول الهداية في سورة الإسراء: من قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾<sup>(2)</sup> إلى الآية الثامن عشرة، التي جمعت كل ما ذكرنا من العقائد الحقة، والحقائق العلمية، والأعمال المستقيمة، والكلمات الطيبة، والأخلاق الكريمة.

وسمى الله ذلك كله حكمة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾<sup>(3)</sup>.

فهو يستدل في تعريفه للحكمة من آيات القرآن الكريم، ثم يعتمد إلى الاستدلال بحديث النبي ﷺ: «إن من الشعر حكمة» وكلمة لبيد بن ربيعة ؓ: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل فقال النبي: «أصدق كلمة قالها الشاعر»<sup>(4)</sup>. وذلك لما في الشعر من بيان عن عقيدة حق أو خلق كريم، أو عمل صالح أو علم أو تجربة؛ «فالحكمة التي أمر الله بها نبيه ﷺ أن يدعو الناس إلى سبيل ربه بها هي البيان الجامع الواضح للعقائد بأدلتها، والحقائق ببراهينها والأخلاق الكريمة بمحاسنها ومقايح أضرارها والأعمال الصالحة من أعمال القلب واللسان والجوارح بمنافعها ومضار خلافها»<sup>(5)</sup>.

ثم ينتقل الشيخ بالسامع لحمله على الفعل إلى اهتداء وإقتداء فيقول: «هدتنا الآية الكريمة إلى أسلوب الدعوة وهو الحكمة، وتجلت هذه الحكمة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. فعلينا أن نلتزمها جهدنا حيثما دعونا ونقتدي بأساليب القرآن والسنة في دعوتنا فيما يحصل الفهم واليقين والفقهاء والدين والرغبة في العمل والدوام عليه»<sup>(6)</sup>. ثم يجعل حاله من حالة أمته فيقول: «وها نحن قد بلغ الحال بنا إلى ما بلغ إليه من الجهل بحقائق الدين، والجمود في فهمه والإعراض عن العمل به والفتور في العمل. فحق على أهل الدعوة إلى الله، خصوصا المعلمين أن يقاوموا ما بيننا من جهل وجمود وإعراض وفتور بالتزام البيان للحقائق العلمية بأدلتها والعقائد ببراهينها والأخلاق بمحاسنها والأعمال بمصالحها»<sup>(7)</sup>.

(1) توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 320.

(2) سورة الإسراء، الآية: 39.

(3) سورة الإسراء، الآية: 39.

(4) توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 320.

(5) نفسه، ص: 321.

(6) نفسه، ص: 321.

(7) نفسه، ص: 321.

ثم يذهب الشيخ مذهب المحاجج ليشرح الوسيلة الثانية الموعظة الحسنة، وذلك بتعريف الموعظة ثم الاستدلال عليها: بالقرآن الكريم وبأحاديث الرسول ﷺ، منتقلا إلى وسائل الموعظة وكيفيةها وبما تكون. ثم يشرح الشيخ ويفسر: الجدال بالتي هي أحسن وكيفية المدافعة والمغالبة لينهي تفسيره بثمرة مفادها: «أن الداعي يدعو ولا ينقطع عن الدعوة ولو لم يتبعه أحد، لأنه يعلم أن أمر الهدى والضلال إلى الله، وإنما عليه البلاغ وأنه يصبر على ما يلقي من إعراض وعناد وكيد وأذى، دون أن يجازي بالمثل أو يفتري في دعوته من أذاه لعلمه بأن الذي يجازي إنما هو الله.

جعلنا الله والمسلمين من الدعاة إلى سبيله كما أمر الصابرين المحسنين، أمام من آمن وشكر ومن جحد وكفر غير منتظرين إلا جزاؤه ولا متكلين إلا عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل»<sup>(1)</sup>.

إن تحديد الآليات والوسائل الحجاجية في الخطاب التفسيري تكون حسب مقاصد المفسر (المحاجج) وأهدافه في إقناع السامع.

ينطلق الشيخ عبد الحميد بن باديس في تفسيره من مسائل حجاجية كانت هدفه وهي:

- أ- **الشعور بالرسالة:** لقد كانت الباعث الأول للتفسير والحجاج، حول عظمة القرآن الكريم وفهمه، والشيخ عبد الحميد بن باديس كانت جهوده قد ظهرت في الفترة التي كان الاستعمار الفرنسي يسعى على القضاء على كل المقومات الحضارية والأساسية للمجتمع الجزائري؛ ففسر القرآن الكريم مشافهة اعتمد فيه الحجاج، ليضع الفرد الجزائري حين يعلم دينه وما يجب عليه، أمام مواجهة الحقيقة وهي إخراج الاستعمار الفرنسي من الجزائر.
- ب- **الشعور بدور التفسير في الإصلاح:** ونلمح هنا الهدف الحجاجي من التفسير وهو التأثير على المتلقي، لتغيير الوضع، فقد كانت دروس الشيخ التفسيرية بحق بمثابة الشرر الذي قدح العقل فتفجرت النهضة الإصلاحية في الجزائر.
- ج- **جمهور التفسير الشفاهي:** كان الشيخ يعلم أن الذين يسمعونهم فيهم الأمي، والعالم، ومتوسط الثقافة، فكان يسعى جاهدا ليكون تفسيره مؤثرا على كل الطبقات، وما ساعده هو طبيعة الخطاب الشفهي.

لهذا كان لا بد من أسلوب مبسط وسط يفهمه الأمي ويرتاح إليه المتعلم حيث كان يتعد عن استعمال الوحشي والدخيل والغريب ويجتنب كل معقد وغامض

(1) توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 328.

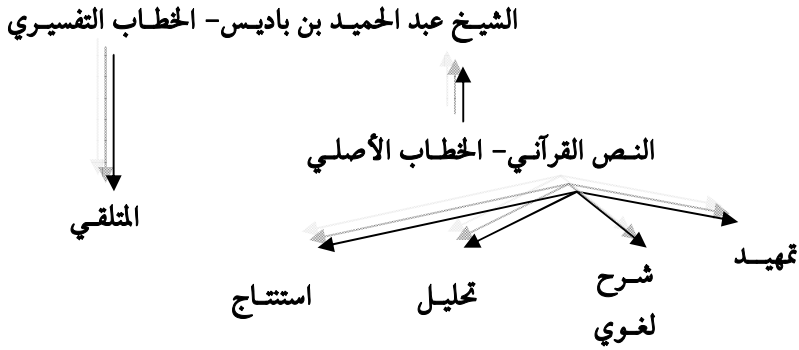


### 3- الآليات الحجاجية في تفسير الشيخ:

- أ- التمهيد: وقد عمد إليه الشيخ لجعل السامع في محور التأثير، فيشوقه إلى الموضوع قبل الوصول إليه، هذا يجعله مدعنا بشكل يدفعه إلى التغيير.
- ب- الشرح اللغوي للمفردات: وذلك أن الجمهور المستمع فيه العالم والأمي، فكان الشيخ يمنح لهذه الآلية ليكون خطابه التفسيري مفهوما جليا لكل من يسمعه.
- ج- استخراج ما في النص القرآني من حقائق: وهذا لجعل السامع مقصودا ليعمل بكل ما يقصده المتكلم وبلوغ هدفه من تفسيره.
- د- تحليل مركز الآيات والعبر لبيان أحكام الشارع الحكيم من كلامه، وليعمل بها المستمع.

وقد رأينا هذا في تفسير الآية- 125- من سورة النحل، حيث مهد الشيخ لتفسير هذه الآية بما شرع الله سبحانه وتعالى لعباده. ثم عمد إلى شرح الحكمة والموعظة والجدال وبيان أحكامها. ثم يستخرج الحكم والحقائق من هذا، ليحمل المستمع على العمل بها لينتهي التفسير بثمرة تجعل المستمع يتوق لتطبيق ما كان يحثه عليه.

والمخطط الآتي يبين الآليات الحجاجية لدى الشيخ:



#### 4- الوسائل الحجاجية في تفسير الشيخ:

إن الوسائل الحجاجية في البلاغة العربية كثيرة، وما استعمله الشيخ وسائل تؤيد تفسيره وتقنع سامعه؛ فالحجاج يعتمد إلى توظيف وتضمين وسائل دون غيرها، باعتبارها موجهة لمتلقي هو يعرفه حق المعرفة، وهو العالم بالطرق المؤثرة في نفسه المؤدية إلى تغييره فنرى الشيخ من خلال تفسير الآية 125 من سورة النحل: يعتمد على:

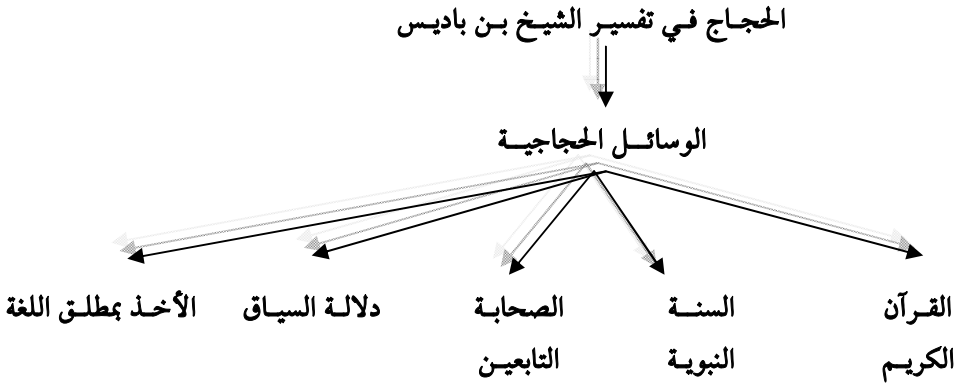
- أ- تفسير القرآن بالقرآن: وهذا حين فسر قوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>(1)</sup>، بقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾<sup>(2)</sup>.  
حيث فسر آية واحدة من سورة النحل بثمان عشرة آية من سورة الإسراء.
- ب- تفسير القرآن بالسنة: وقد ظهر هذا في قوله لبيان الحكمة واستدل بذلك بقول النبي ﷺ إن من الشعر حكمة وقوله ﷺ: أصدق كلمة قالها الشاعر.
- ج- تفسير القرآن بالرجوع إلى قول الصحابة والتابعين: فنجده يورد قول أبي الحسن: ألقه كل الفقيه، من لم يقنط الناس من رحمة الله، ومن لم يؤمنهم من مكره، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه.
- د- تحكيم السياق: وذلك بربط الآية بالسياق الذي وردت فيه، فدلالة السياق تعين على مراد المتكلم والمفسر، فالشيخ اتبع في تفسيره الدلالة السياقية للآية، بل أتقن وأحسن تفسيرها.
- هـ- الأخذ بمطلق اللغة: وذلك أن الشيخ عمد في تفسير الآية بدقة مطلقة لفهمه دلالات الألفاظ حسب استعمالها المختلفة طبقاً للدلالة المعجمية من جهة والدلالة البلاغية من جهة أخرى<sup>(3)</sup>.

(1) سورة النحل، الآية: 125.

(2) سورة الإسراء، الآية: 22.

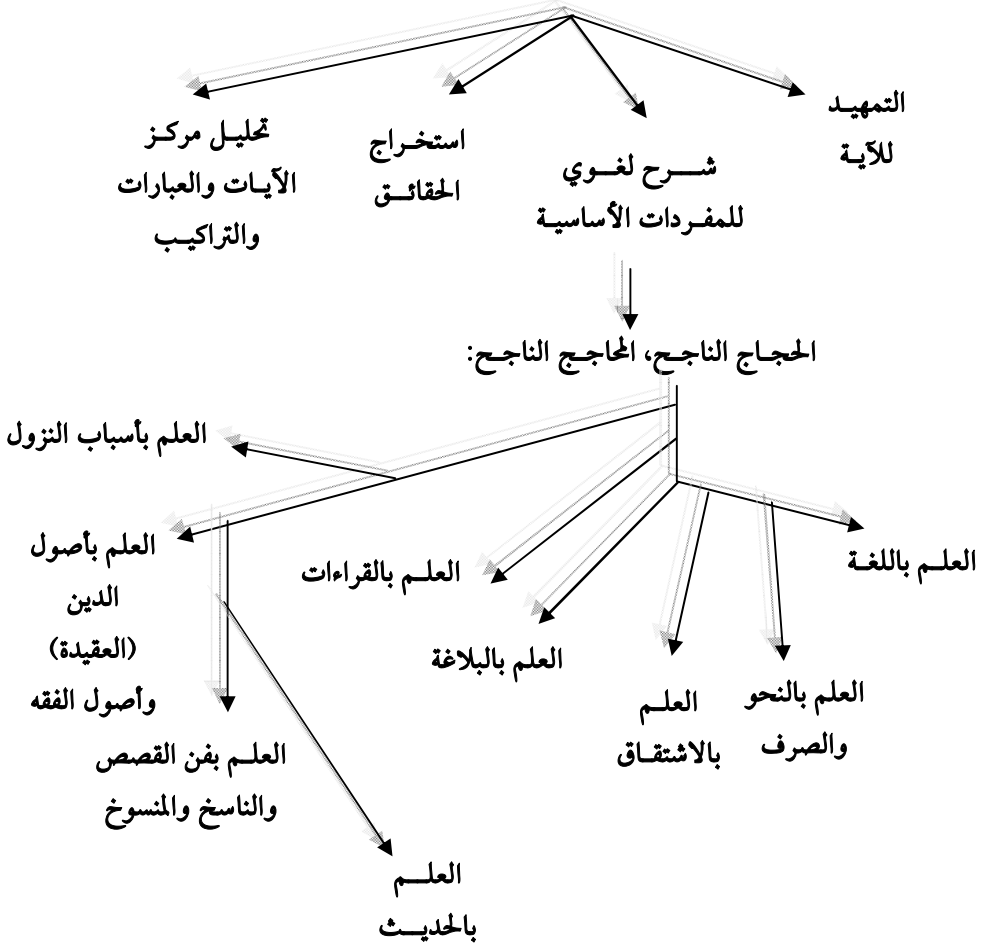
(3) ينظر، أحمد رحمانى، التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً، منشورات جامعة باتنة، ص: 62، 65.

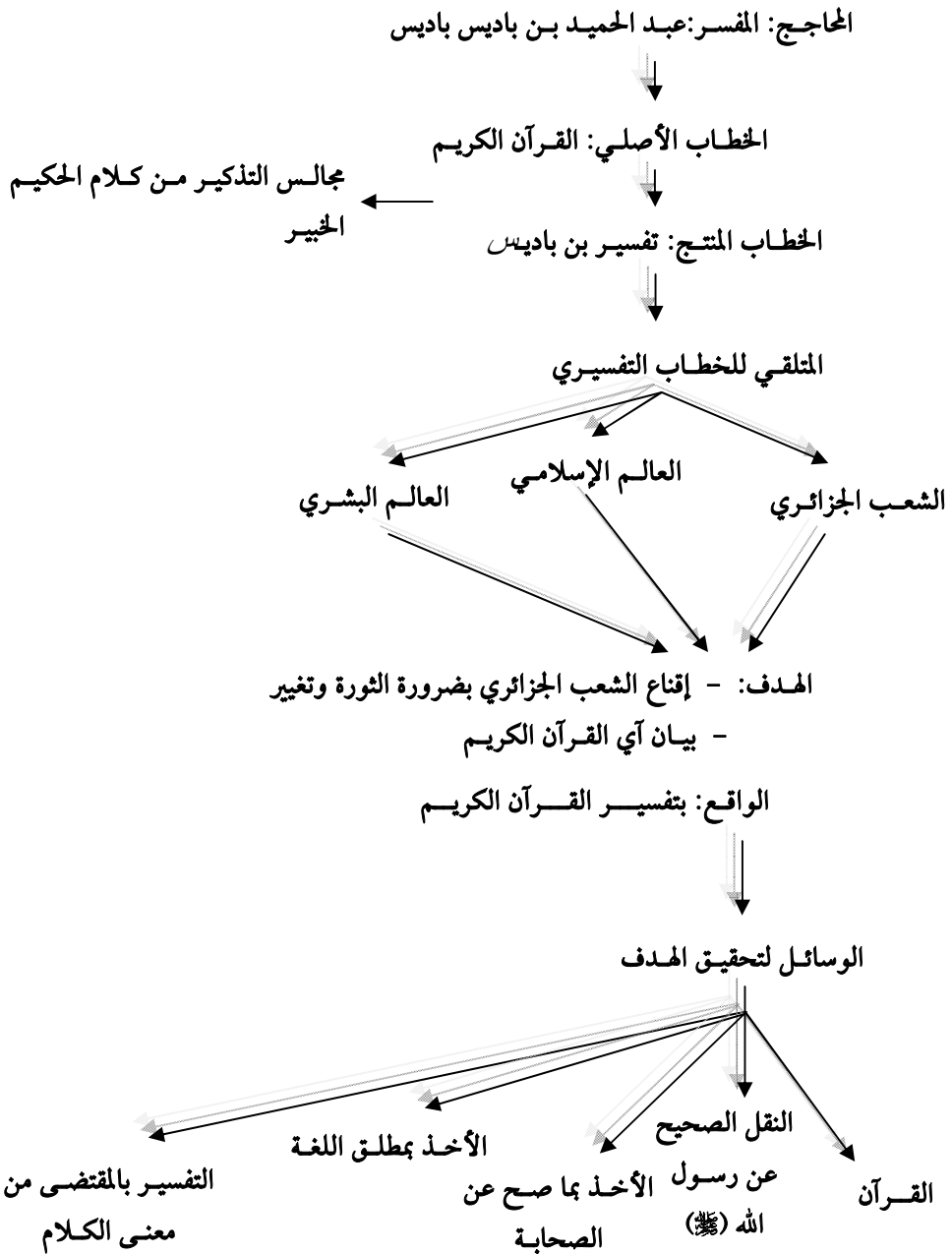
وهذا مخطط يبين الوسائل الحجاجية:



فتجد الشيخ مرة يستعمل القرآن ويتخذ وسيلة حجاجية ومرة السنة النبوية فأفعال وأقوال الرسول حجة، وصحابته وتابعيه، وللسياق أثره على نفس المتلقي إذ يشترط فيه أن يكون موافقا لدلالة الآية المفسرة، والأخذ بمطلق اللغة أن تكون عالما باللغة، وفي هذا كله صور للحجاج ووسائل، وكل وسيلة تتفرد بأسلوب، وتغيير الأسلوب من هذا لآخر أقدر على المستمع للتأثير فيه وبلوغ المراد ويمكن حصر هذه الوسائل وتسميتها بالوسائل الحجاجية التفسيرية التي تخص الخطاب التفسيري أكثر من غيره.

## الصور الحجاجية المعتمدة في التفسير





## 5- مخطط الحجاج في تفسير الشيخ:

الآية: 125 من سورة النحل:

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>(1)</sup>.

قبل التعرض لطريقة الشيخ الحجاجية في التفسير، نعرض تعريفاً للحجاج:

الحجاج: «هو العملية التي من خلالها يسعى المتكلم إلى تغيير نظام المعتقدات والتصورات لدى مخاطبه بواسطة الوسائل اللغوية»<sup>(2)</sup>.

**أدع إلى سبيل ربك:**

- تمهيد لما شرع الله لعباده.

- سبب تسمية: «سبيل».

- إضافة كلمة سبيل إلى الله تعالى.

- شرح لغوي (نحوي): حذف معمول (أدع)

- اهتداء: الدعوة إلى ما دعا إليه النبي.

- اقتداء: في المسلم الذي يتبع النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

- أركان الدعوة: الداعي، والمدعو، والمدعو إليه، والبيان عن الدعوة

**" بالحكمة والموعظة الحسنة:"**

- بيان كيفية الدعوة وطريقتها.

- تعريف الحكمة.

- استدلال واستنتاج: أصول الهداية استنتاج، واستدلال بثماني عشرة آية من القرآن الكريم من سورة

الإسراء.

- ثم الاستدلال بالحديث النبوي الشريف عن الحكمة.

- اهتداء واقتداء: الإهتداء إلى أسلوب الدعوة وهو الحكمة.

- ثم بيان الحال: بيان حال المسلمين من هذا.

(1) سورة النحل، الآية: 125.

(2) عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكان، فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب، منوية، تونس، ص: 350.

- ينتقل الشيخ إلى الطريقة الأخرى:  
"والموعظة الحسنة:"

يُعرف الوعظ ويستدل عليه بمحدث الرسول ﷺ، ثم بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾<sup>(1)</sup>. وقوله: ﴿يَعْظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِمْ أَبَدًا﴾<sup>(2)</sup>.

وقوله ﷺ في حديث رواه الترميذي وغيره: (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها قلوبنا وذرفت منها العيون)<sup>(3)</sup>.

وأما طريقتهما: يكون بذكر الأيام، بذكر أيام الله في الأمم الخالية، ويكون بغيرها كتذكير الإنسان بأحوال نفسه والاستدلال بكل ما تجده في مواضع القرآن.

اهتداء واقتداء وتحذير: الدعوة بالموعظة الحسنة: مواضع القرآن، مواضع النبي وأن تجتنب التعقيد والسجع والطول، ويستدل الشيخ بما صح عن الصحابة- رضوان الله عليهم- ثم يعرض الجدل بالتي هي أحسن ويحذر من المدافعة والمغالبة وأنها فطرة في الإنسان ويستدل بمحدث الرسول ﷺ (إن أبغض الرجال عند الله الألد الخصم)<sup>(4)</sup>، ثم يجتهد تفسيره لهذه الآية بثمره؛ أي العبرة من هذا التفسير ومن هذه الآية الكريمة.

قد تبين من هذه الإطلاقة على الحجاج في الخطاب التفسيري لدى الشيخ عبد الحميد بن باديس أن:

- الخطاب التفسيري يقع تحت سلطة الخطاب الأصلي وذلك مخافة تحريفه أو تأويله.
- ويقع تحت سلطة المتلقي فعلى المفسر مراعاة حالة المتلقي.
- إنتاج الخطاب التفسيري في بعده الحجاجي يعتمد على العناصر الآتية: المفسر، النص الأصلي، المتلقي.
- الآليات والوسائل الحجاجية في الخطاب التفسيري تتحدد كلما تحددت طبيعة النص المفسر والمتلقي الذي يوجه إليه الخطاب.

(1) سورة النساء، الآية: 66.

(2) سورة النور، الآية: 17.

(3) الترميذي أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الصحيح، سنن الترميذي، كتاب العلم، باب ما جاء بالأخذ في السنة واجتناب البدع، الجزء الخامس، رقم 2676، تحقيق أحد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص: 44.

(4) الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب إذا أذن إنسان لآخر شيئا جازاً، الجزء الثاني، رقم 2320، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1408هـ- 1987م، ص: 868.

- الحجاج مطبوع في الخطاب التفسيري بدءاً بنية المفسر (المحاجج)، ونتاجه لخطاب إلى نص أصلي لتلقي.
- وأهم عملية في فهم واكتشاف الحجاج في نص تفسيري هي بلوغ الغاية من بث هذا الخطاب.

فالشيخ "عبد الحميد بن باديس" هو المفسر، والنص المفسر هو القرآن الكريم والمتلقي الخاص هو الشعب الجزائري، والمتلقي العام العالم الإسلامي، والمتلقي الأشمل الإنساني. فهدفه من تفسيره أن يبصر الفرد الجزائري بأحقية في الحرية، وأن عليه الجهاد في سبيل ذلك، فتفسير القرآن الكريم ليس هدفاً الوحيد بل هناك أهداف أخرى ثانوية من جراء تفسيره للقرآن الكريم، والخطاب التفسيري يراعي الفعل التأثري مع مراعاة الفعل الإنجازي.

#### - جدول يبين الحجاج في تفسير الشيخ: الآية الكريمة:

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>(1)</sup>.

المقدمات	- الدعوة وطريقتها. - الحكمة. - الموعظة الحسنة. - الجدل بالتي هي أحسن.
التمهيد	جلب القارئ لجو الموضوع للتأثير عليه.
الآيات القرآنية	دحضاً لأي إنكار متوقع من المتلقي.
الأحاديث	تدعيم الأحكام القرآنية وجعلها أكثر إقناعاً وإقناعاً.
الحقائق	لتطبيق ما يدعو إليه المفسر من خلال تفسيره للخطاب القرآني.
الشرح اللغوي	لجلاء معنى الآيات لأن المستمع يختلف من عالم إلى أمي.

(1) سورة النحل، الآية: 125.



## المبحث الثاني

### الحجاج في المقالة الباديسية (رسالة جواب سؤال عن سوء مقال)

يهدف هذا التحليل إلى بناء الحجاج في الخطاب الحوارى المتجسد في مقالة كتبها الشيخ عبد الحميد بن باديس، "تعتبر أول مجابهة عنيفة في الجزائر المستعمرة بين الإسلام السني السلفى الصحيح وبين التصوف البدعى المنحرف القبيح"<sup>(1)</sup>.

فهذا النوع من الخطاب له مميزاته وأحكامه وآلياته وقبل التعرض له نود الإشارة إلى تعريف المقال، لأن الشيخ اعتمد كتابة هذا الخطاب بهذا الفن حيث قدم للموضوع وأحاطه بأربعة فصول وخاتمة، ثم تقدم تعريفا للحوار لأن هذا النمط من الخطاب هو من الخطابات الأكثر حجاجة.

إن المقال اتسم بمخاطبة العقول واستمالة العواطف على النحو الذي يجعلنا نذهب إلى أن المقال قد اتخذ من الحجاج وجها ومن الإقناع هدفا، فهو يخاطب العقول بالاعتماد على الإقناع والحجاج وحشد الأدلة والاستمالة، وهو ما يجعله مقالا حججيا ووسيلة لنقل الأفكار وإذاعة الآراء ومحاجة المنكرين، وما يذكر في حجاجة المقالة بأنها لغة الاتصال بالجماهير أو بلاغة الاتصال بالجماهير إذن هي اللغة العلمية الحجاجة الاجتماعية لغة الحجاج التي تمتاز بالإقناع والإفحام والحوار، ومن أجل ذلك اخترنا هذا المقال للشيخ عبد الحميد بن باديس لنكشف عن أنواع الحجاج في هذا المقال وأنواع الحجج والحوار وما يميز خطابات الشيخ هو غاياتها وعلقتها بالبلاغة بصفة عامة والحجاج بصفة خاصة.

فما هو الأسلوب الذي وضعه الشيخ لإقناع خصمه؟ وما خصائص هذا الأسلوب؟

فالمقال هو: «الإشياء المتوسط الطول، يكتب نشرها عادة ويعالج موضوعا بعينه بطريقة بسيطة موجزة على أن يلتزم الكاتب هذا الموضوع ويكتب عنه من وجهة نظره هو»<sup>(2)</sup>.

يمكن القول إجمالاً إن المقال شكله ومضمونه قد وُظف لأهداف وغايات حجاجة: «فالمقال كعمل فني يتشابه فيه الخيال والواقع وفقا لما تمليه شخصية الكاتب في تعبيره عن رؤيته للحياة أو الأحداث أو تقديمه لبيان رسمي حول اتجاهه إزاء موضوع دقيق واضح الهدف»<sup>(3)</sup>.

(1) أبو عبد الرحمن محمود، رسالة جواب سؤال عن سوء مقال، للعلامة السلفى الشيخ عبد الحميد بن باديس، دار الرغائب والنفايس، الطبعة 1، 2005، ص: 03.

(2) عبد العزيز شرف، أدب المقالة من المعاصرة إلى الأصالة، دراسة ونماذج، دار الجيل، بيروت، ص: 15.

(3) نفسه، ص: 13.

أما الأساس الذي يمكن لحظه في المقال الحجاجي هو: «ما يعني به كاتب المقالة لكي يؤثر في نفوس القراء ذلك التأثير البليغ، أن يجعل كلماته وعباراته والأفكار التي تعرض له، موجهة كلها لإبراز الفكرة الأساسية وإيضاحها»<sup>(1)</sup>.

ويمكن للباحث المتفحص أن يضبط أنواع المقالة أن النوع يكون تابعا لنوع الحجاج ويسمى باسمه: فالمقال الذي يعالج موضوعا سياسيا أو دينيا، يرصد نوع الحجاج بأنه حجاج سياسي أو ديني تبعا للموضوع، كما أن هناك مقالات علمية وأدبية...

فحجاجة المقال الباديسي إنما تكمن في الأسلوب فهو يُعنى بالفاظه ومعانيه، وهذا ما جعله يعمد إلى اختيار إجراءات وآراء وأدلة وبراهين ومقدمات، معتمدا في ذلك بما يتقن من منطق ولغة ومحاجة وجدل وحوار.

إن الأسلوب الذي وضعه الشيخ في إقناع خصمه هو الأسلوب الحواري، ومنه الخطاب الحوارية الذي يعد فعالية حجائية بين شخصيتين أو بين شخص وجمهور، أو بين الشخص ونفسه. ولهذا الفعالية دوافع وأسباب، إذ الحوار هو الرد عن كلام سابق بقصد الإقناع بالنظر إلى حالة المحاور هل هو منكر، أم متردد، أم جاهل.

جاء في لسان العرب: «أحار عليه جوابه: رده، والتحاوور: التجاوب»<sup>(2)</sup>. ووردت كلمة الحوار في القرآن الكريم في ثلاث آيات:

- ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾<sup>(3)</sup>.
- ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾<sup>(4)</sup>.
- ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾<sup>(5)</sup>.

(1) عبد العزيز شرف، أدب المقالة من المعاصرة إلى الأصالة، ص: 23.

(2) ابن منظور، لسان العرب، مجلد2، ص: 182.

(3) سورة الكهف، الآية: 34.

(4) سورة الكهف، الآية: 37.

(5) سورة المجادلة، الآية: 01.

ويتقاطع مدلول الحوار مع مدلول الحجاج ذلك أن المحاجة يستدرج الخصم لإثبات دعواه، بما يملك من أدلة وبراهين، دون إلزام خصمه على إتباع مذهبه وآرائه... أما كلمة حوار وكلمة جدل نجد أن كلمة حوار أوسع من كلمة جدل لأن هذا الأخير يتضمن معنى الصراع بينما الحوار يسع لأكثر من ذلك. فإن تجادل خصمان في قضية ما يحاول كلا الطرفين إبراز رأيه باعتباره الأصح والأكثر من ذلك يلزم خصمه بإتباع رأيه وإلزامه مذهبا لا يقول به<sup>(1)</sup>.

نخلص إلى أن الحوار عادة ما يكون في جو هادئ، بعيدا عن أجواء العنف والإرهاب الفكريين، ويكون الهدف منه هو الوصول إلى الحق وإلى ما فيه مصلحة شرعية بينما يكون في حال التنازع الفكري حول قضية من القضايا أو مسألة من المسائل، وغالبا ما يقصد به مجال تحقيق الانتصار والغلبة على الطرف الآخر فيكون مذموما، أما إذا قصد به إظهار الحق مع التقيد بالأداب الشرعية فهو مشروع مستحب<sup>(2)</sup>. ومن مقاصد الحوار تحديد الهدف أولا، قبل الدخول في أي عملية حوارية، إذ ينبغي أن يكون ساميا يُراد به الوصول إلى الحق وإلى ما فيه مصلحة عليا بعيدا عن النزوات الذاتية أو إثبات الذات أو طمس الآخر، لذلك وجدنا عبد الحميد بن باديس لما أسيء للرسول ﷺ، أجاب بتوجيه من الله سبحانه وتعالى ومن رسوله، فكتب يحاوره عن بعد مقالة بعنوان: "جواب سؤال عن سوء مقال"، ولم يرد عليه مباشرة فجعل الآيات والأحاديث والمقاصد الشرعية رواسي لقوله معتمدا في ذلك الحجاج، الذي ظهر في فن المقال بأسلوب الحوار.

تضعنا هذه الحقائق في قلب الحجاج عند الشيخ عبد الحميد بن باديس نتعرض له انطلاقا من عنوان مقاله: "جواب سؤال عن سوء مقال".

لعل أول ما يجب إبرازه هو الباعث الحجاجي، والمقصود بالباعث الدافع الذي أدى بالشيخ لكتابة هذه المقالة.

(1) ينظر، يوسف عمر لعساكر، الجدل في القرآن خصائصه ودلالته، جدال بعض الأنبياء مع أقوامهم، نموذجاً، دراسة لغوية دلالية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر (بن يوسف بن خدة)، 2004-2005، ص: 13، 14.

(2) إدريس أوهنا، أسلوب الحوار في القرآن الكريم: الموضوعات والناهج والخصائص، دار أبي رقرق - المملكة المغربية - الطبعة 1، 2005، ص: 22.

## 1- بواعث الحجاج الباديسي في هذا المقال:

### الباعث الأول:

لكل حجاج باعث أي سبب أو دافع لذلك، والذي أذى بالشيخ عبد الحميد بن باديس<sup>1</sup> إلى الحجاج في هذا هو إنسان من «المتعجرفين الذين تجرؤوا على مقام النبوة الأسنى، ففاه بجمل سخيفة المعنى، في أبيات يقول فيها باللسان العامي:

إِنْ مَتَّ بِالشُّوقِ مُنْكَدًا      مَا عَظُرَ يُنْجِيكَ  
إِنْ تُبْقَى فِي هَجْرِي زَائِدًا      لِلْمَوْلَى نُذْعِيكَ  
مَنْ هُوَ بِالْمَلِكِ مَوْحِدًا      يَنْظُرُ فِي أَمْرِيكَ  
عَبَسَ بِالْقَوْلِ تُسَاعِدُ      مَا نَرُجُوهُ فِيكَ<sup>(1)</sup>

شرح الأبيات: «يدعي هذا القائل بأنه رأى رسول الله ﷺ، وهو في سكرة من سكراته، وتقدم منه في ذلة وخضوع، فوجد منه ترفعا فقال فيه تلك الأبيات وهو فيها يتهدد رسول الله ﷺ ويتوعده، وأنه إن مات بالشوق فلا عذر له ينجيه، وأنه سيحاكمه إلى الله ويتنصر عليه إلى آخر ما هنالك»<sup>(2)</sup>.  
يمكن تلخيص الباعث الأول للحجاج وهو سوء الأدب مع الرسول ﷺ، أما الباعث الثاني للحجاج وهو بعد كتابة هذه الأبيات رفعت إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس على شكل سؤال وهذا نصه: «ما قول سادتنا العلماء- رضي الله عنهم- وأدام النفع بهم في رجل يزعم أنه قطب الزمان الفرد وأن الكل دونه، وأنه العارف المسلك، إلى غير ذلك من أعلى صفات العارفين، وأسمى درجات الكاملين، ثم يقول مخاطبا النبي صلى الله وآله وسلم بما نصه الأبيات السابقة، فهل يعد خطابه هذا سوء أدب وهل تجوز مخاطبة النبي صلى الله وآله وسلم بمثله، وهل صدور مثله من شأن العارفين الكاملين، وهل يقبل منه ما اعتذر به من عجمة ألسن المحبين، أفيدونا ماجورين إن شاء الله تعالى من رب العالمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته - انتهى»<sup>(3)</sup>.

ونرى من هذا أن عنوان المقال يحمل في طياته بواعثا:

- رسالة جواب سؤال: يمثل الباعث الثاني لكتابة هذا المقال.
- عن سوء مقال: يمثل الباعث الأول للحجاج، في الذي أساء الأدب مع الرسول ﷺ.

(1) أبو عبد الرحمن محمود، رسالة جواب سؤال عن سوء مقال، ص: 38.

(2) نفسه، ص: 10.

(3) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 39.

فانبرى الشيخ ابن باديس الردّ عليها وذلك بعد أن استخار الله تعالى، «فكتب هذه الرسالة النافعة الموسومة: رسالة جواب سؤال عن سوء مقال. في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة حشد فيها خيل الأدلة ورجلها من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة وآثار السلف، بأسلوب علمي متين ولسان عربي مبين»<sup>(1)</sup>.  
وليس من شأن البحث هنا تقصى هذه الحقائق ومعرفة الصحيح منها، وإنما الشأن هو بيان الحجاج في هذا المقال الباديسي، وتحوله من نوع حجاجي لآخر، ومعرفة أنواع الحجج الموظفة في هذا المقال.

## 2- صور الحجاج في المقالة الباديسية:

يتحدد نوع الحجاج في الخطاب، باعتبارات عديدة، فمثلا باعتبار نوع النص نجد الحجاج فلسفي، والقضائي، والإعلامي والجدلي، وحجاج لغوي، فأما اللغوي بالنظر إلى الآليات اللسانية التي يعتمدها المحاجج، أما غير اللغوي فيتمثل في وظائف كالإشارة والصوت.  
ويمكن تعيين نوع الحجاج أيضا من ناحية الشكل أي؛ الحجاج باعتبار الشكل وهو نوعان:

### الأول:

- معطاة (مقدمة تطرح إشكاليتين أ و ب).
- حجج تخدم (تدعم) "أ".
- حجج تخدم (تدعم) "ب".
- نتيجة ظاهرة أو مضمرة.

أما النوع الثاني: يتمثل في الدفاع عن أطروحة (معطاة بالحجج يمكن تمثيله: الأطروحة القديمة + مقدمة (المعطيات) + الحجج...) النتيجة الأطروحة الجديدة<sup>(2)</sup>.

ونعرض دراسة لتحديد شكل البنية الحجاجية عند الشيخ "عبد الحميد بن باديس" من خلال المقال المذكور سابقا، نشير إلى عناصر هذه البنية ويحددها "هشام الريفي": «إن البنية الحجاجية الدنيا التي يشترك المحدثون في الاشتغال عليها، تتكون من أركان ثلاثة: معطى (م)، ونتيجة (ن)، وعلاقة موجهة (ع) ويمكن أن نرمز إليها بالشكل (م،ن) غير أنهم اختلفوا في المستوي الذي يتنزل فيه التوجيه الحجاجي»<sup>(3)</sup>.

(1) أبو عبد الرحمن محمود، رسالة جواب سؤال عن سوء مقال، ص: 39.

(2) ينظر، الخواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم، ص: 331، 330.

(3) هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس، ص: 161.

يعرض الشيخ عبد الحميد بن باديس في هذا المقال قضية دينية لها علاقة بالواقع الجزائري، وتتجلى هذه القضية في ذلك النزاع القائم بين الإسلام الحق وبين الطرق الضالة وهذا أيام الاستعمار الفرنسي.

فعرض في المقدمة وجوب الأدب مع النبي ﷺ إجماعاً وأبداً وعلى كل حال، وذلك بعرض حقائق وإجماع العلماء من جميع الفرق على وجوب الأدب مع النبي ﷺ حياً وميتاً، كونه نبي هذه الأمة واعتمد في هذه المقدمة التعليل والأدلة القطعية، والحجج المقنعة: فمن القرآن في وجوب الأدب مع النبي، ومن السنة، وما روي عن الصحابة في آدابهم مع الرسول ﷺ.

ثم يتبع الشيخ "عبد الحميد بن باديس" هذه المقدمة روايات عن الصحابة، وما لقيه الرسول ﷺ من أدب ووقار وطاعة من أصحابه رضي الله عنهم.

أما الفصل الأول من المقالة فخصصه الشيخ في بيان خروج كلام الرجل المسيء عن دائرة الأدب المرعية وتهجمه على الحضرة النبوية، وهذا بعرض تلك الآيات وبيان الغلط فيها ومرتبة الرسول ﷺ، ومرتبة هذا القائل، وكأنه يوازي بينهما، فشتان بين الرسول الكريم المصطفى وهذا العبد المتهجم.

أما الفصل الثاني فقد عقده الشيخ في بيان حرمة مخاطبة النبي ﷺ بمثل هذا الخطاب. وهنا يستعمل الشيخ "ابن باديس" أقوال هذا الشخص لتكون حجة عليه، ويضرب له مثالا عن الأدب وبرّ الوالدين، فكيف الأدب والبرّ بالأنبياء وحقهم أعظم، ويبين له في آخر هذا الفصل ماذا يعتبر العبد الذي يتحدث في الأنبياء في غير التلاوة والحديث.

وفي الفصل الثالث يبين الشيخ "عبد الحميد بن باديس" أن هذا المقال لا يصدر من العارفين؛ وهذا لأنّ العارفين (العلماء) هم أكثر محبة للنبي ﷺ وأن الأدب مع الرسول مطبوع في المؤمن العامي الباقي على فطرة الإيمان ثم يعرض لأبواب الآداب.

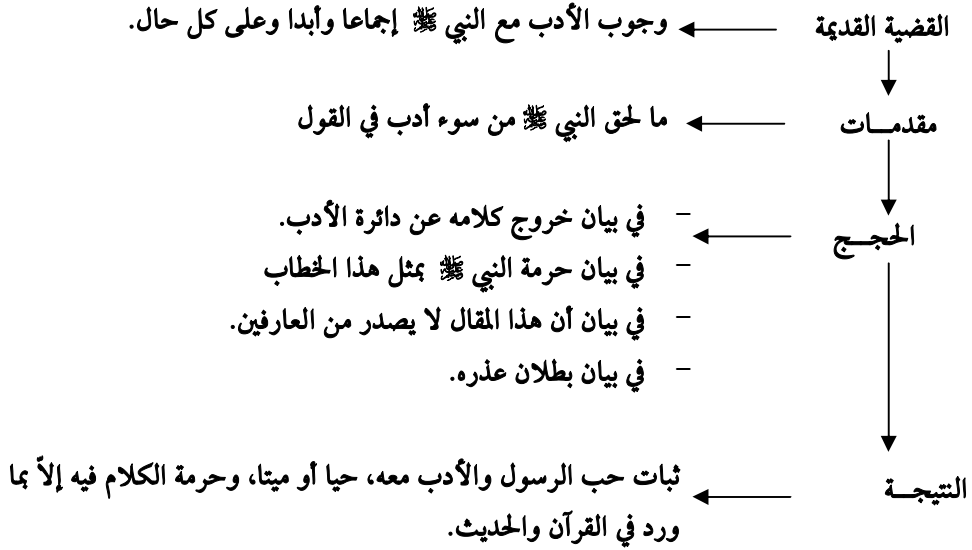
أما في الفصل الرابع فخصصه الشيخ في بطلان عذر القائل بعجمة ألسن الحبيين، وهنا ردّ على حجته ودحضها.

ليصل الشيخ "عبد الحميد بن باديس" في آخر هذه المقالة إلى خاتمة ممثلة في نصيحة نافعة، ووصية جامعة ببيان دين الله وقواعد الإيمان، وقواعد الإسلام، وطرائق الإحسان، وإنما هو في القرآن الكريم والسنة الثابتة الصحيحة وعمل السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين.

وبهذا نستطيع الوصول إلى البنية الحجاجية المعتمدة لدى الشيخ في هذا الخطاب.

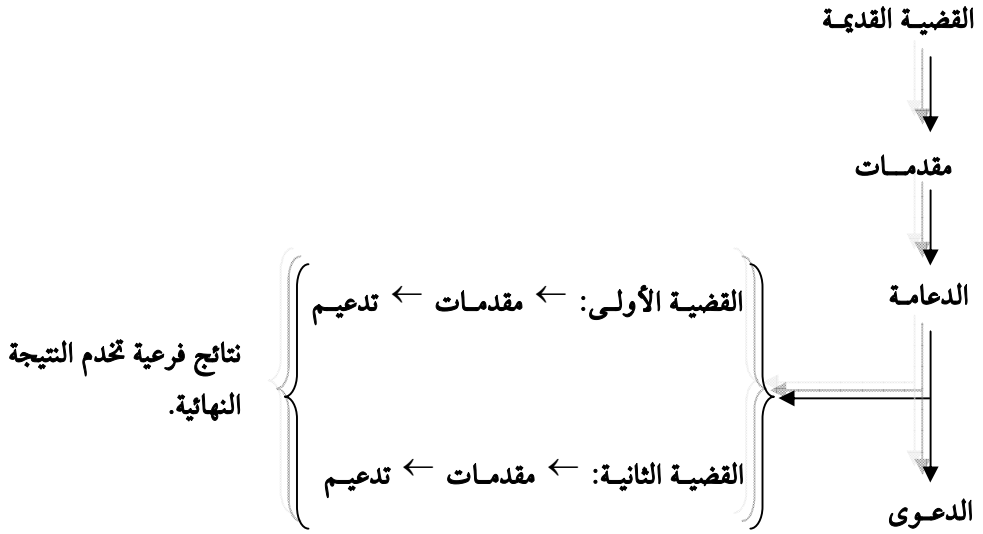
إنّ من يرمي بخطابه إلى التأثير ينبغي عليه أن يحرص على عدم إضاعة وقته وعلى عدم تشتيت انتباه سامعيه، ومن أجل ذلك وجب عليه أن يولي كل قسم من أقسام كلامه الأهمية التي يريد لها في أذهان سامعيه، فلا يعرض من المقدمات ما هو معلوم لدى السامعين، فقد يبدو ذلك ثقيلاً على أنفسهم<sup>(1)</sup>. يظهر الشكل العام للحجاج في هذا المقال من النوع الثاني المتمثل في الدفاع عن أطروحة وشكله:

الأطروحة القديمة + مقدمة (معطيات) + الحجج ← النتيجة  
ويأسقاط هذه البنية الحجاجية في النص: نجد:



إن هذه البنية الحجاجية، تمثل الشكل العام للنص، وبالنظر في الحجج التي وردت في الفصول يمكن أن تمثل للشكل الأول للحجاج، حيث يتضح النوع الأول من الحجج في مقدمة تطرح إشكاليتين (أ)، (ب) وعليه يشكل تدعيم النص على هذا النحو:

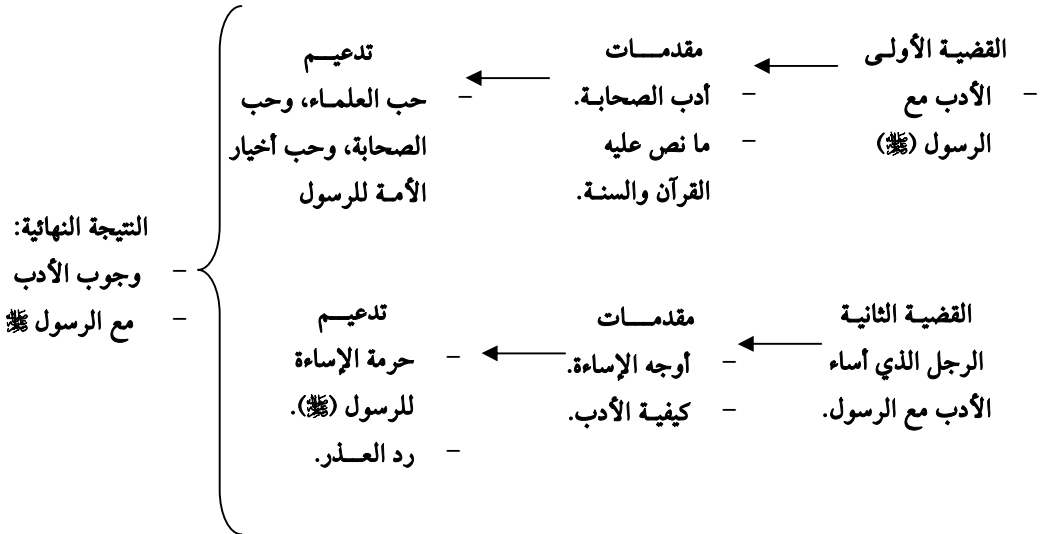
(1) ينظر، عبد الله صولة، الحجج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجج الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكان، فريق البحث في البلاغة والحجاج، ص: 317.



فالقضية الأولى تمثل الذين يحبون ويحسون الأدب مع الرسول ﷺ وبيان ذلك من القرآن والسنة وأخبار الصحابة وأدبهم مع الرسول ﷺ .

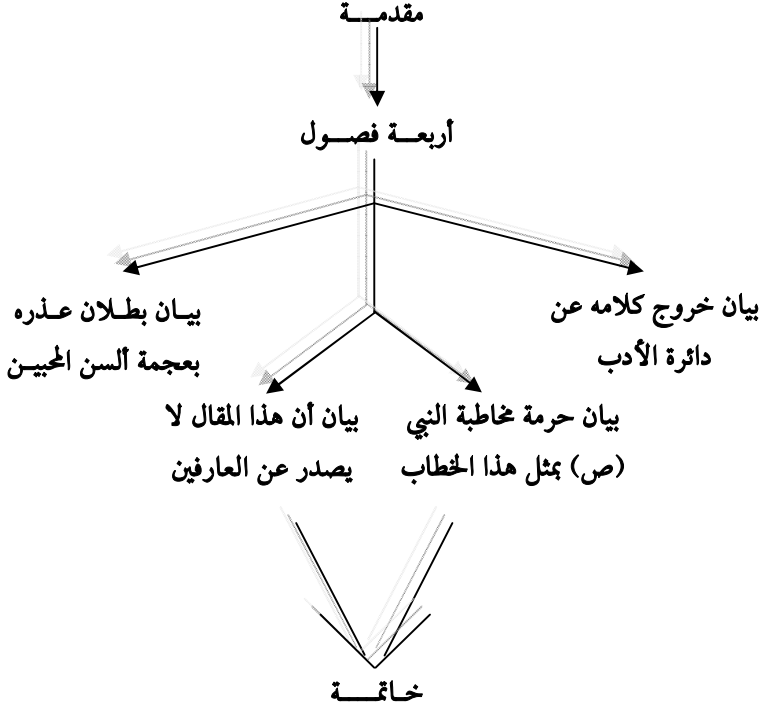
أما القضية الثانية فمرتبطة بالرجل الصوفي الذي أساء الأدب مع الرسول ﷺ وبيان ذلك بخلاف ما كان من الصحابة نحو رسولهم من أدب وإجلال، ورد عذره وبيان الحكم في الذي يسيء الأدب مع الرسول ﷺ.

وعليه يصبح شكل الحجاج على هذا الشكل:





يمكن القول أن الشيخ "عبد الحميد بن باديس" قد مزج بين نوعي الحجاج في هذا النص، مراعيًا بذلك الجمهور القارئ لهذا الجواب وتنوعه، كما لم يغفل عن المتلقي الذي وجه إليه الحجاج لإقناعه بالدعوة والنتيجة، والشكل العام لبنية هذا الحجاج يبينه الشكل الآتي:



### في نصيحة نافعة ووصية

تكوّن هذه العناصر مقاطع حجاجية وكل مقطع له حججه ونتيجته، لتتضافر نتائج كل فصل مع نتيجة المقدمة لتصنع الخاتمة الحجاجية وهي النتيجة النهائية، وهذا بيان لذلك:  
المقدمة: وتمثل المقطع الحجاجي الأول إذ يقول الشيخ: أجمع علماء الملة من جميع الفرق على وجوب الأدب مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم - حيا وميتاً<sup>(1)</sup>.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 154.

الحجج المعتمدة: في المقطع الأول:

## 1- الآيات القرآنية:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾<sup>(1)</sup>.
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾<sup>(2)</sup>.

## 2- ما روي عن الرسول ﷺ:

- روي الترميذي عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر ﷺ فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر، فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويتبسمان إليه ويتبسم إليهما.
- أن أصحابه كانوا حوله كأنما على رؤوسهم الطير. حتى كانوا يهابونه من تعظيمه وتوقيره فلا يسألونه، فيحبون أن يأتي الأعرابي الجاهل فيسأله<sup>(3)</sup>.

وبهذا نتوصل إلى نتيجة وهي «سيرة السلف الصالح معه- عليه الصلاة والسلام - في الحياة وبعد الممات»<sup>(4)</sup>.

وهذه نتيجة فرعية تخدم بتضافرها مع النتائج الآتية النتيجة النهائية، وهذه الحجج وبتكاملها مع الحجج المعتمدة في الفصول تخدم الحجاج بشكل عام.

**الفصل الأول:** ويمثل المقطع الحجاجي الثاني حيث يعرض الشيخ الأبيات التي قيلت في النبي ﷺ وأساءت إليه فيعرض البيت الأول:

إِنْ مِتُّ بِالشُّوقِ مُنْكَدٌ      مَا عُدْتُزُ يُنْعِينِكَ

(1) سورة الفتح، الآية: 8، 9.

(2) سورة الحجرات، الآية: 1، 2.

(3) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 154.

(4) ينظر، أبو عبد الرحمن محمود، رسالة جواب سؤال عن سوء مقال، ص: 64 وما بعدها.

فيقول الشيخ: «أيُّ حقٍّ للعبد الحقير، على السيد الجليل الكبير حتى يطالبه بالاعتذار إذا لم يأتيه أم كيف ساغ لهذا المسكين أن يقول له لا عذر ينجيك، ممّ ينجيه هذا العذر؟ من أنت يا هذا حتى يعتذر سيد الأولين والآخرين لك [...] أي حق لك على النبي ﷺ حتى صرت تخوفه بأنك تدعوه وتشكوه إلى الله»<sup>(1)</sup>.

### الحجج المعتمدة:

- سيرة النبي ﷺ: "حاشا أن يقصر في خير لأحد في حال حياته وبعد مماته، كيف ذلك وهو الذي قال له الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَمِخْلٍ نَّفْسِكَ إِلَّا يُكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾»<sup>(2)</sup>.
- هو الذي لما تعرض عليه في قبره أعمال أمته يستغفر للمذنبين<sup>(3)</sup>.

النتيجة متمثلة في قوله:

- «لقد وضعت نفسك والله في غير محلها وجهلت مقام النبوة وجلاله منصبها»<sup>(4)</sup>.
- «هذا تهجم عظيم، وتجاسر شديد، لا يقدم عليه عامة الناس، فكيف بمن يزعم أنه خاصة العارفين»<sup>(5)</sup>.

أما المقطع الحجاجي الثالث فيمثله الفصل الثاني من المقالة، ويظهر هذا حين يبين الشيخ عبد الحميد بن باديس "حرمة مخاطبة النبي ﷺ، بمثل هذا الخطاب فيقول الشيخ: «كبرت كلمة والله خرجت من فيّ هذا المغرور المسكين، ولا حول ولا قوة إلا بالله ولا توفيق إلا به [...] أما نحن فموقفنا معهم (الرُّسل) موقف العبيد مع السادة، فيجب علينا معهم اعتقاد الحرمة وإكبار الجاني، ولزوم الأدب في الأقوال والأفعال، وجميع الأحوال ولا يجوز لنا ونحن خدامهم وأتباعهم أن نذكرهم أو نخاطبهم بما خاطبهم بهم ربهم ومالكهم»<sup>(6)</sup>.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 156. 157.

(2) سورة الشعراء، الآية: 3.

(3) ينظر، أبو عبد الرحمن محمود، رسالة جواب سؤال عن سوء مقال، ص: 76، 77.

(4) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 157.

(5) نفسه، ص: 158.

(6) نفسه، ص: 158.

## الحجج المعتمدة:

استعان الشيخ في بيان هذه المقدمة بعد إيراد حكم هذا الكلام وهو التحريم بأقوال وآراء علماء ليدعم خطابه منهم:

- قول أبي بكر بن العربي<sup>(1)</sup> في سورة (ص) من كتاب الأحكام، إذ يقول: «للمولى أن يذكر ما شاء من أخبار عبيده، ويستر ويفضح ويعفو ويأخذ، وليس للعبد أن ينبز في مولاه بما يوحى عليه اللوم، فكيف بما عليه في الأدب والحد»<sup>(2)</sup>.
- قول أبي بكر بن العربي في سورة الأحزاب من كتاب الأحكام: «وعهدنا إليكم عهدا لن تجدوا له ردا أن أحدا لا ينبغي أن يذكر نبيا إلا بما ذكره الله لا يزيد على ذلك»<sup>(3)</sup> وأقوال العلماء تؤخذ على أنها حجج بالنظر إلى زادهم المعرفي ومؤلفاتهم، ويمكن جعل لهذه المقدمة والحجج نتيجة، قد تكون مضمرة في معظم هذه الأبيات المسيئة لسيد المرسلين ﷺ، وما هو ظاهر: حرمان مثل هذا الخطاب، وقد تجسدت النتيجة أكثر في قوله: «فنعوذ بالله من الكفر بالدين، وتوقع في سوء الأدب مع سيد المرسلين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»<sup>(4)</sup>.

أما الفصل الثالث وهو المقطع الحجاجي الرابع والمتمثل في بيان أن تلك الأبيات لا تصدر من العارفين، لأنه ورد في السؤال وهو الباعث الحجاجي - كما رأينا - أن هذا الرجل يدعي أنه قطب الزمان الفرد وأنه العارف...

فرد عليه الشيخ بقوله: «اعلم أن السادة العارفين هم أرسخ الناس قدما في محبة النبي ﷺ وتعظيم حرمة[...]. ومن لا يراعي الأدب في خطاب سيد المرسلين، كيف يصلح أن يكون من العارفين المسلكين، إذ من لا يؤدب نفسه كيف يؤدب غيره، ومن لم يؤمن على آداب الخطاب كيف يؤمن على ما يدعيه من مقامات الكاملين»<sup>(5)</sup>.

(1) أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي الأندلسي الإشبيلي المالكي صاحب كتاب أحكام القرآن، ألواصم من القواصم للتعرف على هذه الشخصيات. ينظر، رسالة جواب سؤال عن سوء مقال، أبو عبد الرحمن محمود، ص: 80 وما بعدها.

(2) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 159.

(3) ينظر، نفسه، ص: 159، 160.

(4) أبو عبد الرحمن محمود، رسالة جواب سؤال عن سوء مقال، ص: 84.

(5) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص 160، 161.

## الحجج المعتمدة:

ليضمن الشيخ دحض دعوى هذا الرجل وردها، وبيانه له بأنها سوء أدب يدعم الشيخ الفصل الثالث من مقاله بأقوال لعلماء صوفية لأن الرجل المدعي هو شيخ من شيوخ الصوفية، وهؤلاء الذين جعل الشيخ عبد الحميد بن باديس "من أقوالهم حججا هم من الصوفية أيضا ليحيد به عنهم ومنهم قول "عبد الغني النابلسي" في شرحه لكتاب الطريقة المحمدية: «إن الله تعالى لا يؤمن على أسرارهِ وأنواره إلا من آمنه أولا على الأخلاق المرضية والآداب المحمدية ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ سَجَعَلُ رِسَالَتَهُ﴾»<sup>(1)</sup>.

## والنتيجة:

- قوله: «فلا شك بعد هذا في بطلان دعواه الواسعة المضادة لتهمته وإصراره على سوء الأدب مع رسول الله ﷺ ولا دليل على حال المرء مثل كلامه ولا أصدق على قلبه من ترجمان لسانه»<sup>(2)</sup>.  
أما الفصل الرابع وهو المقطع الحجاجي الخامس وتمثل في بيان بطلان عذره بعجمة ألسن المحبين، وهذا عذر رده الشيخ بذكره أخيار هذه الأمة بقوله: «اعلموا أن خير هذه الأمة هم أحبها في نبيها...» هؤلاء هم الحججة على الخلق وهم الذين لا يبلغ من جاء بعدهم مد أحدهم ولا نصفه»<sup>(3)</sup>، واعتمد الشيخ في بسط كيفية الأدب مع النبي ﷺ، بذكر آداب الصحابة.

## الحجج المعتمدة:

- أدب أبو بكر الصديق ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾<sup>(4)</sup>.
- قال أبو بكر ﷺ: "والله لا أكلمك بعدها إلا كأخي السرار بمعنى: حسن"<sup>(5)</sup>.
- أدب عمر ﷺ: "وصار عمر ﷺ لا يسمعه حتى يستفهمه"<sup>(6)</sup>.

(1) سورة الأنعام، الآية: 124.

(2) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 162.

(3) نفسه، ص: 162.

(4) سورة الحجرات، الآية: 02.

(5) ينظر، أبو عبد الرحمن محمود، رسالة جواب سؤال عن سوء مقال، ص: 90.

(6) ينظر، عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 162.

- أدب ثابت بن قيس: "ولزم ثابت بن قيس - رضي الله تعالى عنه - بيته وكان جهير الصوت خافة أن يجبط عمله حتى اعتذر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فعذره وبشره بالجنة فأنزل فيهم وفي أمثالهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(1)</sup>.

وهذا أدبهم وهم سادات المحبين، وقد كانت ألسنتهم - والله - فصيحة في العلم والأدب، منزهة عن كل ما يعاب<sup>(2)</sup>.

### والنتيجة:

تتجلى نتيجة هذه المقدمة أو المقطع الحجاجي بالنظر إلى الحجج المعتمدة إلى أن هذا الرجل أساء الأدب مع الرسول ﷺ، وهي تظهر من خلال قوله: «فما بال هذا المسكين يركب ذلك المركب الصعب ويخرق سياج الأدب، ويعتذر بعجمة أهل الحب نظيرا لكلامه عند واحد منهم [...] فالحجة من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح وشيوخ الطريقة المتقدمين قاطعة به وبأمثاله أجمعين»<sup>(3)</sup>.

بالنظر إلى هذه المقاطع التي شكّلت أساسا للوصول إلى نتيجة في آخر الخطاب ممثلة في نتيجة جامعة لكل النتائج الفرعية التي سبقت، حيث أسستها تلك الحجج المعتمدة في كل مقطع مع مقدمة وهي ممثلة في قوله: «اعلموا - جعلكم الله من وعاء العلم [...] إن الواجب على كل مسلم في كل مكان وزمان أن يعتقد عقدا يتشربه قلبه وتسكن له نفسه [...] أن دين الله تعالى من عقائد الإيمان وقواعد الإسلام وطرائق الإحسان، إنما هو في القرآن والسنة الثابتة وعمل السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، وأن كل ما خرج عن هذه الأصول ولم يحظ لديها بالقبول قولاً كان أو عملاً أو عقداً أو احتمالاً فإنه باطل من أصله مردود على صاحبه كائناً من كان في كل زمان ومكان...»<sup>(4)</sup>.

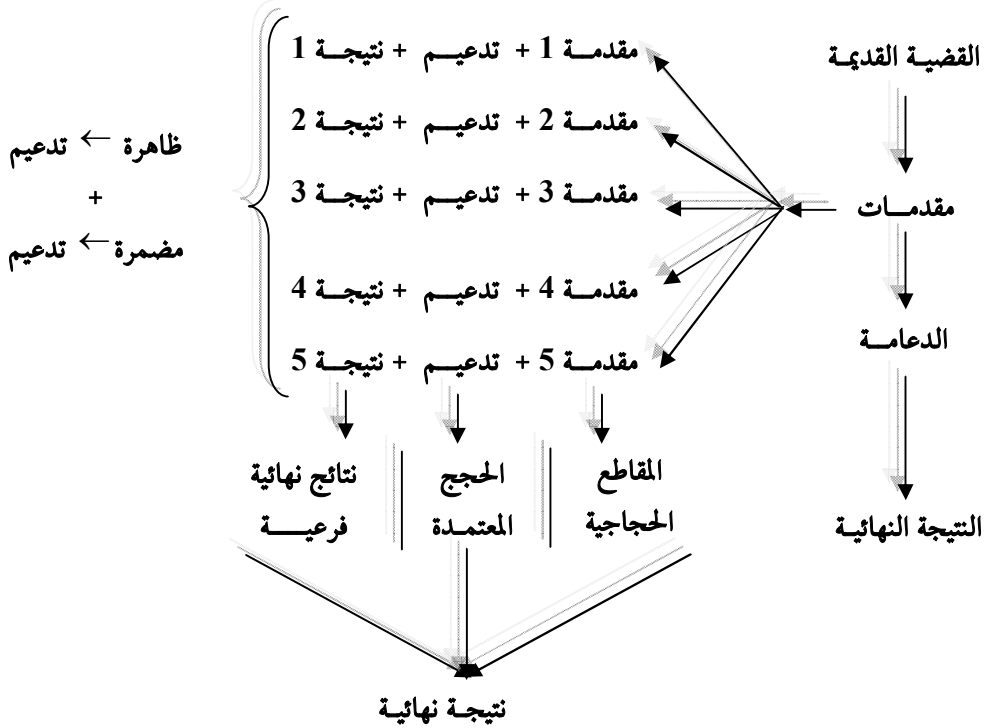
(1) سورة الحجرات، الآية: 03.

(2) أبو عبد الرحمن محمود، رسالة جواب سؤال عن سوء مقال، ص 93. 94.

(3) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وأثاره، الجزء 3، ص: 162. 163.

(4) نفسه، ص: 163.

ويمكن رسم مخطط عام لبنية الحجج في هذا المقال:



ويمكن رصد أنواع الحجج الأخرى، وهذا بالنظر إلى علاقة المقاطع الحججية السابقة: فنلاحظ أن الشيخ "عبد الحميد بن باديس" قد اعتمد على أنواع الحجج المختلفة، نذكر منها:

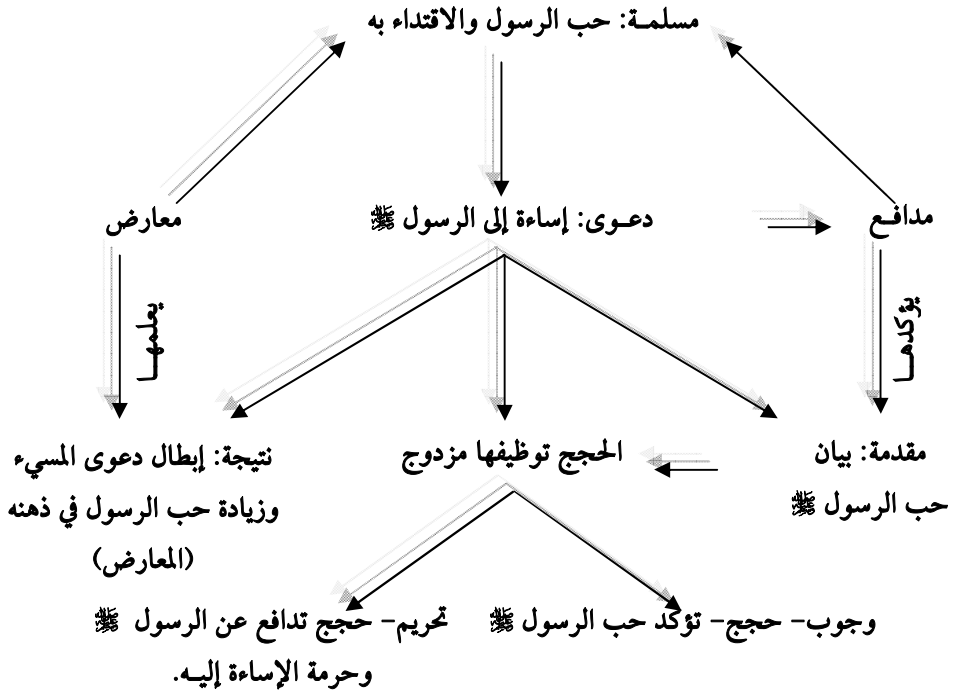
## 2- أنواع الحجج:

### أ- الحجج التجريدي:

قدم الشيخ عبد الحميد بن باديس الأدلة على الدعوى المقدمة، وهذا النوع من الحجج يراعي كيفية توظيف الحجة للبرهنة على صحة المقدمة، والتي نتيجتها معلومة لدى السامع، إذ يحاول المتكلم الزيادة والتأكيد على صحتها في ذهنه.

فالرجل الذي أساء الأدب مع الرسول ﷺ، يمثل هذا: دعوى مقدمة وردَّ الشيخ "عبد الحميد بن باديس" تمثل في رد هذه الدعوى وإبطالها بالحجج.

ليبرهن على صحة المقدمة، نتيجتها معلومة لدى السامع، إذ يسعى الشيخ إلى إبطال دعواه، وزيادة وتأكيدا على صحة مقدمة الشيخ في ذهن الذي أساء إلى الرسول ﷺ وهذا مخطط يبين ذلك:

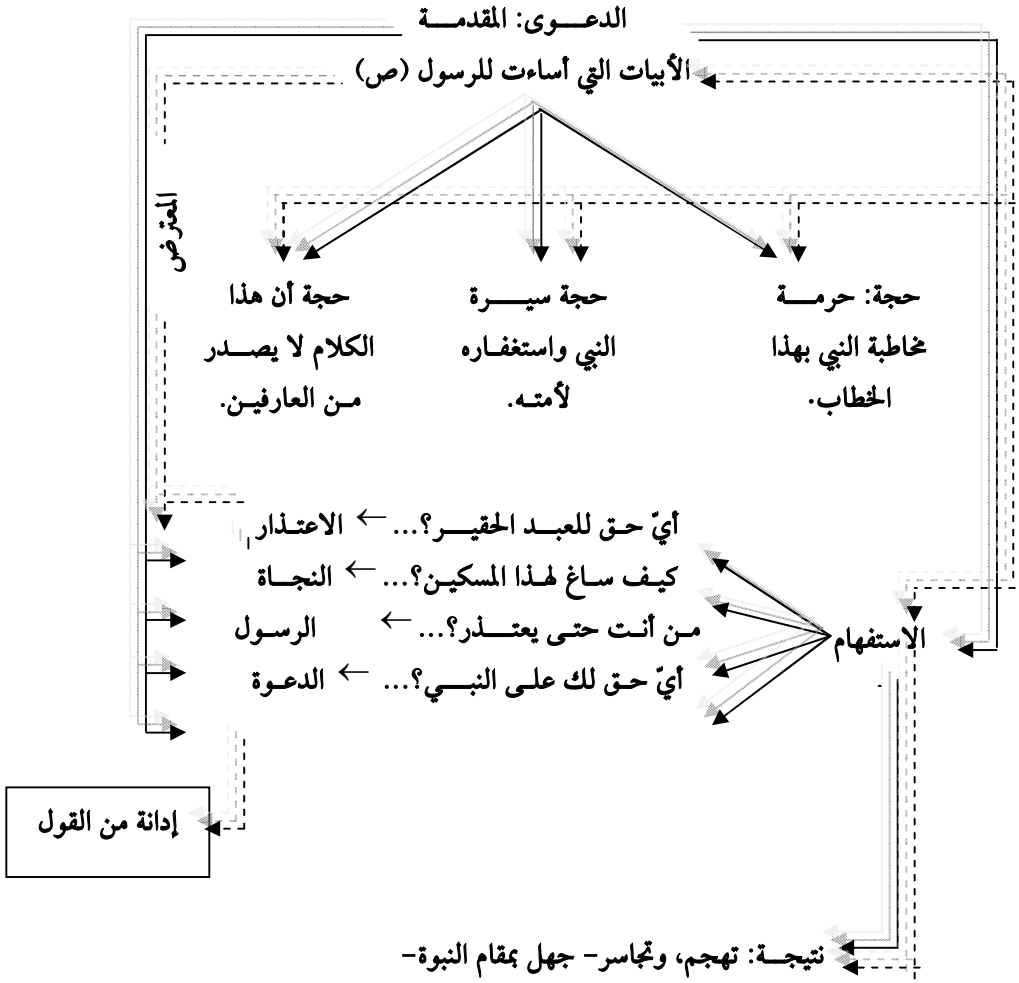


#### ب- الحججاج وجه/ ذات:

وفي هذا النوع يعتمد فيه المحاجج الشيخ "عبد الحميد بن باديس" إلى إدانة الرجل الذي أساء الأدب مع الرسول ﷺ، من خلال تلك الآيات ويعد هذا النوع أقدم صور الحججاج، بالنظر إلى مواجهة الخصم بكلامه وأفعاله كحجة عليه، وظهر هذا في الفصل أو في المقطع الحجاجي الثالث، حين أكد الشيخ "عبد الحميد بن باديس" حرمة مخاطبة النبي ﷺ بمثل ذاك الخطاب، ويظهر هذا جليا في المقطع الحجاجي الثاني: حين يعرض الشيخ الآيات التي أساءت للرسول، وجعلها حجة على قائلها.

كما اتخذ دعواه بأنه عارف وجعلها حجة على قوله وقد استعمل الشيخ في هذا الاستفهام استعمالا حججيا، واتخذ من سيرة النبي دعامة، واتخذ الآيات القرآنية دليلا قاطعا على إدانته، وهذا بيان ذلك.





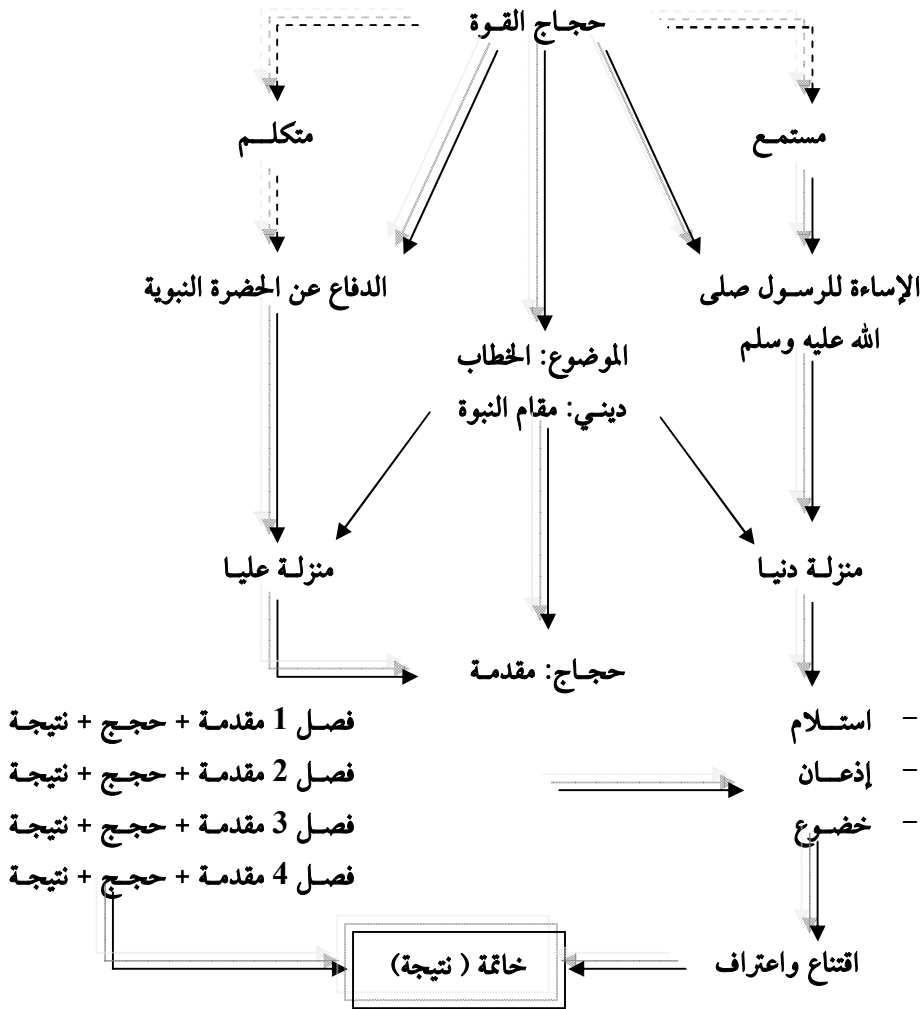
وهذا النوع يسمى: الحجاج المغالط إذ يسعى ابن باديس إلى إيقاع خصمه في شرك أقواله.

### ج- الحجاج السلطوي:

ويشترط في هذا الحجاج أن يكون للمحاجج قَدَمٌ راسخة وباع طويل في المجال الذي يُحدث فيه، وما يتمتع به المتكلم من مكانة سياسية واجتماعية والشيخ عبد الحميد بن باديس زعيم الحركة الإصلاحية في الجزائر، ورئيس جمعية العلماء المسلمين وله الخبرة المعرفية في مقارعة مثل هذا الرجل الذي تجرأ وتهجم على مقام النبوة.

## د- حجاج القوة:

وفي هذا الحجاج يكون المستمع - وهو الرجل الذي أساء الأدب مع الرسول ﷺ أقل منزلة والكلام الذي تلفظ به هو الذي وضعه في هذا المقام، والذي علا منزلة الشيخ عبد الحميد بن باديس" والذي وضعه في هذه المنزلة هو دفاعه عن الحضرة النبوية، والذي حدد المنزلتين هو الموضوع الديني: الأدب مع الرسول ﷺ ليكون الحال من المستمع الاستسلام والإذعان والخضوع وهذه الحالات الثلاث تؤسس وتخدم الهدف وهو الاقتناع والاعتراف، يتضح بيان ذلك في الشكل الآتي:



نخلص إلى أن الخطاب الحجاجي يتميز عن بقية أنواع الخطاب الأخرى انطلاقاً من تحديد نوع الحجاج المعتمد في الخطاب الواحد، إذ تقوم دعائم الحجاج على نظرية الخلاف، وهذا محوره الرئيس، إذ يسعى كل طرف إلى محاجة الآخر وإقناعه، بالنظر إلى ما يقدمه كل طرف من حجج وأدلة تحقق الهدف المقصود «وأن هذا الهدف ينبغي أن يكون مقصوداً وواضحاً في ذهن المحاور، مبنياً على دراسة وتخطيط مستقبين، لا يتركان مجالاً للارتجال والعشوائية، ورحم الله من قال: من عرف ما قصد هان عليه ما وجد»<sup>(1)</sup>، غير أن العملية الحجاجية الحوارية لا يكتب لها النجاح إلا بشروط وضوابط:

أما الشرط الأول فهو العلمي، وهذا ما يقتضيه من معرفة وإلمام بموضوع الحوار ومعرفة طبيعة المحاور، وأما الشرط الثاني فمتعلق بالأخلاق، «وفي العملية الحوارية يكتسي الشرط الأخلاقي في أهمية خاصة بما يعنيه من اعتراف بالآخر، واحترام له ولآرائه»<sup>(2)</sup>. وهي ممثلة في الآية 125 من سورة النحل التي سبق تفسيرها.

والذي جعل الحوار الباديسي في النص السابق ناجحاً هو:

1. شيوع الروح المنطقية في الحوار على الشكل الذي يظهر في تراكيب الفقرات على شكل مقدمات ونتائج، حيث تبدأ المقدمة بقوله: أجمع، قد اشتمل، اعلم اعلموا، وفي النتيجة دائماً يكون الجواب.
2. اعتماد الشيخ عبد الحميد بن باديس على أسلوب الاستفهام الإنكاري الذي يشيع في كتابته دائماً مثل: أي حق؟ من أنت؟ كيف ساغ؟ حيث تلقى هذه الأسئلة في وجه محدثه أو خصمه، وعدم الجواب يعتبر حجة.
3. اعتماد الشيخ على الواقع المحسوس والملموس حيث يشتق منه الدليل الذي يسوقه على صحة رأيه من طبيعة العربي الإسلامية والاستشهاد بالقرآن الكريم والسنة المحمدية والصحابة وحوادثهم في المسألة المقصودة بالحجاج.
4. مساواة اللفظ المعني وذلك أن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان يتعد في القول الحوارية عن الإسراف في اللفظ، وتجنبه الجدال العقيم في مقاله، وكان يحرص على توصيل المعاني والأفكار إلى المتلقي بهدف التوجه بمقاله إلى إقناع المعاند بنوع خاص.

على أن أسلوب الشيخ كان يميل أحياناً إلى الإيجاز المقبول في لهجة حوارية إذا قصد إقناع المحاور، وفي لهجة خطابية إذا قصد إقناع القارئ، ويراد بهذا كله التأثير على نفس القارئ، وذلك بالتركيز على الحجّة المناسبة، لأن الذي يختار الحجج هو المحاجج باعتبار المخاطب أو باعتبار نوعها.

(1) إدريس أوهنا، أسلوب الحوار في القرآن الكريم، ص: 24.

(2) نفسه، ص: 30.

- إن الحجج تشكل المحور الرئيسي من مكونات الحجج، لأنه يعتمد عليها في:
- إقناع المعاند المنكر أو المتلقي لا على سبيل التعيين
  - تعتبر الطريق الموصول بالنتيجة ومحقة لهدف الحجج.
- وقد تتحكم في العملية الحجاجية الحوارية، لأن هناك أنواع أنسب من أنواع، وهنا نعرض أنواع الحجج التي بني عليها الشيخ حججه في النص السابق:

### 3- أنواع الحجج:

تصاغ الحجة «بطريقة تجعلها تفيد العلية، فتبرز استناد الربط مع النتيجة إلى ما ينزل منزلة المتفق عليه بين المتخاطبين إذ يعسر الربط ردا على التماس المخاطب بنفي الحجة»<sup>(1)</sup>. وهذا ما يعرف بنظرية السلام الحجاجية إذ تنطلق هذه النظرية «من إقرار التلازم في عمل الحاجة بين القول بالحجة ونتيجته، ومعنى التلازم هنا هو أن الحجة لا تكون حجة بالنسبة إلى المتكلم إلا بإضافتها إلى النتيجة مع الإشارة إلى أن النتيجة قد يصرح بها وقد تبقى ضمنية»<sup>(2)</sup>.

- "أي حق للعبد الحقير؟ على السيد الجليل الكبير حتى يطالبه بالاعتذار إليه..."
  - أم كيف ساغ لهذا المسكين أن يقول له لا عذر ينجيك.
  - "من أنت يا هذا حتى يعتذر سيد الأولين والآخرين لك"<sup>(3)</sup>.
- فلاستفهام في قول (ب) و(ج) يمثل حجة لفائدة نتيجة ضمنية هي الخروج عن أدب الحضرة النبوية والإساءة إليه وتم التصريح بنتيجة التحقير من شأن هذا المتعجرف.
- نلمح أنواعا من الحجج في هذا النص الباديسي ومنها:

#### أ- حجة الاتهام:

وتهدف هذه الحجج إلى تحقيق غاية ترهيب أو ترغيب، وتكون أكثر نجاعة إذا اتصلت بالتعليم والدين ونراها من خلال الأمثلة الآتية:

- 1- في قوله: «أجمع علماء الملة من جميع الفرق على وجوب الأدب مع النبي ﷺ حيا أو ميتا، كما يجب الإيمان به حيا وميتا»<sup>(4)</sup>، فقد أخذ الحجة من إجماع العلماء ووجوب حكم مسلم به هو الأدب مع الرسول ﷺ وهذا الحكم خاضع لنصوص قطعية (قرآنية) والتوجيه إلى وجوب الحكم هو النتيجة.

(1) شكري المبخوت، نظرية الحجج في اللغة، فريق البحث في البلاغة والحجاج، ص: 378.

(2) نفسه، ص: 363.

(3) عمار الطالي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 157.

(4) نفسه، ص: 154.

2- في قوله: «اعلم أن السادة العارفين هم أرسخ الناس قدما في محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتعظيم حرمة ومراعاة شريف جانبه [...] تجذ ذلك في صلواتهم عليه [...] وفي تأليفهم عند الكلام في حقه»<sup>(1)</sup>.

إذ عمد إلى توجيه العقول إلى الأدب الحقيقي كأدب السادة العارفين بالإسلام، وتخصيص الخطاب بكلمة "علم" للذي تجرأ أو تهجم على الحضرة النبوية والحجة أفادت تعميم النتيجة: الترغيب في الاقتداء بهؤلاء العارفين (صحابة، تابعين، علماء...)

### ب- الحجة التواجدية:

ويصطلح عليها بحجة السلطة، وهنا يظهر المتكلم في موقف قوي لا يرد له قول ولا يفند له رأي، وللكشف عن هذه الحجة المثلة في شخصية الشيخ عبد الحميد بن باديس والذي يعتبر شخصية حجاجية من ناحية أنه:

- 1- زعيم للحركة الإصلاحية في الجزائر.
- 2- رئيس جمعية العلماء المسلمين.
- 3- مفسر القرآن الكريم.

بمقارنة هذه الشخصية الحجاجية بالشخص الذي أساء الأدب في حق الرسول ﷺ تتحقق السلطة، وقد ظهر بمظهر الحاجج الذي اعتمد على القرآن والسنة، والصحابة والعلماء في تقديم جوابه ورد ما قيل عن الرسول ﷺ.

### د- حجة المثال (المقارنة):

وتكمن الغاية من التمثيل عقد مقارنة هو التأسيس للنتيجة وصحتها، فقد ضرب الشيخ "عبد الحميد بن باديس" مثلا بهذا الرجل.

في قوله: «وما أشبهه طلب هذا الرجل القبول والإتيان بهذا الخطاب المزعج الغليظ بأولئك الذين نادوه من وراء الحجرات ولم يصبوا حتى يخرج إليهم، بل هو أشد لأن القوم كانوا حديثي عهد بجاهلية، لم يخاطبوا المسلمين، ولا تأدبوا بأداب الإسلام وهذا يدعي منزلة الأولياء والصالحين، ثم تأتي بما لا يصدر من العامة الجاهلين»<sup>(2)</sup>.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 160.

(2) نفسه، ص: 158.

فقد اعتمد هنا على الأعمال التي قام بها أصحاب الحجرات والعمل الذي أقدم عليه هذا الرجل، ثم يرجع قوله إلى أنه لا يصدر من العامة الجاهلين، ليثبت نتيجة تتمثل في حرمة مخاطبة النبي ﷺ بهذا الخطاب.

### ج- الحجة التاريخية:

وتتحدد هذه الحجة بالنظر إلى طبيعتها وقد استند عليها الشيخ في نصه وفيها يعتمد إلى ذكر حدث تاريخي أو ظاهرة وهي مرتبطة بالنتيجة ظهرت هذه الحجة مجسدة في قوله: «روى الترمذي عن أنس ؓ كان يخرج على أصحابه المهاجرين والأنصار وهم جلوس [...] فيحبون أن يأتي الأعرابي الجاهل فيسأله»<sup>(1)</sup>. وفي قوله: «وقد كان مالك -رحمة الله تعالى- إذا ذكر النبي ﷺ يتغير وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه»<sup>(2)</sup>.

وفي قوله: «وكان جعفر الصادق كثير الدعابة والتبسم، وإذا ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم اصفر»<sup>(3)</sup>.

وكانت هذه حوادث تاريخية تبين كيفية الأدب مع الرسول ﷺ لتكون دليلاً على النتيجة.

### د- حجة الاستشهاد:

وتتحدد غايته في توضيح القاعدة، ولعل الاستشهاد بالقرآن الكريم من الأدلة القاطعة التي تجعل النتيجة مثبتة لا يقدر المتلقي تفنيد الرأي أو إبطال صحة النتيجة، ونوع الشيخ عبد الحميد بن باديس من الشواهد ومنها:

• الشواهد القرآنية: ما نلجده في مقدمة الرسالة، فاعتمد الشيخ القرآن الذي يمثل نصوصاً أو حججاً قطعية واستعمل هذه الشواهد في بيان وجوب الأدب مع النبي ﷺ ومنها:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَبْرِ﴾<sup>(4)</sup>.

- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾<sup>(5)</sup>.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 154.

(2) نفسه، ص: 155، 156.

(3) نفسه، ص: 156.

(4) سورة البقرة، الآية: 119.

(5) سورة الحجرات، الآية: 03.

- وفي بيان سيرة ورحمة الرسول ﷺ، قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ أَكْبَرُ﴾ (1).
- وفي بيان أن الأدب مع الرسل أعظم وأحق، وذلك بإيراد الأدب مع الوالدين في قوله: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ﴾ (2).
- وفي بيان أحقية الرسول ﷺ بالأدب وأنه على خلق عظيم، قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (3).

- الشواهد السننية: وهو ما نجده من أحاديث وأفعال للرسول ﷺ مبثوثة في هذه الرسالة، وقد اتخذ الشيخ من الأحاديث النبوية حججا والتي تحول بين السامع والرفض ومنها ما رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه أنه ﷺ: "كان يخرج على أصحابه المهاجرين والأنصار وهم جلوس... فيحبون أن يأتي الأعرابي فيسأله" (4).
- أما ما أورده الشيخ "عبد الحميد بن باديس" من شواهد الصحابة وآدابهم مع الرسول ﷺ ومنها:
  - قوله في أدب الصحابة: أدب أبو بكر الصديق: "والله لا أكلمك بعدها إلا كأخي السرار" (5).
  - أدب عمر: "لا يسمعه حتى يستفهمه" (6).
  - أدب ثابت بن قيس: لزومه بيته لأنه كان جهر الصوت خافة أن يخط عمله" (7).
- الشواهد الخاصة بأقوال العلماء: وهذا حجاج ناجح فقد أورد الشيخ أقوال علماء في الأدب، لأن الذي أساء الأدب مع الرسول رجل صوفي فالحاجة هنا تتمثل في إيراد تلك الأقوال الصوفية التي تتعارض والقول الذي تجرأ به هذا الرجل ليجعله متناقضا وفرقة التي ينتمي إليها، وليثبت الإساءة ومن يسوي نفسه وبين الرسول ﷺ ومنها:

(1) سورة الشعراء، الآية: 03.

(2) سورة الإسراء، الآية: 23.

(3) سورة الأنعام، الآية: 124.

(4) ينظر، عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 154.

(5) ينظر، نفسه، ص: 162.

(6) نفسه، ص: 162.

(7) نفسه، ص: 162.

- قول الشيخ "عبد الغني النابلسي": "في شرحه لكتاب الطريقة المحمدية" عند كلام أبي يزيد المتقدم إن الله لا يؤمن عن أسراره وأنواره إلا من أمنه أولاً على الأخلاق المرضية والآداب المحمدية<sup>(1)</sup>.
- قول الإمام الصوفي أبو عبد الله بن الحجاج: "وقد قال علماؤنا- رحمة الله عليهم- أن من قال عن نبي من الأنبياء في غير التلاوة والحديث أنه عصى أو خالف فقد كفر، نعوذ بالله من ذلك"<sup>(2)</sup>.
- قول الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي، والشيخ "محمد الزرقاني" وقول أبو إسحاق الشاطبي<sup>(3)</sup>، ومنها أقوال لا على سبيل التعيين فيقول مثلاً: قوله: "من لا أدب له، لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له"<sup>(4)</sup>.
- يُحمل القول من العلماء والشخصيات على أنه حجة استشهادية وتدعيما لتحقيق النتيجة وإقناع المتلقي.
- واستعمل الشيخ عبد الحميد بن باديس الحكمة كحجة وهذا في قوله:
  - "من لا يؤدب نفسه كيف يؤدب غيره"<sup>(5)</sup>.
  - "ومن لم يؤمن على آداب الخطاب كيف يؤمن على ما يدعيه"<sup>(6)</sup>.
 وهذا لبيان شدة سوء أدب هذا المتهجم، وأنه مجرد من الأدب فكيف السبيل ليؤدب الآخرين، وأن خطابه غير متأدب، وأن ادعاءه باطل مرفوض، وهنا بيان لقيمة هذا الشخص لكي لا يحمل على التصديق، وهذه الحكم يجعل المتلقي يقارن بين شخصه وما يفعله وبين خطابه وما يدعيه. ونخلص من هذا إلى:
  - أن الشيخ عبد الحميد بن باديس لم يركز على نوع واحد من الحجج، ولكنه اعتمد على ما يتطلبه الموقف الحجاجي والمستمع.
  - الحجج التي اعتمدها الشيخ مرتبة بحسب قدرتها على الإقناع وهذا ما يركز عليه السلم الحجاجي في الخطاب بالتركيز على مبدأ التدرج في توجيه الحجج.

(1) أبو عبد الرحمن محمود، رسالة جواب سؤال عن سوء مقال، ص: 90.

(2) نفسه، ص: 83.

(3) لترجمة هؤلاء العلماء، أنظر، أبو عبد الرحمن، رسالة جواب سؤال عن سوء مقال، ص: 86، 90.

(4) نفسه، ص: 83.

(5) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 161.

(6) نفسه، ص: 161.



- تركيز الشيخ "عبد الحميد بن باديس" على قيمة وغاية هذا الحجاج بالنظر إلى شخصيته الحجاجية كونه: زعيما، ورئيسا، ومفسرا...
- أن المحاججة موجودة في كل خطاب حوارى على نحو خاص وتحديد مبادئ تداولية.
- اعتماد الشيخ في هذا الحجاج على الأدلة القطعية أكثر: كآليات القرآنية والسنة النبوية وأقوال الصحابة، والعلماء، والحكم العربية.

ومن هذا كله يتضح لنا أن الشيخ التزم بكل ضوابط الحوار، ومنها تحديد الهدف، ومعرفة طبيعة الحوار ومرجعياته في الحوار، وتحديد موضوع الحوار، والتركيز على مراد المحاور من كلامه لا على ظاهر لفظه ومن هنا تتجلى صورة المتلقي:

- مححف في حق نبيه بالنظر إلى ديانته الإسلامية، والخضوع لمقتضيات هذا الحجاج يجعل منه متلقٍ مذب وعلية التوبة، ومنه أخذ الخطاب شكل الحوار معه بصورة التفكير العميق والتعبير الهادئ، وعدم التعصب للرأي، واعتماد الحجج الدامغة المفضية إلى الحق اليقين، وأخذ الخطاب الحجاجي من هذا يتنوع إلى حجاج توجيهي تارة وسلطوي وتجريبي، ومحاججة المحاور بكلامه تارة أخرى، وقد أخذ الخطاب بعدا دينيا اجتماعيا كان يسعى الشيخ "عبد الحميد بن باديس" إلى تثبيت الأدب مع الرسول بالقرآن والسنة وأقول الصحابة.

## المبحث الثالث

### الحجاج في الخطبة البادية

#### من خلال "عرض حالة الجمعية الأدبية"

تعدّ الخطبة أنموذجا قديما لهذه النظرية الحجاجية، إذ أنّ عناصر الخطبة: خطيب، والجمهور، والهدف، والقصد، جعلها خليقة بأن تكون مجسدة عن حجاج ومن ثمة عن نظرية. وقد عنيت الخطابة كفن بهرت الإنسانية بتحقيق الأهداف والمقاصد المرجوة فضلا عن أثرها في تغيير المفاهيم سلوكات ومعتقدات.

والخطابة بأساليبها في التعبير وفنون القول لخصت وجه الحجاج، ولأنه درس حديث في اللغة عمد الباحثون إلى الكشف عن هذه الأوجه والصور والأدوات الحجاجية فيها، وكان الكشف منصبا في كل جزء منها، فوقفوا على كل جزء واستعماله، منها الخطيب وعدته (الحجاجية) الخطبة وبيانها، وظيفتها الحجاجية والهدف والقصد وكيفية تحقيقه، فالخطابة سلاح يملكه الخطيب إن أحسن توظيفه في وجه سامعيه، مما أدى بالخطابة الزحف إلى موكب الدرس الحجاجي الحديث ليرز المنهج الحجاجي في الخطابة، فكان من الجدير أن تدرس الخطابة من وجهة حجاجية وسنعرض هنا: الحجاج في الخطبة البادية مبرزين صورة هذا الحجاج بالتعرض إلى القياس وأدوات الحجاج اللسانية والنحوية في هذه الخطبة. قبل هذا آثرنا أن نقدم تعريفا للخطبة مبرزين عدة الخطيب الحجاجية وما يلزمه لتحقيق الاستمالة والتأثير في السامع ومن ثمة الهدف.

#### 1- تعريف الخطبة:

وهي «فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالاته، فلا بد من مشافهة وإلا كانت كتابة أو شعرا مدونا، ولا بد من جمهور يسمع وإلا كان الكلام حديثا أو وصية، ولا بد من الإقناع وذلك بأن يوضح الخطيب رأيه للسامعين ويؤيده بالبراهين، ليعتقدوه كما اعتقدته»<sup>(1)</sup>.

ومن هذا تكشف أن الجمهور الذي تُوجه إليه الخطبة يختلف باختلاف نوع الخطبة فهذه خطبة قضائية لها جمهورها، وهذه سياسية لها جمهورها، وهذه دينية ولها جمهورها... وتلتقى هذه الأنواع في كثير من المحافل، فعلى الخطيب أن يحسن فن المشافهة ليحقق مبتغاه في سامعيه وهو إقناعهم واستمالتهم، ويُظهر هذا

(1) أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، نهضة مصر للطباعة والنشر، 2003، ص:5.

أن الحجاج جوهر الخطابة، والمشافهة طريقتها، والإقناع والاستمالة هدفها، ويشترط لنجاح الخطبة نجاح العملية الحجاجية مع نجاح الحجاج الشكلي الممثل في: الإلقاء الشفاهي حركة وصوتا.

وهذا ما نجده عند أرسطو إذ الخطابة عنده «صناعة مدارها إنتاج قول تبنى به الإقناع في مجال المحتمل والمسائل الخلافية القابلة للنقاش بمعنى أنها علاقة بين طرفين تتأسس على اللغة والخطاب، يحاول أحد الطرفين فيها أن يؤثر في الطرف المقابل جنسا من التأثير يوجه به فعله أو يثبت لديه اعتقادا [...] أو يصنعه له صنعا»<sup>(1)</sup>، هذه الصناعة وهذا البناء الإقناعي والعلاقة بين الخطيب وجمهوره وهدفه يلزمه وسائل منها: «ما يأتي من صورة المتكلم لدى السامع، فإذا كان المتكلم مشهورا بالأخلاق الحمودة وحبه للحق وحرصه على العدل في الحكم وتمكنه من القضايا التي يتحدث فيها [...] كان حظ الخطاب من الإقناع أوفر وتأثيره في متقبله أبعدها ومنها ما يأتي من انفعالات المستمع وعواطفه»<sup>(2)</sup>.

للخطيب دور مهم في العملية الحجاجية في نجاح خطبته بالنظر إلى شهرته وأخلاقه، وإمكاناته لأن من شأن هذا إن لم يكن متوفرا فيه إبطال العملية الحجاجية ومن ثمة عدم تحقيق الهدف، ومنه نبرز عدة الخطيب ممثلا في الشيخ عبد الحميد بن باديس:

## 2- عدة الخطيب:

أ- الاستعداد الطبيعي: «الخطيب كالشاعر والموسيقيار والرسام لا بد أن يكون في فطرته استعداد لهذا الفن البليغ»<sup>(3)</sup>.

ويكمن دور الخطيب في بلورة ما يقصده من الخطبة مسبقا، والشيخ عبد الحميد بن باديس محدث ماهر، نلمس هذا في خطبة يعرض فيها حالة الجمعية الأدبية، ويبين أركان النهضة وأركان جمعية العلماء المسلمين بعدما هزّه منظر محاربة الإسلام والعروبة، والعلم والفضيلة، ليجعل من هذه العناصر أركانا لنهضته وجمعية العلماء المسلمين، ليرغب الناس والشعب الجزائري ويقنعه بالحرية والإسلام.

ب- اللسن والفصاحة: لا بد «للخطيب أن يكون لسنا فصيحاً درب اللسان، بليد الريق قديرا على التعبير لأن منطقته هو ثروته وعدته، وهو بمنطقته يقنع، وبمنطقته يستميل، وما هز المنابر في القديم والحديث، ولا تزعم الأمم وقاد الجماهير إلا اللسن الفصحاء»<sup>(4)</sup>.

(1) حمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، فريق البحث في البلاغة والحجاج، ص: 12.

(2) نفسه، ص: 12.

(3) أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص: 10.

(4) نفسه، ص: 11.

وما تَزَعُمُ الشيخ "عبد الحميد بن باديس" للجمعية وقيادته للشعب الجزائري نحو الحرية، وما نجاح النهضة الإصلاحية إلا من فصاحته وجهاره صوته، فقاد بذلك أمة نحو الاستقلال وحارب جهلا ليصل إلى وعي وأمان، والدليل خطبه وكتابات.

ج- **سعة الثقافة:** كان الشيخ "عبد الحميد بن باديس" عالما بالسياسة وبالتاريخ والدين، والشرائع لأن الخطيب حين يخاطب في الناس يعرض على الناس عقله ويعرض ما عنده من تجربة<sup>(1)</sup>.

وهذا ما يجب على الخطيب المحاجج وإلا انتقى تأثيره، وضعفت حججه لدى سامعيه ومقدار الثقافة يكون بحسب الجمهور المستمع، فهو الذي يحدد الثقافة التي تناسبه.

د- **معرفة نفسية السامعين:** نرى أن الشيخ "عبد الحميد بن باديس" في خطبته هذه، يعرف حالة سامعيه حق معرفة، وهذا ما جعلهم يهتفون ويرددون ما يطلبه منهم، كما سنرى، وهذا هو هدفه «أن يتغلغل في نفوس سامعيه، فيصرفها كما يشاء على إشارة عواطفهم وإشعال مشاعرهم»<sup>(2)</sup>، ويصحب هذا كله سرعة البديهة، جدارة العاطفة وجودة الإلقاء، ومهابة في الوقفة، مع حسن الإشارة، وجهاره الصوت وحلاوته وجمال في الهندام وسمو في الخلق<sup>(3)</sup>.

هذه عدّة الخطيب من جهة ما يلزمه هو، ليكون محاججا ناجحا، أمّا ما يلزمه من عدّة من جهة

الخطبة:

أ- **البصر بالحجة:** فعلى الخطيب أن يكون على قدر من العلم بسامعيه، ليضع الحجج والبراهين بقدره، وكلما كانت الحجة مناسبة، كانت مقنعة محققة للهدف، وتكون أكثر إقناعا حينما يحسن الخطيب «التدبير والتقاط المناسبة بين الحجة وسياق الاحتجاج في صورتها المثلى حتى يسد المتكلم السبيل على السامع، فلا يجد منفذا إلى استضعاف الحجة والخروج عن دائرة فعلها أو ربما نقضها بما يخالفها أو يباينها»<sup>(4)</sup>.

يتضح مما تقدم أن الحجاج في الخطبة إنما يقوم بمدى تبصر الخطيب بالحجة وإيرادها في سياقها.

ب- **ترتيب الأقسام:** وهي سياسة الحجاج فلا بد للخطيب أن يكون عارفا ما يبدأ به الخطبة وما يعرض فيها وبماذا يختم، وأن يضع المقدمات في أماكنها وتكون منتقاة لأنه مطالب بأن يستميل الجمهور ثم إقناعه. «المطالع والمقدمات مدعوة إلى استمالة الأعناق وحل السخائم وجلب ود السامع مع الزج

(1) ينظر، أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص: 18.

(2) نفسه، ص: 19.

(3) لمزيد من المعلومات حول عدّة الخطيب وصفاته ينظر، نفسه، ص: 10 إلى 35.

(4) حمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، فريق البحث في البلاغة والحجاج، ص: 14.

به في غمرة القضية»<sup>(1)</sup>. وهذا يأتي بعد انتقاء الحجج ورسم هيكل الحجاج داخل الخطبة، ثم يعتمد إلى الإخبار وهذا قسم يقع تحت سلطة المخاطب، وهو العلم بهذه الأخبار أو الجهل بها مع الاستمالة والإقناع وحشد الأدلة المناسبة لذلك الخبر.

«أما الخاتمة أو مخارج النص فإنها تلخص ما انتهى إليه الخطيب إلى تحريك الجمهور والفعل في عواطفه»<sup>(2)</sup>.

وقد يزيد المخاطب على هذه الأقسام ما يتطلبه حال السامع والمواقف الكلامية فعلى المخاطب أن يكون سريع البديهة في رد قول أو بيان أمر، هذه الأقسام التي تعد أقسام الحجاج في الخطبة يمكن عدّها:

- ✓ الظفر بالحجج وسياقها المناسب.
- ✓ الأخبار عرض القضية على الأدلة.
- ✓ حجاجية المطالع والمقدمات.
- ✓ خاتمة تحقيق هدف الحجاج.

ج- العبارة: بعد الاستعداد الخطابي، وبعد أن يحضر الخطيب الحجج المناسبة ويرتب أقسامه - وهذا ما يعطي أو يمنح للحجج تماسكا وبعدا حجاجيا، وبعد معرفة لحال السامعين - تأتي مرحلة البحث «عن اللفظ المناسب الذي به يخرج كل ما كان في الذهن والذاكرة إلى الوجود والفعل، وبالعبارة يتغير حكم الخطبة من اعتماد مستور لآراء وحجج وقضايا إلى وجود ظاهر، لا يمكن بدونه أن يحدث الالتقاء بين المتكلم والسامع، ولا يتيسر أن يبلغ الخطيب من المخاطب مأربه وأن يقضي عنده حاجته»<sup>(3)</sup>.

وواضح أن ما يجعل من العبارة القسم الأهم في بناء الحجاج ونجاحه داخل الخطبة هو التحامها واقترانها بالأقسام المرتبة وبالحجة المنتقاة والمقدمات والخاتمة. وكل جزء منها يقوم مقام الكل.

ربما جماع هذه العدة (الشخصية) والعدة (الخطابية) أهم عامل في الحجاج إذ باستعمال هذه العدة يتحقق الحجاج، «وإن ما يفوز في الخطاب الجيد هو الأسلوب، وليست الكلمات وبالأحرى إنه الأسلوب بالإضافة إلى الأفكار»<sup>(4)</sup>.

(1) حمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، فريق البحث في البلاغة والحجاج، ص: 15، 16.

(2) نفسه، ص: 16.

(3) نفسه، ص: 16، 17.

(4) دايل كارينجي، فن الخطابة، دار أسامة، دمشق - سوريا، 1999، ص: 73.

وبهذا يتبين أن الحجاج كامن في الخطبة وفي قائلها وفي جمهورها، فما مدى بصر الشيخ "عبد الحميد بن باديس" بالحجة؟ في هذه الخطبة، وكيف رتب أقسامه وما هي عباراته الحجاجية المعتمدة؟  
أردنا أن نبين من خلال الإجابة عن هذه التساؤلات مضمون الخطبة لنتقل بعد هذا إلى القياس والأدوات النحوية واللسانية.

إن الحديث عن الخطبة الباديسية، حديث عن الحياة الجزائرية والوجه الفرنسي فيها، ثم الجمعية (جمعية العلماء المسلمين)، ولهذا فإن الخطبة الباديسية وصورتها ومضامينها وجه من وجوه الحجاج، تلخص في المدافعة عن الأمة الجزائرية وديانة وهويتها وميزتها، ومنها يعرض أركان الجمعية ليلتفت حولها الناس ويدعمونها.

والخطب الباديسية فن قولي يدل عن أساليب حجاجية مقنعة دفاعا عن عقيدة، وهذا لا يكون من فراغ بل هناك هدف لا يغير خطوه بل تدعمه الشواهد والأدلة.

يبدأ الشيخ في خطبته بالحمدلة والصلاة والسلام على الرسول ﷺ وعلى آله وأصحابه التابعين، ثم يبدأ العرض بقوله: «أما بعد فحياكم الله أبناء العروبة والإسلام وأنصار العلم والفضيلة»<sup>(1)</sup>.

ثم يأخذ الشيخ بتفصيل القول السابق؛ الكيفية التي حوربت بها العروبة مع ذكر ردة فعل الجزائريين في إحياء العروبة، والأمر نفسه مع الإسلام، والعلم، والفضيلة حتى يقول: «فبحق قلت: حياكم الله أبناء العروبة والإسلام وأنصار العلم والفضيلة»<sup>(2)</sup>. بعد هذا يغير الشيخ الضمير (أنتم) بالضمير (نحن) بعد ذكر حرف الجواب "نعم" وأيها الإخوان، ويبين كيف نهضت الجزائر من جراء محاربة العروبة والإسلام والعلم والفضيلة، ليثبت أن هذه المقومات التي حاربت من أجلها هي نفسها أركان جمعية العلماء المسلمين، مع بيان موقفها من الحكومة ومن الأحزاب، وهذا في يوم الاجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين. وقد غير الشيخ اسمه بعيد نهضة المسلمين الجزائريين ليعيد لهم كلما سلب من عروبة وإسلام وعلم وفضيلة.  
أما في الخاتمة فقد ختم الشيخ خطبته بدعاء وآية قرآنية تحدم الموضوع المطروح والقضية المعالجة في الخطبة.

وفي هذا نرى بصر بالحجة من الشيخ "عبد الحميد بن باديس" فهو يعلم أن العروبة والإسلام والعلم والفضيلة مقومات شخصية، يمكن أن تنهض بالهمم الجزائرية نحو النهضة.

وقد رتب الشيخ أقسام خطبته إذ بدأ بالحمدلة ثم عرض أخبار قضيته فخاتمة.  
حيث عرض حججه (قرآن وسنة وشعر...) مناسبة لسياقها وبقدر سامعها وقد أتت عباراته مشحونة بالإقناع وهذا مثال لذلك في قوله: «نعم - أيها الإخوان - نهضنا بعد أن صهرتنا بنار الفتنة

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 555.

(2) نفسه، ص: 556.

والابتلاء حوادث الزمان، وقارعتنا وقارعناها الخطوب ودافعتنا ودافعناها الأيام، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين»<sup>(1)</sup>، وهذا المثال يعزز ما ذهبنا إليه لكن إن كانت الخطب الباديسية حجاجية فما هو المنهج الباديسي للحجاج في الخطبة؟ وما حظ القياس في الخطب الباديسية؟ وما هي مظاهر الحجاج في الخطب الباديسية؟.

### 3- صور الحجاج الباديسي:

#### أ- القياس:

إن للقياس بنية يمكن وصفها بأنها بنية حجاجية لكل خطاب أو لكل قول بغض النظر عن هذا القول حقيقة كان أم مجازا، ويقوم الخطاب على القياس الموظف فيه توظيفا حجاجيا، لأنه يربط بين شيئين على جملة من العناصر المشتركة. ويعد القياس صورة الحجاج من زاوية أنه آلية من آلياته، يمكن للمحاجج أن يجعله آلية منطقية، والذي يُظهر قوة القياس في الخطاب الحجاجي عند من يحسن استعماله تحقيق الإقناع، نظرا للمكانة التي يحتلها القياس بكل أنواعه في نجاعة الخطاب الحجاجي، بل هناك من يرجع حجاجية الخطاب لاعتماده على القياس، لأن المحاجج الذي يستعمل القياس لا ينفي الحكم بل يزيد إثباتا أو نفيًا على حسب الخطاب.

ويتألف القياس من مقدمتين: مقدمة كبرى ومقدمة صغرى ثم نتيجة، فالمقدمة الكبرى هي من المسلمات عند المتلقي، وتعتبر هي منطلق المحاجج وبإضافة الاستدلال نحصل على نتيجة القياس وهذا راجع لمقاصد المحاجج فقد يغير أو يقدم حسب ما يقتضيه المتلقي أو الخطاب، وتعد دراسة القياس صعبة من ناحية الكشف، ذلك لأنه يرتبط بالفاظ تبرزه ولهذا قد نغير بعض الجمل التي وردت في الخطبة مع الحفاظ بمعناها وهذا التمثيل.

وهدفنا من دراسة القياس في الخطبة الباديسية، هو اكتشاف صورة من صور الحجاج المبتوثة في النصوص ومنهج بن باديس في ذلك وسنذكر ثلاث أنواع من القياس:

#### 1- القياس الخطابي: وقد يأتي في عدة صور منها:

##### - التعارض والتضاد<sup>(2)</sup>: وسنكتفي بعرض صورة واحدة له فقط.

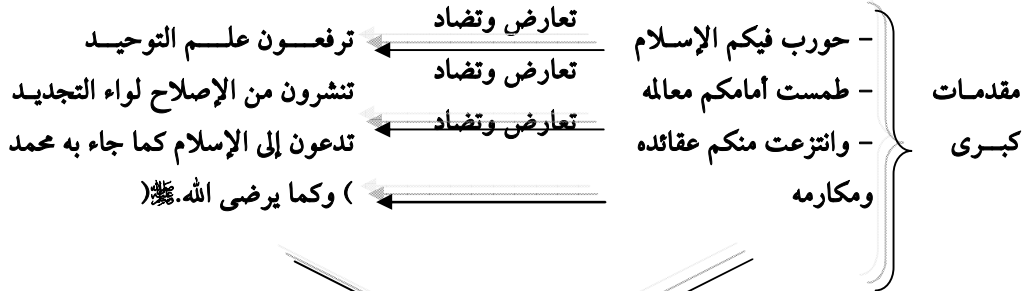
قال الشيخ عبد الحميد بن باديس: «حورب فيكم الإسلام حتى ظن أن قد طمست أمامكم معالمه وانتزعت منكم عقائده ومكارمه، فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد وتنشرون من الإصلاح لواء

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 556.

(2) لمزيد من المعلومات في أنواع القياس ينظر، محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجًا، دار إفريقيا للشرق، بيروت - لبنان، الطبعة 2، 2002، ص: 73.

التجديد، وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد ﷺ، وكما يرضى الله، لا كما حرفة الجاهلون وشوّهه الدجالون ورضييه أعداؤه<sup>(1)</sup>. وتخريج القياس من هذا القول:

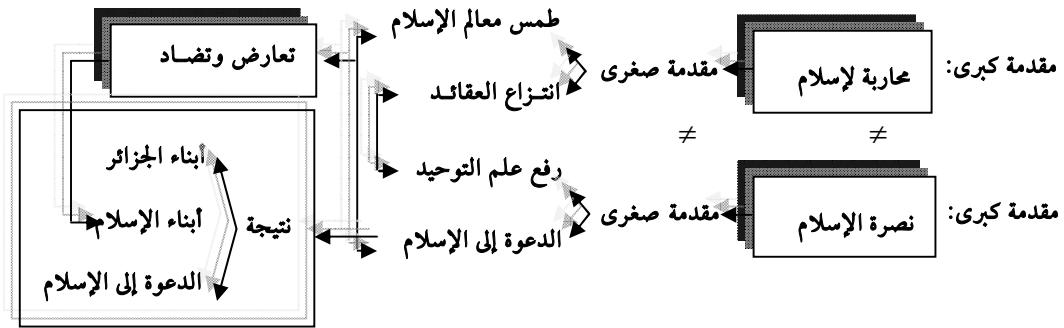
### مقدمات صغرى



النتيجة:

أبناء الإسلام (الجزائريين) لا يدعون إلى الإسلام  
كما حرفة الجاهلون وشوّهه الدجالون ورضييه أعداؤه

ويتضح شكل القياس:



(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 556.

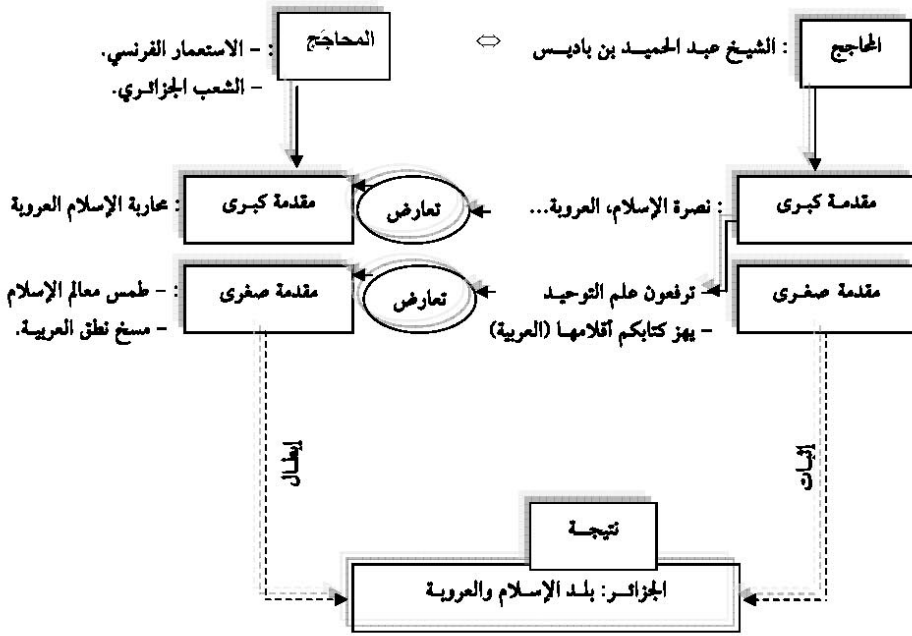


وهذا يوضح أن القياس الخطابي يقوم على تعارض المقدمات سواء الكبرى أو الصغرى، مع مقدمات تشكل تعارضا وتقابلا في المعنى، النتيجة تستنبط من هذا التعارض وقد يتألف القياس الخطابي من مقدمتين كبيرتين العلاقة بينهما علاقة تعارض وتضاد، إذ تفرع من كل مقدمة كبرى مقدمات صغرى تكون أيضا متعارضة مع المقدمات الصغرى للمقدمة الكبرى الثانية، وهذا التعارض القائم بين المقدمات الكبرى والصغرى يقودنا إلى النتيجة، يمكن تصور القياس الخطابي في شكله (التعارض والتضاد) ممثلا فيما ذهب إليه الشيخ "عبد الحميد بن باديس" عند حديثه عن: العروبة والإسلام والعلم والفضيلة: ومثال ذلك قوله: «حورب فيكم العلم حتى ظن [...] فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شاخا وتشيدون له صرحا شاخا»<sup>(1)</sup>.

والأمر نفسه ينطبق في حديثه عن العروبة والفضيلة.

نخلص إلى أن التعارض بين المقدمات الكبرى والصغرى في الموضوع الواحد هو الذي يقيم النتيجة، ومن خلال ما سبق يمكن أن نقابل بين مكونات القياس ومكونات الحجج من حيث شكل الحجج فهو يتكون من مقدمة + حجج = نتيجة أما القياس مقدمة كبرى + مقدمة صغرى = النتيجة، وبناء على القياس الخطابي في علاقة التعارض والتضاد يمكن أن نبين المحاجج والمجاجج. وفقا للشكل الآتي:

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 556.



وكان القياس الخطابي يجسد الخطاب بين اثنين؛ هدف الأول إبطال دعوى الآخر إذ تقابل المقدمات الكبرى كلام المحاجج والمقدمات الصغرى تمثل حججه فالنتيجة تمثل المقدمات الكبرى المعارضة قول المحاجج المنكر المعاند والمقدمات الصغرى تمثل حججه.

قد يكون القياس الخطابي آلية حجاجية يسعى فيها الخطيب إلى دفع التهم وإثبات البراءة، كما دفع الشيخ التهم الموجهة للجزائر (مسخ اللغة، وطمس معالم الدين...) وهذا ما يبين قيمة الشخصية الباديسية في بعدها الحجاجي.

## 2- القياس المنطقي:

هذا النوع من القياس هو الأكثر استعمالاً، ذلك لأن الخطاب هدفها التأثير على النفس البشرية إما بالتغيير في السلوك أو المعتقد أو الترغيب أو التهيب، وإما لأهداف أخرى. ومن أمثلة القياس المنطقي والذي شكله:

- مقدمة كبرى
- مقدمة صغرى
- نتيجة

ويمثل القياس المنطقي الحجاج في أبسط صورة، ومن صور هذا القياس ما أورده الشيخ "عبد الحميد بن باديس" في خطبته عند قوله: «العروبة والإسلام والعلم والفضيلة، هذه أركان نهضتنا، وأركان جمعية العلماء المسلمين [...] ولن تزل كذلك بإذن الله ثم بإخلاص العاملين»<sup>(1)</sup>. يظهر شكل القياس كالآتي:

- المقدمة كبرى ← العروبة والإسلام والعلم والفضيلة هذه أركان نهضتنا.
- المقدمة صغرى ← هذه أركان جمعية العلماء المسلمين
- النتيجة ← التي هي مبعث حياتنا ورمز نهضتنا... تفقهن في الدين وتعلمن اللغة العربية وتنيرن بالعلم وتحلين بالأخلاق الإسلامية..

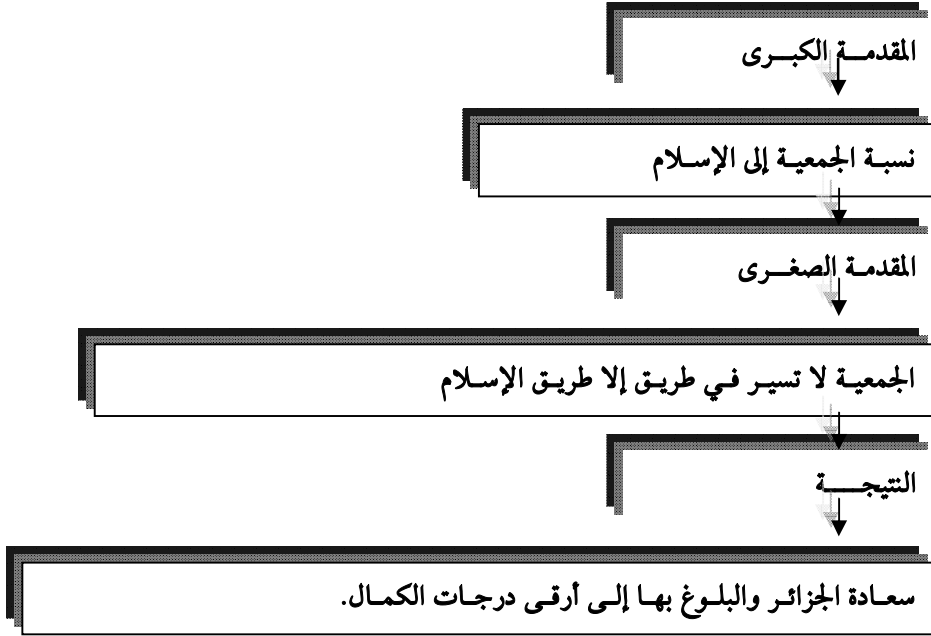
وعند قوله: «إن الإسلام عقد اجتماعي عام فيه جميع ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي الحياة لسعادته ورقيه، وقد دلت تجارب الحياة كثيراً من علماء الأمم المتمدنة على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على ميادين الإسلام»<sup>(2)</sup>. وشكل القياس منه كالآتي:

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 558.

(2) نفسه، ص: 559.

- ← مقدمة كبرى
  - ← مقدمة صغرى
  - ← نتيجة
  - ←
- الإسلام عقد اجتماعي عام فيه جميع ما يحتاج إليه الإنسان.  
 - سعادته ورقيه.  
 - لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام.

وفي قوله: «فليس للجمعية إذا من نسبة إلا إلى الإسلام، وبالإسلام وحده تبقى سائرة في طرق سعادة الجزائر والبلوغ بها إن شاء الله إلى أرقى درجات الكمال»<sup>(1)</sup>. وتخرّيج القياس من هذا:



وعلى اعتبار لزوم المقدمة الصغرى فإنه يستلزم نسبة الجمعية الإسلام، وهذا يستلزم سعادة الجزائر لأن الإسلام هو الطريق الوحيد للسعادة الإنسانية.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 559.

### 3- القياس المضمر:

وفي هذا النوع من القياس تحذف المقدمة الكبرى، بحيث تستنبط من النتيجة والمقدمة الصغرى، وبالإستعانة من الكلام الذي يسبق أو تكشف من طبيعة الموضوع، ويكون شكله كالاتي:

- مقدمة كبرى ← محذوفة.
- مقدمة صغرى ← مذكورة.
- نتيجة ← مذكورة.

ومن أمثلة القياس المضمر الواردة في خطبة الشيخ عبد الحميد بن باديس:  
قوله: «أما بعد: فحياكم الله أبناء العروبة والإسلام وأنصار العلم والفضيلة [...] فبحق قلت: حياكم الله أبناء العروبة والإسلام وأنصار العلم والفضيلة»<sup>(1)</sup>.  
يتحدد القياس المضمر في هذا القول على النحو الآتي:

مقدمة كبرى (محذوفة) - {الجزائر المستعمرة الفرنسية لا تحقق الاستقلال إلا بالرجوع للإسلام والعروبة والفضيلة والعلم}

مقدمة صغرى مذكورة ← - الجهاد بالإسلام والعروبة والعلم والفضيلة والامثال بهذه المقومات.  
نتيجة مذكورة ← - الاستقلال يأتي من أبناء العروبة والإسلام وأنصار العلم والفضيلة.

وحين يقول: «وكذلك عرفت الأمم من تاريخها، لا تنهض إلا على صوت علمائها فهو الذي [...] ويرفع الأمم إلى التقدم في جميع النواحي»<sup>(2)</sup>.  
ونلمح شكل القياس المضمر هنا على هذا الشكل:

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 555. 556.

(2) نفسه، ص: 557.

مقدمة (محدوفة): - ( من أسباب التقدم والنهضة تاريخ الأمم وصوت علمائها)

مقدمة صغرى ← - لا تنهض الأمم إلا على صوت علمائها.  
(مذكورة)  
نتيجة (مذكورة) ← - يجل الأفكار من عقلها ويبعث المهم من مراقدها ويرفع بالأمم إلى  
التقدم من جميع النواحي.

ومن هذا التمثيل لأنواع القياس، تجدر الإشارة إلى أن حذف المقدمة الكبرى شرط من شروط القياس المضمر، وأنها تكون ماثورة في المقدمة الصغرى أو النتيجة ويمكن استنباطها باعتبارهما، وهذا ما يجعل المستمع يلجأ إلى تقدير المقدمة الكبرى وبالتالي إشراكه في القضية، لتكون الحجة على هذه المقدمة الصغرى المذكورة.

فلقياس صورة من صور الحجاج وآلية من آلياته الإقناعية، التي تجعل المتلقي ينقاد إلى النتائج بشكل يقيني لأن منطلقات القياس يقينية ممثلة في المقدمات الكبرى.  
وغاية القياس إلقاء المتلقي في القضية المعلنة للزج به في صدق النتائج إذ ما يوفره القياس من إمكانات وحجج (مقدمة صغرى) ونتائج تجعل المتلقي يقتنع بنفسه حينما يتوصل بنفسه إلى نتائج القياس المعتمد.

#### 4- الوسائل النحوية الحجاجية:

ويمثل النحو الجانب اللغوي وهذا للصبغة الحجاجية التي تحملها الروابط اللغوية منها: لكن، إن، حتى، أما... .

وهذه تشكل أدوات نحوية حجاجية تساهم في تشكيل الوحدات الحجاجية، وانطلاقاً من خلال وظيفتها النحوية (المعنى النحوي) تؤدي هذه الأدوات وظيفة حجاجية من خلال تأدية وظيفة دلالية تداولية في خطاب معين ووحدة حجاجية محددة. «وهذه اللغة التي نتخذها...» أداة طيعة للتفاهم ونسخها ذلولاً للإبانة عن أغراضنا والكشف عما في نفوسنا، إنه النحو الذي يعد سلاح اللغوي وعماد البلاغي»<sup>(1)</sup>.

(1) ينظر، عباس حسن، النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة، الجزء 1، دار المعارف بمصر، الطبعة 3، ص: 01، 02.

ولقد كان على علماء اللغة وبخاصة في الدرس الحجاجي أن ينظروا إلى النحو وأدواته، في التركيب اللغوي باعتباره طريقا للوصول إلى البنية أو الدلالة الحجاجية ذلك بأن الأدوات النحوية أو الروابط اللغوية في صورتها المركبة تفرض على الخطاب أن يتحلل إلى أصغر مكوناته وعناصره، حتى يمكن الوصول إلى الخصائص الحجاجية لهذه الأدوات والروابط النحوية.

ونسعى في هذا الجزء إلى بيان الحجاج في النحو من خلال الكشف عن وظائف الأدوات النحوية الحجاجية ومعانيها النحوية ومنها:

أ- إن: حرف مشبه بالفعل، يدخل على الجملة الاسمية فينصب المبتدأ اسما له ويرفع الخبر خبرا له، ومن معانيها: «التوكيد وهو الأصل فيها ويدور معها حيث وردت»<sup>(1)</sup>.

كقول الشيخ عبد الحميد بن باديس: «إنّ الإسلام عقد اجتماعي عام فيه جميع ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي الحياة»<sup>(2)</sup>.

فهي تنسب للجملة التي بعدها حكما بالإثبات والتوكيد أو حكما بالنفي كقوله: «إن الجمعية لا توالي حزبا من الأحزاب ولا تعادي حزبا منها وإنما تنصر الحق والعدل والخير»<sup>(3)</sup>.

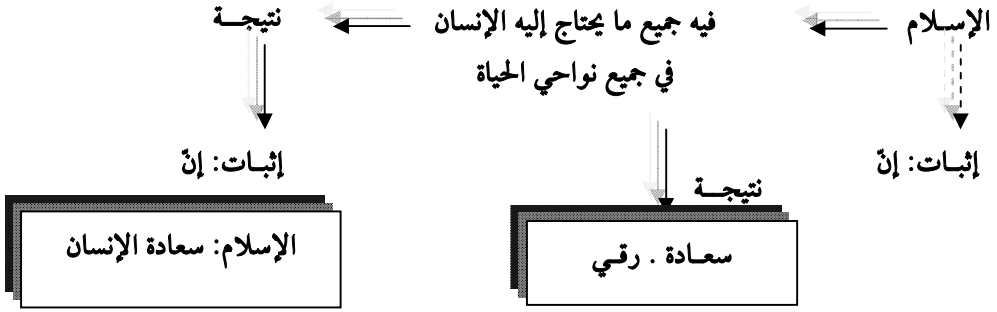
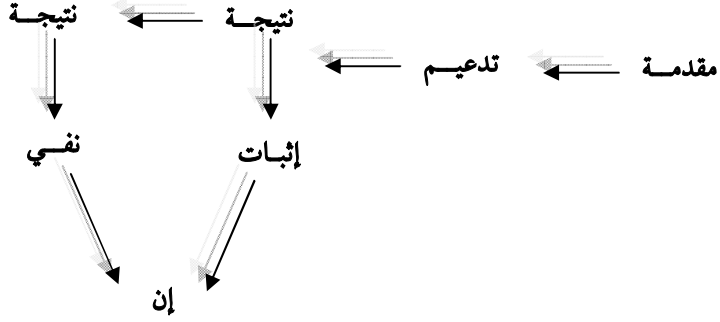
ولهذا نجد (إنّ) في الحجاج تستعمل كمؤكد للمقدمات وتجعلها أكثر يقينية وهذا لإثبات النتيجة وجعلها أكثر إقناعا في ذهن المتلقي.

(1) فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، الجزء 1، شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، درب الأتراك ص: 261.

(2) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 559.

(3) نفسه، ص: 559.

ويمكن أن نوضح الحجاج باستعمال «إن» في قول الشيخ «ابن باديس» السابق:



إن الإسلام عقد اجتماعي عام [...] لسعادته ورقية<sup>(1)</sup>.

يأتي دور «إن» الحجاجي من أجل إثبات أو نفي أو حكم على شيء، من أجل رسم شيء أو نتيجة بحجة أقوى لغويا في ذهن المتلقي، فالحجاج عندما يقدم تدعيمه ومقوماته باستعمال «إن» فإنه يجعل المتلقي ينقاد نحو النتيجة مع التصديق.

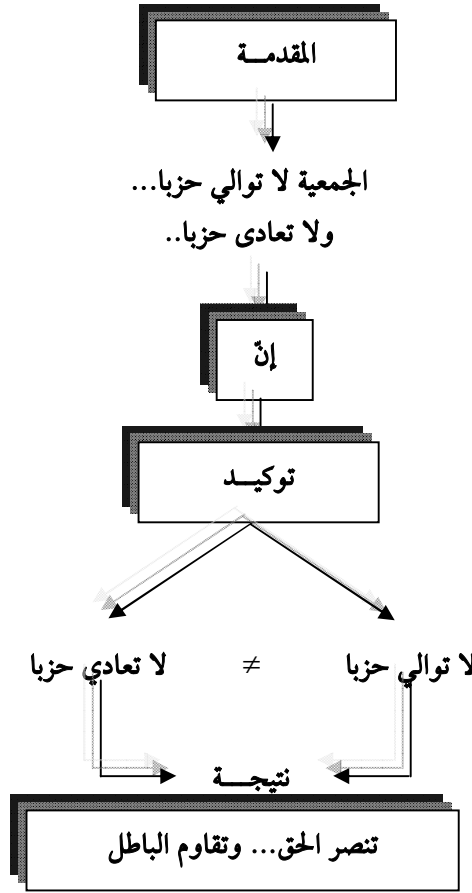
أما في القول الثاني للشيخ: «إن الجمعية لا توالي حزبا من الأحزاب ولا تعادي منها، وإنما تنصر الحق والعدل [...] وتقاوم الباطل والظلم والشر من أي جهة أتى»<sup>(2)</sup>.

فيظهر دور الأداة «إن» من خلال هذا الشكل:

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 559.

(2) نفسه، ص: 559.





وعليه فإن الأداة "إن" تقدم إثباتا وتأكيد لقضيتين، لتكون النتيجة مناقضة أو محايدة عنهما، يؤكد بها المحاجج قضية يراد بها نفيها أو إثباتها على مقتضى حال المتلقي ومناسبة الخطاب.

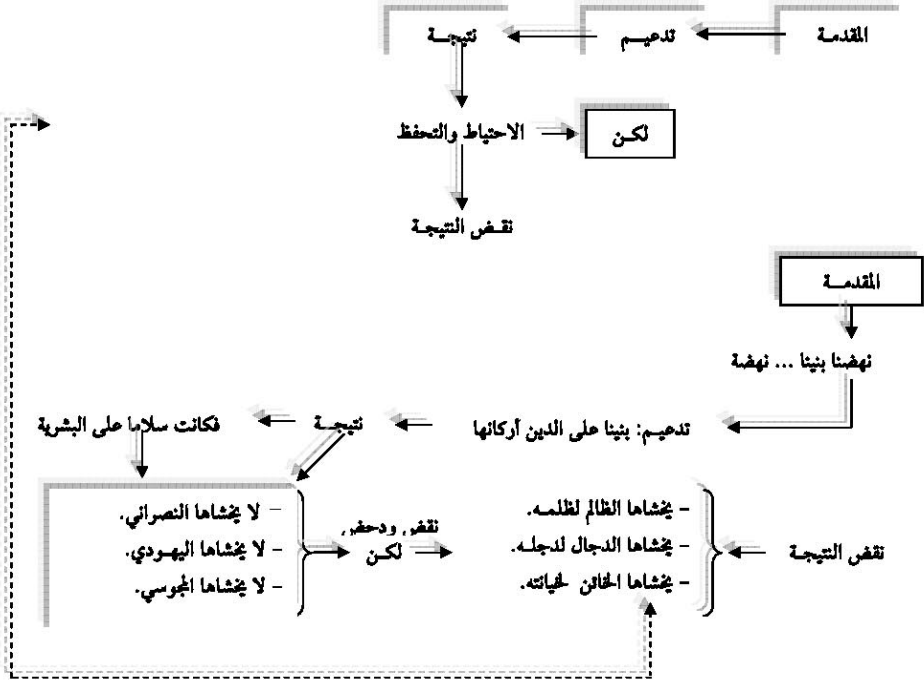
ب- لكن: من أخوات "إن"، وأشهر إفادة تفيدها "لكن" الاستدراك وفي هذه الإفادة تكمن حجاجيتها إذ الاستدراك هو: «تعقيب الكلام برفع ما يتوهم ثبوته أو نفيه»<sup>(1)</sup>. وتأتي "لكن" بحكم يكون عكس الحكم الذي سبقها، «أما إذا لم يخالف ما بعد حكم ما قبلها فتكون للتوكيد»<sup>(2)</sup>.

ومن هنا نرى حجاجية "لكن" إذ تكمن في أن المحاجج يستدرك الكلام الذي سبق لإثبات خلافه وهذا إضراب عن الحكم الأول، ليؤدي هذا إلى نتيجة مناقضة للنتيجة الأولى ويمكن التمثيل لذلك من قول الشيخ "عبد الحميد بن باديس": «لا يخشاها - والله - النصراني لنصرانيته ولا اليهودي

(1) ينظر، فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، الجزء 1، ص: 281.

(2) نفسه، ص: 282.

ليهوديته ولا المجوسي لجوسيته ولكن يجب والله أن يحشاه الظالم لظلمه والدجال لدجله والخائن  
لخيانته»<sup>(1)</sup>.



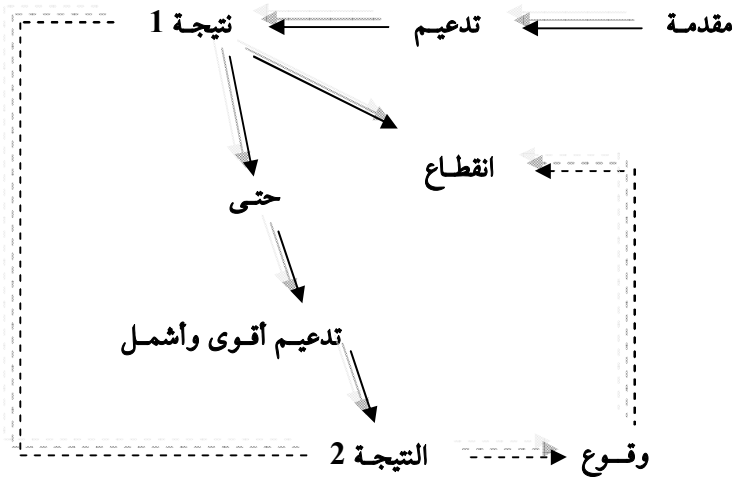
ج- حتى: تكمن حجاجية: "حتى" في إفادتها: انتهاء الغاية و«الدلالة على أن ما قبلها علة وسبب فيما بعدها وهي: حرف جر أصلي»<sup>(2)</sup>.  
واستعمال "حتى" في الحجاج يقوم بتقديم حجج للنتيجة التي بعدها تكون أقوى وأشمل من النتيجة الأولى، كما تعتبر النتيجة الأولى سبباً للنتيجة الثانية.  
إذ يتحدد الحجاج أكثر باستعمال "حتى" إذا كانت غائية وقع ما بعدها وتحقق معناها، توقف المعنى الذي قبلها وانقطع، وتكون "حتى" أكثر حجاجية حين يقتضي انقطاع ما قبل "حتى" وانتهائه بمجرد وقوع ما بعدها وحصوله<sup>(3)</sup>.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس، حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 558.

(2) ينظر، عباس حسن، النحو الوافي، الجزء 2، ص: 482.

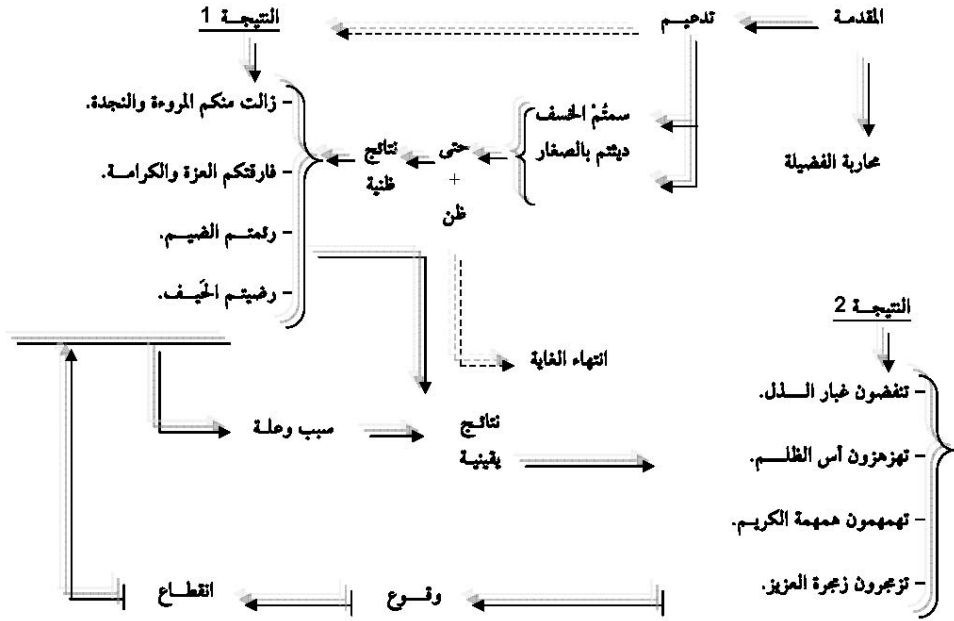
(3) ينظر، نفسه، ص: 483.

وهذا معناه أن "حتى" تبطل النتيجة الأولى وتحقق النتيجة الثانية التي تكون سببا في النتيجة الأولى وهذا شكل الحجاج باستعمال "حتى".



ومن الأمثلة الواردة في الخطبة قول الشيخ "عبد الحميد بن باديس": «وهوربت فيكم الفضيلة [...] حتى ظن أن قد زالت منكم المروءة [...] فجئتم بعد قرن تنفضون غبار الذل»<sup>(1)</sup>.  
 تتمثل المقدمة في محاربة الفضيلة في الشعب الجزائري والتدعيم ممثلا في الأوصاف، والنتيجة في زوال المروءة ومفارقة العزة، والذي أدى بانتهاء الغاية هو الأداة "حتى" مع الفعل "ظن" فقد أفادت مع الفعل "ظن" عدم صدق النتائج لتأتي النتائج الثانية والتي هي نتاج لمحاربة الفضيلة في الجزائر، وهذا مخطط يبين ذلك:

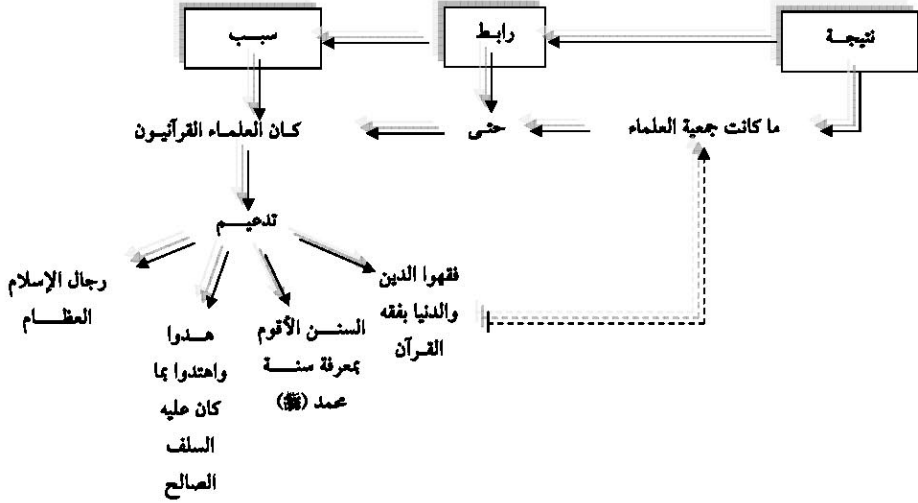
(1) عمار الطالبي، ابن باديس، حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 558.



وقوله: «وما كانت جمعية العلماء حتى كان العلماء القرآنيون الذين فقهوا الدين والدنيا»<sup>(1)</sup>. وهنا نرى أن النتيجة هي الأولى والسبب مؤخر وقد ذكر بعد «حتى»، ويكون شكل الحجاج: نتيجة ← حتى (رابط) ← سبب ← تدعيم

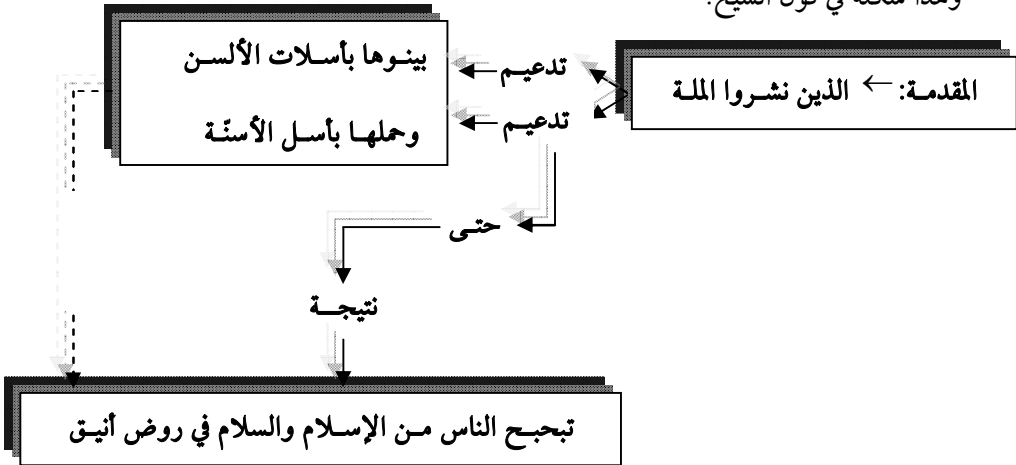
(1) عمار الطالبي، ابن باديس، حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 557، 558.

والتمثيل بهذا الشكل حسب قول الشيخ:



وقوله: «الذين نشروا الملة فينبوها بأسلات الألسن وحملها بأسل الأستة حتى تبحيح الناس من الإسلام والسلام في روض أنيق»<sup>(1)</sup> ويظهر شكل الحجاج من هذا:

وهذا شكله في قول الشيخ:



(1) ابن باديس، حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 555.

د- **المفعول المطلق**: وهو «مصدر يذكر بعد فعل من لفظة تأكيدا لمعناه أو بيانا لنوعه أو عدده»<sup>(1)</sup> وقد يكون مفعولا مطلقا بدون فعل.

وتكمن حجاجية المفعول المطلق والحجاج به انطلاقا من العلاقة التي يقيمها وفعله ثم وظيفته التي تتقاطع ومقاصد المحاجج المؤكد، المبين وهذا بالنظر إلى أنواعه، ويتحدد شكل الحجاج من هذا كالاتي:



ومن الأمثلة التي وردت في خطبة الشيخ "عبد الحميد بن باديس": قوله: «حوريت فيكم الفضيلة [...] فجئتم بعد قرن تنفضون غبار الذل وتهززون أسس الظلم، وتهمهمون هممة الكريم المحتق وتزجرون زجرة العزيز المهان وتطالبون مطالباً من يعرف له حقا لا بد أن يعطاه أو يأخذه»<sup>(2)</sup>.

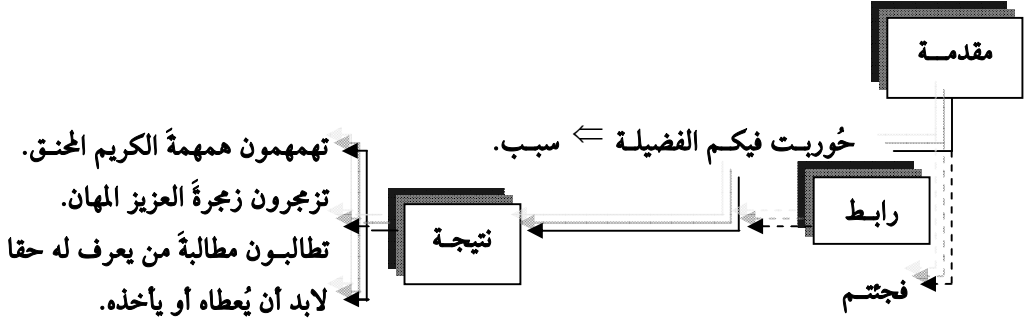
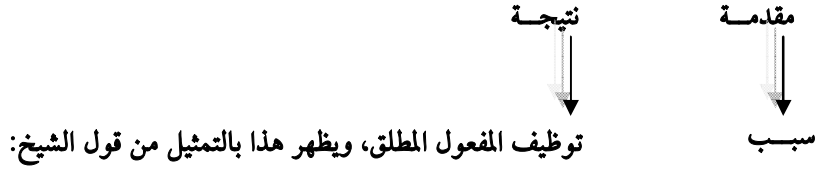
نلاحظ أن الشيخ "عبد الحميد بن باديس" اعتمد المفعول المطلق في هذه الفقرة لأن الفضيلة آخر عنصر تحدث عنه الشيخ بعد محاربة العروبة والإسلام والعلم.

ولحجاجية المفعول المطلق ووظيفته فقد استعمل ووظف في معاني: الكرامة العزة، مطالبة الحق... وهذا لبعث الهمة وروح الجهاد في الشعب الجزائري بعدما حوربت فيه المقومات العروبة والإسلام والعلم والفضيلة.

ويأتي المفعول المطلق في قول الشيخ مبينا لتأنيج وسببها هو محاربة الفضيلة، إذ يتحدد شكل الحجاج بتوظيف المفعول المطلق كالاتي:

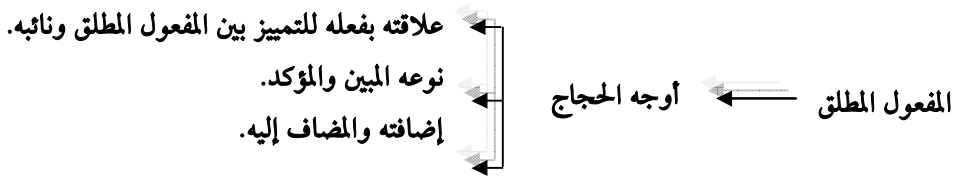
(1) جرجي شاهين عطية، سلم اللسان في الصرف والنحو والبيان، دار ريجاني، بيروت، الطبعة 4، ص: 259.

(2) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وأثاره، الجزء 3، ص: 556.

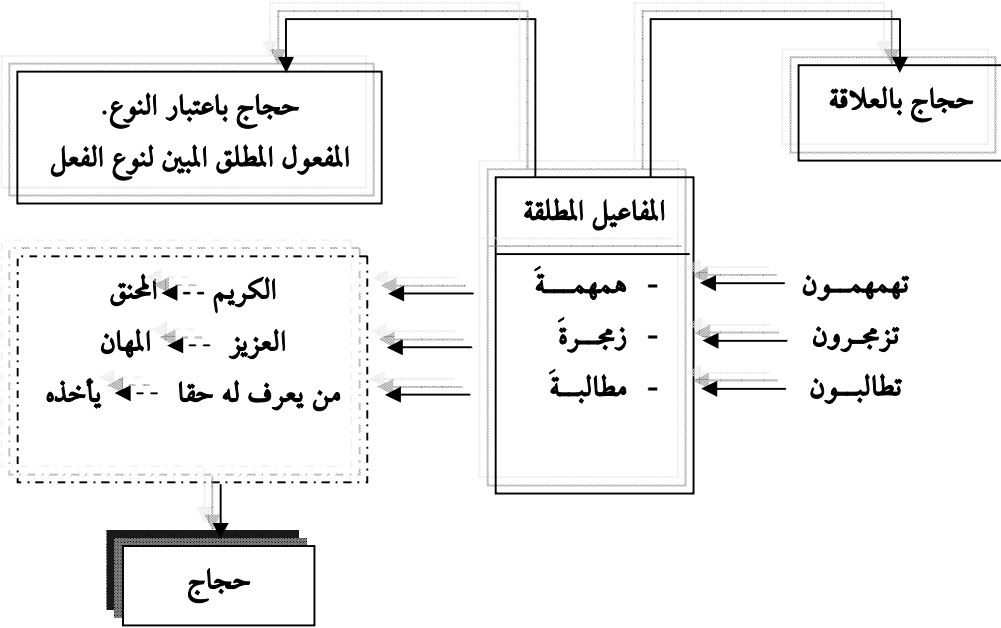


كل أنواع المفعول المطلق لها حججيتها بحسب مقتضى النوع، وكل المفاعيل المطلقة التي لدينا في قول الشيخ مبيّنة للنوع فالزجرة زجرة العزيز، والهمهمة هممة الكريم والمطالبة مطالبة العارف، والوجه الحجاجي الآخر للمفعول المطلق هو إضافته إلى تلك الأسماء العزيز المهان، الكريم المحنق، العارف حقه، وهذا الذي بين نوعه.

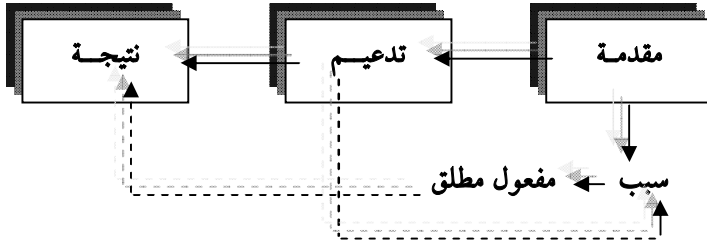
تكمّن حجاجة المفعول المطلق في توظيفه، ومن علاقته بفعله، ومن اعتبار نوعه، ومن كونه مضافا وهذا بيان ذلك:



وهذا الشكل يبين ذلك من خلال قول الشيخ السابق:



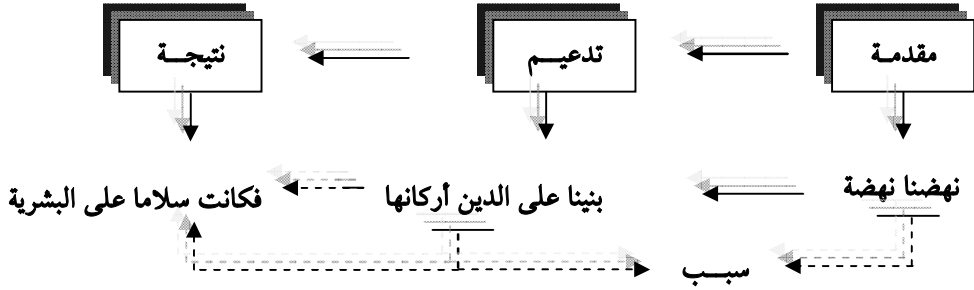
رأينا المفعول المطلق من خلال خطبة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" يأتي في صورة نتائج لسبب، وقد يأتي المفعول المطلق سببا للنتيجة بعد تدعيم وهذا شكله:





وهذا ما ورد في قول الشيخ "عبد الحميد بن باديس": «نعم نهضنا نهضةً بنينا على الدين أركانها فكانت سلاماً على البشرية»<sup>(1)</sup>.

وبيان شكل الحجاج بالمفعول المطلق هنا هو كالآتي:



وبهذا نخلص إلى أن المفعول المطلق يشكل توظيفه دلالة حجاجية ووظيفة إقناعية ويمكن الاصطلاح على هذا الحجاج النحوي (حجاج الكلمة) بحجاجية المصادر.

هـ- القصر: يعتبر القصر آلية حجاجية نظراً لأدواته التي توظف توظيفا حجاجيا وبتنوع أدوات القصر يتنوع الحجاج، ثم بالنظر إلى تركيبة جملة القصر والمقصور، والمقصور عليه، تجدد القصر يُوجه إلى أنواع من المخاطب: المخاطب المتردد، المخالف المنكر، والمخاطب الجاهل. والقصر هو: «تخصيص شيء أو تخصيص أمر بآخر بطريقة مخصوصة»<sup>(2)</sup>.

ويكون القصر بأدوات دون غيرها ومنها: إنما، النفي والاستثناء. وسنمثل للقصر بهذه الأدوات: - إنما: تكمن حجاجية «إنما» في أنها: «تأتي إثباتا لما يذكر بعدها، ونفيا لما سواه»<sup>(3)</sup>. ويظهر شكل الحجاج باستعمال «إنما» على هذا النحو:

مقدمة → نفي ← إنما ← إثبات ← نتيجة

وهذا ما ورد في قول الشيخ "عبد الحميد بن باديس": «إن الجمعية لا توالي حزبا من الأحزاب ولا تعادي حزبا منها، وإنما تنصر الحق والخير من أي ناحية وتقاوم الباطل والظلم والشر من أي جهة أتى»<sup>(4)</sup>.

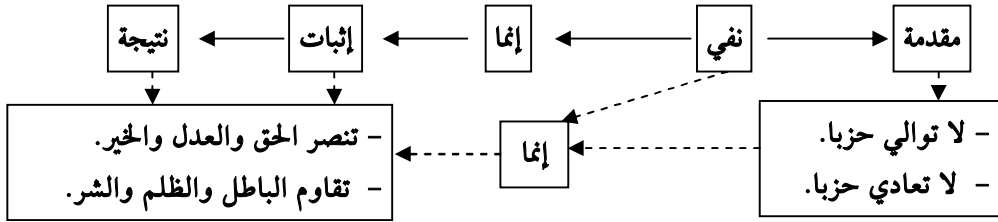
(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 557.

(2) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، لبنان، 1984، ص: 159.

(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق، محمود محمد شاكر، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة 5، 2005، ص: 328.

(4) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 559.

فقد نفت **إئماً** الكلام الذي أتى قبلها وهو ممثل في مقدمة وأثبتت الكلام الذي بعدها الممثل في النتيجة، والنفي يكون عاما ليس بشرط المقدمة المذكورة وهو أن الجمعية (جمعية علماء المسلمين الجزائريين) لا تنصر إلا الحق والخير، وما سوى هذا الكلام فهو منفي، وهذا المثل شكل الحجاج منه هو كالآتي:



«واعلم أنها تفيد في الكلام بعدها إيجاب الفعل لشيء، ونفيه عن غيره»<sup>(1)</sup>.

فقول الشيخ عبد الحميد بن باديس: **إئما** تنصر الحق وتقاوم الباطل نفهم من هذا أن الشيخ أراد أن ينفي أن تكون النصره لغير الحق والمقاومة لغير الباطل من الجمعية، وهنا يوجه الخطاب لمن يعتقد أن الجمعية توالي حزبا أو تعادي آخرا.

- **النفي والاستثناء (لا - إلا):** وهذا القصر باستخدام أداة النفي: **لا** و**إلا** الاستثنائية، ويتشكل وجه الحجاج من النفي والاستثناء بنفي النتائج التي تذكر أولا ويكون الكلام بعد **إلا** على شكل حجاج، وقد استعمل الشيخ عبد الحميد بن باديس القصر في مواضعه ونراه قد أدى وظيفة حجاجية حيث تجعل المتلقي ينفذ نحو الحكم الذي تصدره **إلا**، وهذا ما يزيد من نفي وعدم تصديق النتائج المذكورة قبلها، وعمل **إلا** الاستثناء، وعمل **لا** النفي هذا ما يجعل ما تثبته **إلا** أكثر إقناعا وأقرب تصديقا من ذهن المتلقي.

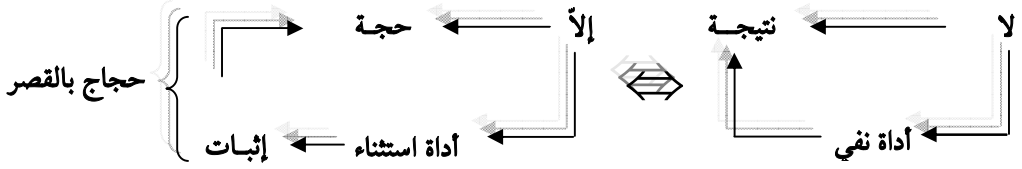
إذن النفي باستعمال **لا**، يزيد في إثبات الكلام الذي يرد بعد **إلا** والإثبات باستعمال **إلا** يزيد في نفي النتيجة التي ترد بعد **لا** أداة النفي. وهذا حجاج في وجه نحوي يجسده القصر.

ومن أمثله الواردة في الخطبة قوله: «لا نجاه للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام»<sup>(2)</sup>.

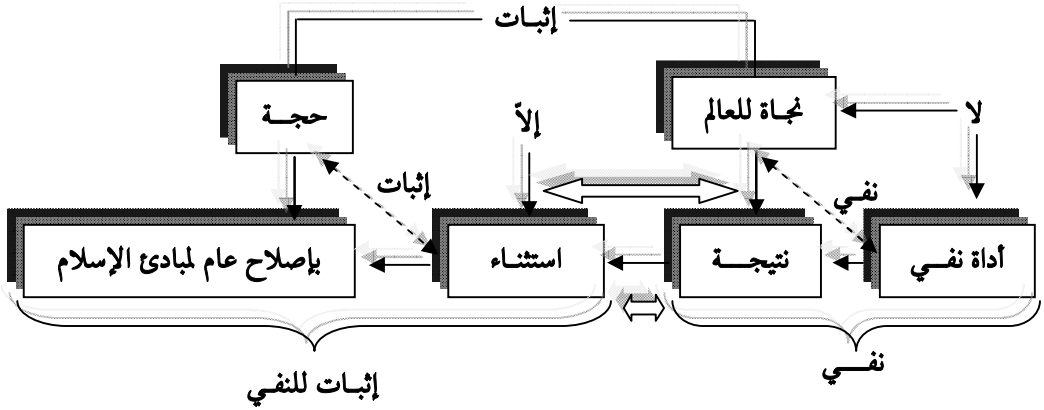
فنرى أن الكلام الذي ورد منفيًا بأداة النفي **لا** يمثل نتيجة مقدمة وهي: "فساد العالم" وهذا ما يزيد في إثبات الكلام الذي ورد بعد **إلا** وهو ممثل في حجة نجاه العالم وهي إصلاح عام لمبادئ الإسلام ويظهر هذا الحجاج على المخطط الآتي:

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 335.

(2) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 559.



وتمثيله في قول الشيخ:



وفي قوله: «وكذلك عرفت الأمم من تاريخها لا تنهض إلا على صوت علمائها»<sup>(1)</sup>.

فقدّمت النتيجة أولاً والمتمثلة في كون الأمم تُعرف من تاريخها وصوت العلم، لتكون الحجة والدليل على نهضة الأمم هو صوت العلماء.

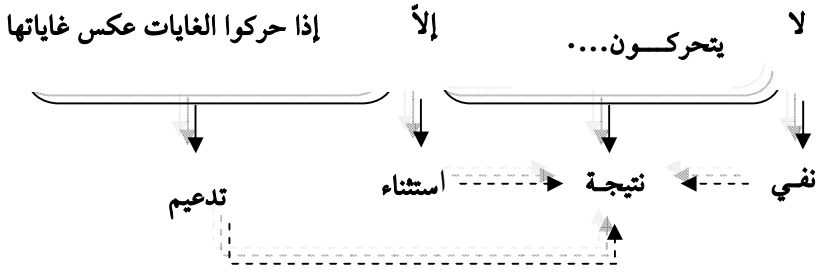
وكذلك قوله: «تعمل جمع الكلمة وتوحيد الوجهة ولا تنبذ إلا أولئك الرؤوس رؤوس الباطل والضللال»<sup>(2)</sup>.

والنتيجة من هذا هو أن الجمعية (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) وظيفتها الجمع والتوحيد لتأتي الحجة وهي محاربة رؤوس الباطل والضللال ويتبع الشيخ عبد الحميد بن باديس هذا القصر، بقصر آخر: «رؤوس الباطل والضللال الذين لا تجدهم الأمة في أيام محتتها إلا بلاء عليها ولا يتحركون إلا إذا حركوا الغايات عكس غاياتها»<sup>(3)</sup>.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 558.

(2) نفسه، ص: 559، 560.

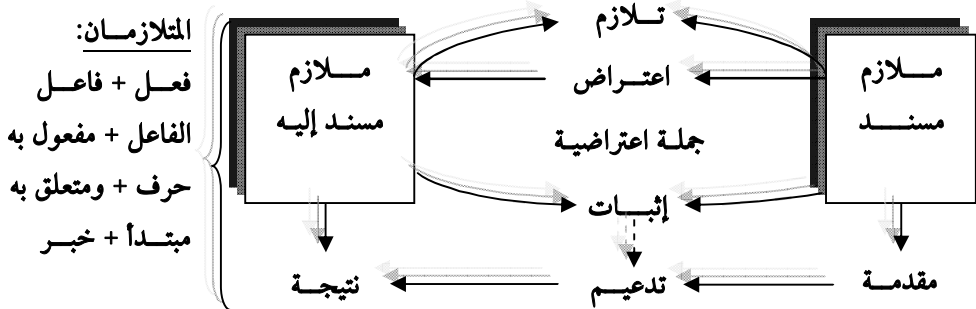
(3) نفسه، ص: 560.



تحدد حجاجية القصر في دخول النتائج في "حيز النفسي" وأنها لا تتحقق إلا بعد ذكر الاستثناء بحيث يجعل النتائج محققة وإدخالها في حيز الإثبات بتقديم الحجة والدليل، وهذا ما يوجب الإثبات كله والخروج من النفسي، وهذا كله حجاج وتأثير لا يجعل المتلقي يراجع ما تلقاه بل يمضي به إلى حيز الإقناع والتصديق.

و- **الجملة الاعتراضية:** ويكمن الحجاج بالجملة الاعتراضية في ذلك الاعتراض الذي تقيمه هذه الجملة بين متلازمين، ويظهر هذا بالنظر إلى التركيب وهو: «التركيب الإسنادي وهو ما دل على نسبة تامة بين الجزئين وأركانه الأسماء والأفعال دون الحروف»<sup>(1)</sup>.

فإذا عمد المتكلم إلى وضع كلام يعارض ويفصل بين جزئين متلازمين، فالكلام الذي فصل به المتلازمين يمثل جملة اعتراضية، إذن تتحدد حجاجية الجملة الاعتراضية أكثر حين ما نعرف أن «الجملة ما تضمن إسناداً من المركبات كالمبتدأ والخبر والفعل والفاعل»<sup>(2)</sup>. وعليه فالجملة الاعتراضية هي الجمل التي ليس لها محل من الإعراب تأتي لتفصل المسند عن المسند إليه أو بين لفظ ومتعلق به أو بين متلازمين والجملة «المعترضة هي الفاصلة بين المتلازمين»<sup>(3)</sup>، والذي يُكوّن الحجاج في هذه الجملة هو علاقة التلازم. ويتشكل الحجاج بالجملة الاعتراضية كالآتي:



(1) ناصيف اليازجي، كتاب فصل الخطاب في أصول لغة الأعراب، المطبعة الأمبركانية، بيروت، سنة 1913، ص: 133.

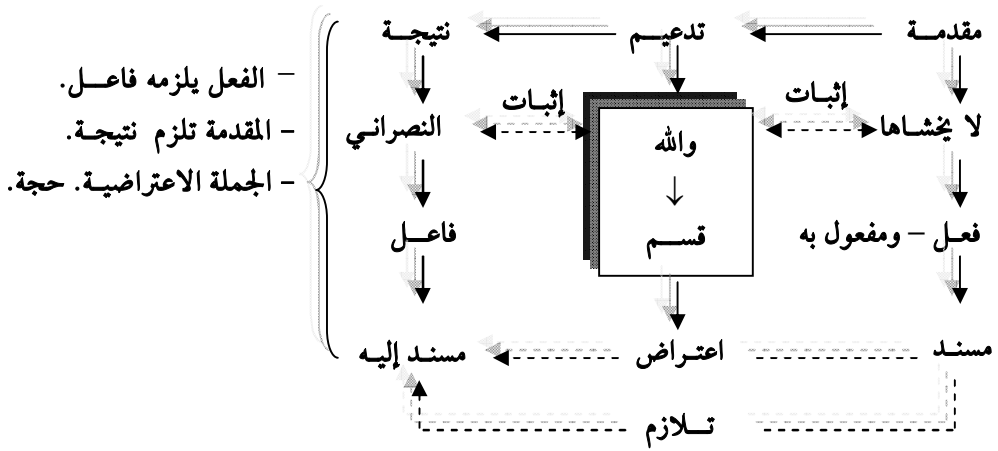
(2) نفسه، ص: 248.

(3) جرجي شاهين عطية، سلم اللسان في الصرف والنحو والبيان، ص: 396.

وشكل الحجاج باستخدام الجملة الاعتراضية تحكمه العلاقة القائمة بين المفصل بينهما، وقد ظهرت الجملة الاعتراضية الحجاجية في خطبة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" ومنها:  
 قوله: «لا يَحْشَاهَا - والله - النصراني»<sup>(1)</sup>.

- يَحْشَاهَا: فعل: يَحْشَى + مفعول به (ها) يعود على أركان الجمعية.
- (والله): جملة اعتراضية (جملة قسم).
- النصراني: فاعل.

وعليه يتحدد شكل الحجاج في المخطط الآتي:



نخلص إلى أن الجملة الاعتراضية قد استعملت كحجة وتمثلت في جملة قسم (والله)، وأثبتت أن أركان الجمعية كانت سلاماً على البشرية لعدم خوف النصراني من أركانها، وقوله: «هذه - أيها الإخوان - نهضتنا أركانها وأسبابها واضحة للعيان»<sup>(2)</sup>.

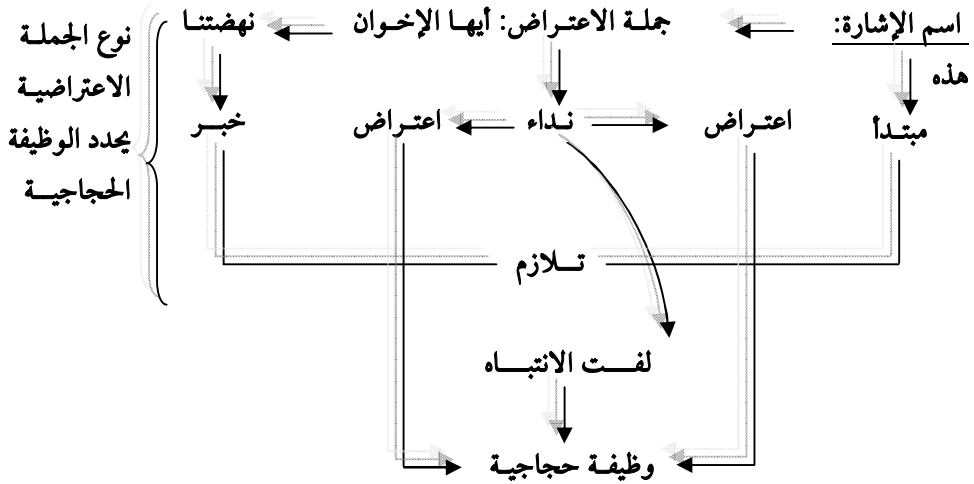
- هذه: مبتدأ (اسم إشارة).
- (أيها الإخوان): جملة اعتراضية (نداء).
- نهضة: خبر + نا: مضاف إليه.

فالمبتدأ المتمثل في اسم الإشارة "هذه" يلزمه خبر، وقد اعترض بينهما جملة اعتراضية ممثلة في "النداء: أيها الإخوان" وخبره: نهضة.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 558.

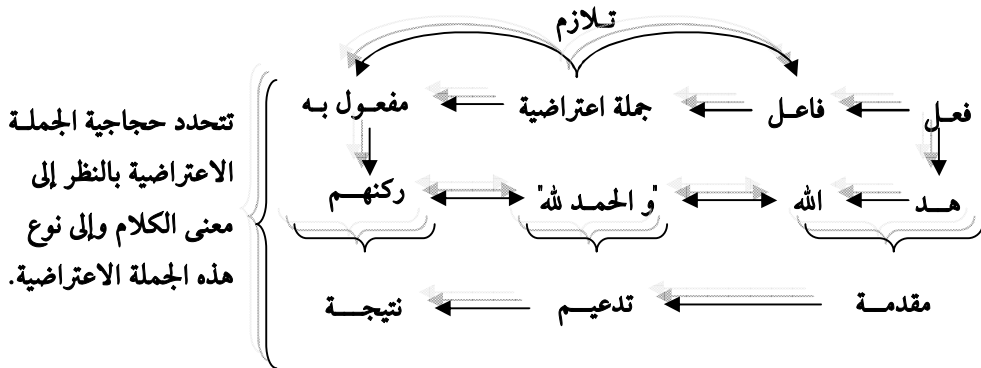
(2) نفسه، ص: 558.

إذن يكون الحجاج بالجملة الاعتراضية واضحا إذا حددنا نوعها فمثلا هنا: جاءت جملة نداء والوظيفة منها لفت الانتباه وهي وظيفة حجاجية أتت مجسدة بجملة اعتراضية.



وقوله أيضا: «فرقوا المسلمين بددا وصيروهم قددا، وقد هدّ الله - والحمد لله - ركنهم المنهار وفضح أمرهم في رابعة النهار»<sup>(1)</sup>.

فالفاعل لفظ الجلالة (الله) متعلق بمفعول به وقد فصل بينه وبين ملازمه جملة اعتراضية وهي "والحمد لله"، وبالنظر إلى المعنى فالشيخ يحمّد الله بعد أن هدّ رؤوس الضلال والباطل.



(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 560.

فجملة الحمد لله ملائمة لمعنى "هدّ الله رؤوس الباطل والضلال"، وقد تأتي الجملة الاعتراضية جملة دعاء إذا كان معنى الكلام يتطلب ذلك ومنها قوله: «أبناءنا الذين سيقولون- إن شاء الله- فينا مثلما قلنا في أسلافنا»<sup>(1)</sup>.

فهذا الدعاء إن شاء الله يمثل جملة اعتراضية والفعل "سيقولون" متعلق بما بعدها فيناً والتقدير: "سيقولون فيناً".

توظف الجملة الاعتراضية توظيفاً حجاجياً بالنظر إلى نوعها: نداء، قسم، دعاء، حمد... ويتجلى ذلك بالنظر إلى المعنى الإجمالي للكلام وإلى الاعتراض الذي تقيمه. وبالنظر أيضاً إلى علاقة التلازم بين التلازمين المفصول بينهما، ثم إن الاعتراض الذي تقيمه الجملة الاعتراضية تجعل المتلقي مشاركاً في الخطاب وهذا بلغت انتباهه، أو بالقسم له، أو بالدعاء أو بالحمد...

هذه الأدوات النحوية من جانبها اللغوي متداولة ومن جانب معناها النحوي وتوظيفها حجاجية في تراكيبها يقصدها المتكلم دون غيرها وبهذا يتحدد الوجه النحوي للحجاج، وعليه قد تحدد الوجه النحوي للحجاج الباديسي وفق بيان حجاجية الأدوات الآتية: إن، لكن، حتى، المفعول المطلق، القصر (إنما ولا النافية والاستثناء)، والجملة الاعتراضية.

وغیرها ممن لهم وظائف حجاجية مثل: معاني حروف الجر وحروف العطف واسم الإشارة والأسماء الموصولة.

وتتطلب هذه الأدوات بحثاً مستقلاً بنفسه يكشف فيه الباحث عن كل الأدوات النحوية: حروف، أسماء، جمل التي لها علاقة أو وظيفة حجاجية. ومن الوجه النحوي للحجاج يتوجب علينا بيان الوجه اللساني للحجاج بمعنى ما هي الوسائل اللسانية التي يعتمد عليها المحاجج؟ بصفة عامة والتي اعتمدها الشيخ عبد الحميد بن باديس بصفة خاصة، في هذه الخطبة.

## 5- الوسائل اللسانية:

إن الهدف الأساسي الذي يسعى إليه المحاجج هو إقناع المتلقي واستمالاته وتكون هذه الاستمالة وذاك الإقناع بواسطة اللغة لأن من وظائفها التواصل، وهذا الأخير يُكون حجاجاً، إذ تعتبر اللغة الوسيلة الأنجع في التأثير على المتلقي (المحاجج) وبغية في تغيير سلوكاته ومعتقداته، وهذا التأثير تلزمه وسائل لسانية يعتمد المحاجج لاستعمالها وفق سياق معين يضمن إقناع المتلقي.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 558.

هذه الميزة الحجاجية للغة التي تشترك فيها والسياق، تجسد البنية العامة للحجاج، وبهذا يكون الحقل الذي ينتمي إليه الحجاج لسانيا لأن الوسائل اللسانية تشكل وجه الحجاج اللساني والتي تُوظف لغاية حجاجية، وسنفصل فيما يلي من البحث الوسائل اللسانية التي تم توظيفها في خطبة الشيخ عبد الحميد بن باديس.

وسنقتصر على الوسائل التي وظفت أكثر وهي: التكرار، التضام، الإحالة والازدواج، وبيان حجاجية هذه الوسائل من حيث أدوارها ومن حيث أغراضها.

أ- التكرار: وسيلة حجاجية وهو ظاهرة تتميز بها اللغة العربية وهو ظاهرة لسانية يساهم في تماسك النص ويظهر هذا على مستوى الشكل والمعنى؛ فهو يتحقق في تكرار الحروف، والكلمات والجمل... ومنه تتحقق حجاجيته إذا أحسن المحاجج توظيفه وهذا ما يؤكد بلاغة التكرار إذ يكمن دوره الحجاجي في تأكيد وترسيخ قصد المحاجج في ذهن المتلقي.

ومن هذا نعرض أهم أنواع التكرار الواردة في خطبة الشيخ عبد الحميد بن باديس ومنه الإجابة عن عدة أسئلة هي:

- هل يوجد في أنواع التكرار اللساني وتوظيفه ما يوحي بدوره في الحجاج؟
- ما هي الغاية من التكرار؟

يحقق التكرار بأنماطه المختلفة وظيفة حجاجية تؤكد أن التكرار يساهم في إقناع المتلقي ومن هذه الأنواع:

\* التكرار الكامل: ويمكن تسميته بالتكرار التام وله علاقة بالشكل إذ يتكرر اللفظ بنفسه وعليه تكرار المعنى، ويحدث هذا في الألفاظ، كما يحدث في الجمل. وتكرار اللفظ يقوم مقامه الضمير لأنه عائد عليه، كما يشترط في هذا النوع قصد المحاجج، لأنه قد يقع التكرار دون قصد. ومن الأمثلة الواردة في خطبة الشيخ التكرار التام في لفظة "الإسلام" إذ تكررت ثلاث عشرة مرة على مستوى الخطبة وتكررت خمس مرات على مستوى فقرة واحدة وهذا في قوله: «إن الإسلام عقد اجتماعي [...] والبلوغ بها إلى [...] درجات الكمال»<sup>(1)</sup>.

في حين نجد لفظة "عروبة" تكررت خمس مرات وتكررت لفظة "العلم" تسع مرات ولفظة "الفضيلة" ست مرات. ومنه يكون ربط معاني الخطبة بتكرار لفظة "الإسلام" مع تكرار ألفاظ العروبة، العلم والفضيلة لتشكيل هذه الألفاظ محور الخطبة وهي نفسها أركان الجمعية التي يسعى الشيخ من خلال هذه الخطبة إلى

(1) عمار الطالبي، ابن باديس، حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 559.



إثباتها، فيذهب التكرار مذهب الحجاج لإقناع المتلقي والدليل على ذلك تكررت هذه الألفاظ على مستوى  
جمل وهذا عند قوله:

- «أما بعد فحياكم الله أبناء العروبة والإسلام وأنصار العلم والفضيلة»<sup>(1)</sup>.
- «فأسستم على قواعد الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة جمعيتكم»<sup>(2)</sup>.
- «حياكم الله أبناء العروبة والإسلام وأنصار العلم والفضيلة»<sup>(3)</sup>.
- «لعروبة والإسلام والعلم والفضيلة هذه أركان نهضتنا»<sup>(4)</sup>.

هذه أربع جمل تكررت فيها الألفاظ السابقة والتي تكررت تكرارا تاما وفي هذا إقناع للمتلقي  
فالألفاظ المكررة (العروبة، الإسلام، العلم والفضيلة) لها علاقة بالجمل المكررة المذكورة سابقا وعليه تنبني  
الخطبة بمعاني هذه الألفاظ وبمعاني جملها من حيث الدلالة، والذي يؤكد حجاجية تكرار هذه الألفاظ في  
نفسها أو في جمل هو ما يرتبط معها من الألفاظ الأخرى المكررة تكرارا دلاليا حجاجيا في معناها ومثال ذلك  
تكرار لفظة "حورب" ويتكرر حجاجيا مع كل لفظة من الألفاظ السابقة وهذا عند قوله الشيخ "عبد الحميد بن  
باديس" وهو يعرض لمحاربة كل من: الإسلام والعروبة، العلم، الفضيلة، وهذا رسم يبين ذلك:

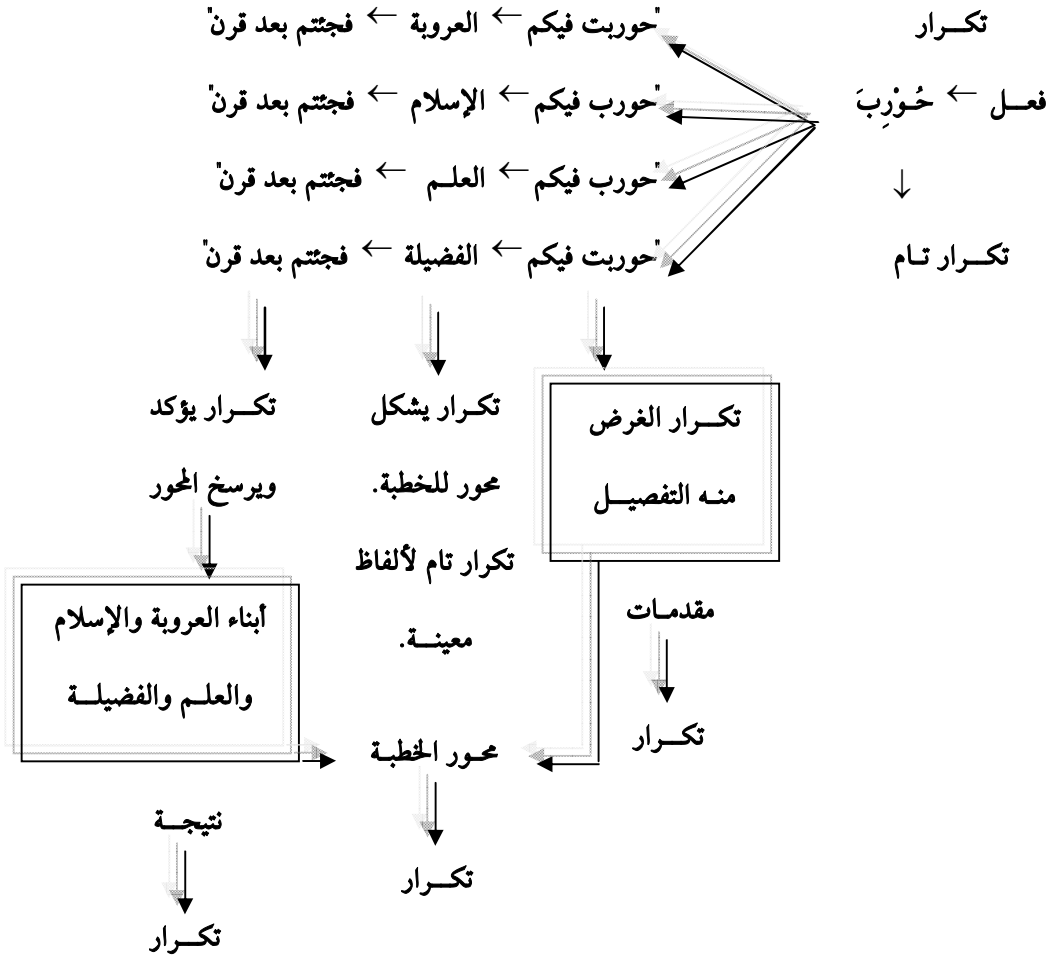
---

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 555.

(2) نفسه، ص: 556.

(3) نفسه، ص: 556.

(4) نفسه، ص: 557.



نخلص إلى أن التكرار يأتي لغرض التفصيل ولغرض بناء محور الخطبة، أو النص، وأنه يُكون نتيجة؛ لأنه فن بلاغي عمدي يجعله المحاجج وسيلة لإقناع المتلقي، والغاية منه ترسيخ المعنى وتأكيدُه في ذهن المتلقي، واستمالاته بتكرار اللفظ ومعناه، وتكراره داخل جمل، بالإضافة إلى هذا النوع الذي يوحي بدور التكرار اللساني في الحجاج أنواعا منها:

\* **التكرار الاشتقائي:** ويمكن تسميته بالتكرار الجزئي، ويقوم هذا النوع بتكرار كامل للفظ والمعنى وإن تغير المعنى بين اللفظتين في دلالة الجمل المتصلة بهما، وأن اللفظة مكررة إذا اشتقت منها لفظة من أصلها ومن جذرها اللغوي، لكن تتغير الدلالة عند الاستعمال، ويظهر هذا النوع في: الفعل ومشتقاته والاسم ودلالاته، والفعل ومصدره: كالمفعول المطلق.

- وقد ظهر هذا النوع بكثرة في خطبة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" وأمثله:
- (النصراني - نصرانيته، اليهودي - يهوديته، المجوسي - مجوسيته، الظالم - لظلمه، الدجال - دجلة، الخائن - خيانتة)، وهذا في قوله: «نهضنا نهضة [...] والخائن لخيانته»<sup>(1)</sup>.
  - (الإسلام، المسلمين، الإسلامية) وهذا في قوله: «العروبة والإسلام [...] ثم بإخلاص العالمين»<sup>(2)</sup>.
  - (تهمهمون همهمة، تزجرون زجرة، تطالبون مطالبة)، وهذا في قوله: «تهمهمون همهمة الكريم المحقق وتزجرون زجرة العزيز المهان وتطالبون مطالبة من يعرف له حقا لا بد أن يُعطاه أو يأخذه»<sup>(3)</sup>.
  - (يكيدون، كيد)، في قوله: «ويكيدون له كل كيد»<sup>(4)</sup>.
  - (المسلم، الإسلام)، في قوله: «فالمسلم الفقيه في الإسلام»<sup>(5)</sup>.
  - (مذهب، مذاهب)، في قوله: «مذهب من مذاهب الحياة»<sup>(6)</sup>.

والتكرار بهذا الشكل يدل على أن خطبة الشيخ حجاجية في تماسكها النصي، فهو يفضي إلى ربط معاني وتأكيد آخر، حيث تتعدد وتكرر الكلمة والجذر واحد، فتؤدي وظيفتين:

- ربط المعاني والمساهمة في التماسك النصي، والتأكيد والترسيخ.
- تكثيف الحجج للدلالة على المعاني المقصودة بصور يقينية.

\* **التكرار بالمرادف:** وهو تكرار المعنى واللفظ مختلف، وهذا التكرار يتعلق بالدلالة، ويبنى على مكونات لغوية مترادفة أو مشتركة في جزء من المعنى<sup>(7)</sup>، حيث يكون الترادف بين مفردتين داخل جملة أو عبارة.

وما يسوغ حجاجية هذا النوع من التكرار هو تزويد النص بمعان أخرى في جمع المعاني المشتركة وبثها في ذهن المتلقي، ليفهم المعنى العام للنص لأن هذا التكرار يساهم في تثبيت معنى ألفاظ مختلفة ومتعددة، فترى المحاجج ينجح إلى هذه الوسيلة اللسانية لتكون وسيلة حجاجية تقنع وتؤثر وتستميل.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ص: 557.

(2) نفسه، ص: 557.

(3) نفسه، ص: 556.

(4) نفسه، ص: 557.

(5) نفسه، ص: 559.

(6) نفسه، ص: 559.

(7) ينظر، محمد العبد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، خريف 2002، العدد 60، ص: 66.

- وقد ورد هذا التكرار في خطبة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" بشكل مكثف نذكر منه:
- (مات - مُسَخِّ) في قوله: «مات منكم عرقها ومُسَخِّ فيكم نُطْقُهَا»<sup>(1)</sup>.
  - (المروءة = النجدة)، (العزة = الكرامة) في قوله: «حتى ظن أن قد زالت منكم المروءة والنجدة وفارقتكم العزة والكرامة»<sup>(2)</sup>.
  - (الفتنة = الابتلاء) في قوله: «نهضنا بعد أن صهرتنا بنار الفتنة والابتلاء حوادث الزمان»<sup>(3)</sup>.
  - (متنا= اقبرنا)، (أحيينا= بُعِثْنَا) في قوله: «نعم نهضنا بعد قرن بعدما متنا وأقبرنا، أحيينا وبعثنا سنة كونية»<sup>(4)</sup>.
  - (الحق = العدل = الخير) في قوله: «إنما تنصر الحق والعدل والخير»<sup>(5)</sup>.
  - (الباطل = الظلم = الشر) في قوله: «وتقاوم الباطل والظلم والشر»<sup>(6)</sup>.
  - (المطالبة = الاحتجاج، الصد = الإعراض) في قوله: «المطالبة والاحتجاج من ناحية [...] والصد والإعراض»<sup>(7)</sup>.

توجد أنواع أخرى من التكرار: كالشبيه بالمرادف، والتوازي... وغيرها.  
 وكل أنواع التكرار وبخاصة: الكامل، الاشتقائي، المرادف، حجاجية في توظيفها إقناعية في غايتها؛ إذ يسعى المحاجج في استمالة المتلقي والتأثير فيه باستعمال التكرار في مقاطع حجاجية، وتصبح الكلمة المكررة كلمة حجاجية يقصدها المحاجج لتحقيق الهدف في المتلقي.  
 ونورد هنا مثالا يحمل أنواع التكرار الثلاثة، ورد في خطبة الشيخ عبد الحميد بن باديس" قوله:  
 «العروبة والإسلام والعلم والفضيلة، هذه أركان نهضتنا، وأركان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي هي مبعث حياتنا ورمز نهضتنا، فمازالت هذه الجمعية منذ كانت تفقهنا في الدين وتعلمنا اللغة وتبصرنا بالعلم وتحلينا بالأخلاق الإسلامية العالية وتحفظ جنسيتنا وقوميتنا وتربطنا بوطينتنا الإسلامية الصادقة، ولن تزل كذلك بإذن الله ثم بإخلاص العاملين»<sup>(8)</sup>.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس، حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 555.

(2) نفسه، ص: 556.

(3) نفسه، ص: 556.

(4) نفسه، ص: 556.

(5) نفسه، ص: 559.

(6) نفسه، ص: 559.

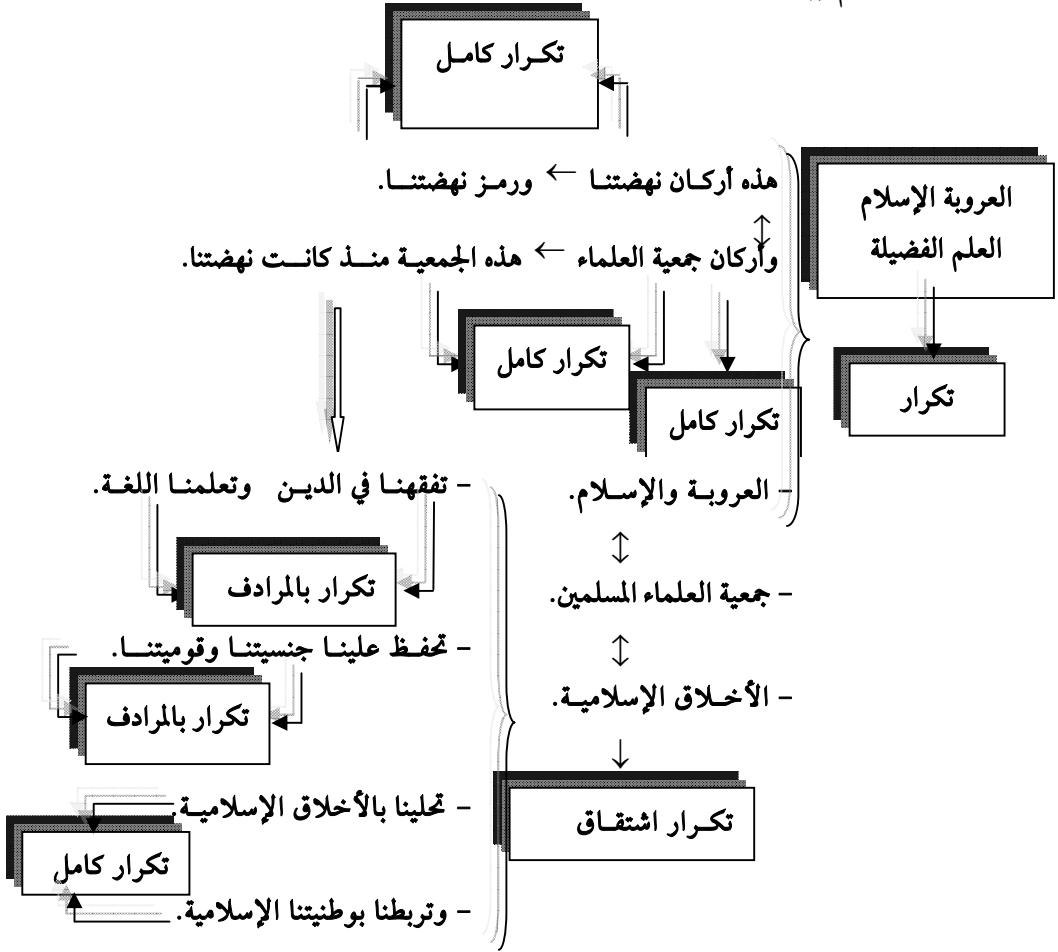
(7) نفسه، ص: 558.

(8) نفسه، ص: 557.

تظهر أنواع التكرار كالاتي: على مستوى الفقرة:

- تكرار كامل: (أركان- أركان)، (الجمعية- جمعية)، (الإسلامية- الإسلامية).
- تكرار اشتقائي: (الإسلام- المسلمين- الإسلامية).
- تكرار بالمرادف: (تفقهنا- تعلمنا)، (جنسيتنا- قوميتنا).

وهذا رسم يبين ذلك:



1- إنَّ ما يمكن استخلاصه في حجاجية التكرار بأنواعه في خطبة الشيخ عبد الحميد بن باديس: تركيز الشيخ على تكثيف المعاني وهذا بتوظيف التكرار بالمرادف ليجعل المعاني تحيط بالمتلقي من كل جانب، ومنها إقناعه.

2- وظيفة التكرار تسهم في تحقيق التماسك النصي ومنه يصنع الحجاج داخل مقاطع حجاجية، فإن الفائدة من التكرار تكمن في مناسبة هذه الوسيلة اللسانية، والحجاج إذ الغرض منه الإقناع والاستمالة، وهذا ما اعتمده الشيخ.

3- لم يقف الشيخ "عبد الحميد بن باديس" على تحقيق الإقناع والحجاج في خطبته بل ربط بهذا التكرار بين محور الخطبة وذهن المتلقي، ولتحقيق هذا عبر علاقة التكرار في بناء محور الخطبة وكذلك انتشار الألفاظ المكررة في فقرات الخطبة.

وبهذا التحليل والتطبيق للتكرار الوسيلة اللسانية الحجاجية، نؤكد أن التكرار بأنواعه، قد شارك في إقناع المتلقي وأن وظيفته حجاجية في كونه: يؤكد، يرسخ، يثير، وهذه كلها وظائف حجاجية يحققها التكرار.

#### ب- التضام:

ويعد التضام من وسائل الحجاج اللسانية يزيد في تماسكه وبنائه داخل النص، والتضام هو: «توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة نظرا لارتباطهما بحكم هذه العلاقة أو تلك»<sup>(1)</sup>، وهذه العلاقات التي يقيمها التضام ثلاث: التضاد، التنافر، علاقة الجزء بالكل، وسنقتصر على العلاقة الأولى وهي التضاد، ويكون توظيفه أكثر حجاجية وإقناعا وتأثيرا على نفسية المتلقي إذا كان حادا غير متدرج والتضاد الحاد قريب من النقيض.

وتتحدد أنواع أخرى من التضاد بالنظر إلى علاقة اللفظ وضده وفيما يناقضه، إذ يعتمد المحاجج إلى توظيف النوع الذي يراه يحدث التأثير ويحقق الإقناع، ويجذب انتباهه (المتلقي)، وتقريب المقصود بهذه الوسيلة وهي التضام وعلاقته التضاد.

والجدير بالذكر أن معظم كتابات وخطب ونصوص الشيخ عبد الحميد بن باديس قائمة على هذه الوسيلة الحجاجية، فيصبح التضاد طبيعة في خطب المحاجج نظرا لوظيفته الحجاجية، والشيخ "عبد الحميد بن باديس" متميز في اختيار لغته، فهي لغة حجاجية وهذه الوسيلة (التضام- التضاد) ساهمت في ذلك من حيث قوة المعنى والدلالة، ونورد أمثلة من خطبته:

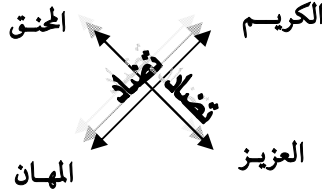
- قوله: «نعم نهضنا بعد قرن بعدما متنا وأقبرنا أحيينا وبعثنا سنة كونية فقهنهاها من القرآن ونعمة ربانية تلقيناها من الملك الديان»<sup>(2)</sup>.

(1) محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 25.

(2) عمار الطالبي، ابن باديس، حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 556، 557.

متنا ← تضاد ← أحيينا  
 أقرنا من تضاد ← بعثنا  
 تضاد حاد

- قوله: «تهمهمون همهمة الكريم المحنت وتزجرون زجرة العزيز المهان»<sup>(1)</sup>.



- قوله: «إنما تنصر الحق والعدل والخير من أي ناحية كان، وتقاوم الباطل والظلم والشر من أي جهة أتى»<sup>(2)</sup>.

تضاد حاد  
 غير متدرج

- الحق ← تضاد → الباطل.  
 - العدل ← تضاد → الظلم.  
 - الخير ← تضاد → الشر.

النمط الظاهر للتضاد هو المقابلة بين جمل وفيها يتحقق التضاد أو المقابلة بين مفردات. لكن توجد مقابلة أخرى تحقق التضاد وتنتقل من معنى قوى إلى معنى أقوى، هو التقابل بين وحدة دلالية ووحدة دلالية أخرى.

وهذا جلي في خطبة الشيخ "عبد الحميد بن باديس"، فالخطبة الباديسية هذه تعكس طبيعة الاستعمار الفرنسي وما يجاربه من مقومات: الإسلام، العروبة، العلم والفضيلة. ونرى هذه المقومات التي حُوربت مجسدة في وحدات دلالية وفي معاني قوية، ليقابلها الشيخ بوحدات دلالية أخرى، بينها وبين الأولى علاقة تضاد إذ تشكل الوحدات الثانية معاني أقوى، فيقابل الشيخ مثلا: محاربة العروبة في وحدة دلالية مع ردة فعل الجزائريين في وحدة دلالية أخرى لوظيفة حجاجية، هي إقناع الجزائريين بالجهاد وبعث الهمم، ومن ثم إثبات تلك المقومات بأنها أركان للجمعية ومبادئ لها.

ونمثل لهذا بقول الشيخ عند تناوله لقضايا: العروبة، الإسلام، والعلم والفضيلة، ونكرها بالترتيب:

(1) عمار الطالبي، ابن باديس، حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 556.

(2) نفسه، ص: 559.



دلالات أولية ⇒ تقابل تضاد دلالي ⇐ دلالات مقابلة



من أكثر العناصر الحجاجية وهذا بالنظر إلى وظيفتها إذ تجعل المتلقي مشاركا في الفعالية الحجاجية فهي تجعله يبحث عن المحال إليه وهي تُكوّن علاقة دلالية إذ يُشترط «وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه»<sup>(1)</sup>.

وبناء على ذلك فالترابط الذي تشكله الإحالة يُمكن المتلقي من تفسير المحال إليه بالرجوع إلى ما يحيل إليه، وهذه أبرز الخصائص التي تجعلها حجاجية، فالمحاجج يحيل والمتلقي يكشف عن المحال إليه، فيكون هو والمحاجج في سياق واحد ومنه يكشف عن مقصده وهو الهدف. وتنحقق حجاجية الإحالة في الأدوات التي تفيد الإحالة كالضمير واسم الإشارة واسم الموصول... وفي أنواعها: الإحالة النصية والإحالة المقامية.

وتنقسم الأولى إلى الإحالة القبلية والبعديّة، وهي متعلقة بداخل النص والثانية بخارج النص، وليبان الحجاج بالإحالة، نعرض لأنواع الإحالة الواردة في خطبة الشيخ عبد الحميد بن باديس مع تنوع وسائلها: الضمائر، أسماء الإشارة، الموصول.

\* الإحالة القبلية: وهي إحالة تعود على لفظ سبق التلفظ به، حيث يستبدل اللفظ الأول المذكور الصريح بما يعوضه ويقوم مقامه.

ومن الأمثلة الواردة من الإحالات القبلية في خطبة الشيخ عبد الحميد بن باديس قوله: «أما بعد فحياكم الله أبناء العروبة والإسلام وأنصار العلم والفضيلة، حوربت فيكم العروبة حتى ظن أن قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها، فجنتم بعد قرن تصدح بابل بكم بأشعارها فتثير الشعور والمشاعر وتهدر خطباؤكم بشقاشقتها فتدك الحصون والمعقل ويهزُّ كتابكم أقلامها فتصيب الكلى والمفاصل»<sup>(2)</sup>.

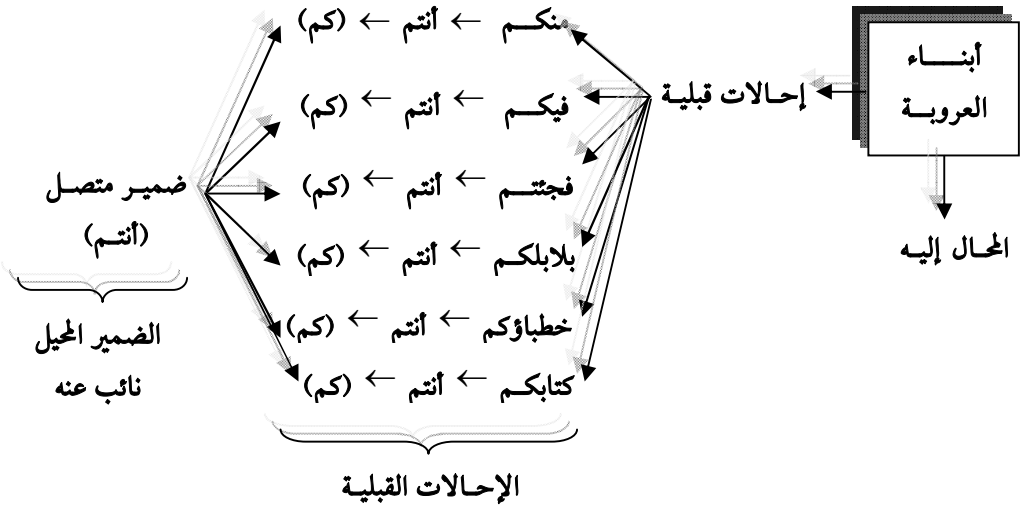
فيخاطب الشيخ الجزائريين بالضمير (أنتم) المتمثل في كلمة فيكم وهي إحالة قبلية إلى لفظة: أبناء العروبة، أما الضمير "ها" يمثل إحالة قبلية على لفظة "العربية".

والضمير "كم" والضمير "ها" يمثلان الضمائر المتصلة فالأول أصله أنتم والثاني أصله: هي، فحجاجية الضمائر تكمن في كونها "نايبة عن الأسماء والأفعال والعبارات والجمل المتتالية"<sup>(3)</sup>. فنيابتها تساعد على الترابط النصي الحجاجي.

(1) محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 17.

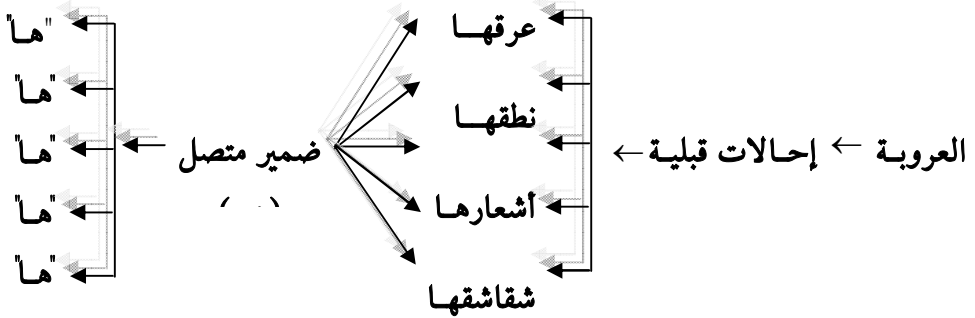
(2) عمار الطالبي، ابن باديس، حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 555.

(3) صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، الجزء 1، دار قباء للطباعة والتوزيع، مصر، الطبعة 1، 2000، ص: 137.



فناب الضمير "كم" وأحال إحالة قبلية إلى لفظة "أبناء"، وناب الضمير "ها" وأحال إحالة قبلية إلى لفظة

"العروبة" وهذا شكل توضيحي:



هذا بالنسبة لاستعمال الضمائر المتصلة، أما الضمائر المنفصلة فقد ظهرت في قوله:

— «أما موقفها من الحكومة فهو...»<sup>(1)</sup>.

— «هي مبعث حياتنا»<sup>(2)</sup>.

— «فهو الذي يحلّ الأفكار»<sup>(3)</sup>.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس، حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 558.

(2) نفسه، ص: 557.

(3) نفسه، ص: 557.

فالضمائر المنفصلة أحالت على أسماء قبلية وهي على هذا النحو بترتيب الأمثلة:

هو ← إحالته القبلية ← موقف الجمعية.  
 هي ← إحالته القبلية ← الجمعية .  
 هو ← إحالته القبلية ← العلم .

الضمير المنفصل ←

أما الضمير المستتر فمثاله في قول الشيخ «يحل الأفكار من عقلها، ويزيل عن الأبصار غشاوتها، ويبعث الهمم من مراقدها، ويدفع بالأمم إلى التقدم»<sup>(1)</sup>.

وكلها إحالات قبلية يبرزها الفعل لأن الضمير المستتر المقدر بالضمير "هو".

يمثل الفاعل في الفعل على شكل ضمير مستتر، بمعنى أن الضمير المستتر "هو" يحيل إحالة قبلية إلى الفاعل وهو "العلم"، وهذا الشكل يبين ذلك:

يحل .  
 يزيل .  
 يبعث .  
 يرفع .

إحالة قبلية ← العلم

المحال إليه

هو .  
 هو .  
 هو .  
 هو .

الضمير المستتر

المحيل

يحل .  
 يزيل .  
 يبعث .  
 يرفع .

الأفعال

\* الإحالة البعدية: إذا كانت الإحالة القبلية تعود على لفظ سبق التلفظ به، فإن الإحالة البعدية تعود على لفظ لم يتلفظ به بعد، وإنما يكون اللفظ مذكورا بعدها. وتحقق الإحالة البعدية باسم الإشارة وتوظف أسماء الإشارة توظيفا حجاجيا، ويقوم مقام الاسم وينوب عنه وعن الفعل والجمل.

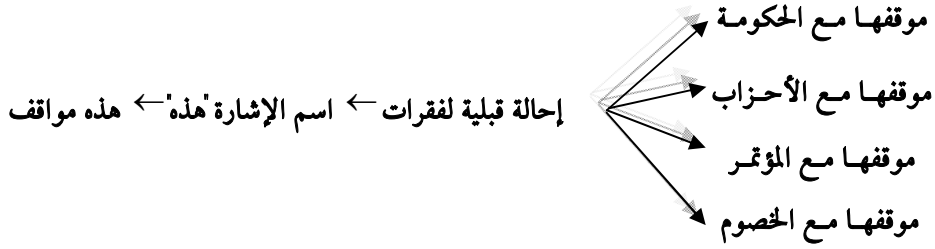
ومن الأمثلة الواردة في خطبة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" قوله: «هذا يوم الاجتماع العام»<sup>(2)</sup>.  
 أحال اسم الإشارة "هذا" إلى لفظ ذكر بعده وهو: يوم الاجتماع.

هذا ← يوم الاجتماع → إحالة بعدية.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس، حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 557.

(2) نفسه، ص: 558.

- وقوله: «أولئك الرؤوس رؤوس الباطل والضلال»<sup>(1)</sup>، فقد أحالت أولئك" إلى لفظة "الرؤوس"، بهذا الشكل: اسم الإشارة ← أولئك ← إحالة بعدية ← الرؤوس.  
 ويفيد اسم الإشارة أو يُحيلُ إحالة قبلية مثل قوله: «هذه- أيها الإخوان- نهضتنا وأركانها وأسبابها واضحة للعيان»<sup>(2)</sup>.  
 أحال اسم الإشارة إلى لفظة قبله وهي النهضة أو نهضتنا، وقد يحيل اسم الإشارة إحالة قبلية لفقرات كاملة قوله: «هذه مواقف جمعيتكم»<sup>(3)</sup>.  
 سبق وأن ذكر الشيخ موقف الجمعية فذكر موقفها: مع الحكومة، الأحزاب المؤتمرة، الخصوم، في فقرات، وقد أحال على هذه الفقرات اسم الإشارة (هذه).



كما يؤدي اسم الموصول دورا حججيا بالإحالة إلى ما سبق أو على ما يأتي بعده بمعنى أنه يفيد أو يحيل إحالة قبلية أو إحالة بعدية.  
 ومثاله قوله: «الذين لا تجدهم الأمة في أيام محتتها إلا بلاء عليها»<sup>(4)</sup>.  
 فقد أحال اسم الموصول الذين إلى الرؤوس" وهي إحالة قبلية.  
 وقوله أيضا: «التي هي مبعث حياتنا»<sup>(5)</sup>. فاسم الموصول التي" أحال إحالة قبلية إلى لفظة "جمعية العلماء".

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 559، 560.

(2) نفسه، ص: 558.

(3) نفسه، ص: 560.

(4) نفسه، ص: 560.

(5) نفسه، ص: 557.

نخلص إلى أن أسماء الإشارة والأسماء الموصولة، والضمائر بأنواعها منفصلة، متصلة، مستترة، تتخذ من الإحالة مجالا لتظهر حجاجيتها في الاستعمال وقد تتنوع إحالات هذه العناصر فقد تفيد إحالة بعدية، أو إحالة قبلية على حسب التركيب.

كما أنها تمثل عنصرا دالا ونائبا يقوم مقام الاسم والعبارات والأفعال وحتى الفقرات باعتبارها محيلات.

**\* الإحالة المقامية (الخارجية):** إذا كانت الإحالة النصية بنوعها القبلية والبعدية داخل النص فالإحالة المقامية خارجه، وتنحصر قيمتها في الدلالة بما يحيط بالنص في المقام الخارجي، وهذا يؤدي وظيفة حجاجية تكمن في معرفة مقام النص بالنسبة للمتلقي، ليفهم مستوى النص وقصد المحاجج، وتساهم في ربط النص واللغة بالسياق المناسب للمقام.

وقد كان استعمال هذه الإحالة في خطبة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" قليلا إن لم نقل عرضا، نذكر منها ما جاء في قوله: «فجئتم بعد قرن»<sup>(1)</sup>، وتكررت هذه الجملة في فقرات محاربة كل من: العروبة، الإسلام، العلم، الفضيلة، فقد أحوالت لفظة (قرن) إلى (مدة الاحتلال الفرنسي) بالرغم من أن معنى كلمة (قرن) قد يفهم منها الزمن والسنين، لكن في النص تفيد: (مدة الاحتلال الفرنسي) في الجزائر واستعماله كان إحالة لطول هذه المدة وهذا الاحتلال، بهدف بعث روح المقاومة وفي قوله: «نهضنا بعد أن صهرتنا بنار الفتنة والابتلاء حوادث الزمان»<sup>(2)</sup>، فلفظة "صهرتنا" تحيل إلى صراع طويل بين الاستعمار الفرنسي والجزائر، وتاريخ حافل بطبيعة هذا الاستعمار، وما كان يعانيه الجزائريون من جرائه.

نخاص إلى أن الإحالة تستخدم حجاجيا، وهذه الوظيفة الحجاجية مطبوعة في أنواعها وأدواتها: من أسماء إشارة وأسماء موصولة وضمائر، وإحالات قبلية وبعدية (داخل النص) أو مقامية خارج النص. وما يمكن استنتاجه من خلال استخدام وتوظيف الإحالة في خطبة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" يتجسد في الآتي:

- ظهرت الإحالة الخارجية، قليلة في خطبة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" ولم يوظفها إلا قليلا، وهذا راجع إلى معنى النص الإجمالي فقد يكون لا يرتبط بمواقف خارجية.
- سلطة الإحالة القبلية بصفة خاصة والإحالة البعدية بصفة عامة أو الإحالة داخل النص بصفة أعم، داخل الخطبة الباديسية، ذلك قد يعود إلى أن الإحالة القبلية أكثر أنواع الإحالة دوراناً في الكلام، وقد يعود توظيفها بهذه الكثرة لطبيعة الخطبة، وكان محورها: الاستعمار الفرنسي ومحاربه للعروبة،

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 557.

(2) نفسه، ص: 556.

والإسلام، والعلم، والفضيلة، ورغبة الشيخ في بثّ روح المقاومة والجهاد للمحافظة على العروبة والإسلام.

- تكمن حجاجية الإحالة بأنواعها في العنصر المحال إليه وعلاقته بالمحيل، وعلى ما يحيل: اسم، فعل، جملة، فقرة، نص... كما تصبغ كل الإحالات بصبغة حجاجية نظرا لوظيفتها، وإلى ما يطابقها، ومنه تجعل المتلقي يسعى وراء العناصر المحال إليها. وفي هذا حجاج وربط لمعانيه الدلالية.

#### د- الازدواج:

ويُعرف من خلال الجرس والنغم الذي يُحدثه عند قراءة الجمل؛ حيث تنتهي هذه الجمل بحرف واحد، فيكون وقعا على نفسية المتلقي من ناحية اللذة السمعية، ليكون هذا الازدواج فعلا عمديا من المحاجج إلى المتلقي؛ لأن انتظام أواخر الجمل في نص أو خطبة استراتيجية حجاجية، ووسيلة لسانية مقنعة تدل على نية المحاجج التأثير في المتلقي وشد انتباهه واستمالاته سمعيا، وهذا ما يثبت حجاجية الازدواج. والازدواج «بنية تركيبية تربط بين عنصريها علاقات سمعية من طول وزنه وفاصلة، وتعكس فكرا متزنا مقنعا»<sup>(1)</sup>، بهذا تكون حجاجية الازدواج كامنة في الأثر والتأثير السمعي على نفسية وشعور المتلقي هذا من جهة، كما تشير هذه الوسيلة لقدرة المحاجج اللغوية في تحقيق قصده وهذا حجاج سمعي، الهدف منه التأثير النفسي.

وقد كان الشيخ عبد الحميد بن باديس<sup>2</sup> يعتمد على هذا الازدواج الوسيلة اللسانية المحجاجية كثيرا في خطبه ومن نماذجه ما ورد في المقدمة عند

قوله: « الصلاة والسلام على سيدنا محمد الكامل بالفطرة

المكمل بالعصمة

المبعوث على الخلق رحمة

الداعي بالحكمة

والموعظة الحسنة إلى أقوم طريق»<sup>(2)</sup>.

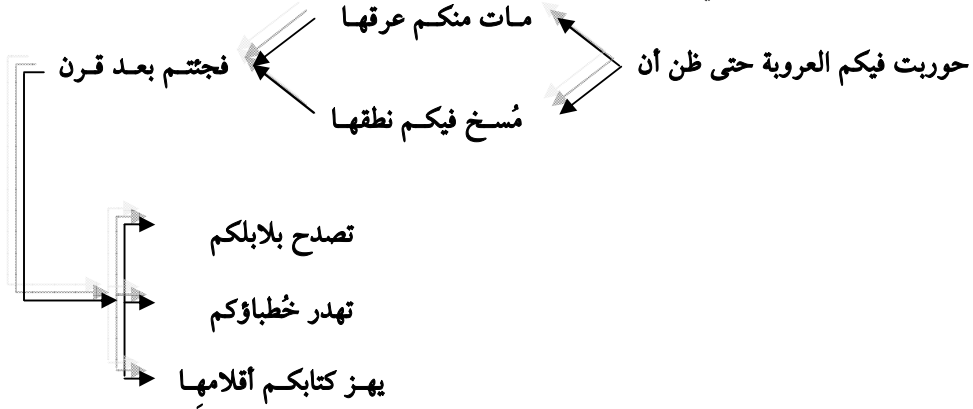
ويمكن أن نصلح على هذا الازدواج بأنه ازدواج على مدى قريب، وهو أن تتكرر أواخر الجمل بشكل قريب أو بجمل قصيرة، ومنه أيضا قوله: «وعلى آله المنبثقين من أكرم نبعه.  
من أظهر مزنه.

(1) ينظر، محمد العبد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، مجلة فصول، ص: 78.

(2) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 555.

من أطيب تربيته، فنعم الفريق ذياك الفريق»<sup>(1)</sup>.

وكذلك قوله: «حوربت فيكم العروبة حتى ظن أن قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها، فجتتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها» [...] وتهدر خطباؤكم بشقاشقها [...] ويهز كتابكم أقلامها»<sup>(2)</sup>. وهذا شكل توضيحي:



وقوله: «طُمت أمامكم معالمُ انترعت منكم عقائده» [...] ترفعون علم التوحيد تنشرون من الإصلاح لواء التجديد»<sup>(3)</sup>.

وقوله: «بعد ما، متنا وأقربنا، أحيينا وبعثنا»<sup>(4)</sup>.

وقوله: «يحل الأفكار من عقلها ويزيل عن الأبصار غشاوتها ويبعث الهمم من مراقدها»<sup>(5)</sup>.

وقوله: «فرقوا المسلمين بُددا

وصيروهم قُدا»<sup>(6)</sup>.

وقوله: «وقد هد الله ركنهم المنهار

وفضح أمرهم في رابعة النهار»<sup>(7)</sup>.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 555.

(2) نفسه، ص: 555.

(3) نفسه، ص: 556.

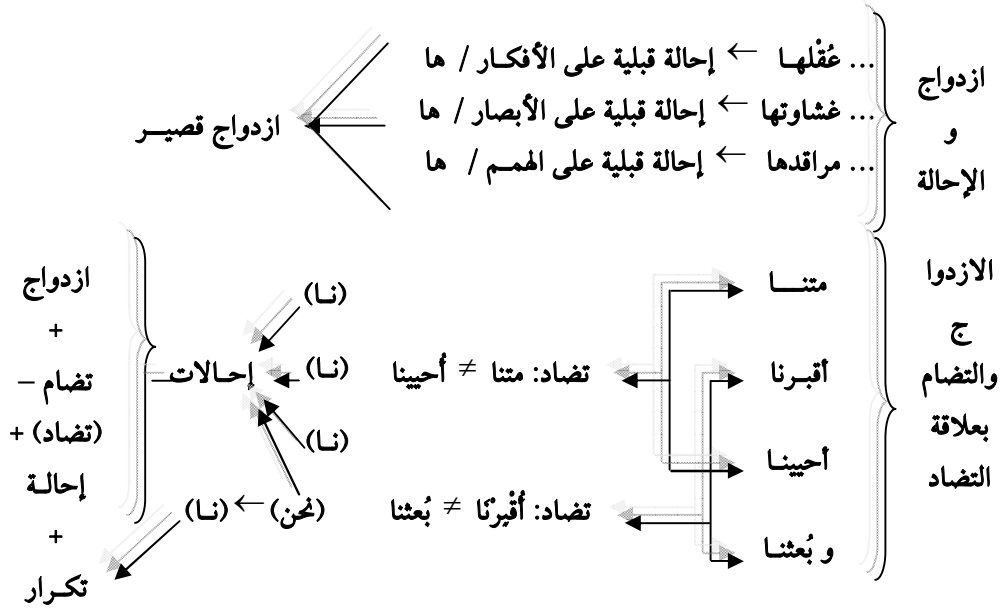
(4) نفسه، ص: 556.

(5) نفسه، ص: 557.

(6) نفسه، ص: 560.

(7) نفسه، ص: 560.

هذه الأمثلة بيّنت اعتماد الشيخ "عبد الحميد بن باديس" وبشكل كبير على الازدواج بالمدى القريب أو الممثل في الجمل القصيرة.  
وما تجدر الملاحظة إليه التحام الوسائل اللسانية وظهورها في الازدواج كالإحالة والتضام والتكرار، وهذا بيان ذلك اجتماع هذه الوسائل والتحامها خدمة للحجاج.



أما الإحالة التي يقوم فيها الضمير مقام الاسم المحال إليه، فهو نوع من التكرار، ومنه التحام الإحالة والتكرار والتضام في الازدواج.

بالإضافة إلى الازدواج بالمدى القريب أو القصير، فهناك ازدواج بالمدى البعيد، وهو نظم الجمل بشكل يرتبط الازدواج الواحد مع الثاني بعلاقة نغمية تُكشّف بعد قراءة جمل وعبارات، وعليه يتحقق هذا الازدواج في الفقرات، وقد ورد هذا النوع من الازدواج في خطبة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" بشكل قليل ومنه قوله: «الحمد لله الذي فضلنا بالعقل وكملنا بالعلم وجملنا بالفضيلة وأسعدنا بالهداية والتوفيق».

والصلاة والسلام على سيدنا محمد [...] الداعي بالحكمة والموعظة الحسنة إلى أقوم طريق وعلى آله المنتهين من أكرم نبعة [...] فنعم الفريق ذِيَاك الفريق [...] حتى تبحيح الناس من الإسلام والسلام في روض أنيق»<sup>(1)</sup>.

فقد تحقق الازدواج بمدى بعيد وعلى مستوى ثلاث فقرات بهذا الشكل:

فقرة 1 ..... التوفيق - ازدواج بعيد المدى.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 555



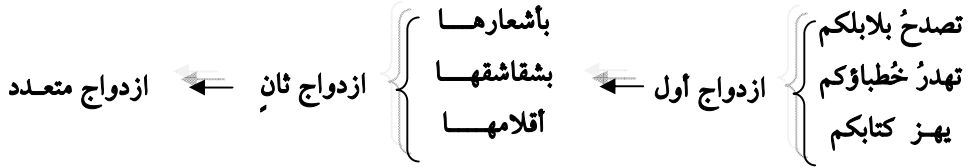
فقرة 2 ..... طريق - ازدواج بعيد المدى.

فقرة 3 ..... الفريق - ازدواج بعيد المدى.

فقرة 4 ..... أنيق - ازدواج بعيد المدى.

ويتحقق المدى البعيد لهذا النوع من الازدواج إن كان عددا من الفقرات مبنيا به، فقد بدأ الشيخ خطبته بالحمد والنهاية بكلمة التوفيق، وبدأ الثانية بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ونهايتها بكلمة "طريق"، والثالثة الصلاة على آل الرسول والنهاية بكلمة الفريق، أما الفقرة الرابعة فالسلام على أصحابه ﷺ والنهاية بكلمة "أنيق".

ويوجد نوع آخر من الازدواج وهو المتعدد، وهو أن تحوى الجملة أو العبارة أكثر من ازدواج ومثاله في قوله: «تصدحُ بلبابكم بأشعارها[...] تهذر خطباؤكم بشقاشقها[...]، ويهز كتابكم أقلامها»<sup>(1)</sup>. وهنا تعدد الازدواج ليكون الحجاج بالنغم أكثر إقناعا وتأثيرا واستمالة، وهذا الشكل يوضح ذلك:



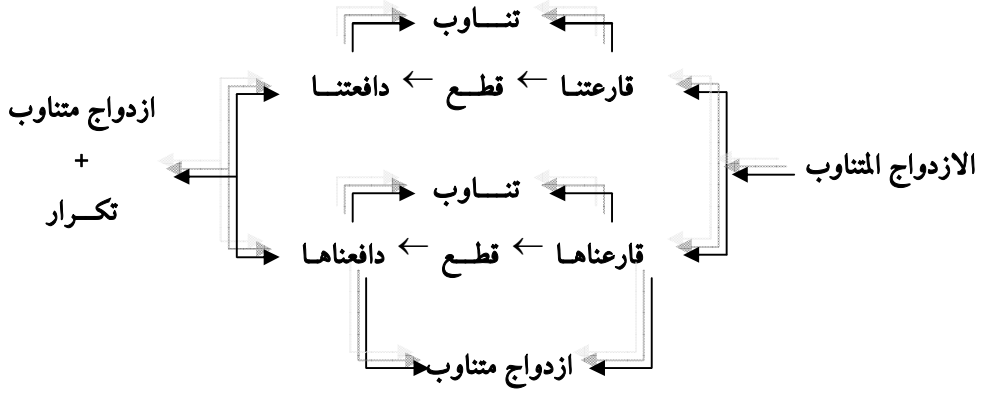
وهذا النوع قليل إذا قيس بالنوعين السابقين (الازدواج بالمدى القريب والازدواج بالمدى القصير).

والنوع الرابع من الازدواج هو الازدواج المتناوب، وهو ما كان فيه الاتفاق في عدد الوحدات وفترت بين نهاية الجمل ليعود بعدها وكأنه يتناوب في الظهور ويدرك بالسمع، وهذا النوع قليل في خطبة الشيخ "عبد الحميد بن باديس"، وقد ظهر عند قوله: «وقارعنا وقارعناها الخطوب ودافعتنا ودافعناها الأيام»<sup>(2)</sup>.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 555.

(2) نفسه، ص: 556.

هذا الرسم يبين شكل التناوب في هذا الازدواج:



ونبين في جدول الأنواع المذكورة من الازدواج ليرز النوع الذي استعمل أكثر

العدد	أنواع الازدواج في الخطبة البادسية
13	الازدواج بمدى قريب
04	الازدواج بمدى بعيد
01	الازدواج المتعدد
01	الازدواج المتناوب

نخلص إلى:

- ✓ أن الشيخ استعمل الازدواج بالمدى القريب أكثر من الأنواع الأخرى، هو الذي له وقع نفسي وتأثير على المتلقي أكثر من الأنواع الأخرى، وبالتالي تحقيق الاستمالة والإقناع.
- ✓ وقد يكون هذا راجع لطبيعة الموضوع.
- ✓ حجاجية أنواع الازدواج تكون في النغم والجرس الدلالي الذي يتداول في أذن المتلقي.
- ✓ عمد الشيخ إلى استعمال الوسائل اللسانية متفردة ومجتمعة وفي ذلك مسعى لتحقيق الإقناع ويتجسد الحجاج في أحسن صوره الاستمالة والتأثير، وتحريك الوجدان، وشدّ الانتباه.

## خلاصة:

بعد هذا التحليل والتطبيق في بيان الحجاج في الخطبة الباديسية والمقالة الباديسية والتفسير الباديسي أو بصفة جامعة الحجاج في النثر الباديسي نخلص إلى ما يلي:

إن الشيخ "عبد الحميد بن باديس" مفسر محاجج نظرا للوسائل والتقنيات الحجاجية التي اعتمدها في تفسيره، فقد اعتمد في وسائله التفسيرية: القرآن، والسنة وأقوال الصحابة، بالإضافة إلى السياق واللغة، أما تقنياته فالتمهيد والشرح واستخراج الحقائق وتحليل مركز الآيات بالإضافة إلى اتصافه بشروط المفسر وعلمه باللغة والبلاغة وأسباب النزول.

التفسير عملية حجاجية وهذا ما طبع أدواته بالحجج الشرح والتأويل، والتفسير الشفوي حججاً بامتياز لأنه يستهدف التغيير الآتي وتحقيق قصد المفسر بحسب جمهور التفسير الشفوي.

نجاح الشيخ "عبد الحميد بن باديس" في تفسير وتحقيق هدفه وهو الإصلاح بالخطاب الشفاهي وعلمه بأحوال سامعيه وأسلوب المبسط البعيد عن الغريب الملائم لجمهوره، هذا بالنسبة للحجج في التفسير الباديسي.

\* أما الحجج في المقالة الباديسية فنخلص إلى:

أن الشيخ "عبد الحميد بن باديس" محاورٌ مجادلٌ بالنبي هي أحسن، محاجج مفهم وظهر هذا في دفاعه عن الرسول ﷺ.

الحوار عملية حجاجية وصورة مجسدة لقطبي الخطاب الحجاجي. وفعالية ظهرت في مقالة الشيخ "عبد الحميد بن باديس".

الحجج الحواري يتكون أو ينشأ بأثر بواعث (أسباب) ممثلة في ادعاء المحاور، كالذي أدى بالشيخ "عبد الحميد بن باديس" لمحاوره شيوخ الطرق الضالة وهو الإساءة للرسول ﷺ.

نوع الحجج يحدده الموضوع، العناصر المشاركة في الخطاب، والحجج المعتمدة، والهدف وأن مناسبة حجج معين في مواقف لا يناسب مواقف أخرى.

لنجاح الحجج يجب اختيار نوع الحجج الملائمة وترتيبها بحسب الموضوع والمستمع.

الشيخ "عبد الحميد بن باديس" خطيب محاجج يقنع ويستميل ويؤثر في سامعيه، وهذا لاتصافه بالفصاحة وسعة الثقافة ودراية بحال السامع، بصيرا بالحجة، مرتبا كلامه مراعيًا لعباراته.

استعمل الشيخ "عبد الحميد بن باديس" وسائلًا حجاجية لها علاقة بالأصول والفلسفة ومنها: القياس وأنواعه حيث يفيد الحجج في استنتاج النتائج.

وظف الشيخ "عبد الحميد بن باديس" أدوات حجاجية لها علاقة بالنحو كالمفعول المطلق، الجملة الاعتراضية، حتى، إن، لكن... وبالنظر لمعانيها ووظائفها النحوية تؤدي بالمقابل وظائفًا حجاجية.

استخدم الشيخ "عبد الحميد بن باديس" تقنيات حجاجية لها علاقة بانسجام النَّص كالتكرار، التضمين، الإحالة، والازدواج، وكل تقنية تحقق هدفا حجاجيا. للحجاج ثلاثة أوجه: وجه أصولي فلسفي يمثله القياس - ووجه نحوي تركيبي يمثله الأدوات النحوية - ووجه لساني دلالي يمثله التقنيات اللسانية.

تقترب الخطبة كثيرا من الشعر وتتقاطع معه في العديد من المزايا والصفات. هل يُبرر هذا أن الشعر حجاج كما الخطبة؟ فالخطبة فعل عقلي والشعر انبعاث عاطفي، هل يُبعد هذا الشعر من دائرة الحجاج؟

هذا ما سنعرض له في الفصل الرابع: الحجاج في الشعر الباديسي من خلال قصيدة "شعب الجزائر مسلم"، مع بيان وجه جديد للحجاج يمثله الشعر.

- فما هي العلاقة بين الشعر والخطبة والحجاج؟
- وما هو الوجه الجديد للحجاج في الشعر؟



## الفصل الرابع

# الحجاج في الشعر الباديبي

المبحث الأول: الحجاج والشعر.

المبحث الثاني: الأفعال الكلامية.

المبحث الثالث: الوسائل البلاغية.



## توطئة:

يتناول هذا الفصل فكرة الاحتجاج أو الحجج في الشعر، وهذا برصد حركة الحجج التي تتجلى على صعيد الممارسة الإبداعية في الفنون الشعرية في الأدب العربي فالأدب العربي كما هو معروف مقسم إلى قسمين نثر وشعر، وهذا التقسيم لم يستثر أي جدل.

غير أن أفكار وقضايا لها علاقة بهذا التقسيم أثارت جدلا وضربا في الآراء منها: الحجج في النثر لا في الشعر، وهذا تمييز يقتضي النظر في مجموعة من المفاهيم: الشعر والحجج، والنثر، ليبرز في الأخير بأن الحجج كامن في الشعر.

فالخطاب الحجج بنيته تتحدد بحسب مقاصد المحاجج وقدرته في إقناع المتلقي فإن كان هذا المحاجج شاعرا، هل يخرج شعره عن مقصده، وتضعف قدرته في إقناع متلقيه بحجة أن الخطاب شعري؟.

وإذا كان بين الشعر والخطبة وشائج قرى وعلاقات نسب، هل تكون هذه الوشائج والعلاقات دحضا لآراء أولئك الذين يقصون الشعر من نظرية الحجج؟

إذ يُعدُّ الخطيب شاعرا، والقصيدة خطبة باعتبار أن الخطبة مرتع الحجج، فالحجج قائم على الشعر وهذه حقيقة لا يمكن إثباتها إلا إذا أدركنا علاقة الخطبة والشعر والخطيب والشاعر والمحاجج.

ما يميل إلى هذه الحقيقة الوجه البلاغي في الشعر أي الوسائل البلاغية كالتشبيه والاستعارة والكناية، والأساليب الإنشائية كالأمر والنهي والاستفهام، كوسائل حججية يعتمدها الشاعر في إقناع واستمالة المتلقي، باعتبار الحجج هو عصب البلاغة العربية.

وما يزيد تلك الحقيقة إثباتا نظرية الأفعال الكلامية وهي نظرية حججية بامتياز فهل تتحقق هذه النظرية في النثر دون الشعر؟ بل تتحقق فيهما وهذا دليل آخر على أن الحجج يكون في الشعر كما يكون في النثر.

وهنا نعرض دراسة الحجج في الشعر وبيان نظرية الأفعال الكلامية، ووسائله البلاغية الحججية وهذا: في الشعر البادي من خلال قصيدة شعب الجزائر مسلم.





## المبحث الأول الحجاج والشعر

### 1- الحجاج الشعري (الشعر الحجاجي)؛

إنّ ارتباط الحجاج بالشعر يجعل - للحجاج - أسسًا خاصة غير التي عُرفت عنه في النثر ويجعل حركته في تطور، مرهون بخصائص الخطاب الشعري التي منها: العملية الحجاجية الشعرية بين فعلي الإنتاج والتلقي، ولغة الإقناع الشعري الحجاجي والإقناع بين الشاعر والمتلقي، العوامل النفسية والبنية الاجتماعية والبعد الغائي (النفعي) للحجاج في الشعر، فإذا أخذنا بالشرح هذه الخصائص كان للشعر أن يؤسس حجاجاً؛ لأنّ العملية الحجاجية الشعرية بين فعلين فعل الشاعر وفعل الإنتاج، مع مراعاته لكيفية هذا الفعل في متلقيه، وهذا يُكوّن حجاجاً ويقنع متلقياً بمراعاة اللغة التأثيرية الشعرية.

وإذا أخذنا العوامل النفسية والبنية الاجتماعية تحققت في الأولى البواعث الحجاجية، وتحققت في الثانية السياق الذي تفرضه البنية الاجتماعية ليكون الشعر الحجاجي بقدر حال المتلقي.

أمّا لغة الإقناع تتمثل في مجموع الوسائل البلاغية والنحوية واللسانية التي يعتمدها الشاعر في القصيدة، بالإضافة إلى الأساليب الإنشائية: كالأمر والنهي والنداء والاستفهام.

أمّا البعد الغائي (الغاية) أي البعد النفعي من الشعر الحجاجي فهو يمثل الهدف من الشعر المنظوم بمعنى أن الشاعر المحاجج يضع هدفا يسعى للوصول إليه، والغاية من الشعر الحجاجي تختلف باختلاف غرض القصيدة: مدح، وصف، وهجاء، ورثاء... وباختلاف المتلقي المقصود: ملك، محبوبة، أم، قوم، حيوان... وغالبا ما يكون الهدف في الشعر الحجاجي استثارة الشعور والوجدان أو استثارة العقول والخيال؛ فالأولى غاية نفسية والثانية غاية تعليمية، ويرجع تحديد هذا الهدف وهذه الغاية بالنظر إلى طبيعة الشعر الحجاجي والموضوع المنظوم فيه.

فمثلا إذا ما نظرنا إلى شعر الغزل فنراه يمثل حجاجا من ناحية أن الشاعر يحاجج في قصيدة الغزل ليؤثر في المتلقي المقصود، فيؤخذ الشعر بعامة أنه حجاج.

إذن يتحقق الحجاج في الشعر أو يُكوّن الشعر حجاجا «إذا امتاز النظم بجودة المعاني وتخير الألفاظ ودقة التعبير، ومتانة السبك وحسن الخيال مع التأثير في النفس فهو الشعر، وقد تكون هذه الخصائص في الكلام من غير أن يكون موزونا ونظلم نسميه شعرا»<sup>(1)</sup>.

(1) غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي قضاياها، أغراضه، أعلامه، فنونه، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة 1، 2002، ص: 23.

ومنه يمكن رصد ميزات وشروط اللّغة الحجاجية الشعرية:

- جودة المعاني.
- تحيّر الألفاظ.
- دقة التعبير.
- متانة السبك.
- حسن الخيال.
- التأثير في النفس.

ومن العناصر الحجاجية في الشعر اللغة الحجاجية، والهدف الحجاجي، ويشترط فيهما:

- 1- اللغة وهي مختلفة عن لغة النثر.
- 2- الرؤيا التي لا يمكن الإبانة عنها إلا باللغة الشعرية، فيتيح للإنسان معرفة حدسية مختلفة كل الاختلاف عن النثر<sup>(1)</sup>.

من هذا يطرح السؤال: لماذا لا تتيح اللغة الشعرية الحجاجية للإنسان معرفة يقينية؟ ويتبين من هذا إقصاء الحجاج من الشعر.

ومن الرافضين (رفضوا فكرة الحجاج في الشعر) من حاول حصر الشعر الحجاجي بنيته الشكلية فجعلوا للشعر أفكارا لا يمكن الحديث عنها في النثر «الشعر فن يعتمد الصورة والصوت والإيقاع، ليوحي بإحساسات وخواطر وأشياء، لا يمكن تركيزها في أفكار واضحة للتعبير عنها في النثر المألوف»<sup>(2)</sup>.  
بمعنى أنّ «لغة الشعر لغة العاطفة، ولغة النثر لغة العقل، وغاية النثر نقل الأفكار [...] أما الشعر فموضوعه شعور المرء بنفسه وبما حوله شعورا يدفعه إلى الكشف عن خبايا النفس أو الكون عن طريق العاطفة في لغة هي صور»<sup>(3)</sup>.

بمعنى أنّ الشعر لا يوضح الأفكار كما النثر، لذا يتعد الشعر عن الحجاج في - نظرهم - لأن لغة العاطفة، وغاية النثر «تبادل الحجج والأفكار [...] وكمال النثر في تمام صياغته لتوضيح ما فيه من فكرة، وكمال الشعر في الإيحاء بما يزخر من شعور وعاطفة»<sup>(4)</sup>.

(1) ينظر، غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، ص: 24.

(2) نفسه، ص: 23.

(3) محمد غنيمي، المدخل إلى النقد الأدبي الحديث، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1958، ص: 347.

(4) نفسه، ص: 348.

ما يبعد الحجاج هنا عن الشعر هو أنه يكتمل في الإيحاء من شعور وخيال وعاطفة، أما النثر فتكمن حجاجيته في الصياغة لتبيين الحقيقة.

من هذا نستنتج أن النثر لغة الإقناع والشعر لغة الإمتاع وهذا ما يزيده بعدا عن الحجاج! إن دخول أو اتصاف الشعر بالحجاج والسير في مضماره جعل الآراء متقلبة بين رافض ومؤيد لهذه الفكرة، وما سبق نرى رفضا قاطعا يُخرج الشعر ويفصله عن الحجاج، وأنه لغة الأحاسيس والعواطف، وأن الحجاج والنثر لغة العقل والإقناع، وهي آراء نشأت من علاقة الحجاج والشعر، نذكر منها:

- 1- لغة الحجاج غير لغة الشعر، لغة الحجاج العقل ولغة الشعر العاطفة.
- 2- الشعر المهدف منه الإمتاع والحجاج المهدف منه الإقناع.
- 3- معرفة الشعر حدسية ومعرفة الحجاج حقيقية يقينية.
- 4- الشعر إيحاء وشعور والحجاج صياغة تامة توضح الفكرة.
- 5- الشعر وحي من الخيال تصور وإلهام والحجاج وعي عمدي.
- 6- الشعر يخاطب العاطفة، والحجاج يخاطب العقل.

بالإضافة إلى هذه الثنائيات المتضادة التي تُقصي الشعر من الحجاج وتجعله يسلك مسلكا غير مسلك الحجاج، فهناك من الرافضين من يقصي الحجاج حتى من النثر الفني، بحجة أنه قريب من الوجدان، وهناك من يغالي حين يقصي النقد باعتباره أدبا وصفيا، وهناك آراء بلغت حدّ التطرف؛ إذ الشعر عندهم «لا يصلح واسطة للتعليم، أو التلقين العقلي، ولا ينهض للجدل والمناقشات الفلسفية ولا يناسبه التقرير والخطابية والبث المباشر»<sup>(1)</sup> وبهذا نخلص إلى أنّ:

- الشعر معزول عن الحجاج.
- النثر الفني (القصص مثلا) يتعد عن الحجاج لأنه مرتبط بالوجدان.
- النقد يُقصي من الحجاج لأنه أدب وصفي رغم قربيه من النثر العلمي.
- الذي يرتبط بالحجاج هو النثر العلمي، وهذا بيان للثنائيات المتضادة.

أما الثنائية الأولى لغة الحجاج بخلاف لغة الشعر؛ فالأول مرتبط بالعقل والثاني مرتبط بالعاطفة وأهم «ما يتطلب من لغة الشعر في مفهومه الحديث هو خلوصه من الشوائب الخطابية»<sup>(2)</sup>؛ لأن اتصافه بهذه

(1) محمد طه عصر، مفهوم الإبداع في الفكر النقدي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة 1، 2000، ص: 144.

(2) محمد غنيمي هلال، المدخل إلى النقد الأدبي الحديث، ص: 162.

الشوايب يقربه من الاستدلال وهذا الأخير بعيد عن الفن المرتبط بالعاطفة، فلغة العقل من عناصر الفن «ولكن ينبغي أن يحترس منه الشاعر حتى لا يُغلبه على شعره فيخرجه من دوائر الشعر إلى دوائر النثر»<sup>(1)</sup>.

لقد حُصر الشعر في حيز واحد وهو المتعة، لكن الشعر يتطلع للإقناع والمتعة معا. وأما **الثنائية الثانية** هدف الحجاج الإقناع وهدف الشعر الإمتاع؛ فالإقناع صفة لا تلتقي والإمتاع، في نظرهم الشعر إذا خالطه إقناع يضعف إمتاعه وخياله.

أما **الثنائية الثالثة** الشعر معرفته حدسية والحجاج حقيقة يقينية، وهذا مرده إلى الخيال والعقل، وأن الخيال يتعد بالصدق واليقين بعكس العقل الذي يكون به التصديق. «ولهذا فإن المتعامل مع الشعر لا يلتمس فيه البراهين الدالة على صدق الكلام وصحته، ولا ينشد منه اليقين بقدر ما يطلب طراءة الفن وروعة الجمال وذلك التعجيب الذي يبعث على اعتقاد الشيء مهما كان كاذباً»<sup>(2)</sup>.

\* هذه النظرة أخرجت الشعر من كونه يفيد علماً أو إقناعاً وحصرته في بوتقة الإمتاع، ولكن: ألم يكن الشعر علم العرب؟ وهل يتعد العلم في الشعر التعليمي؟ وهل يتعد الإقناع في شعر الحكمة والزهد؟ أما **الثنائية الرابعة** الشعر إيجاء وشعور والحجاج صياغة الفكرة فمن الإيجاء ينشأ الغموض ومن الصياغة التامة تُوضح الفكرة.

فالشرط الواضح في الخطابة هو وضوح أسلوبها وبالمقابل من شروط الشعر هو الغرابة والإيجاء، فهي سرّ إثارته لأنه «الحالة الغربية التي تعترى المتلقي بعنصر المفاجأة»<sup>(3)</sup>.

وفي هذا الإدعاء أن لغة الشعر إيجاء وأنه غامض تعدى على قيمة هذا العلم، فقد استخدم الشعر للإيجاء واستخدم للوضوح والبيان وإلا كيف يتميز شعراء العرب بالفصاحة والبيان وإصابة المعنى.

أما **الثنائية الخامسة** الحجاج وعي والشعر وحي وهي ترتبط بالثنائية السادسة بأن الوحي يخاطب العاطفة والحجاج يخاطب العقل لهذا «فالشعر حالة غير عقلية، وإذا تدخل العقل فيه حرفه عن طبعه الفني إلى طبائع غريبة عليه يفرضها العقل بمعايره المغايرة لمعايير الشعر، مما يجعل المعنى مرتكزاً أولياً فيه»<sup>(4)</sup>، ولكن إذا كان الشعر حالة غير عقلية. أليس بين الشعر والخطبة علاقات؟، وإن كان جوهر الخطبة حجاج، ألا يكون جوهر الشعر حجاج.

(1) شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، مصر، الطبعة 3، د ت، ص: 149.

(2) ينظر، ناصر بن دخيل بن فالح السعدي، الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي، دراسة وصفية، رسالة دكتوراه، إشراف أ.

د، محمد إبراهيم شادي، 1425هـ - 1426هـ، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ص: 315.

(3) هادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 215.

(4) الغدامي، الخطيئة والتكفير، ص: 103.

على هذا النحو تتجلى نظرة النقاد الذين يقصون ويعزلون الحجاج من صرح الشعر، ومن ثمة حصر وظيفته ولغته وخياله في الإمتاع، وإبعاده عن كل العلاقات العقلية وتضييقه في كل علاقة عاطفية. قد تبدو دوافع هذا الإقصاء والعزل مقبولة إلى حد ما، إذا ما نظرنا إلى طبيعة الشعر، أو لأن نقدهم مبني على التعليل والتحليل.

إلا أن هذا الإقصاء وهذا العزل يصطدم بوصول وتأيد أكثر بناء بالتعليل والتدليل والحجاج على ميزة الحجاج في الشعر وأنه كامن فيه، لم يقو على دحضه حتى الذين أقصوا وعزلوا الحجاج من الشعر، لذا سنجد بعضهم يقف موقفاً وسطاً من هذه القضية. وسنفصل الحديث في شكل ثنائيات. الحجاج عقل وعاطفة، والحجاج تفكير وتصوير والحجاج مهارة عقلية والحجاج إقناع وإمتاع (لذة عقلية)<sup>(1)</sup>.

- الحجاج عقل وعاطفة: الناظر إلى وجهي الحجاج (العقل والعاطفة) يجد الأول يمثل: الإقناع والدليل والحجة ويجد الوجه الثاني العاطفة يمثل الاستمالة والتأثير في النفس. «يرى كبار النقاد أن الاحتجاج قد ينجح في اللغة الشعرية إذا أجاد الشاعر مزج الحجة بالعاطفة فهذا طه حسين يدعو إلى أن تكون المعاني الشعرية نسيجاً متصلًا استمالها على ناحية منطقية مقبولة، ترضي الفكر ولا تطغى على العاطفة والخصائص الشعرية»<sup>(2)</sup>.

إذ العاطفة صفة للشعر يولدها الكلام على نحو مخصوص، وقد تأتي في الشعر والنثر. والشاعر مُطالب ببناء كلامه على نحو يبني للحجاج اعتماداً على الإقناع والاستمالة، «وله مع ذلك أن يذهب مذهب الخطيب في الاحتجاج والحرص على الترابط والانتظام في الأفكار»<sup>(3)</sup>.

وعلى هذا الأساس يكون الشعر على علاقة بالحجاج انطلاقاً من العلاقة القائمة بين الخطبة والشعر، وذلك لوجود خصائص إقناعية وعاطفية في الشعر، وإذا اعتبرنا العاطفة قوة والإقناع قوة، فإن «الحاسة البيانية لا تكون إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والإحساس والعاطفة»<sup>(4)</sup>، وأن الشعر هو الذي يعقد حلقة وصل بين العاطفة والإقناع.

نرى تأكيداً بأن وظيفة الشعر الحجاجية تكمن في دمج الفكرة بعاطفة وقوة إقناع، لتحيط بالمتلقي تصديقا وتأثيراً، وبهذا يكون جوهر الشعر حجاجياً لأن الشعر يشكل ويؤسس لمعرفة وهدف، وبناء على

(1) ينظر، ناصر بن دخيل الله بن فالح السعدي، الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي، ص: 321.

(2) نفسه، ص: 321.

(3) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيتة وأساليبه، ص: 61.

(4) مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، الجزء 1، تحقيق، سعيد كريم الفقي، أحمد فرهود، دار القلم العربي، الطبعة 1، 1997، ص: 9.

هذا فالشعر يصلح واسطة للتعليم، وينهض للجدل، ومنه تتأكد شرعية الحجاج الشعر، فهو يخاطب المتلقي في عاطفته ويحرك أحاسيسه، وللعقل دور في حصول اللذة والمتعة، «والشعراء في ذلك كله يتفاوتون تفاوتاً بيناً في رسم استراتيجيات الإقناع [...] قصد حمل المتلقي على الإذعان»<sup>(1)</sup>.

وتحقيق هذه المتعة وهذا الإقناع إنما يتجسد بالأسلوب، «فبالأسلوب الحجاجي قد يكون واحداً ولكن طريقة إجرائه تختلف من شاعر إلى آخر، والحجة تكون ذاتها ولكن طاقتها تعلو وتخفت من قصيدة إلى أخرى»<sup>(2)</sup>.

والشاعر المحاجج له أساليبه كالإصابة في التشبيه، والحجاج بالاستعارة والكناية، وما يعد روافداً للحجاج الشعري فنونه الكثيرة التي «تجمعها في الأصل أصناف أربعة: وهي المديح، والهجاء، والحكمة، واللهو، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون»<sup>(3)</sup>.

ويمكن أن يقال عن الشاعر الذي يفكر في استدعاء الحجة بأحد الأساليب المذكورة في واحدة من الفنون الكثيرة وفي صنف من أصنافها، فإنه يبحث عن الحجة المنعّقة والحجاج المناسب. وما دام الحجاج هدفه فإنه يوسع على نفسه نطاق الواسع لأن البلاغة هي «القول المحيطة بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام وحسن النظام وفصاحة اللسان»<sup>(4)</sup>.

وتدل مناسبة الحجة على حجاجية الشعر، والشاعر وقدرته الإقناعية والبلاغة تختبر براعته وقدرته الحجاجية، وبين الإقناع والحجاج والعاطفة والمتعة «يظل الإبداع الشعري مرتبطاً بالتشكيل الجمالي والصياغة الفنية»<sup>(5)</sup>. والهدف الحجاجي والبنية الإقناعية التي تنفي وتعارض الإلهام والخيال والعاطفة في الشعر دون العقل والإقناع والحجاج، غير أن إقصاء الحجاج والعقل من الشعر يؤدي إلى جفافه من الفائدة والمنفعة، والشعر بقدر ما يعتمد على العاطفة والإلهام والخيال، فإنه لا يمكن إقصاء وعزل الحجاج والإقناع ووظائف العقل منه، لأن العقل هو الذي يضبط نشاط الخيال، وإذا لم يكن للحجاج مكان في الشعر وإذا كان الشعر لا فائدة منه، فالرسول ﷺ يقول: «إن من الشعر لحكمة»، وروى عن بعض السلف أعربوا القرآن والتمسوا غريبه في الشعر [...] وقال عبد الملك بن مروان المؤدّب ولده في وصيته إياه: «وعلمهم الشعر يمجّدوا وينجدوا»<sup>(6)</sup>.

(1) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 76.

(2) نفسه، ص: 77.

(3) أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995، ص: 81.

(4) نفسه، ص: 76.

(5) ناصر بن دخيل الله بن فالح السعيد، الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي، ص 318.

(6) ينظر، قدامة بن جعفر، نقد النثر، ص: 80، 81.

- الحجاج إمتاع وإقناع: إن الهدف الأول من الحجاج هو التأثير في العقول لإقناعها وهذا لا يعدم تحقيق هدف آخر بحيث يصل إلى القلوب لإمتاعها، إذ التأثير فكرة «تستوعب مفهوم الإقناع باعتباره شحنة منطقية يحاول بها المخاطب حمل مخاطبه على التسليم الوضعي بمدلول رسالته ثم إنها تشمل معنى (الإمتاع) باعتباره سعيًا حثيثًا نحو جعل الكلام قناة تعبر المواصفات الطبيعية»<sup>(1)</sup>.

وبهذا يتحدد الوجه الإمتاعي والوجه الإقناعي، فالشعر إمتاع وإقناع فالشاعر يضع الهدف الإقناعي أولاً ثم يوسعه بدقة الوصف، ووضوح العبارة وبيان المعاني واكتمال الإيحاء وازدهار التصوير، ولهذا تكتسب الحجج غايتين حين تُقدم في صورة شعرية الإمتاعية والإقناعية.

وهكذا وضع النقاد والباحثون اللغويين هدفين للحجاج: الإمتاع والإقناع وهما يمثلان غايتين إذا نظرنا إلى استعمال الحجة، بل يرون ذلك من أهم غايات الحجاج الشعري، وبهذا يتضح أن الحجاج في الشعر وفي جانبه الإمتاعى والإقناعى والعاطفى والعقلى، ومنه قدرة الشعر على النهوض بوظائف حجاجية.

وما يزيد هذه القدرة - الوظيفة الحجاجية للشعر - وضوحا هو علاقة الحجاج بالخطبة والشاعر المحاجج بالقصيدة.

إن أبرز ما يمكن استخلاصه هو أوجه الحجاج المختلفة في علاقة الخطيب بخطبته وأوجه الحجاج المختلفة في علاقة الشاعر بقصيدته، فتكون أوجه الحجاج مزدوجة وعليه «الخطيب والشاعر صنوان في قوة الحس، وجيشان العاطفة وسرعة البديهة، وقوة التصور وبراعة التصوير كل منها يتأثر فيعبر عن تأثره ليشارك السامعين في عاطفته، الخطيب بلسانه والشاعر بقلمه»<sup>(2)</sup>.

فالمأمل في حقيقة الشعر «والمثال الأعلى الذي يصبوا إليه الشعر الآن قد صار لا يقل عالمية عن المثل الأعلى للعلم»<sup>(3)</sup>.

ولقد دخل موضوع الخطبة والقصيدة حيز الدراسات الحجاجية من حيث هو موضوع لساني حجاجي، فتؤخذ الخطبة كحيز يمثل الحجاج كما يتطلع الخطيب والشاعر إلى التأثير والاستمالة «وكل منهما: يؤثر ويستميل ويجنح إلى الخيال يستثير به العاطفة، وهما معا يعتمدان على الإيقاع فالشاعر يعتمد على

(1) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، الطبعة 3، ص: 81، 80.

(2) أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص: 36.

(3) محمد مصطفى بدوي، الشعر العربي الحديث بين التقاليد والثورة، مجلة عالم الفكر، المجلد: 19، العدد: 3، أكتوبر-

نوفمبر - ديسمبر، 1988، ص: 84.



الأوزان، والخطيب يعتمد على توازن الجمل وطريقة إلقائها، فليس عجبا أن نجد من الشعراء خطباء ومن الخطباء شعراء»<sup>(1)</sup>.

ومن هذا يصبح الشعر والخطبة من أكثر الأجناس الأدبية نشاطا، خصوصا بفضل النزعة الحجاجية، التي وإن بدت تأخذ نضوجها في القصيدة، وهذا يبين أن الحجاج متجسد في الشعر كما في الخطبة، «فقد ذكر الجاحظ كثيرا ممن شعروا وخطبوا منهم: عمران بن حطان، ونصر بن سيار، وبشار بن برد، والطرماح بن حكيم»<sup>(2)</sup>، «وكان حافظ إبراهيم يلقي قصائده إلقاء الخطيب المصنف المجيد، فيتأثر بها سامعوه أكثر من قارئيه»<sup>(3)</sup>.

وتجدر الإشارة لنجاح الشاعر المحاجج في حجاجه «فالشعر لا ينهض بالوظيفة الإقناعية الاستدلالية ولا يؤثر في المتلقين بحيث يغير سلوكهم ومواقفهم ويبدل من واقعهم إلا إذا كان من جهة منخرطا في نظرية بلاغية تسلم للشعر بهذه القدرة العجيبة وتعترف بسلطانه على النفوس والعقول، ويخاطب من جهة ثانية متلقين يعترفون للشاعر بمنزلة الريادة ويعتبر بمثابة الرائد على الفعل والتأثير»<sup>(4)</sup>.

فالمحاجج سواء كان شاعرا أم خطيبا فعليه مراعاة الأسلوب وكل أساليب الإقناع وهو بقدرته اللغوية يتحول إلى شاعر مرة وإلى خطيب أخرى، لأن ذلك يجعله ينال اعتراف سامعيه، وعليه يكون الشعر آلة حجاجية تُغير الأحداث ومجراها «ويوجهها نحو الغاية التي يريد، وشعر يتميز بهذه القدرة على الفعل هو بالضرورة شعر حجاجي استدلالي»<sup>(5)</sup>.

ولا تتعد هذه الرؤية كثيرا إذ «قدرة الشعر على النهوض بوظيفة الحجاج التي قد يعتقد أنها حكر على الخطب ومقالات الفلاسفة وعلماء الكلام ولتبيين قدرته العجيبة على تغيير الواقع وتوجيه المتلقي نحو غاية رسمها له الشاعر بالصورة واللغة والإيقاع»<sup>(6)</sup>.

ومن خلال ما سبق تتجلى الصبغة الحجاجية في الشعر، ويمكن القول:

- إن نظريات الحجاج تطرح نفسها كبديل للنظريات النقدية الأخرى لتحليل الخطاب الشعري، ومنه تتموضع في إطار إشكالية المنهج الملائم والكفيل بالإحاطة بكل جوانب الظاهرة الشعرية لهذا رأينا آراء النقاد تختلف بين مؤيد ومعارض.

(1) أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص: 36.

(2) نفسه، ص: 36.

(3) نفسه، ص: 36.

(4) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 74.

(5) نفسه، ص: 74.

(6) نفسه، ص: 74.

- إن للشعر قدرة على تحريك المشاعر وهي الاستمالة وتغيير الأحداث وهو الإقناع.
- الشعر إمتاع وإقناع، عاطفة وعقل فهو يخاطب بذلك العقول والقلوب، ويتيح بلغته الحجاجية معرفة يقينية، كما يفيد معرفة حدسية نظرا للخيال.

وقبل الختام نعود على بدء الإجابة عن السؤال الذي أثير في بداية هذا الفصل وهو: هل يوجد حجاج شعري؟

والجواب على هذا السؤال يقتضي التفصيل في نقاط منها: طبيعة الحجاج بصفة عامة، ثم شرح شروط اللغة الشعرية الحجاجية وهي جودة المعاني، تخير الألفاظ، دقة التعبير، متانة السبك، حسن الخيال التأثير في النفس.

## 2- المعنى الحجاجي للشعر:

**أولا: طبيعة الحجاج:** إذا سلمنا بأن الحجاج طبيعة في كل خطاب ألا يكون الحجاج طبيعة في الخطاب الشعري، بل يجسده أيما تجسيد بالنظر إلى وسائله البلاغية وأساليبه. وهذا ما سنبينه في المعالجة التطبيقية من خلال قصيدة الشيخ "عبد الحميد بن باديس": "شعب الجزائر مسلم".

**ثانيا: ما يؤكد حجاجية الخطاب الشعري أكثر هو لغته الشعرية التي تتميز بمزايا منها:**

### أ- جودة المعاني:

إن الحجاج يتضمن معاني مقنعة متعلقة بالمتلقي ودلالات عديدة تكتمل فيه، والخطاب الشعري الحجاجي ينتجه الشاعر ويتجه به نحو قارئ أو متلقي، فيجب أن تكون المعاني ذات جودة لتُحقق الإقناع فيه، إذن الحجاج الشعري عملية إنتاج معاني حجاجية بقدر حال المتلقي وهذا للإقناع.

فالمعاني والمتلقي هما الركيزتان اللتان تتحقق بهما الأهداف الحجاجية في الخطاب الشعري بصفة خاصة، وهما دعامة للتماسك والترابط الحجاجي، على أن المعنى وسياقه وإجاداته في الحجاج الشعري تبدو أكثر ارتباطا باستراتيجية الشعر الحجاجية الإقناعية لإقامة الحجة. ونجد المعنى إذا أصاب فكر المتلقي يضمن الاستمرار في الإقناع وبهذا يكون المعنى الحجاجي يكمن في جودته، وهو أحد المظاهر الضرورية لضمان الطابع الحجاجي للشعر أو لأي نوع من الخطاب.

ويمكن القول بأنه من أجل الحجاج السليم لا سيما في الشعر جودة المعاني وهي شرط من شروط الحجاج الشعري تعتمد على الشاعر المحاجج وبثها؛ إذ توجب إجاداتها حجاجيتها لدى السامع أو المتلقي؛ فيستطيع الشاعر المحاجج عن طريقها وعن طريق شروط أخرى أن يحقق هدفه ويبلغ مقصده إقناع المتلقي واستمالاته.

أما إن كان لا يبالي كيف تقع المعاني في نفس القارئ والمتلقي تضعف الحجج وتبتعد المعاني وهذا علة الحجاج وفساده.

#### ب- تَخْيِيرُ الْأَلْفَاظِ:

وتكمن حجاجية اللفظ في اختيار دلالاته بالإضافة إلى علاقتها باللفظ المجاور، إذ تُكُونُ الألفاظ حجاجا بذاتها، فليس «الغرض بنظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل [...] لا حال للفظة مع صاحبها تعتبر إذا أنت عزلت دلالتها جانبا»<sup>(1)</sup>.

فالشاعر المحاجج هو من يجعل لألفاظه ترتيبا حجاجيا على حسب الدلالة فاللفظة لا تصلح إلا إذ وُظفت على حسب دلالتها ودلالة ما قبلها وأن ما بعدها يقتضي دلالتها وبهذا تصلح حجاجيتها وتوظيفها حجاجيا «لأن معناها كذا ولدلالتها على كذا، ولأن معنى الكلام والغرض فيه يوجب كذا ولأن ما قبلها يقتضى معناها»<sup>(2)</sup>.

وبهذا يرتبط اللفظ بالمعنى وإجاده في تحقيق حجاج شعري ناجح.

#### ج- دقة التعبير:

ويتحقق بالشرطين السابقين؛ فإجادة المعنى لإصابة فكر المتلقي ولعدم رد الفكرة بلفظ يؤدي ذاك المعنى المصيب، واللفظ الحجاجي بالنظر لما قبله وما بعده، والعلاقة الدلالية دقة وتشكيل معنى في النفس، والتعبير عنه بلفظه دقة في التعبير وهذا كله يساهم في العملية الحجاجية، إن لم نقل اللفظ والمعنى ودقة التعبير محور العملية الحجاجية في الشعر، وفي غيره من الأجناس الأدبية، فالتعبير نتاج معنى في النفس معبر عنه بلفظ أو بالألفاظ، معنى + لفظ: تعبير، إجادة معنى + لفظ مخير: دقة تعبير، ومنه إقناع متلقي وسد كل ما يؤدي إلى الإنكار.

#### د- متانة السبك:

ويرتبط أيضا بدقة التعبير، فالتعبير قد يكون في جمل ومتانة سبك هذه الجمل لا يتأتى إلا بروابط قد تكون نحوية أو لسانية، والسبك يكون متينا حينما يضع الشاعر قصيدته في معاني وألفاظ مختارة، وهذا ما

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 49، 50.

(2) نفسه، ص: 52.

يضمن حجاجيتها وبالمقابل ينتج عن هذا تعبير دقيق حجاجي متماسك بروابط وأدوات، وهذا ما يحافظ على استمرارية الألفاظ ومنه إنتاج شعر حجاجي.

#### هـ- حسن الخيال:

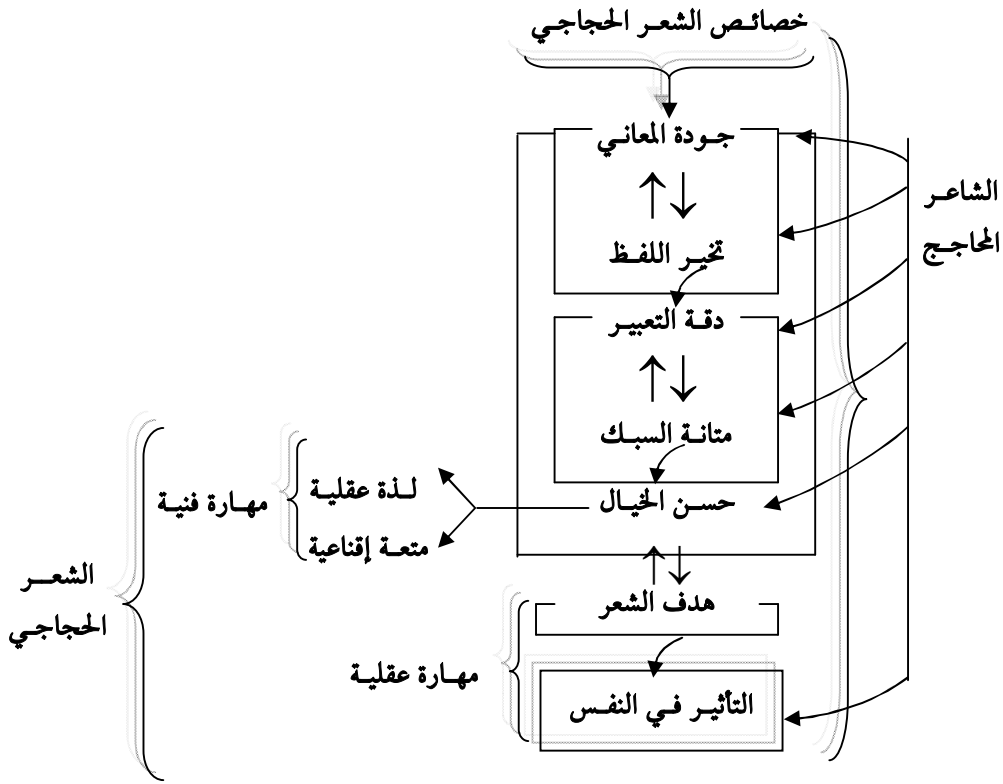
يمارس الخطاب الشعري الحجاج المتمتع، وهذا إذا كان الخيال يصور واقعا ويقيم المعقول والمفهوم؛ بمعنى أن الخيال أداة الشعر في حصول اللذة العقلية لدى المتلقي، يؤخذ الخيال على أنه المؤسس للحجاج في الشعر، وأنه المكون لتلك المتعة واللذة العقلية فيه، وكلما كان الخيال حسنا كان الحجاج مقنعا، فالشاعر المحاجج مكانته الحجاجية تتمثل في حسن خياله، مما يسمح باللذة العقلية والمتعة الإقناعية تشق طريقا نحو ذهن المتلقي، والخيال مرتبط بالشرط الأخير في اللغة الشعرية الحجاجية.

#### و- التأثير في النفس:

وهذا يطبعه الخيال الحسن الواقع الموقع الحسن في نفسية المتلقي؛ إذ يعتبر هذا الشرط الأخير هدفا يسعى إليه الشاعر المحاجج، ولا يحصل له ذلك إلا إذا جمع ما سبق من الشروط المذكورة آنفا، وما يمتاز به الشعر هو ميزته التأثيرية الكاملة في لغته، والتي يجسدها على نفسية المتلقي الخيال، ولا يمتاز بحسن الخيال إلا الشاعر المحاجج الملم بكل هذه الشروط، فيحقق مهارتين مهارة عقلية ممثلة في التأثير على نفسية المتلقي، وبالشعر وحسن الخيال يحقق مهارة فنية «وفي الجمع بينهما بهذه الطريقة يجد القارئ لذة شراب الحقيقة في كوب من الجمال»<sup>(1)</sup>.

والشكل التالي يوضح خصائص الشعر الحجاجي:

(1) ينظر، ناصر بن دخيل الله بن فالح السعيد، الاحتجاج العقلي، ص: 345.



### 3- المعنى الحجاجي العام للقصيدة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" "شعب الجزائر مسلم":

إنّ الذي يقوم بصنع المعنى العام بطابع حجاجي هو الخيال، ويبرزه أيضا علاقة الشعر بالمعنى والخطبة، وما يجسده على المتلقي من أثر، أثر الخطاب الشعري الحجاجي في المتلقي كما يظهر في قيمة الشعر القيمة النفعية.

أما المعنى الحجاجي للقصيدة بالاعتماد على الخيال أو نصلح عليه بالخيال الحجاجي ما دام هو عصب الحجاج في الشعر، وما يزيد هذا الخيال حجاجا هو الغموض الذي يُعدّ رافدا من روافد الخيال الحجاجي والشعر جنس «من أجناس الكلام يتخذ الغموض مذهبها في أغلب الأحيان وهذا الغموض قد يكون انعكاسا لغموض الوجود، ووجهها من وجوه معاناة الشاعر إزاء غموض عالمه»<sup>(1)</sup>، ويُحيل هذا الغموض إلى معاني حجاجية رامزة فحين يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس:

حَيْتَ يَا جَمَعَ الْأَدَبِ      وَرُقِيتَ سَامِيَةَ الرَّتَبِ

(1) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 63.

ن ذوى الدسائس والشغب  
تسمو إليه من أرب<sup>(1)</sup>

ووقيت شر الكائدي  
ومنحت في العلياء ما

فمعنى البيت الثاني معنى رامز يشير فيه الشيخ "عبد الحميد بن باديس" إلى الاستعمار الفرنسي، ورمزه "شر الكائدين" و"ذوي الدسائس"، وقد أدى هذا إلى انعكاس وجه من وجوه الواقع الجزائري المعيش، والاستعمار الفرنسي بصفة عامة يمثل معاناة كل جزائري وبصفة خاصة معاناة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" باعتباره رائد النهضة الإصلاحية في الجزائر.  
وهذه القصيدة تحية للمولد الكريم، فيقول:

حيي الأنام على الحقب  
يُبري النفوس من الوصب  
خلاق في نشء عجب<sup>(2)</sup>

أحييت مولد من به  
أحييت مولده بما  
بـالعلم والآداب والأ

وكان الشيخ يشير إلى أن الاستقلال الذي لا يتحقق إلا بالإسلام وإتباع سنة النبي محمد ﷺ، وهذا ما بينه البيت الثاني ودليله: يُبري النفوس والأبيات التي تلت تعزز هذا المعنى حين يقول:

سَ بنائه السامي انتصب  
غداه أشياخ تُجب  
وإليه - بالحق - انتسب  
يُغري النفوس من التَّشب  
ها أو ببارقة القُضب  
من عزهم ما قد ذهب  
حقَّ الحياة المستلب  
ئر في الشَّدائد والكُرب<sup>(3)</sup>

نشء على الإسلام أس  
نشء يُجب محمد  
فيه اقتدى في سيره  
بالروح يفتديها وما  
وبخلقه يحميها  
حتى يعود لقومه  
ويرى الجزائر رجعت  
يا نشء يا ذخر الجزا

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 570.

(2) نفسه، ص: 570.

(3) نفسه، ص: 570، 571.

ويظهر هذا جليا في الأول تُشء الإسلام، وفي البيت الثاني تُشء بحب محمد وهذا ما يبري النفوس لتحقيق الاستقلال، وهو معنى مباشر في البيت السابع والثامن حق الحياة المستلب، وقد عبّر عن المعنى بغير مباشرة في البيت السادس من عزهم ما قد ذهب، والعزّ الذاهب هنا هو الحرية، وهذا الغموض والغرابة قبل التوضيح والصراحة يجعل من الغموض «مطية من مطايا الحجاج، وطريقة من طرائق إجراءاته في الكلام»<sup>(1)</sup>، فالغموض يكون في شكل معاني رامزة أو مباشرة أو معاني غير مباشرة، وعلى تنوع هذه المعاني تأخذ لون الحجاج ويكون الخيال، بل يشكل الغموض دعامة لحجاجية الخيال وهذا كله يمنح الشعر طاقة حجاجية مُحوّلة للدلالات «فالتحول الدلالي بمختلف ضروبه يمنح الشعر طاقة لا تتوفر للكلام العادي، وتمثل في عنصر المفاجأة الذي ينسجه الغلو وتؤسسه المبالغة»<sup>(2)</sup>.

كما يفيد الخيال الحجاجي بالمعاني الدلالية وطريقة إيرادها وبالضبط «في كيفية الدلالة أي في مستوى العلاقة القائمة بين الدال والمدلول؛ فهي علاقة تجعل من المعنى مادة فقط في غير الشعر، في حين تجعل فيه المعنى بنيّه مع مادة سماها الجرحاني معنى المعنى»<sup>(3)</sup>. والخيال يتمثل في كل ضروب المجاز، مكوّنا معاني حجاجية خاصة بكل نوع منه من استعارة، كناية، مجاز مرسل، تشبيه...  
ومنه قول الشيخ عبد الحميد بن باديس "على سبيل عموم المجاز لا على سبيل التعيين:

وعلى القلوب الخافقا      ت إليه رايتُهُ نَصَبٌ<sup>(4)</sup>

فقد جعل القلوب الخافقات أراض عليها تُنصب الرايات، فهذا التحول الدلالي، تحول دلالة القلوب ونصب الرايات فيها، هو ما يمنح هذا التركيب المجازي طاقة حجاجية وقوله أيضا:

يَا نَشْءُ أَنْتَ رَجَاؤُنَا      وَيَا نَشْءُ أَنْتَ رَجَاؤُنَا  
خُذْ لِلْحَيَاةِ سِرْلَاحَهَا      وَخُضِ الْخَطُوبَ وَلَا تَهَبْ  
وَأَرْفَعْ مَنَارَ الْعَذْلِ وَالْإِ      خَسَانٍ وَأَضْدُمْ مَنَ غَصَبِ  
وَأَذِقْ نَفْسَ الظَّالِمِينَ      سُمًّا يُنْزَجُ بِالرَّهَبِ  
وَأَقْلَعْ جُذُورَ الْخَائِنِينَ      فَمِنْهُمْ كُلُّ الْعَطَبِ<sup>(5)</sup>

(1) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 66.

(2) نفسه، ص: 63.

(3) نفسه، ص: 63.

(4) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 570.

(5) نفسه، ص: 570.

فالمجاز في البيت الأول هو: "بك الصباح قد اقترب" والمقصود الاستقلال والحرية يتحقق بهذا النشء؛ لأنه هو الرجاء في ذلك، والترتيب المجازي في الأبيات المتبقية: "أرفع منار العدل"، وأذق نفوس الظالمين السم، وأقلع جذور الخائنين"

فجعل للعدل منارا، وللنفوس ألسنة، وللخائنين جذورا، وهذا حجاج الدعامة فيه الخيال ومؤسسه إذ «للشاعر وهو يؤسس العلاقة بين الدال والمدلول يباشر في شعره خروجا متواصلا على مستوى اللغة، فيخفي المعنى ويدق، ويحتاج المتلقي إلى وسائط تذلل الصعوبة وتيسر الفهم»<sup>(1)</sup>.

وبهذا يكون المتلقي مشاركا في العملية الحجاجية باكتشافه المقصود، ومنه يكون الخيال الحجاجي «لا ينفي العقل ولا يقصي الشعر من دائرة المعقول، وإن كان يوهم في الظاهر بخلاف ذلك لأنه يقتضي الإقناع»<sup>(2)</sup>.

ومنه نخلص إلى أمرين:

**أولهما:** أن الخيال يؤسس الحجاج الشعري، ورافده في ذلك الغموض أو الغرابة، وأن الدلالات التي يعقدها الخيال والغموض متنوعة، كما تطبع بطابع حجاجي وهي: معاني (دلالات) رامزة - معاني (دلالات) مباشرة - معاني (دلالات) غير مباشرة.

**وثانيهما:** أن الخيال والغموض يقحم المتلقي في اكتشاف المعاني الثاوية وراء تراكيب ومعاني أخرى غير مقصودة، وأن المجاز بكل أنواعه سبب في ذلك، ومنه يبرز دور الخيال، والمجاز الحجاجين فهما يورطان المتلقي «من جهة أنه إن قبل المجاز التزم بقبول الحقيقة»<sup>(3)</sup>.

أما المعنى الحجاجي للقصيدة من خلال علاقة الشعر بالخطبة، وهذا التعلق يمكن تأكيده بالنظر إلى صفة الشعر الحجاجية، أي متى قام الشعر على الحجاج يحوله هذا إلى خطبة، ويكون بهذا الشاعر خطيبا بالإضافة إلى اتخاذ الإقناع هدفا وغاية، وعليه «أن لا يبالغ في التخييل على حساب الاحتجاج ولا يقدم الإطراب على الإقناع، لأنه متى فعل ذلك كان كلامه شعرا وإن لم تتوفر فيه موسيقى الشعر»<sup>(4)</sup>.

فوظيفة الشاعر الخطيب المحاجج الإقناع وعليه «أن يعتمد الحجاج دون مبالغة فلا يهمل التخييل، ولا يغلب الإقناع كغاية على الإطراب والإلذاذ، فلا ضير أن يصطلح الشاعر إذن بوظيفة حجاجية ولكن بمقدار»<sup>(5)</sup>.

(1) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 63.

(2) نفسه، ص: 66.

(3) ينظر، نفسه، ص: 67.

(4) نفسه، ص: 61.

(5) نفسه، ص: 62.



وعليه تظهر شروط المحاجج الشاعر الخطيب:

- 1- أن يراعي الحجاج بقدر مراعاته للخيال؛ لأن الخيال هو من يقيم للشعر حجاجا.
- 2- أن يكون هدفه الإقناع مع عدم إهمال الإمتاع.

ويتحقق هذا حين نلمس بعض السمات الخطابية في الشعر، فقصيدة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" تُفضي إلى بيان: أن الشيخ شاعر وخطيب، فحين يقول:

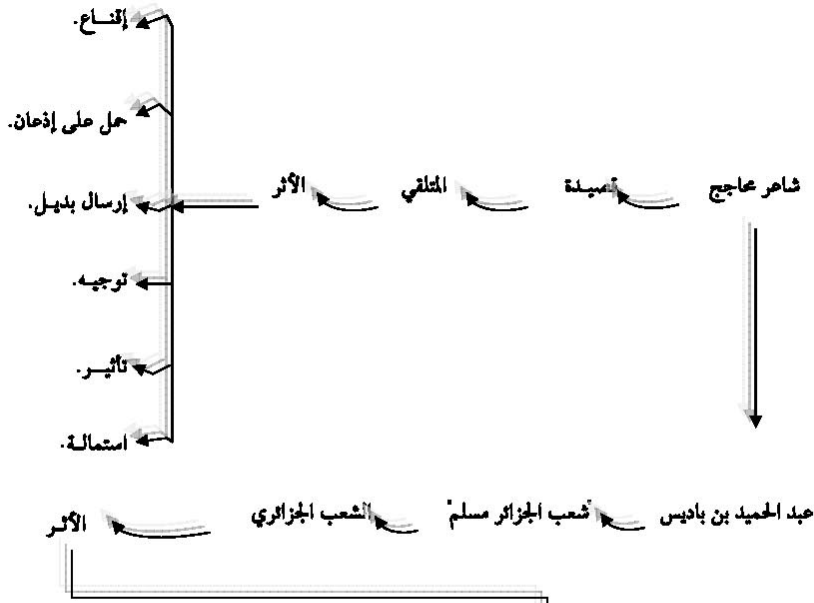
شَعْبُ الْجَزَائِرِ مُسْلِمٌ      وَإِلَى الْعُرُوبَةِ يَنْتَسِبُ  
مَنْ قَالَ حَاذَ عَنِ أَصْلِ      وَأَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذَبُ  
أَوْ رَامَ إِدْمَاجًا لَّهُ      رَامَ الْمَحَالَ مِنَ الطَّلَبِ<sup>(1)</sup>

يؤكد الشيخ أصول الشعب الجزائري: الإسلام، العروبة... ففي البيت الأخير يؤكد بأن الجزائر جزائرية عربية إسلامية لا تنتسب لأي بلد.

ونرى الطاقة الإقناعية في هذه الأبيات في سبيل إثبات الحرية وتحريك النفوس نحو الجهاد واستمالة الجماهير، فقد خطب الشيخ على العموم بأن الجزائر حرّة عربية إسلامية وأتى بعكس ذلك الإثبات:

حال عن أصله ≠ الإسلام، العروبة ← كذب.  
إدماج ≠ الجزائر جزائرية ← محال.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 571.



إقناع الشعب الجزائري بالجهاد، وحمله على إذعان بضرورة الكفاح لنيل الحرية وإرساء المقومات الجزائرية، وتوجيه الشعب نحو الاستقلال وهذا بالتأثير فيهم واستمالتهم. ومنه الأثر الأخير: أن قامت الجزائر بثورة ضد الاستعمار الفرنسي ونالت استقلالها وأخذت حريتها.

وقوله:

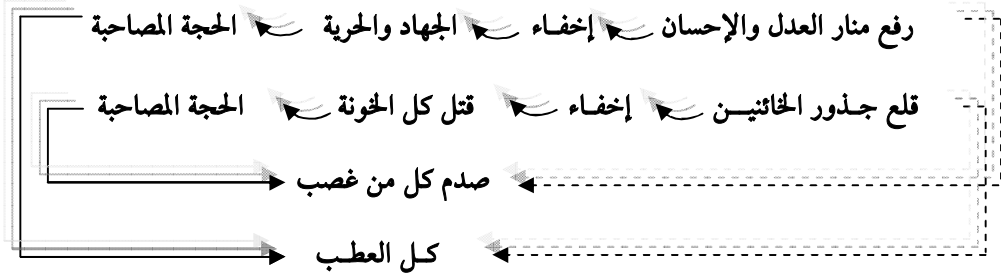
يَآنِسُهُ أَنتَ رَجَاؤُنَا      وَيَكُ الصَّبَاحُ قَدِ اقْتَرَبَ<sup>(1)</sup>

صار هذا شعرا حين تغير القول الحقيقي بالقول الشعري، واستعمل قوله الصبح قد اقترب بدل قوله الاستقلال، وكذلك قوله:

وَأَرْفَعُ مَنَارَ الْعَدْلِ وَالْإِ      خَسَانٍ وَأَصْدُكُمْ مَنَ غَصَبِ  
وَأَقْلَعُ جُذُورَ الْخَائِنِينَ      فَمَنْهُمْ كُلُّ الْعَطَبِ<sup>(2)</sup>

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 571.  
(2) نفسه، ص: 571.

إنما صار شعرا لأنه أشار إلى لواء الجهاد والحرية بمنار العدل وأبدل لفظ "أقتل" بلفظة "أقلع" وهذا الإخفاء تصاحبه الحجة:



ومنه نخلص إلى «ما به يكون الشعر هو التغيير [...] أو هو العدول عن السمات والخروج عن المؤلف، إن تم ذلك التغيير كان الأثر شعرا، وإن قَصُرَ عنه ووقع دونه كان خطبة»<sup>(1)</sup>.

وهذا فحواه أن الشاعر قد يستعمل معاني حجاجية في:

- معاني مخفية حجاجية ممثلة في الخروج عن المؤلف (المجاز).
- معاني خطابية حجاجية ممثلة في التعبير عن الحقيقة بطريقة شعرية.

وكل هذا حجاج، تبين معناه في قصيدة الشيخ ومنه نراه شاعرا خطيبا في قصيدة واحدة.

أما المعنى الحجاجي للقصيدة من خلال أثر الشعر في المتلقي، فالشاعر يمارس سلطة بنظمه «على النفوس وقدرته على توجيه المتلقي نحو غاية رسمها الشاعر باللغة والصورة والإيقاع، وأرساها في نصه لبنة لبنة ونظم عقدها وأحكم سبكها»<sup>(2)</sup>.

فلغة الشعر قادرة على طبع المعاني في ذهن المتلقي بطريقة تأثيرية سواء لتحريك المشاعر وبعثها على التغيير أو بث حقيقة ووضعها على الإقناع.

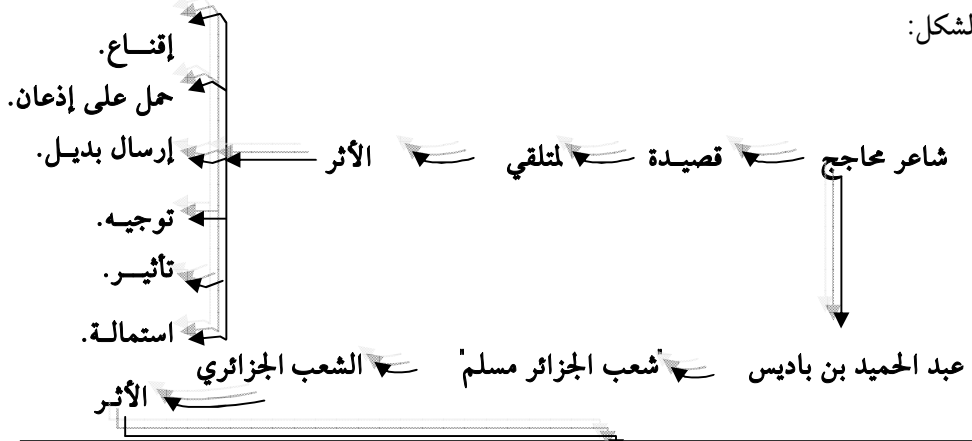
ومن خصائص اللغة الشعرية القدرة على إبراز المعنى الحجاجي وتشخيصه على ذهنية المتلقي بوسائل تغلب عليها السمة الحجاجية لتؤسس هدفا، بل تتضافر اللغة الشعرية وقدرتها الإقناعية ومعانيها الحجاجية ووسائلها في إقناع المتلقي، وعلى هذا فالوظيفة وظيفته الأداء للغة الشعرية والمعاني الشعرية، تكون في ذلك الأثر الذي تخلفه كل هذه العناصر في المتلقي.

(1) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 61.

(2) نفسه، ص: 70.

فطالما أن الشيخ "عبد الحميد بن باديس" هو رائد وإمام ومصلح، فالمتلقي يعترف بمنزلة الريادة للشيخ، ويعتبره الرائد الذي يستطيع التغيير والفعل والتأثير.

ولهذا كان بمقدرة الشيخ الشاعر المحاجج الرائد الإمام إقناع الشعب الجزائري بضرورة الجهاد، وحملهم على ذلك قصد القضاء على الاستعمار الفرنسي، وعليه يمكن توضيح أثر الشعر في المتلقي بهذا الشكل:



إقناع الشعب الجزائري بالجهاد، وحمله على إذعان بضرورة الكفاح لنيل الحرية وإرساء المقومات الجزائرية، وتوجيه الشعب نحو الاستقلال وهذا بالتأثير فيهم واستمالتهم. ومنه الأثر الأخير: أن قامت الجزائر بثورة ضد الاستعمار الفرنسي ونالت استقلالها وأخذت حريتها.

فبعد أن يُحيي الشيخ "عبد الحميد بن باديس" في قصيدته هذه الجمع الحاضر ومدحه لإحيائه المولد الكريم، يضع أمام المستمع أو المتلقي نصا شعريا واعيا هادفا نراه قد عرض معانيه ليجعل المتلقي يتهيأ للتطبيق وهذا عند قوله:

قَدِمْنَا الْجُمُ الحَسْبُ	لَحْنُ الألى عَرَفَ الزمانُ
ة آخِذِينَ لها الأَهْبُ	وقَدِ انتَبَهْنَا للهِيا
بين الأَنام لنا وَجِبُ	لنَحَلُ مركزنا الذي
عضواً شَرِيفاً مُتَخَبُ	فنزِيدُ في هذا الوَوى
أهلها وئى الرَغْبُ	ندعو إلى الحُسنى ونولى
فَعَلَى الكَرَامَةِ والرَّحْبُ	مَنْ كان يَنْغِي وَدُنَا
فَلَلهُ المَهائَةُ والحَرْبُ	أَوْ كان يَنْغِي دُنَا

هَذَا نَظْمًا حَيَاتِيًّا      بِالثَّوْرِ خُطًّا وَبِاللَّهَبِ  
هَذَا لَكُمْ عَهْدِي بِهِ      حَتَّى أَوْسُدَ فِي الثَّرْبِ  
فَإِذَا هَلَكْتُ فَصِيحِي      نَحِيَا الْجَزَائِرَ وَالْعَرَبَ<sup>(1)</sup>

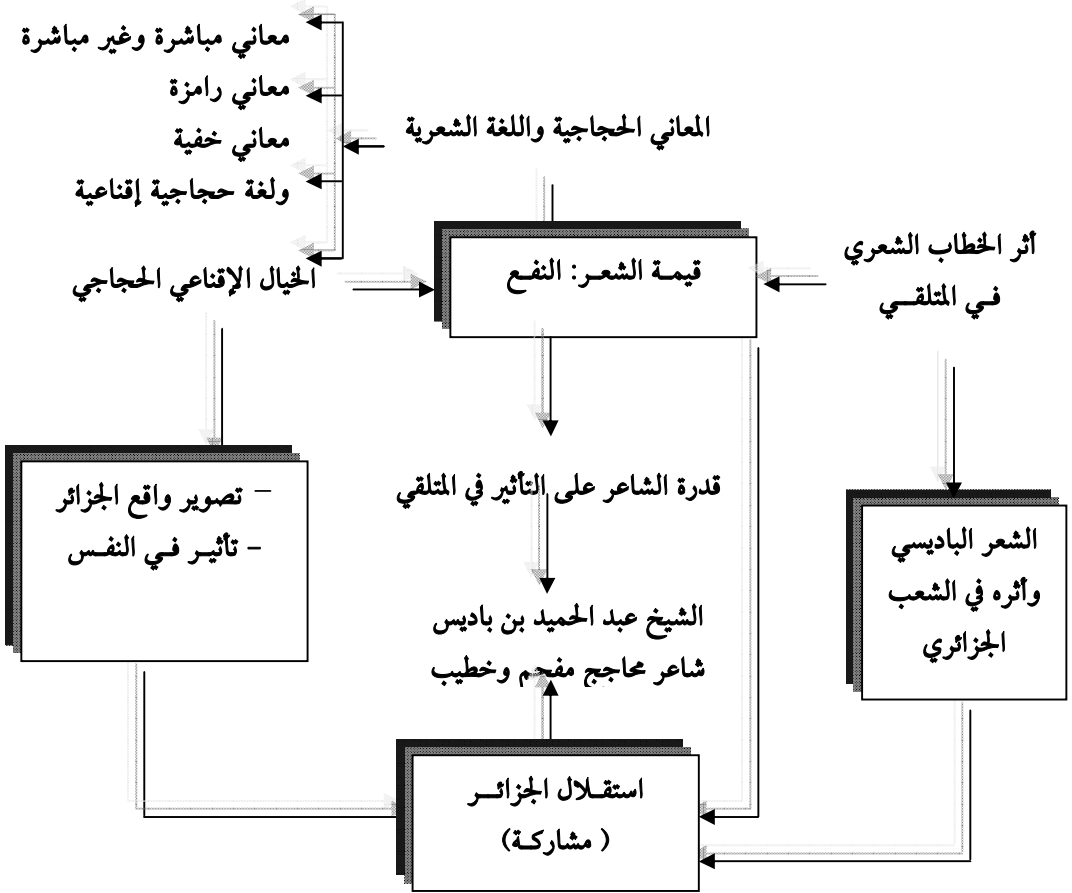
فالخطاب هنا شعري، مُنتج هذا الخطاب رائد والمتلقي شعبه شعب الجزائر فبعث في نفوسهم روح الجهاد وتكونت هذه الروح بعد سنوات، وقامت الجزائر بثورة نالت بها استقلالها، فكانت عملية التلقي مباشرة وأثره صنعه الشعر الحجاجي ولغته الإقناعية بطاقة حجاجية جعلت الهدف يتحقق بعد تحقيق الأثر على المتلقي.

ومنه حجاجية المعاني في القصيدة الباديسية بدليل الأثر الذي تخلفه لغة الشعر على المتلقي وقدرة الشعر على تجسيد وظيفة حجاجية، أما المعنى الحجاجي للقصيدة من خلال قيمة الشعر النفعية: فبعد أن يحقق الشاعر نتائجه من شعره يرى مدى نفعه على المتلقي، ومن الملاحظ أن جلّ قصائد الشيخ "عبد الحميد بن باديس" - على قلتها- ترتبط بالمرحلة الاستعمارية التي كانت تعيشها الجزائر ومنه يأخذ الشعر الباديسي صفة النفع لما حققه أو شارك في تحقيقه لصالح الجزائر في نوال استقلالها كنتيجة. فالنفع وظيفية من وظائف النص «لا تتحقق إلا بالإقناع ولا تكون إلا بالحجاج؛ فإذا به وجه من الوجوه التي تؤدي إليها وظيفة الشعر» [...] وبعبارة أخرى إن النفع بمعناه الاجتماعي لا يمثل وظيفة من وظائف الشعر، بل هو نتيجة من النتائج التي قد ينتهي إليها الخطاب الشعري، وهو يؤدي وظيفة أساسية هي الوظيفة الإقناعية الحجاجية<sup>(2)</sup>.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 572، 571.

(2) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 69.

ويحكم قيمة النفع شرط واحد هو قدرة الشاعر على التأثير في المتلقي، وهذا شكل يبين كيفية تحقيق هذه النتيجة بتضافر الخيال الإقناعي، والعلاقة بين الشعر والخطبة، وأثر الخطاب الشعري والمعاني الحجاجية:



## خلاصة:

- الشعر حجاج بامتياز بالنظر إلى مؤسس الحجاج فيه وهو الخيال إذ يحصل الإقناع به، ويحصل بطريقة إمتاعية حجاجية عقلية.
- ويتعلق الشعر بالحجاج والخطبة نظرا إلى وجه الشبه وهو الحجاج، فالشاعر محاجج والخطيب محاجج.
- للشعر الحجاجي شروط لتطبع لغته بالإقناع وهي: جودة المعاني، تخير الألفاظ دقة التعبير، متانة السبك، حسن الخيال والتأثير في النفس.
- المعنى الحجاجي يتحدد بالخيال الإقناعي في الشعر، والعلاقة بين الشعر والخطبة وأثر الشعر أو الخطاب الشعري في المتلقي وهذه العناصر تمثل بما يعرف: القيمة النفعية للشعر.
- المعاني الحجاجية في الشعر تكون متنوعة:
  - معاني رامزة.
  - معاني مباشرة.
  - معاني غير مباشرة ومعاني مخفية وكلها معاني تخدم الحجاج في الشعر.
- الشيخ "عبد الحميد بن باديس" استخدم الشعر ليحقق أهدافا، وهو استخدام حجاجي للشعر بامتياز، وقصيدته "شعب الجزائر مسلم" قصيدة حجاجية.
- الخطاب الباديسي المتمثل في هذه القصيدة، أثر على المتلقي الجزائري بأن جعله يشور ويقوم كفاحا فنال حريته وهذه منفعة من هذا الخطاب الشعري.

## المبحث الثاني

### " Les actes de parole " الكلامية

- هل ننجز الأشياء بالكلمات أم أننا حينما نتكلم لا نفعل شيئاً؟

الأفعال الكلامية نظرية من نظريات التداولية التي تُعنى بالحجاج وكل هذا يرتبط باللغة، فإذا نظرنا إلى اللغة من الجهة الوظيفية فهي وسيلة اتصال وإيصال تؤدي بالمستمع إلى القيام بفعل، أو الكف عنه، أو تغيير سلوكه، أو معتقده، ويحصل هذا لحظة التلفظ، ويستلزم متكلماً أو محاججاً، بمعنى أن نظرية الأفعال الكلامية تتجسد باللغة، ويتطلب هذا متكلماً ومستمعاً ومقصداً أو هدفاً يحققه المتكلم، ويظهر هذا الهدف من خلال أفعال المتلقي وردوده، وترتبط اللغة بالأفعال الكلامية في قضية مفادها أن اللغة تمكّن المتكلم من التأثير في المتلقي.

بهذا يكون المتكلم ينجز أفعالاً بالقول، بشرط التأثير في المتلقي لتحقيق المقاصد التي وضعها المتكلم آنفاً.

ولا شك أن هذا الإنجاز أتى بعد تأثير، أتى بعد عملية تلفظ، وتبرز علاقة الحجاج بالأفعال الكلامية؛ إذ يعمد المحاجج إلى إقناع المتلقي وهو الهدف بعد عملية التلفظ وينتج عنها فعل التأثير في المتلقي، فينجز عملاً ويقوم به لأنه مقتنع ومتأثر، وهذا هو فعل الإنجاز.

ويرتبط هذا كله بالتداولية إذ تكمن تداولية المتكلم في قدرته الإنتاجية الخطابية أو اللغة الإقناعية، والمتلقي يُشترط فيه القدرة الاستقبلية لفهم مقاصد ومرامي المتكلم والغرض من إنتاج الخطاب، والخطاب تلزمه شروط نفعية إذا اعتبرنا أن الخطاب الهدف منه الإنجاز.

هكذا يتبين أن قضية أو نظرية إنجاز الأشياء بالكلام تستند إلى منهج حجاجي، ولكن قبل استجلاء هذه النظرية الحجاجية التداولية في قصيدة الشيخ عبد الحميد ابن باديس، يتحتم علينا أن نعرض أنواع الأفعال الكلامية وتقسيماتها حسب أوستين AUSTIN وسيرل SEARLE. وقبل هذا نعرّف الفعل الكلامي وهو أن استعمال لغة معينة تحقق أفعالاً بالكلام، بمعنى آخر حينما نتكلم ننجز أشياء، وهو مذهب أوستين في وظيفة اللغة من الاستعمال، لتحقيق اللغة وظيفة أفعالها الكلامية في بناء الحدث، وتحويل طبيعة المتلقي من متلقٍ إلى مجسد للفعل، ويتطلب هذا شروطاً هي:

- 1- أن يكون المتلقي له السلطة والحق في القيام وتأدية الفعل.
- 2- أن يكون المتلقي منجزاً لعمليته بنزاهة الالتزام بالفعل.



ويتحقق الفعل الكلامي إذا كان المتكلم محاججا مبينا ومحدثا ماهرا، لأن هذا الفعل لا يتحقق إلا إذا قام في ذهن المتلقي بما يقصده المتكلم، وهذا يتوقف بمدى فاعلية المتكلم فاللفظ يكون فاعلا من ناطقه، وبهذا يكون المتكلم ذات متلفظة فاعلة، لتجسيد وصنع أحداث بالكلام، القصد منها تغيير حال المتلقي وحمله على قصد المتكلم، وفي هذا قواعد:

- 1- أن يكون المتكلم «قادرا على إنجاز الفعل»<sup>(1)</sup>.
- 2- أن «يكون المتكلم مخلصا في أداء الفعل فلا يقول غير ما يعتقد ولا يزعم أنه قادر على فعل ما لا يستطيع»<sup>(2)</sup>.
- 3- أن «يجاول المتكلم التأثير في السامع لينجز القول»<sup>(3)</sup>، وهذا هو الأساس من نظرية الأفعال الكلامية إذ غرض المتكلم التأثير في المتلقي بعد الإخلاص في أداء الفعل والقدرة على إنجازها.

ترتبط هذه النظرية (الأفعال الكلامية) بالحجاج في الفعل الإنجازي والتأثيري، والمحاجج يقصد بخطابه متلقٍ بهدف التأثير وإنجاز شيء معين، ومنه يظهر دور المتكلم ومقصده من الخطاب، وعليه يظهر رد فعل المتلقي بسبب طبيعة المحاجج ومنزلته، ومرجع كل هذا إقناع المتلقي، فبنية الحجاج تتحدد من الخطاب كله وهذا الخطاب مكون من أفعال لفظية، وإنجازية، وتأثيرية، ومنه يتجسد الحجاج من خلال هذه الأفعال في نظرية الأفعال الكلامية.

## 1- أنواع الأفعال:

- أ- الأفعال الإخبارية: (Constative): «وهي أفعال تصف وقائع العالم الخارجي وتكون صادقة وكاذبة بحيث يصح لقائله إنه صادق أو كاذب»<sup>(4)</sup>. والصدق والكذب مرتبطان بالواقع مطابقة ومفارقة.
- ب- الأفعال الأدائية: (Par formative): وهي أفعال «لا توصف بصدق أو كذب بل تكون موفقة كما أطلق عليها أو غير موفقة، ويدخل فيها التسمية والوصفية والاعتذار والرهان، والنصح والوعد»<sup>(5)</sup>.

(1) محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2008، ص: 48.

(2) نفسه، ص: 48.

(3) ينظر، نفسه، ص: 48.

(4) نفسه، ص: 43.

(5) نفسه، ص: 44.

ويشترط أوستين<sup>(1)</sup> في توفيق الأفعال الأدائية شروط هي الشروط الملائمة والشروط القياسية، ترتبط الأولى في كون الناس مؤهلين بالأداء؛ أي قدرتهم على الأداء وتلتزم الثانية بصدق المشاركين والقدرة على الالتزام<sup>(1)</sup>.

وقسم أوستين<sup>(2)</sup> الفعل إلى ثلاثة أنواع يمكن تحديدها من الحدث أو الفعل، وتعتبر هذه الأفعال جزئية تكون في مجموعها فعلا دالا، إنجازيا، تأثيريا. وهي:

#### أ- الفعل اللفظي: (Actes locutoire):

«وهو يتألف من أصوات لغوية تنتظم في ترتيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى محدد وهو المعنى الأصلي وله مرجع يحيل إليه»<sup>(2)</sup>. ومنه نلمح عدة مستويات: صوتي، تركيب، دلالي، ومعنى محال إليه مقصود.

#### ب- الفعل الإنجازي: (Acte Illocutoire):

بما أن التداولية تدرس المنجز اللغوي فقد ركز أوستين<sup>(3)</sup> على هذا النوع باعتباره مرتبطا بصفة خاصة بالتداولية «وهو الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي، وأن للقوة الإنجازية دليلا يسمى دليل القوة الإنجازية، يبين لنا نوع الفعل الإنجازي الذي يؤديه المتكلم بنطقه للجملة»<sup>(3)</sup>.

#### ج- الفعل التأثيري: (Acte perlocutoire):

وهو نتيجة الفعل اللفظي الإنجازي وهو الأثر الذي يصنعه الفعل الكلامي والمتلقي «سواء كان تأثيرا جسديا أو فكريا أو شعوريا»<sup>(4)</sup> وقدم أوستين<sup>(4)</sup> تصنيفا آخر للأفعال على أساس القوة الإنجازية فجعلها خمسة:

1- أفعال الحكم (الأحكام): (Actes Verdictifs): وهي أفعال تتمثل في حكم يصدره قاض أو حكم<sup>(5)</sup>، وهي تدل على التقييم والتقويم وتشمل أفعال التبرئة، والتقدير، وإصدار المرسوم...

(1) ينظر، محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 44، 45.

(2) نفسه، ص: 45.

(3) نفسه، ص: 47.

(4) نفسه، ص: 68.

(5) ينظر، نفسه، ص: 46.

- 2- **أفعال القرارات: (Actes Exercitifs):** وهي الأفعال الكلامية التي تعبر عن اتخاذ قرار في صالح شيء أو شخص، أو ضده مثل: يأذن، يحرم...<sup>(1)</sup> ويكون هذا القرار حق يمارسه الشخص.
- 3- **أفعال التعهد: (Actes Promissive):** وهي أفعال تلزم المتكلم (إلزامية المتكلم) بفعل عمل معين ووجوب القيام به كأفعال القسم، والرهان، والتعهد والضمان...
- 4- **أفعال السلوك: (Actes Comportatifs):** وهي أفعال تمثل «رد الفعل لحدث ما»<sup>(2)</sup>، وهي تجسيد موقف المتكلم في القول أمام مخاطب: كالاعتذار، والترحيب والشكر والتهنئة والتعزية...
- 5- **أفعال الإيضاح: (Actes Explicatifs):** وهي الأفعال التي تستخدم لتوضيح وجهة النظر أو بيان الرأي وذكر الحجة وترتبط هذه الأفعال بالحجاج كالأثبات، التأكيد، النفي، الشرح، التوضيح، الإنكار، التأويل الوصف والتفسير...

بالإضافة إلى تقسيم أوستين (John Austin) فقد قدم سيرل (John Searle) أفعال الكلام في خمسة أصناف:

#### أ- الإخبار: (Assertives):

تكمن غاية هذا النوع من الأفعال، إسناد المسؤولية للمتكلم عن وجود وضع الأشياء والغرض الإنجازي في هذه الأفعال هو أن ينقل المتكلم واقعية ما، تحتل أفعال هذا الصنف الصدق والكذب ويتضمن هذا النوع من الأفعال بالمقابل في تقسيم أوستين أفعال الإيضاح وأفعال الأحكام<sup>(3)</sup>.

#### ب- التوجيهات: (Directives):

وغرض التوجيه جعل المتلقي ينجز عملاً معيناً وهذا غرضه الإنجازي، ويدخل في هذا الصنف: النصح، الإذن، الأمر، الاستفهام... ويقابل هذا النوع في تقسيم أوستين أفعال السلوك وأفعال القرارات<sup>(4)</sup>.

(1) محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 69، 70.

(2) ينظر، نفسه، ص: 79.

(3) ينظر، نفسه، ص: 71.

(4) ينظر، نفسه، ص: 71.

## ج- الالتزاميات:

وفيها يلتزم المتكلم بفعل شيء ما في المستقبل وشرطه الإخلاص وهو القصد والظاهر أن التوجيهات والالتزاميات يشتركان في اتجاه المطابقة وهذا راجع: في التوجيهات يحاول المتكلم التأثير في السامع ومرجع التوجيهات هو السامع بينما الالتزاميات مرجعيتها المتكلم والمطابقة جعل الكلمات تطابق العالم الخارجي<sup>(1)</sup>.

## د- التعبريات: (Expressives)

وتقابل هذه الأفعال، أفعال الممارسة عند أوستين<sup>(2)</sup> مع شرط صدقها<sup>(2)</sup>، ويشترط في الأفعال التعبيرية الإخلاص ويدخل في هذا الصنف: أفعال الشكر والتهنئة والاعتذار والتعزية والترحيب<sup>(3)</sup>.

## هـ- الإعلانيات: (Declarations)

لا تحتاج هذه الأفعال لشرط الإخلاص ونجاح هذه الأفعال في مطابقة المحتوى القضوي للعالم الخارجي، واتجاه المطابقة في هذه الأفعال قد تكون: من الكلمات إلى العالم، من العالم إلى الكلمات، وأهم ما يميز هذه الأفعال أنها تحدث تغييرا في الوضع القائم وهذا الأخير غايتها<sup>(4)</sup>. وتكون هذه الأفعال حين التلفظ ذاته<sup>(5)</sup>. ويدخل هذا الصنف في الأفعال الدالة عن الإعلان.

ما نخلص إليه أن نظرية الأفعال الكلامية قد أدت بالحجاج تطورا وتجزرا ضمن اللسانيات التداولية بفضل جهود أوستين<sup>(6)</sup> وسيرل.

ونلمح هذا في قرار أوستين<sup>(6)</sup> بأن كل جملة بمجرد التلفظ بها على نحو جاد توافق على الأقل إنجاز عمل قولي وعمل متضمن في القول، وتوافق أحيانا كذلك القيام بعمل تأثير القول<sup>(6)</sup>.

ونلمسه في إسهامات سيرل<sup>(6)</sup> بعد أوستين<sup>(6)</sup> ومن إسهاماته «تحديده للشروط التي بمقتضاها يكلل عمل متضمن في القول بالنجاح فيميز بين القواعد التحضيرية ذات الصلة بمقام التواصل يتحدث المتخاطبون اللغة نفسها، ويتحدثون بنزاهة [...]»، وقاعدة المحتوى القضوي يقتضي الوعد من القائل أن يسند إلى نفسه

(1) ينظر، محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 71.

(2) ينظر، خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 100.

(3) ينظر، محمود أحمد نخلة، آفاق في البحث اللغوي المعاصر، ص: 80.

(4) ينظر، نفسه، ص: 80.

(5) ينظر، خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 100.

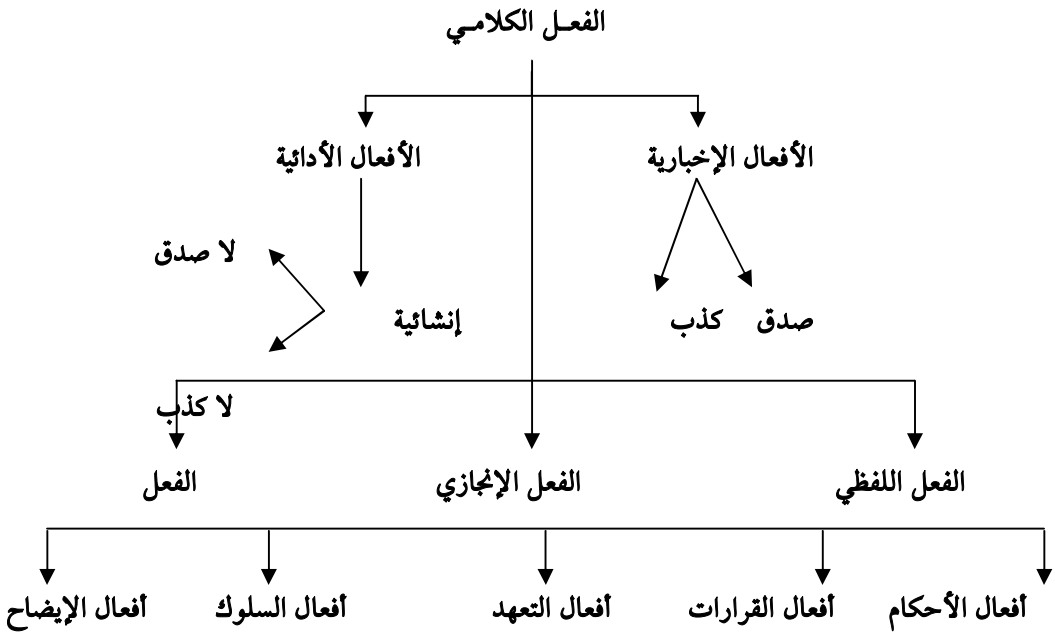
(6) ينظر، جاك موشلار، آن رويول، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دفعوس، محمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة 1، تموز (يوليو) 2003، ص: 32.

إنجاز عمل في المستقبل والقواعد الأولية المتعلقة باعتقادات تمثل خلفية من تلفظ بأمر أن ينجز العمل الذي أمر به [...] والقاعدة الجوهرية التي تحدد نوع التعهد الذي قدمه أحد المتخاطبين [...] وقواعد المقصد والمواضعة التي تحدد مقاصد المتكلم والكيفية التي ينفذ بها هذه المقاصد<sup>(1)</sup>.

وعلى هذه القواعد اعتمد "سيرل" تصنيفا جديدا للأفعال، كما اعتمد على المتكلم ومقصده وأولاه عناية خاصة.

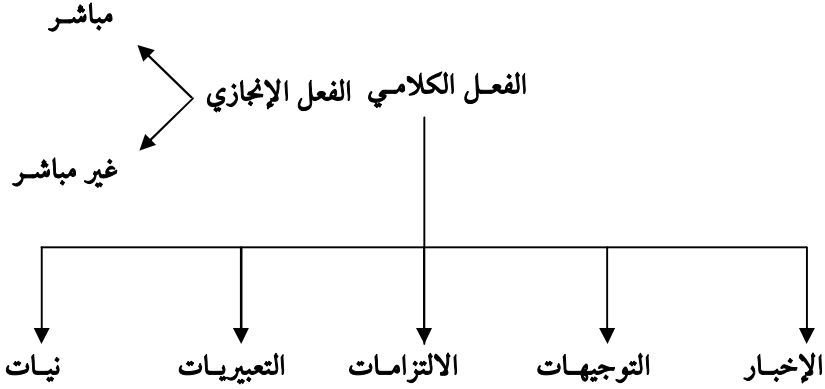
وهذا مخطط يوضح تصنيف الأفعال كما صنفها "أوستين" و"سيرل":

أ- الفعل الكلامي عند "أوستين"



(1) جاك موشلار، آن روبرول، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ص: 34.

## ب- الفعل الكلامي عند سيرل.



ملاحظة: هناك تقسيمات للفعل عند سيرل وأوستين وقد عرضنا الأشهر وهذه النظرية- الأفعال الكلامية- بقربها وعلاقتها بالفلسفة، تحتاج إلى بحث مستقل بذاته.

## 2- مقاصد أفعال الكلام في الشعر الباديسي من خلال قصيدة: 'شعب الجزائر مسلم'. مقطوعتي:

'شعب الجزائر'<sup>(1)</sup>، 'الحمد لله ثم المجد للعرب'<sup>(2)</sup>.

أ- وفق تصنيف أوستين:

إن الأفعال اللغوية تفضي إلى اكتشاف مقاصد المتكلم، كما تؤدي إلى تحديد هدف المرسل بدراسة كل أنماط الأفعال التي يتلفظ بها، والمتلقي في هذا سبل لفهم ما أرسل إليه، ومن هذا نرى العلاقة بين الفعل اللغوي والقصد والمتلقي.

\* أفعال الأحكام: تشمل وتحتوي أفعال التبرئة، الحكم، تقرير، تحليل، إصدار مرسوم، وإيجاد هذه الأفعال في قصيدة 'شعب الجزائر مسلم' ارتأينا تحديد عرضها من البيت الأول إلى البيت الرابع عشر<sup>(3)</sup>.

ورُقيتَ ساميةَ الرتبِ  
ن ذوى الدسائس والشغبِ  
تسمو إليه من أرب

حُييتَ يا جمعَ الأدبِ  
ووقيتَ شرَّ الكائدي  
ومُنِختَ في العلياء ما

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 569.

(2) نفسه، ص: 573.

(3) نفسه، ص: 560.

حيّ الأنام على الحقب	أحييت مولد من به
يُبرى النفوس من الوصب	أحييت مولوده بما
خلاق في نشء عجب	بـالعلم والآداب والأ
س بنائه السامي انتصب	نشء على الإسلام أس
غذاه أشياخ نجب	نشء بـجـب محمد
وإليه - بالحق - انتسب	فيه اقتدى في سيره
ت إليه رأته نصب	وعلى القلوب الخافقا
يُغرى النفوس من النشب	بالروح يفديها وما
ها أو ببارقة القضب	وبخلقه يحمي حما
من عزهم ما قد ذهب	حتى يعود لقومه
حق الحياة المستلب <sup>(1)</sup>	ويرى الجزائر رجعت

جاءت أفعال هذه الأبيات تتراوح بين الماضي والمضارع، وكان للماضي النصيب الأوفر وهي: (حييت، رُقيت، ووُقيت، مُنحت، أحييت، انتصب، أسس، غزاه، افتدى، انتسب، نصب، ذهب). ما يؤكد أن الأفعال الماضية تنطوي تحت أفعال الحكم، هو دلالتها على انقضاء شيء حين التلفظ بحسب الدلالة. فقد عبرت الأفعال الماضية (انتصب، انتسب، نصب، ذهب، غزاه) على أحكام حكم الانتساب والذهاب، فالحكم الأول مثلا: انتساب الجزائر الإسلام وحب محمد(ص) وذهاب العزّ الحرية والاستقلال. وما جاء من المضارع: (تسمو، يفديها، يحمي، يعود، يرى) وهي أفعال تجعل المتلقي يتماشى مع هدف وقصد المتكلم، وقد خلّت هذه الأبيات من فعل الأمر لعدم الحاجة إليه، وغلب التقرير على مستوى الجمل والوصف.

كقوله: "نشئ على الإسلام أسس بنائه".

وتعتبر بذلك الجملة التقريرية "نشئ على الإسلام أسس بنائه" ناجحة في تقريرها، كونها دلت عن ترغيب في الجهاد بالفدى والذود عن الحمى، حتى يعود ويرجع العزّ والحق المستلب. نخلص إلى أن استعمال الأفعال الماضية - بكثرة - حيث تمّ توظيف أفعال مضارعة جاءت لتدعم دلالة الماضي بالإضافة إلى الجمل التقريرية، وفي هذا التزاحم الدلالي بين: الأفعال الماضية والمضارعة

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 570.

والجمل التقريرية تحقيق لمقصدية تداولية في الأبيات، تمثلت في أصل الجزائريين في إسلامهم وحبهم للرسول ﷺ وهذا يمثل تحفيذا وجلبا للعقول واستمالة للقلوب وسبيلا لنيل الحرية والاستقلال.

الفعل	زمنه	دلالاته	مقصديته
رُقيت	ماض	حكم تقريرى	بيان قيمة الجزائر وشعبها في تحية المولد الكريم، وهذا الفعل دل على رتبة الجزائريين للاحتفاء بالرسول الكريم.
أسس	ماض	حكم تقريرى	الشيخ "عبد الحميد بن باديس" يؤكد في حكم على الإسلام في الجزائر، ثم يستشهد على هذا بغيرتهم والدفاع عنه. قصد بث روح الحرية في الجزائريين وتوجيه الفكر نحو المقاومة.
"حتى" يعود	مضارع	حكم إلزامى	إثبات حرية الجزائر من الاستعمار الفرنسى ما دامت الجزائر إسلامية، وهذا تحفيز لأن المسلم المؤمن لا يرضى بالعيش في بلاده مستعمرا بل حرا وللقيام بما يعيد للجزائر حريتها.

\* أفعال القرارات: اتخاذ قرار لصالح شيء أو ضده.

يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس:

شَغِبُ الْجَزَائِرِ مُسْلِمٌ      وَإِلَى الْعُرُوبَةِ يَتَسَبَّبُ  
مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أَصْلِ      وَأَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذَبَ  
أَوْ رَامَ إِدْمَاجَ أَلُوهُ      رَامَ الْمَحَالَ مِنَ الطُّلْبِ<sup>(1)</sup>

الملاحظ في الأبيات غلبة الأفعال الماضية على الأفعال المضارعة، وقد دلت الأفعال الماضية على قرار اتخذته الشيخ في قضية الجزائر فرنسية "الإدماج"، والذي وضح هذا القرار الشرط في البيت الثاني باستعمال "من" والفاء الرابطة لجملة الجواب.

فتمثل جملة الجواب القرار لصالح الجزائر ضد فرنسا، ومثاله:

حال عن أصله ← اتخاذ قرار ← كذب ← قرار كذب إحالة الجزائر عن أصلها.  
من قال هذا ← فقد كذب.

رام إدماج له ← محال ← قرار استحالة إدماج الجزائر بفرنسا.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 571.



وأتى الفعل المضارع يؤكد ذلك في البيت الأول: "يتسبب" انتساب الجزائر للإسلام والعروبة ينفي خروجها عن أصلها أو دمجها مع فرنسا.

والذي دعم هذا كله هو الجملة الخبرية ممثلة في البيت الأول.

وُتحقق هذه الأبيات مقصدية الشيخ عبد الحميد بن باديس<sup>1</sup> وهي مقصدية تداولية بالنظر إلى صبغة الأبيات وطبيعتها التحريرية، مفادها أن الشعب العربي المسلم لا يقبل الإدماج مع الأجانب ولا يجيد عن أصله.

الفعل	زمنه	دلالاته	مقصدية
يتسبب	مضارع	تقريري إلزامي	قصد به الشيخ أصل الديانة الإسلامية في الجزائر مع العروبة، وفيه دعوة إلى التكتل ولم الشمل.
قال، حال	ماض	تقريري	وفيه إقرار إشاري للذي يشكك في أصل الجزائر ودينها
قال، مات	ماض	تقريري	وعروبتها، وأن الإسلام والعروبة من مقومات الشعب
رام، كذب	ماض	تقريري	الجزائري، وفي هذا مقصدية هي البلد الإسلامي العربي
	ماض	تقريري إلزامي	الأصل لا يقبل غير الحرية.

\* أفعال التعهد: أفعال إلزامية بعمل ما معترف به للمتكلم.

يقول الشيخ:

هَذَا نِظَامُ حَيَاتِنَا  
هَذَا لَكُمْ عَهْدِي بِهِ  
فَإِذَا هَلَكْتُ فَصِيْحِي  
بِالنُّورِ خُطٌّ وَبِاللَّهَبِ  
حَتَّى أَوْسَدَ فِي الثُّرْبِ  
نَحْيَا الْجَزَائِرُ وَالْعَرَبُ<sup>(1)</sup>

تنوعت أيضا أفعال هذه الأبيات بين الماضي والمضارع، وكانت دلالة الماضي في بيان نظام الحياة للفرد الجزائري العربي الإسلامي المجاهد في سبيل الله من أجل وطنه، وورد الفعل المضارع تحيياً وجاءت الأفعال الماضية "خط، أوسد، هلكت" دالة على الثبات والتمسك بالنظام وهو الجهاد في سبيل الله من أجل حرية الوطن، وقد وردت أداة الشرط غير الجازم "إذا" دالة على تعهد الشيخ بأمر الجهاد وتمثل في صيحتة "فصيحتي تحيا الجزائر والعرب".

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 572.

وأتى اسم الإشارة يبين فعل التعهد "هذا عهدي" وبينت "حتى" درجة التمسك به "حتى أوسد في التراب"، وفي هذا وعد مؤكد بالجهاد حتى الاستشهاد، وتؤدي هذه الأفعال وظيفة تداولية تتمثل في الإغراء والتقيد بالوعد والعهد.

وقوله في مقطوعة "أشعب الجزائر":

فدُوموا على العهد حتى الفنا  
 وتناؤنها بسوا عديكم  
 وحتى نناؤوا الحقوق السنية  
 وإيمانكم والنفوس الأيية  
 بذاتي وروحي عليكم ضحية<sup>(1)</sup>  
 فضحوا وهنا أنا بينكم

يشكل الفعل بصيغة الأمر أساليا إنشائية، فنجد الشيخ عبد الحميد بن باديس "يصدر أوامرا لكن بطريقة إغرائية تحفيزية، بعد ما يجعل من نفسه أول المجاهدين وأول المضحين بقوله: "روحي عليكم ضحية". و في هذا أيضا وعد وعهد آخر، بأن قدّم الشيخ نفسه ضحية أولى وهذا يشكل في نفس المتلقي حماسا وتحفيزا وتحقيقا للوعد وتمسكا بالعهد.

وقد حققت الأبيات مقصدية تمثلت في مصلحة الجماعة أهم من مصلحة الفرد وتوجيه الفكر الخاطيء صوب الفكر الصحيح، ومنه تحقيق المنفعة واسترداد العز المسلوب.

الفاعل	زمنه	دلالاته	مقصديته
خُط	ماضٍ	وعد حكمي	بيان كيفية الجهاد قصد الدعوة إليه لنيل الحرية وترك التماطل.
أوسد	مضارع	وعد حكمي	- قصد به الشيخ فداء بلاده بروحه حتى الموت. - مقصديته دفع النفس بالجهاد والنهي عن التخاذل.
هلكت	ماضٍ	وعد حكمي	
تحيا	مضارع	وعد حكمي	بيان الدوام على الجهاد حتى الفناء، وهذا بقصد الالتزام بالعهد.
فدوموا	أمر	وعد حكمي	طلب الالتزام بالعهد، كما التزام به الشيخ
تنالوا	مضارع	تعهد إلزامي	- هذين الفعلين مقصديتهما تلحظ من زاوية التوجيه والنصح للمتلقي.
تناولنها	مضارع	تعهد إلزامي	
فضحوا	أمر	وعد حكمي	- ورد هذا الفعل بعدما تعهد الشيخ بروحه في البيت الأول، ثم أعاد التعهد في عجز البيت الأخير. مقصديته من ذلك: التأكيد على التضحية في سبيل الوطن.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 569.

\* أفعال السلوك: وهي تمثل ردة فعل من جراء حدث معين، يقول الشيخ:

يا نشءُ يا دُخْرَ الجزا	نر في الشدائد والكُربِ
يَآنسُ أُنْتِ رَجَاؤُنا	وَيَكُ الصُّبْحُ قَدِ اقْتَرَبِ
خُذْ لِلْحَيَاةِ سِلاَحَها	وَخُضِ الخُطُوبَ وَلَا تَهَبِ
يا قومُ هذا نشؤكم	وإلى المعالي قد وئبِ
كونوا له يكن لكم	وإلى الأمام إبتنا وب <sup>(1)</sup>

تنوعت في هذه الأبيات الأفعال بين: الماضي والمضارع والأمر، فنجد الماضي: اقترب، وثب، والأمر: خض، خذ، كونوا، والمضارع: لا تهب، يكن.

فالشيخ عبد الحميد بن باديس<sup>(1)</sup> في البيت الرابع كأنه في مقام الشكر والتهنئة، وقد عبر عن هذا بالفعل "وثب"، ثم يعلق الآمال على هذا النشء بمناداته "يا نشء" ونلاحظ أن النداء تكرر ثلاث مرات: "يا نشء" مرتين و"يا قوم" مرة؛ إذ يعدّ النداء توجيهاً لأنه يحفز المتلقي للقيام بعمل أوردته فعل. فبعد النداء الأول يليه النداء الثاني ليعلق به الأمل والرجاء، ثم يأمره بأخذ السلاح وخوض الخطوب، ثم ينادي مرة ثالثة للتهنئة والشكر، ثم يعيد الأمر كونوا ليكون النداء مع الأفعال، أفعال السلوك والالتزام.

وتحقق الأبيات مقصدية لدعوى الشيخ إلى التكتل والتجمع لتحقيق الهدف، بذلك تدعوا كل أبيات القصيدة وإلى الإسلام والتوحيد والجهاد. وقوله في مقطوعة الحمد لله ثم المجد للعرب:

الحمد لله ثمّ المجد للعرب	منّ المحبوا لبني الإنسان خير نبي
ونشروا ملةً في الناس عادلةً	لا ظلمَ فيها على دينٍ ولا نسبٍ
وبذلوا العلمَ مجاناً لطالبه	فقال رُغْبَاءُ ذو فقرٍ وذو نشبٍ
وحرروا العقلَ من جهلٍ ومن وهمٍ	وحرروا الدينَ من غشٍّ ومن كذبٍ
وحرروا الناسَ من رِقِّ الملوكِ ومن	رقِّ القُداسَةِ باسمِ الدينِ والكتبِ <sup>(2)</sup>

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 571.

(2) نفسه، ص: 573.

جاءت معظم الأفعال في هذه الأبيات للدلالة على سلوك معين وهو سلوك العرب اتجاه الدين، النبي، والعلم، ونرى الأفعال الدالة على ذلك:

نشروا ← ملة الإسلام، أنجبوا ← "خير نبي"، بذلوا ← "أعلم مجانا لطلبه".

وجاءت معظم الأفعال ماضية للدلالة على مقام الشكر والتهنئة "نشروا، أنجبوا بذلوا، فنال، حرروا، ونلمح في هذه الأبيات تداولية عبرت عن منهج العرب في الدين والتعليم وهو منهج يقوم على التجريب بما أن الجزائريين عرب، ويدينون بالإسلام ويسعون في كل هذا إلى الخير والعلم، واتخاذ مواقف تكون مبادئا أو دليلا على كفاءة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" الذي بهذا يحفز ويشحن النفوس لاتخاذ موقف أو القيام بردة فعل.

\* أفعال التوضيح: (الإيضاح) لبيان وجهة النظر أو توضيح الرأي بدليل يقول الشيخ:

قَدِمْنَا الْجُمُومَ الْحَسْبُ	نَحْنُ الْأَمَلُ عَرَفَ الزَّمَانُ
وَآخِذِينَ لَهَا الْأَهْبُ	وَقَدْ انْتَبَهْنَا لِلْحَيَا
بَيْنَ الْأَنْامِ لَنَا وَجَبُ	لِنَحْلُ مَرَكَزِنَا الَّذِي
عَضُوضًا شَرِيفًا مُتَّخِبُ	فَنَزِيدُ فِي هَذَا الْوَرَى
أَهْلُهَا مِنْهَا الرُّغْبُ	نَدْعُو إِلَى الْحُسْنَى وَنُولِي
فَعَلَى الْكِرَامَةِ وَالرَّحْبُ	مَنْ كَانَ يَنْغِي وَدُنَا
فَلَهُ الْمَهَائَةُ وَالْحَرْبُ <sup>(1)</sup>	أَوْ كَانَ يَنْغِي دُنَا

توازنت أفعال الأبيات بين الماضي والمضارع، وهذا دليل على حركية الخطاب الشعري، وقد ورد البيت الأول جملة إخبارية تفيد الإثبات والتأكيد والوصف، تصف عراقة الشعب الجزائري، وتؤكد عربيته في البيت الثاني، وتثبت قدرة هذا الشعب وأنه على أهبة الاستعداد، والأفعال التي أفادت هذه المعاني الحجاجية هي: "عرف، انتبهنا، وجب"، وتعتبر الأبيات الثلاثة الأولى بمثابة الحجج التي تؤدي للنتائج الآتية: "أحلل في المركز الذي بين الأنام وجب"، والزيادة في هذا الوري شرفاً، والذي دل على ذلك الأفعال التوضيحية التي بينت دعوة الجزائر إلى الحسنى، منها: "نولي، ندعو، نحل، وجب، نزيد".

أما ما ورد من الأساليب الشرطية باستعمال "من"، فتمثلت وظيفته في طريقة التعامل مع الذي يريد خيرا بالجزائر، وفي بيان التعامل بالمقابل لمن يريد شرا بالجزائر، وهي عملية شرح يصاحبه تأكيد والأفعال

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 571، 572.

التي دلت على ذلك: "كان ، يبغى" وقصد الشيخ "عبد الحميد بن باديس" في هذه الأبيات تجاوز الواقع وهذه طريقة حجاجية في التحفيز، ونموذجا فنيا في إقناع الآخر نحو تغيير الوضع بالنظر للظروف والمقام.

الفعل	زمنه	دلالاته	مقصديته
عرف	ماضٍ	فعل توضيحي	مقصديّة هذه الأفعال تمثلت في بيان وإثبات المجد القديم والعروبة
انتبهنا	ماضٍ	فعل توضيحي	المنسية، وتوجيههم نحو منح الحياة الحقّة، وكيفية التعامل بالعودة إلى الأصل .
لتحلّ	مضارع	فعل تأكدي	وقصد بهما الشيخ ما يكون عليه المسلم العربي بهدف تحفيز
وجب	ماضٍ	فعل توضيحي	النفوس، ودفعها إلى التغيير بالحجة والبرهان.
نزید	مضارع	فعل تأكدي	تأكيد يصحبه بيان لفائدة التغيير والمكانة المنتظرة من جرائه.
ندعوا	مضارع	فعل توضيحي	توضيح لما يجب أن يكون عليه الشعب الجزائري في تعامله مع
نولي	مضارع	فعل توضيحي	الشعوب الأخرى قصد تبيان القيمة .
كان	ماضٍ	فعل توضيحي	بيان وتوضيح ردة فعل الشعب الجزائري للذي يريد إذلاله.
يبغى	مضارع	فعل توضيحي	

أما التقسيم الذي أتى به "أوستين" بالاعتماد على إنجاز الأفعال بالنطق لمجموعة أقوال فهو ثلاثة أنواع: فعل لفظي وفعل إنحازي وفعل تأثري.  
وأمثله في الشعر الباديسي ما ورد في قصيدة "شعب الجزائر مسلم" في قوله:

وَأَرْفَعُ مَنْ أَرَّ الْعَذْلَ وَالْإِ  
وَأَقْلَعُ جُذُورَ الْخَائِنِينَ  
وَأَذِقُ نَفْسَ الظَّالِمِينَ  
وَأَهْزُؤُ نَفْسَ الْجَائِمِ دِي  
حَسَانَ وَأَصْنَدُمْ مَنْ عَصَبَ  
فَمَنْهُمْ كُؤْلُ الْعَطَبِ  
سُؤْمًا يُنْزَجُ بِالرُّهْبِ  
نَ قُرَيْمًا حَيَّ الْخُشْبِ<sup>(1)</sup>

**فالفعل اللفظي** هو الصوت اللغوي المنتظم، والتركييب النحوي الصحيح الذي يحمل دلالة متمثلة في الطلب الناشئ من تكرار فعل الأمر: أرفع، أذق، اقلع، اهزز اصدم، ومرجع يميل إلى أن العدل والإحسان بهما يُردُّ الحقَّ وَيُغْلَبُ الغاصب، وأن النصر يتحقق بالتخلص من الخونة، وأيضا تحريك نفوس الجامدين، وكأنّ هذه المبادئ (العدل والإحسان، القضاء على الخونة، وبعث الجامدين...) مبادئ لنجاح الثورة ودليل على القوة.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 571.

أما الفعل الإنجازي فيتمثل في قصد الشيخ "عبد الحميد بن باديس" وهو العمل الذي يريد إنجازَه بهذا القول، إذ مراد الشيخ التحفيز وشحن النفوس بالحماسة والتشجيع للتغيير.

وأما الفعل التأثري فيتجسد في المتلقي، وما يُحدثه فيه كلام المخاطب من أثر والمتلقي في هذه الأبيات الشعب الجزائري، وقد يكون انتفاضة الجزائريين لنصرة بلادهم وثورتهم نحو الاستقلال بتطبيق المبادئ المذكورة آنفا هو -حقا- ما أفاده فعل الأمر المكرر في بداية كل بيت.

أما في مقطوعة "الحمد لله ثم المجد للعرب" قوله:

قومي همُ وبئو الإنسان كلهم      عَشيرتي وهُدَى الإسلام مُطَلِّبي  
أدعو إلى الله لا أدعو إلى أحدٍ      وفي رضى الله ما نرجو مِنَ الرُّغْبِ<sup>(1)</sup>

فالفعل اللفظي يتمثل في الإخبار الذي ورد في البيت الأول، وهذه دلالته ومرجع يفيد تمجيد الشيخ عبد الحميد بن باديس "للعرب بعد الله سبحانه وتعالى، ونسبته للجزائر العربية الإسلامية والدعوة إلى الله.

أما الفعل الإنجازي فيتمثل في دعوة الشيخ أن يكون هدى العرب هدى الإسلام يجعله مطلبه وهداه، وأنه لا يدعو إلا الله.

وأما الفعل التأثري فهو أثر هذا التمجيد وهذه الدعوة في نفسية أو فكر المتلقي بأن يلتزم بالإسلام وهدى الإسلام ولا يدعو أحدا من غير الله.

أما مقطوعة: "أشعب الجزائر"، قوله:

أشعبَ الجزائرِ روجى الفدى      لَمَّا فِيك من عِزَّةِ عربيِّه  
بُنِيَتْ على الدينِ أركانها      فكانت سلامًا على البشريِّه<sup>(2)</sup>

أخذ الفعل اللفظي في هذه الأبيات دلالة النداء (جملة نداء)، وأخذ مرجعا يفيد أن العزَّ العربي باق في الشعب الجزائري، ويستحق التضحية والفداء، وأن هذه العروبة مبنية على الدين، وتمثل الفعل الإنجازي في قوله: "روحي الفدى" وقصده من هذا أن يُضحى كل جزائري، من أجل وطنه ويفدي الجزائر بروحه، كما فعل هو.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 573.

(2) نفسه، ص: 569.

وتجسد الفعل التأثيري في أثر هذه التضحية، وهذا الفدى من الشيخ "عبد الحميد ابن باديس"، بأن يجعل المتلقي يسير مساره، ويقتفي نهجه مستميتا في الدفاع عن وطنه وفي سبيل حريته. إن هذه الأنواع من الأفعال على علاقة وطيدة باللغة والمتكلم والحجاج والمتلقي. فاللغة مرتبطة بالفعل اللفظي من جهة أصواته ودلالاته وتراكيبه، ويرتبط المتكلم بالفعل الإنجازي، لأن المتكلم بهذا الفعل يحاول بث مقصده بغية تحقيق هدفه، ويرتبط المتلقي باللفظ التأثيري، والأثر الناجم من الفعل الإنجازي الذي يمثل قصد المتكلم. ويرتبط هذا كله بالحجاج من جهة أن اللغة والفعل اللفظي بدلالته ومرجعيته يُطبعان بطبيعة الحجاج فتُوسم اللغة بالحجاجية والأفعال بالحجاجية. ويتحول المتكلم إلى محاجج إذا حاول بث مقصده في المتلقي، ويكون المتلقي هدف المحاجج بصفة خاصة والحجاج بصفة عامة، لأن قصد المحاجج هو إقناع المتلقي، ومنه حجاجية الفعل الإنجازي للمحاجج، وحجاجية الفعل التأثيري لأثر المحاجج بكلامه على المتلقي.

#### ب- مقاصد أفعال الكلام في الشعر الباديسي حسب تقسيم "سيرل"

يحتل الفيلسوف الأمريكي "جون سورل" John Searle موقع الصدارة بين أتباع "أوستين" ومريديه، فلقد أعاد تناول نظرية أوستين وطور فيها بعددين من أبعادها الرئيسية هما: المقاصد والمواضع. وبالفعل يمكننا اعتبار الأعمال اللغوية والجمل التي أنجزت بواسطتها وسيلة تواضعية للتعبير عن مقصد تحقيقها، وهذا المظهر كان حاضرا لدى "أوستين" ولكن عرف أوج تطوره لدى "سورل"<sup>(1)</sup>، فالفعل الكلامي عنده «أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلم بل هو مرتبط أيضا بالعرف اللغوي والاجتماعي، وبذلك قصد المتكلم وحده لا يكفي بل لا بد من العرف اللغوي أيضا»<sup>(2)</sup>. وقد قسم "سورل" -كما رأينا- الأفعال إلى خمسة أنواع وهذا بيانها في قصيدة الشيخ "عبد الحميد ابن باديس":

\* الإخبار: وفيها ينقل المتكلم واقعة من خلال قضية وتمثل هذا في قول الشيخ:

حتىّ يعوّد لقومه	من عزّم ما قد ذهب
ويرى الجزائر رجعت	حقت الحياة الأستلب
يا نشء يا ذخر الجزا	ئر في الشدائد والكُرب <sup>(3)</sup>

(1) ينظر، جاك موشلار، آن روبول، التداولية اليوم، ص: 33.

(2) محمود أحمد نخله، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 47.

(3) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 570، 571.

فالأفعال التي نجدها مضارعة: "يعود، يرى" والماضية "ذهب".

يتحدث هنا الشيخ عبد الحميد ابن باديس عن العمل الذي به تحظى الجزائر بالاستقلال، وقد نقل الشيخ في هذا واقع الجزائر المحتلة وحال الإسلام، وحب الرسول ﷺ، والإقتداء به، والفداء بالروح وبالخلق، وهذا ما ورد في الآيات التي أتت قبل هذه، واتجاه المطابقة في هذه الآيات من الكلمات إلى العالم، والغرض الإنجازي من هذا الحديث هو دعوة الجزائريين إلى الاعتصام بالدين الإسلامي وحب رسوله ﷺ للظفر بالحرية.

والنداء المستعمل في البيت الأخير "يا نشء، يا ذخر" مرتبط بتحقيق الدعوة ومن الجمل الخبرية نجد "حق الحياة المستلب"، حتى يعود لقومه، "يرى الجزائر".

الفاعل	زمنه	دلالتة	مقصدية
يعود	مضارع	فعل إخباري وصفي	التمسك بالإسلام وحب النبي (ص)، والأخلاق
يرى	مضارع	فعل إخباري وصفي	والتضحية يحقق نتائج العمل، وإعادة الحق.
ذهب	ماض	إخباري حكمي تقرييري	بيان أن الجزائر عزها مفقود.
رجعت	ماض	إخباري وصفي	والمقصود دوام التضحية ودوام التمسك بالدين مع بيان حال الجزائريين، وما كانوا عليه من ظلم واستعباد

\* التوجيهات: التأثير على متلق لإنجاز عمل معين، ومحتواها "القضوي" فعل المتلقي مستقبلا.

ومنه قول الشيخ:

يَا نَشْءُ أَنْتَ رَجَاؤُنَا  
خُذْ لِلْحَيَاةِ سِرْلَاحَهَا  
وَأَرْفَعْ مَنَارَ الْعَدْلِ وَالْإِيمَانِ  
وَأَذِقْ نَفْسَ الظَّالِمِينَ  
وَأَقْلَعْ جُذُورَ الْخَائِنِينَ  
وَأَهْرُزْ نَفْسَ الْجَائِرِ  
وَيَا صَبَاحُ قَدْ أَقْتَرَبَ  
وَحُضِرَ الْخَطُوبَ وَلَا تَهَبْ  
حَسَانَ وَأَصْدُمَ مَنْ غَصَبَ  
سُمًّا يُنْزَجُ بِالرُّهْبِ  
فَمَنْهُمْ كُلُّ الْعَطْبِ  
يَنْفَرُ مَا حَيَّ الْحَشْبُ<sup>(1)</sup>

أخذت أفعال الأمر النصيب الأكبر: "خذ، ارفع، اصدم، اقلع، اهزز" والماضي: "أقرب، والمضارع: لا تهب".

(1) عمار الطالبي، عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 571.



وقد استُهلّت هذه الأبيات بجملة إنشائية "يا نشء" للتنبية، ورفع قيمة المنادى والأمر بعد النداء، أما الجمل التقريرية الإخبارية فتمثلت في قوله "منهم كل العطب".  
وغرض الشيخ من النداء في الأبيات وغلبة أفعال الأمر فيها للتوجيه؛ لأن الأمر والنداء يشكّلان قدرة إنجازية. والملاحظ أن كل فعل له غاية تداولية: إقناعية وهي دفع الجزائريين لإنجاز عمل وهو الثورة بعد الإقناع بضرورتها.

الفعل	زمنه	دلالاته	مقصده
اقترب	ماض	توجيهي	تعليق الآمال والرجاء في الشعب الجزائري في تحقيق الاستقلال وردّ الحرية والحق.
خذ	أمر	توجيهي إلزامي	الثورة والدعوة إلى الجهاد والإقبال على العمل في سبيل الحرية واستقلال البلاد.
ارفع	أمر	توجيهي إلزامي	
خض	أمر	توجيهي إلزامي توجيهي	
اصدم	أمر	إلزامي	
أذق	أمر	توجيهي	بيان كيفية مجابهة الظالمين والخائنين مع بيان كيفية وسبيل النجاح في الثورة.
اقلع	أمر	توجيهي إلزامي	
اهز	أمر	توجيهي	لغرض المشاركة جماعياً وبالاستطاعة في الثورة ضد الاستعمار.

\* الالتزامات: المحتوى القضوي فيها فعل المتكلم عملاً في المستقبل، وفيها إلزام المتكلم بفعل معين، وقد ظهر في مقطوعة أشعب الجزائري.

أشعبَ الجزائري روجي الفدى  
فَضْحُوا وَهَذَا أَنَا بَيْنَكُمْ  
لَمَّا فِيك من عِزّة عربيّ  
بذاتي وروحي عليكم ضحية<sup>(1)</sup>

والغرض الإنجازي هو وعد يتضمن عملاً جليلاً لمن أصيبت بلاده بمصيبة الاستعمار، وأتى العهد بالفدى بعد جملة النداء: "أشعب الجزائري"، ليتكرر الوعد في البيت الموالي "روحي عليكم ضحية" وسبق هذا "ها" التنبية والتأكيد بالضمير المنفصل "أنا" وتضمن البيتان فعلاً واحداً وهو بصيغة الأمر: "فضحوا" وقد تكرر الوعد بالتضحية بالروح قبله وبعده.

(1) عمار الطالبي، عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 569.

الفعل	زمنه	دلالاته	مقصده
فضحوا	أمر	وعد إلزامي تقريرى	التزام الشيخ عبد الحميد بن باديس بوعده، وهو العلامة الثائر الراحل الإمام المصلح.

\* **التعبيرات:** وشرطها الإخلاص في التعبير عن القضية وتشمل الشكر والتهنئة والاعتذار والتعزية والترحيب، وورد هذا في مقطوعة أحمد الله ثم المجد للعرب:

الحمد لله ثم المجد للعرب      من أنجبوا لبني الإنسان خير نبي  
ونشروا ملّة في الناس عادلة      لا ظلم فيها على دين ولا نسب  
وبذلوا العلم مجاناً لطالبه      فإل رغباه ذو فقر وذو نسب<sup>(1)</sup>

أفعال الأبيات هي: أنجبوا، نشروا، بذلوا، نال وكلها على صيغة الماضي والبيت الأول جملة معاني دالة على مشاعر تختلج النفس؛ إذ الشيخ يفتخر بالعرب ومجدهم لأن الرسول ﷺ منهم، وتهنئة للعرب لأنه بعث الله رسولا منهم، ويتضمن أيضا شكرا لله بأن عزّ العرب بهذا الرسول ومجدهم.  
والأفعال الماضية بصيغة الجمع أفعال إنجازية دالة على مشاعر الافتخار والتهنئة داخل النفس وغرضها التعبير عن الحالة النفسية.

\* **الإعلانيات:** والهدف منها إحداث تغيير بواسطة الإعلان، ويقع تحتها كل ما يدل على الإعلان ومنه قوله في قصيدة شعب الجزائر مسلم:

يا نشء يا ذخر الجزا      نر في الشدائد والكرب  
صادحت بلائك الفصا      ح فعم مجمعنا الطرب  
وأذقتنا طعما من ال      فصحي ألد من الضرب  
شعب الجزائر مسلم      وإلى العروبنة يتسبب  
من قال حاد عن أصله      أو قال مات فقد كذب  
خذ للحياة سلاحها      وخض الخطوب ولا تهب<sup>(2)</sup>

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 573.

(2) نفسه، ص: 571.

نجد في أفعال هذه الأبيات من الماضي: "صدحت، فعمّ، أذقتنا، قال، حال، مات، كذب" ومن المضارع "يتنسب، لا تهب"، ومن الأمر "خذ، خض".

أما على مستوى الجمل فالغالب عليها الجمل الخبرية، وما وجدنا من الجمل الإنشائية النداء في البيت الأول "يا نشء، يا ذخر"، والنهي "لا تهب بالأداة" لا والأمر: "خذ للحياة" و"خض الخطوب"، وفي هذا الأسلوب الأمري غرض إنجازي حقيقته الفعل "خذ" و"خض" الذي يدل على إعلان الحرب بين الجزائر وفرنسا، وهذا الاستعمال قصد به الشيخ "عبد الحميد بن باديس" التحفيز والتشجيع مع إعلان الثورة والجهاد لنيل للاستقلال والحرية.

وتكون هذه الأبيات تداولية مفادها عدم الاستسلام والاستماتة في الجهاد، كما نرى الإعلان في الأبيات الأولى عن عربية الشعب الجزائري، لمن يعتقد بأنها فرنسية أو يدعو لذلك.

الفاعل	زمنه	دلالاته	مقصدية
صدحت	ماض		الغرض من هذه الأفعال الإعلان والتأكيد على عروبة الجزائر، ونطقه للغة العربية، ومحال قول قائل: الجزائر مدججة، وكذب إذا اعتقد آخر بأن الجزائر حادت عن أصلها، وفي هذا إعلان عن استنكار لمن يعتقد ذلك. وإعلان عن تأكيد وتثبيت عروبة الجزائر.
عمّ	ماض		
أذقتنا	ماض		
خاد	ماض	اختياري تقرير	
حال	ماض		
مات	ماض		
كذب	ماض		
خذ	أمر	إلزامي	لإعلان الحرب والمطالبة بالحق.
خض	أمر	إلزامي	
يتنسب	مضارع	إخباري تقرير	الإعلان المؤكد لنسبة الجزائر إلى الإسلام والعروبة إعلان عن تحفيز لكسر هاجس الخوف.
لا تهب	مضارع	إلزامي	

إن الأفعال الكلامية نظرية بصيغة حجاجية إذا نظرنا إلى القوة الإنجازية وقوة المحاجج الكلامية وقدرته الإقناعية.

وبالنظر إلى الجهة التأثيرية، وهدف المحجاج بعد عملية الإقناع، تتحد دلالة كل فعل، وأن لكل فعل بعدا حجاجيا، ومنه تبرز بعض سمات المحجاج وتتجسد بهذه النظرية الأفعال الكلامية للخطاب الحجاجي من ثلاث جهات:

من جهة المتكلم المحجاج، ومن جهة المتلقي المستهدف بالحجاج، ومن جهة الخطاب الحجاجي، ومن جهة اللغة الحجاجية بما فيها الأفعال وبمختلف أزمته: ماض مضارع، أمر، ودلالاتها ومقاصدها.

ومن هنا تبرز بلاغة وظيفة الأفعال الكلامية الحجاجية في بيان قصد المتكلم وفي بيان حجاجية اللغة.

## المبحث الثالث

### الوسائل البلاغية للحجاج

#### توطئة:

إن الربط بين البلاغة والحجاج، ربط جدير بالتأني المعتمد على التحليل لكشف العلاقة بينهما «ولا شك في أن علاقة البلاغة بالحجاج إشكال مثير ومعقد»<sup>(1)</sup>.  
«وقد ذكر الناس البلاغة، ووصفوها بأوصاف لم تشتمل على حدّها [...] وحدّها عندنا أنه القول المحيظ بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام وحسن النظام، وفصاحة اللسان»<sup>(2)</sup>.  
ويقوم الخطاب الحجاجي على إيصال المعنى المقصود إلى ذهن السامع، ويقوم على مراعاة حاله ومخاطبته بقدر عقله، مرتبا كلامه وحججه على نظام إقناعي، بما يستميل السامع إلى قصده، ويقوم على الإبانة والإظهار، ليتوضح المعنى للسامع ويحصل الفهم والاقناع.  
إذا لم يخطئ القدامى حين جمعوا بين البلاغة والعناصر العقلية للحجاج بمكوناته الوجدانية والجمالية ومنه لا مفر من البلاغة لأي حجاج<sup>(3)</sup>.  
وإذا كان الحجاج آلة المتكلم في إقناع المتلقي وكسب تأييده وإفهامه فإن البلاغة «آلة وهي التوسع في معرفة العربية، ووجوه الاستعمال لها، والعلم بفاخر الألفاظ وساقطها ومتخيرها، وردئها، وما يصلح في كل واحد من الكلام»<sup>(4)</sup>.  
ويكثر استخدام الآتين في الكلام «وكلام العرب إما أن يكون منظوما، وإما أن يكون منشورا، والمنظوم هو الشعر والمنثور هو الكلام»<sup>(5)</sup>. وفي الشعر والنثر جميعا تقع البلاغة<sup>(6)</sup>.

(1) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 120.

(2) ابن جعفر، نقد النثر، ص: 76.

(3) ينظر، سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 120.

(4) حميد آدم ثويني، البلاغة العربية المفهوم والتطبيق، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة 1، 2007، ص: 12.

(5) ابن جعفر، نقد النثر، ص: 74.

(6) نفسه، ص: 75.

وقد سبق أن بيّنا الحجاج في النثر الباديسي والوسائل اللسانية والنحوية في التفسير والمقالة والخطبة، وما هنا نبين الحجاج في الشعر من وسائله البلاغية المجاز والأساليب والمحسنات البديعية بالتطبيق على الشعر الباديسي.

وتكمن الوسائل البلاغية «فيما توفره للقول من جمالية قادرة على تحريك وجدان المتلقي والفعل فيه، فإذا انضافت تلك الجمالية إلى حجج متنوعة، وعلاقات حجاجية تربط بدقة أجزاء الكلام وتصل بين أقسامه، أمكن للمتكلم تحقيق غايته من الخطاب؛ أي قيادة المتلقي إلى فكرة ما أو رأي معين، ومن ثمة توجيه سلوكه الوجهة التي يريدها له؛ أي أن الحجاج لا غنى له عن الجمال، فالجمال يرفد العملية الإقناعية ويسر على المتكلم ما يرومه من نفاذ إلى عوالم المتلقي الفكرية والشعرية»<sup>(1)</sup>.

وهذا يحصل إذا نظرنا إلى علاقة الحجاج والبلاغة في أنها: «وضع للكلام في إدراك السامع بإيجاز أو تطويل، وتأدية المعنى بعبارة فصيحة، وصحيحة لها وقع في نفس السامع أو القارئ مع إدراك مكانة من يُعرض أمامه الكلام»<sup>(2)</sup>، ويحصل هذا إذا نظرنا إلى علاقة الحجاج بالمجاز في الشعر والبلاغة، «فليست البلاغة قبل كل شيء إلا فنا من الفنون يعتمد على صفاء الاستعداد الفطري ودقة إدراك الجمال، وتبين الفروق الخفية بين الأساليب»<sup>(3)</sup>.

فعلاقة الحجاج بالبلاغة تكمن في إدراك السامع وإقناعه، وتكمن علاقتها بالشعر في وضع الكلام المقنع في أسلوب جميل، وهذا ما يمنح الشعر قوة وطاقته حجاجية بها يوجه المتكلم المتلقي وبها يبلغ مقصده، ومنه نخلص إلى أن وسائل البلاغة ووسائل تأثير واستمالة وإقناع من جهة جمال وبلاغة الأسلوب الذي ترد به، ونبين الحجاج بالاستعارة والكناية والتشبيه.

## 1- الحجاج بالمجاز:

ويضعنا المجاز أمام قضية العدول عن الحقيقة إلى المجاز، وهو الميل والانتقال من أمر إلى آخر، وهو عملية اختيارية<sup>(4)</sup>، على أن الشاعر في اختياراته اللغوية لا ينحصر في الألفاظ معجما وصيغا فحسب، بل يتعدى ذلك إلى التراكيب، إذ من شأن التركيب الجيد الملائم للمعنى استمالة المتلقي ومساعدة الحجة على

(1) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 120.

(2) حميد آدم ثويني، البلاغة العربية المفهوم والتطبيق، ص: 14.

(3) علي الجارم ومصطفى الأمين، البلاغة الواضحة البيان والمعاني والبديع، دار المعارف، القاهرة، بيروت، 1979، ص: 08.

(4) ينظر، علي كاظم علي، شعرية المجاز في البلاغة العربية، مجلة جذور، الجزء 15، مج 08، شوال 1424، ديسمبر 2003، ص: 247.

الفعل فيه، وبالمقابل الخروج عن المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي، ما يؤكد الغاية الحجاجية بالنظر لمقاصد الشاعر، وعناية الشاعر في شعره إلى مقتضيات الأصوات والأشكال البلاغية ومقاصد القول الحجاجية أساسا وهو يخرج عن المؤلف<sup>(1)</sup>.

ومن هنا فإن «العدول (Ectat) ما هو إلا استعمال الألفاظ في غير معانيها والخروج بها عن النمط (Norme) أو الدلالة الشائعة إلى الدلالة الطارئة (العدول أو المجاز)، ولكن هذا العدول وإن كان اختياريًا، فإنه لا يتم بمعزل عن الدلالة، وهذا ما نراه واضحا في التنظيم البلاغي، حيث يلح البلاغيون على أن الحقيقة هي الأصل والمجاز هو الفرع»<sup>(2)</sup>.

ففي الشعر دائما نقف على تراكيب ومعاني مجازية، تقع على نفس المتلقي وقعا حسنا إذ تجعله يقتنع، وهكذا يضمن الشاعر تحقيقا لمقصده وغايته، باستعمال ضروب المجاز أو بعدوله عن الحقيقة بما يساهم في نجاح العملية الحجاجية والإقناعية، ومنه تتحقق إمكانية المجاز في الحجاج من جهة التدعيم والتثبيت، التي تنبثق من المجاز إلى الحجاج على شكل طاقة تزيد في إقناع واستمالة المتلقي، ومن المجاز الحجاجي:

#### أ- الاستعارة:

تعد الاستعارة من أحسن وسائل التبليغ، وهذا للطاقة الحجاجية التي توفرها للمتكلم ليقتنع المتلقي، بتركيب استعاري حجاجي ومنه نشير إلى «جمالية الإرسال من أجل التأثير في المتلقي، وأسر انتباهه، فيتلذذ باستقبال الرسالة الكلامية الموثثة إليه في أحسن صورة»<sup>(3)</sup>.

وتزداد هذه الفكرة وضوحا وعمقا في «الإثارة التي يحدثها القول الشعري في نفس المتلقي متولدة عن الوظيفة الشعرية؛ لأن الخطاب الشعري لا يحدثها بما يحتوي عليه من أفكار، بل بما يتدعه من تجويد المعاني، وإخراج لها في صورة من اللفظ لم يسبق إليها»<sup>(4)</sup>.

(1) ينظر، سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 108، 109.

(2) علي كاظم علي، شعرية المجاز في البلاغة العربية، مجلة جذور، ص: 250.

(3) عبد الملك مرتاض، مقدمة في نظرية البلاغة، متابعة لمفهوم البلاغة ووظيفتها، مجلة جذور، الجزء 28، مج 11، رجب 1430، يوليو 2009، ص: 226، 227.

(4) محمد لطفي اليوسفي، وظيفة الشعر، النقد والقراءة المقاومة، مجلة ثقافات، كلية الآداب، جامعة البحرين، العدد: 14، 2005، ص: 65.

فالاستعارة هي: «أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء به فتعيره المشبه وتجريه عليه»<sup>(1)</sup>، وحين نتحدث عن استعارة حجاجية، «فلأنها تدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم بقصد توجيه المتلقي إلى وجهة للخطاب محددة، ومن ثمة تحقيق أهدافه الحجاجية»<sup>(2)</sup>.

ولهذا يشترط أن تكون الاستعارة مفيدة، وتكمن إفادتها في المتكلم الشاعر المحاجج، ومدى معرفته لمواطن الإثارة في الكلام على نفسية المتلقي، فهي الموصوفة بالحجاجية «وهي أكثر الاستعارات انتشاراً لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية»<sup>(3)</sup>، وبالمقابل لهذه الاستعارة - الاستعارة الحجاجية المفيدة - نجد الاستعارة الجمالية، وهذا معناه أن التركيب الاستعاري الجميل الذي لا يقصد به الإقناع، إنما يقصد به الإمتاع، «لا يوفر الحجاج بطريقة مباشرة، لكنه يؤثر فيه ويدعمه، إنه رافد مهم وأساسي»<sup>(4)</sup>.

والاستعارة بنوعها المفيدة الحجاجية والجمالية، فالأولى توفر الحجاج والثانية تعد رافداً له، «لهذا فإن الإفادة من الاستعارة تعلق بما يحوطها من كلام تقدم عليها أو تأخر عنها، أو أنها كانت بداية وتلاها كلام، أو كانت نهاية وسبقها كلام»<sup>(5)</sup>.

والاستعارة من المجاز اللغوي هي «تشبيه حذف أحد طرفيه فعلاقتها المشابهة دائماً وهي قسمان: تصریحية: وهي ما صرح فيها بلفظ المشبه»<sup>(6)</sup>.

وقد وردت في قصيدة الشيخ عبد الحميد بن باديس "شعب الجزائر مسلم" وهذا عند قوله:

صَدِحَتْ بِلايْلِكَ الفِصَا حُ فَعَمُّ مَجْمَعَنَا الطُّرْبُ<sup>(7)</sup>

فالمشبه محذوف يعود على الشعراء والآباء والخطباء، والمشبه به هو "البلابل"، وقد وظف الشيخ "عبد الحميد بن باديس" هذا النوع لأنه أبلغ من الحقيقة وبهذا تقوم مقام الحجاج الذي يهدف إلى إحداث تغيير في المتلقي وتوجيه فكره أو التأثير على عاطفته.

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 67.

(2) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 267.

(3) نفسه، ص: 267، 268.

(4) نفسه، ص 268.

(5) حمد بركات حمدي أبو علي، البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، دار النشر، عمان، الأردن، الطبعة 1، 1992 ص: 44.

(6) علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص: 77.

(7) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 571.

ونلمحها في قول آخر له:

يَا نَشْرُ أَنْتَ رَجَاؤُنَا      وَبِكَ الصُّبْحُ قَدْ اقْتَرَبَ<sup>(1)</sup>

فالمشبه محذوف يعود على الاستقلال، والمشبه به هو الصباح، فالمستعار منه هو الصباح والمستعار له هو الاستقلال، واللفظ المستعار هو: "يا نشر أنت رجأؤنا، شبه النشء بالصباح ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به "الصباح" للمشبه وهو النشء على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة الدالة "يا نشر أنت رجأؤنا" يظهر الحجاج بالاستعارة: في التوجيه الذي تقيمه للمتلقي، وهذا الارتكاز على المستعار منه (المشبه به)، وهذا لغاية حجاجية تتمثل في تحريك هممة الشعب الجزائري إلى تغيير الوضع من الاحتلال إلى الاستقلال.

وإلى جانب الاستعارة التصريحية نجد:

ب- الاستعارة المكنية: هي «ما حذف فيها المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه»<sup>(2)</sup>. «وما حذف منها المستعار منه (أي المشبه به) وبقيت في الكلام قرينة تدل عليه وذكر المستعار له أي المشبه»<sup>(3)</sup>. وقد وردت في شعر الشيخ عبد الحميد بن باديس "بكثرة بخلاف الاستعارة التصريحية ومن أمثلتها قوله:

وعلى القلوب الخافقا      ت إليه رايتُهُ نُصَبَ<sup>(4)</sup>

شبه القلوب بالأرض وهي محذوفة وتمثل المشبه به أي المستعار منه، ورمز إليها بشيء من لوازمها وهو "نصب"، على سبيل الاستعارة المكنية.

فاستعارات الشيخ عبد الحميد بن باديس "حجاجية؛ لأنه يصف الشعب الجزائري بالعروبة والإسلام وحب الرسول ﷺ، وهذا الوصف يجعلهم في مرتبة من الحماس التي تؤدي بهذا الشعب إلى نصرته عروبتة ودينه، ومنه التوجيه والتأثير للتغيير بعد الاقتناع، فهو يحتج لنصرة الإسلام والعروبة ومنه الحرية ضد الاستعمار الفرنسي.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 571.

(2) علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص: 77.

(3) حميد آدم ثويني، البلاغة العربية المفهوم والتطبيق، ص: 207.

(4) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 570.



ونجدها في قوله أيضا:

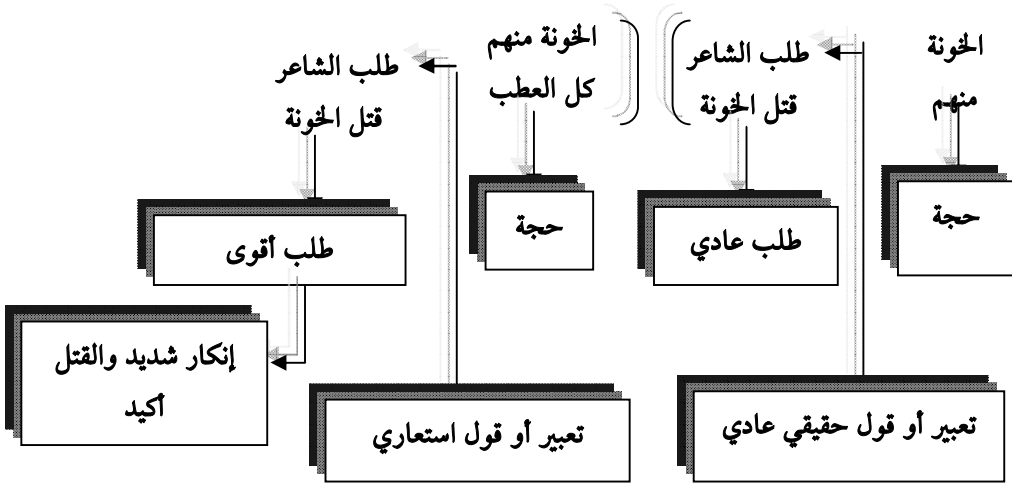
وَأَقْلَعُ جُذُورَ الْخَائِنِينَ فَمِنْهُمْ كُلُّ الْأَعْطَبِ<sup>(1)</sup>

شبهه الخائنين بالأشجار ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو أقلع جذور والقرينة الدالة: "جذور" على سبيل الاستعارة المكنية.

يبدو بوضوح أن التركيب الاستعاري ومعناه أقوى حجاجيا من القول الحقيقي العادي، وبهذا كانت طاقة بلاغية حجاجية في القضاء على الخونة لأنهم سبب للفشل. وتتحقق فائدة هذه الطاقة الحجاجية للاستعارة، إذا أحسن الشاعر صياغتها وتخير معانيها.

ومنه تظهر حجاجية القول الاستعاري وقوته الحجاجية، فالببت يكشف عن إنكار الخيانة وطلبه يقوم مقام التأكيد بفعل الأمر: "أقلع" للنتيجة منهم كل العطب.

وترتبط الاستعارة بمفهوم السلم الحجاجي في القوة الحجاجية «فالقول الذي يقع في أعلى درجات السلم هو الدليل الأقوى»<sup>(2)</sup>. وهذا يتبين إذا ما قورن القول الاستعاري الحجاجي بالقول الحقيقي العادي:



(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 571.

(2) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 256.

فالببت يقدم غاية، فما يقصده الشاعر هو ما برهن عليه، فهو يطلب قتل الخونة بتركيب استعاري منحه قوة حجاجية على التطبيق ألق جذور، وهذا بججة أن الخونة منهم كل العطب، وهذا لتحقيق نتيجة أو سبيل لها وهي الحرية والاستقلال. وقد ظهرت أيضا في قوله:

يا قوم هذا نشؤكم وإلى المعالي قد وئب<sup>(1)</sup>

فالمشبه هو النشاء، والمشبه به: محذوف، شبه النشاء بالأسد، بالليث... ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه "ئب" على سبيل الاستعارة المكنية، والقرينة إثبات للقوة والرفعة مع الشرف، والشيء الذي يمنح الاستعارة قوة وحجاجا هو العلاقة بين المشبه والمشبه به، علاقة المشابهة لكونه يباينه، فهذا العقد عقد مشابهة مع تباين ملحوظ و«اعلم أن الخاصية التي تغلب على القول المجازي الاستعاري هي أن الجنس الذي يدخل فيه المستعار أو قل، إن شئت المستعار منه" يكون مباينا للجنس الذي يدخل فيه المستعار له»<sup>(2)</sup>. ومنه قول الشيخ عبد الحميد بن باديس:

وأدقنا طعاما من ال فصحي ألد من الضرب<sup>(3)</sup>

فالمشبه الفصحي، والمشبه به: محذوف يعود على الطعام، والتعبير الذي يدل عليه أدقنا طعاماً، فمراد الشيخ بلفظ التذوق معنى السماع، فإن جنس المستعار التذوق الذي يدخل فيه الطعام جنس مباين لجنس المستعار له الفصحي الذي يدخل فيه السماع، فلا يمكن تذوق الفصحي، وقد أشار لهذا التذوق والطعم أنه ألد من الضرب (العسل الأبيض الغليظ).

وهذه دلالة على نطق العربية ووقعها على الأسماع، كما وقع الطعام الحلو -إذا تذوقناه- على الألسنة، وهذه فائدة حجاجية بالنظر إلى المستوى الدلالي لهذا التركيب. ونخلص إلى أن:

- الاستعارة بنوعها التصريحية والمكنية تؤسس حجاجا وهي طاقتها التي تمنحه قوة وقعا في النفس والأذهان.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 570.

(2) طه عبد الرحمن، اللسانيات والميزان أو التكوير العقلي، ص: 297.

(3) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 171.

- تكمن حجاجية الاستعارة في العلاقة التي تقيمها بين المستعار منه<sup>1</sup> والمستعار له.
- تؤسس الاستعارة حجاجا عميقا مكثفا، يكشف من الصياغة ومقصد المتكلم.
- وظف الشيخ عبد الحميد بن باديس<sup>2</sup> الاستعارة بنوعها التصريحية والمكنية توظيفا حجاجيا دعم وثبت به ما كان يقصده من القصيدة من توجيه وإقناع المتلقي الجزائري، وقد استعمل المكنية أكثر من التصريحية وهي دائما قليلة في الكلام العربي في حين يكثر توظيف الأولى.
- الخطاب الشعري تكمن حجاجيته في لغته ولغة الشعر حجاجها في مجازها.

### ج- الكناية:

تُعدّ الكناية من أنواع المجاز الحجاجية ويكمن هذا في الرمز الذي تنشئه فهي احتجاج لقضية عن طريق الرمز وهو «ما أخفي من الكلام، وأصله الصوت الخفي الذي لا يكاد يفهم»<sup>(1)</sup>، وما يثبت حجاجيتها مراد المتكلم من الرمز و«المراد بالكناية ها هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه»<sup>(2)</sup>. وما يفضي إلى حجاجية الكناية العلاقة التي تكون بين المعنى الذي يقصده المحاجج، والمتلقي الذي يوجه إليه هذا المعنى.

على هذا النحو نستنتج أن الكناية ليست مجرد استخدام ألفاظ في الكلام وترميز، بل هي أداة ووسيلة من الوسائل الحجاجية في الخطاب الشعري خاصة. ومنه الكناية الحجاجية المفيدة بلاغة من الأنواع التي تقع تحت البيان المرادف للحجاج، وهذا يوضح أهمية الحجاج في هذا الفن البلاغي حيث: يثبت أمرا، ويستدل عليه، وإرسال المتكلم معنى مكنى عن قصد فلا يذكره لأنّ الكناية أبلغ من ذكره.

وبهذا يرتبط الحجاج بالكناية بثلاث عناصر:

- المتكلم المحاجج ← الرمز لمعنى وغاية حجاجية.
- المتلقي المحاجج ← الموجه إليه المجاز.
- الخطاب المجازي الحجاجي ← المحقق للغاية والقصد.

ولتحقيق الحجاج من الكناية، يوظفها المحاجج توظيفا إقناعيا مناسبا، وعليه أن يتوخى المناسبة أي مناسبة الكناية لمقام معين، فيقدمها مقام الدليل القوي لقصده.

(1) قدامة بن جعفر، نقد النثر، ص: 61.

(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 66.

والكناية «لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى»<sup>(1)</sup>.  
وتنقسم الكناية «باعتبار المكنى عنه ثلاثة أقسام: فإن المكنى عنه قد يكون صفة. وقد يكون موصوفاً، وقد يكون نسبة»<sup>(2)</sup>.  
وقد استعمل الشيخ عبد الحميد بن باديس، عدداً من الكنايات وهذا لبلاغتها الحجاجية ومن أمثلتها في قصيدة «شعب الجزائر مسلم» قوله:

أَحْيَيْتَ مَوْلِدَ مَنْ بِهِ حَيَّيَ الْأَنَامَ عَلَى الْحَقِّبِ<sup>(3)</sup>

كُنِيَ بِكَوْنِ الرَّسُولِ ﷺ - في قوله: "حيي الأنام" بفضله على الأنام، ولم يذكر فضل الرسول ﷺ مباشرة.

فالكتابة في هذا التركيب كناية عن صفة الفضل، وفيها يؤكد ويثبت فضل وخير الرسول ﷺ على البشرية، ويعزز هذا بمعنى مدحي، وهذا لغاية حجاجية هي: تمسك الشعب الجزائري بعد الإسلام بحب النبي ﷺ.

ثم يثبت الشيخ أن الشعب والنشء الجزائري يحيي المولد الكريم بقوله:

أَحْيَيْتَ مَوْلِدِهِ بِمَا يُبْرِي النَّفُوسَ مِنَ الْوَصْبِ<sup>(4)</sup>

وكنى بما يبري النفوس من الوصب عن قيمة الأعمال والمحاضرات والأشعار والخطب التي ألقيت وأحييت من خلالها ذكرى المولد الكريم.

ويمكن أن تكون كناية عن لبّ الشعب الجزائري في دينه وحب رسوله ﷺ وعروبته لتضيق الأطماع الفرنسية من هذا الشعب، والوصب المرض والوجع، فهو يؤكد هزيمة فرنسا وفشل مخططاتها في تمسك الشعب الجزائري المحتل بدينه والافتداء برسوله ﷺ، والحفاظ على لغته العربية وكل هذا براءة للنفس من المرض وهي كناية عن صفة، وعلى هذا النحو يؤكد الشيخ "عبد الحميد بن باديس"، بأن رجوع الجزائر جزائرية يجب أن يكون بالدين واللغة والجهاد، وهذه حجة في تحقيق المبتغى، ونلمس إحساساً حماسياً في

(1) علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص: 125.

(2) نفسه، ص: 125.

(3) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 570.

(4) نفسه، ص: 570.

قصيدة الشيخ يرغبهم في التمسك بالدين واللغة والجهاد ويمحسهم للجهاد ويجعل من الدين حجة والجهاد في قوله:

حَتَّى يَعُوذَ لِقَوْمِهِ مِنْ عَزَاهُمْ مَا قَدْ ذَهَبُ<sup>(1)</sup>

وهذه المعاني ذات قيمة حجاجية، إذا نظرنا إلى أن الشيخ عبد الحميد بن باديس "سيجعل من شروط الاستقلال عدة شروط، بالإضافة إلى الدين واللغة والجهاد، ويضيف الاستماتة والفدى بالروح، والاتصاف بالأخلاق.

فقد كَتَى عن معنى الاستقلال ورمز إليه بالعزّ الذاهب أمام الاحتلال الفرنسي، فترك التصريح بهذا وأثبتته لما يعيده إلى أصحابه.

فيقوى الحجاج وتزيد طاقته الاقناعية حين يطلب الشيخ عبد الحميد بن باديس "الثورة والجهاد ومجابهة الاحتلال والظالمين فيقول:

وَأَذِقْ نَفْسَ الظَّالِمِينَ سُومًا يُنْزَجُ بِالرُّهْبِ<sup>(2)</sup>

إذ يأمر الشيخ عبد الحميد بن باديس "بحماس حين يدعو إلى التطبيق، فالجزائر فقدت عزّها فيأتي هذا البيت توجيهها وتغييرا للنتيجة، وهي من الاحتلال إلى الاستقلال والحرية. ونرى الحجاج بالكناية وقوته في طبع المعنى بالحماس، مما يجعل المتلقي يتوجه مشحونا نحو التغيير، وهي كناية عن عدم الرأفة والرحمة بالظالمين، وقصد بهم الاستعمار الفرنسي، ومنه يتجلى قصد الشيخ "عبد الحميد بن باديس" في الوفاء بالعهد والجهاد حتى الاستشهاد وهذا يظهر بلاغة الحجاج بالكناية عند قوله:

هَذَا لَكُمْ عَهْدِي بِهِ حَتَّى أَوْسَدَ فِي التُّرْبِ<sup>(3)</sup>

فقد أراد الشيخ "عبد الحميد بن باديس" في هذا البيت أن يثبت معنى وهو دوامه على العهد حتى "يتوسد في التراب" وهذه كناية ولم يذكر أمر وفاته بتعبير صريح ولكنه جاء بتعبير آخر يشير إلى المعنى المقصود:

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 570.

(2) نفسه، ص: 571.

(3) نفسه، ص: 572.

أوسد في الترب" < أوضع في القبر" < الوفاة"

وعليه تظهر حجاجية الكناية وقوتها الإقناعية في العلاقة المجازية الرمزية التي يريد المتكلم إثباتها، وتكون الكناية مؤسسة لحجاج ناجح، إذا كانت مؤلفة تأليفا حجاجيا وتركيبا صحيحا يجعل المتلقي يقتنع بما دلت عليه، ويكشف مراد المتكلم من كلامه.

فالكناية حجاج بلاغي يكمن في:

- حجاجية الكناية أنها تجعل المعاني في صورة المحسوسات.
- تكون أكثر حجاجا وقوة إذا كانت عن طريق المبالغة.
- التأثير على المتلقي؛ إذ تقع الكناية إذا كانت حسنة وحجاجية، موقع المؤثر على نفسية المتلقي، فتحدث فيه انفعال.
- وظيفة الكناية وظيفة حجاجية؛ إذ تعد من وسائل تأكيد القصد وتحقيقه، وأبرز وظيفة حجاجية تذكر للكناية أنها تجعلك تشفي غليلك من خصمك دون أن تجعل له إليك سبيلا.

#### د- التشبيه:

ويكون طرفه الثاني حجة على طرفه الأول وهذا حجاج على صحة المقدمة، فهو «عقد مقارنة بين شيئين، وبيان أن شيئا أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر بأداة هي الكاف أو نحوها ملفوظة أو ملحوظة»<sup>(1)</sup> بمعنى مقدّرة.

ويقوم التشبيه بوظيفة حجاجية حين تكشف عن غرضه، وهو تقريب صورة الموصوف إلى ذهن المتلقي وهو «جمع صوري بين شيئين أو أكثر لاشتراكها بصفتين أو أكثر»<sup>(2)</sup>.

وينقسم التشبيه إلى عدة أقسام واختلفت تسميات أنواعه، ومنه ما ورد في قول الشيخ عبد الحميد بن باديس:

يا نشء يا ذخرَ الجزا      ثر في الشدائد والكُـرَب<sup>(3)</sup>

وهذا تشبيه مؤكد مفصّل، لأنّ وجه الشبه موجود والأداة محذوفة، وفي هذا تأسيس لحجاج، حيث يوضح هذا التشبيه للصفة المقصودة، وقصد المتكلم والكشف عنه بإيجاز واختصار.

(1) علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص: 20.

(2) حميد آدم ثويني، البلاغة العربية المفهوم والتطبيق، ص: 248.

(3) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 570.

وفي البيت يعمل الشيخ عبد الحميد بن باديس" على أن يجد صفة مماثلة للنشء تقوي فيه صفة الخبرة والانتصار، فرأى أن الذخر" وهو ما يدخر وقت الحاجة يتجلى في النشء ويفصل الشاعر هذا التشبيه: في الشدائد والكرب، ويؤكد هذا التشبيه بحرف النداء "يا"، وفي هذا كله حجاج يكمن في توضيح ما عليه المشبه النشء" من قوة، فالذخر معروف في صفته وقت الحاجة فأراد الشيخ إثباتها له أي لشباب الجزائر وفي هذا غاية حجاجية بث الحماس والمقاومة في الأجيال لإخراج الجزائر من شدتها وكربتها، (الاحتلال الفرنسي).

ونلاحظ التشبيه الضمني في قوله:

وَأَهْرَزُ نَفْسَ الْجَامِدِي      نَفْرُبَّمَا حَيَّ الْخَشْبِ<sup>(1)</sup>

والتشبيه الضمني هو: الذي لا يصرح «بركنيه المشبه والمشبه به بل يعرف من فهم معنى الكلام وسياق الحديث، أي أن المشبه والمشبه به لا يذكران، بل يلمح إليهما تلميحا في التركيب، وهذا النوع من التشبيه يؤدي به ليفيد أن الحكم الذي أسند إلى المشبه ممكن»<sup>(2)</sup>.

فالشيخ في هذا البيت: وهو يخاطب الشعب الجزائري قائلا: "أهزز" ويوحى هنا بالتشبيه دون أن يصرح به فهو لم يقل: إن النفوس الجامدة كالخشب، ولكن أتى هذا ضمنا. والحكم الذي أسند إليه المشبه ممكن؛ لأنه ربما تتفطن النفوس الجامدة لحالة الاحتلال وتتخذ موقفا، ولا يمكن فهم البيت، إلا إذا عقدت علاقة التشابه، فالشطر الأول أهزز نفوس الجامدين" يعرض معنى، والشطر الثاني "فربما حيي الخشب" تأتي كبرهان على صحة ذلك المعنى فالجمود يكون في الخشب وفي النفوس، ولكن تحيا النفوس ولا يحيا الخشب، فحالة النفوس الجامدة التي تحتاج إلى تحريك قوى تشبه حالة الخشب في جموده. «فمأتى الحجاج في التشبيه الضمني أنه قياس خطابي على مقدمات ويفضي إلى نتيجة»<sup>(3)</sup>، فإذا نظرنا في بيت الشيخ عبد الحميد بن باديس" وبرده إلى بنيته العميقة نجد:

- ✓ النفوس جامدة.
- ✓ الخشب جامد.
- ✓ جمود النفوس ليس يشبه إلا جمود الخشب.

(1) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 571.

(2) حميد آدم ثويني، البلاغة العربية، المفهوم والتطبيق، ص: 275.

(3) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 261.

النتيجة:

- النفوس الجامدة يمكن أن تحيا إذا هُزئت.
- الجمود صفة للخشب.
- النفس الحية خير من النفس الجامدة.

وبهذا نلاحظ حجاجية التشبيه الضمني، فالمتلقي إذا سلم بالمقدمات يقبل النتيجة وهو «ما يجعل هذا التشبيه يحتل منزلة تعلقو الكلام العادي في السلم الحجاجي»<sup>(1)</sup>.

ويظهر الحجاج في التشبيه بكل أنواعه ويظهر أكثر في أجودها، والتشبيه يؤسس حجاجا من جهة

أنه:

- يقرب الصورة وينقلها بمعناها في واقع حاضر، ويكشف ما هو خفي من صفات ليقنع بها المتلقي.
- التأثير على نفسية المتلقي؛ لأن التشبيه قد يغير سلوكا ويوجه فكرا.
- وتزيد حجاجية التشبيه قوة حين يأتي بإيجاز بدل الشروح والتوضيحات.
- تقريب المشبه إلى ذهن السامع، وهذا يحصل لأن التشبيه ينقل المعنويات في صورة الحسيات.
- ويُصغ التشبيه بالحجاج حين يأتي موضعا ومبينا للمشبه تزيينه، تقبيحه وهذا كله حجاج وتأثير على نفسية المتلقي، والتشبيه يكون أكثر حجاجا كلما كان أكثر خفاء، ومنه الضمني.
- يتوقف نجاح الحجاج بالتشبيه على المتكلم الذي يعقد المماثلة بين شيئين وبحسب قصده مدعما بحجة، ويمثل هذا في طرفه الثاني الذي يكون حجة على طرفه الأول في حين يمثل طرفه الأول مقدمة وتشكل المقدمة والحجة نتيجة ويشكل هذا كله قياس.

#### هـ- المجاز المرسل:

تكمّن حجاجيته في تنوع علاقاته وكونها مرسلة وليست مُقيدة وفي هذا يختلف المجاز المرسل عن الاستعارة في طبيعة العلاقة، فالعلاقة بين المشبه والمشبه به في الاستعارة مقيدة بالمشابهة، بينما تكون في المجاز المرسل غير مقيدة، ويكون المجاز المرسل حجاجا لكونه «كلمة استعملت في غير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي»<sup>(2)</sup>.

(1) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 262.

(2) علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص: 110.



وتشكل علاقات المجاز المرسل حجاجا إذ تكمن في الحجاج ويتنوع بتنوع علاقاته ومنها: «السببية، المسببية، الجزئية، الكلية، اعتبار ما كان، اعتبار ما يكون، المحلية، الحالية»<sup>(1)</sup>.  
وعلى المحاجج اختيار التركيب ليحسن التأليف بغية إنشاء علاقة تثير المتلقي لاقناعه، وقد يعتمد المجاز المرسل في علاقة من علاقاته. ومن أمثله في قصيدة الشيخ عبد الحميد بن باديس:

ويـرى الجزائرَ رَجَعْتَ حَقَّ الحِياةِ المُستَلَبِ<sup>(2)</sup>

والمعنى هنا للتحفيز والحماسة، فالجزائر اسم لبلد، ولكن المقصود به في البيت من يسكن في هذا البلد من شعوب، فهو مجاز أطلق فيه المحل وأريد الحال فالعلاقة محلية.  
والكلمة المستعملة استعمالا مجازيا "الجزائر" والمراد بها سكانها وعلاقة السكان بالجزائر هي العلاقة المحلية، لأن "الجزائر" هي المحل الذي يسكنه أو يستقر فيه الشعب الجزائري، وقد استعملت الكلمة المجازية "الجزائر" استعمالا حجاجيا. ومنه هي كلمة حجاجية أشأت علاقة حجاجية، فالمتلقي الجزائري خاصة حين يسمع هذا البيت الحجاجي، يتكون في نفسه حماسا وتعمل فيه تلك الكلمة وعلاقتها عمل المحفز للتغيير.  
وبيان ذلك أن الشيخ عبد الحميد بن باديس ذكر المحل أي المكان، وأراد الحال فيه أي المكان الذي يحل فيه، ففي قوله: الجزائر رجعت فهو لا يريد الجزائر بل شعبها وشبابها وبهذا نرى:  
- أن الكلمة المستعملة مجازيا في المجاز المرسل هي الكلمة المستعملة استعمالا حجاجيا.  
- أن العلاقة المكتشفة من استعمال الكلمة مجازيا ومحاجيا تؤسس حجاجا، حسب مراد المتكلم.

### و- المجاز العقلي:

ويبرز الحجاج في هذا المجاز في الإسناد غير الحقيقي، فهو مجازي ويدرك بالعقل، ومن علاقة الإسناد والإدراك بالعقل حجاج فالجواز العقلي «هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي»<sup>(3)</sup>.  
والمجاز العقلي «نسبة إلى ما هو له ويسمى: المجاز الحكمي والإسناد المجازي ولا يكون إلا في التركيب»<sup>(4)</sup>.

(1) علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص: 111.

(2) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 571.

(3) حميد آدم ثويني، البلاغة العربية، ص: 170.

(4) محمد بركات حمدي أبو علي، البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، ص: 27.

والحجاج في المجاز العقلي يكمن في علاقاته «فالإسناد المجازي يكون إلى سبب الفعل أو زمانه، أو مكانه أو مصدره، أو بإسناد المبنى للفاعل إلى المفعول أو المبنى للمفعول إلى الفاعل»<sup>(1)</sup>.  
والظاهر أن المجاز العقلي بعلاقاته يعد من المجاز الحجاجي، بل يعتبر من روافد الحجاج في الخطاب الشعري، فضلا عن القيمة الإقناعية، وهذا ما نلمسه في قول الشيخ "عبد الحميد بن باديس":

نَحْنُ الْأَلَى عَرَفَ الزَّمَانُ قَدِيمَنَا الْجُمُومُ الْحَسْبُ<sup>(2)</sup>

الفعل "عرف" أسند إلى غير فاعله، فالزمان لا يعرف وإنما يعرف البشر والناس، وهذا المعنى المقصود، فهو يحتاج لنسبه من البلد والنسل بضمير المتكلمين "نحن" ليؤثر على كل جزائي، ويبني له نوعا من الشرف والفخر رغم الاحتلال، ومنه إعادة الاعتبار.  
يقودنا هذا إلى حجاجية المجاز العقلي والمجاز المرسل، وأن الحجاج يشكل سبيلا مع المجاز إلى الإقناع، فالتأمل لطبيعة المجاز: العقلي والمرسل يرى أنها في الغالب تؤدي وظيفة حجاجية في تأدية المعنى المقصود بإيجاز.

والمظهر الذي يدل على حجاج المجاز العقلي والمرسل، هو المتكلم والمهارة في تخير المعنى الأصلي، والمعنى المجازي، والعلاقة المجازية التي تعد بؤرة الحجاج.  
ويقوم الحجاج على المجاز في وظيفة هذا الأخير، هي تصوير المعنى المقصود خير تصوير، والمظهر الحجاجي الذي يلحظ في هذين المجازين هو المبالغة البديعية التي تنتج أثرا رائعا خلافا على نفسية المتلقي، مما يجعله يقتنع بعد التأثير بجمالية القول وروعة المعنى.  
وعموما لا مفرّ للحجاج من البيان في كل أنواعه: الاستعارة، الكناية، التشبيه، المجاز المرسل، المجاز العقلي، إذ تعد وسائل الحجاجية البلاغية للإقناع، لهذا يكون الحجاج متدرجا، فبعد التأثير بروعة المعنى في التراكيب والأساليب يحدث الاقتناع.

والحجاج المجازي أو البياني يشترط فيه شروطا ليكون ناجحا:

- ✓ مهارة المحاجج في استعمال أنواع البيان: الاستعارة، الكناية ... استعمالا حجاجيا.
- ✓ تخير العلاقة في الاستعارة والمجاز المرسل والكناية والتشبيه بين المعاني، هو ما يمنحها قوة وطاقه حجاجية تساعد على إقناع المتلقي، فالشاعر المحاجج يستخدم سحر بيانه ويصور ما ليس موجودا بالوهم للتأثير في المتلقي.

(1) علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص: 117.

(2) عمار الطالبي، بن باديس حياته وآثاره، الجزء 3 ص: 571.

- ✓ الخطاب الشعري خطاب حجاجي بامتياز لاعتماده المجاز بكل أنواعه.
- ✓ الشيخ "عبد الحميد بن باديس" شاعر محاجج وماهر لاعتماده أنواع المجاز في هذه القصيدة لمعاني جليلة.

والشرط الأهم في نجاح الحجاج هو «وعي المتلقي وعيا تاما بالوسائل التي يعتمدها الشاعر في الإقناع، وإلمامه بأفانين الحجاج وأساليب البلاغية، بحكم انتمائه الثقافي ومعرفته بالنظام البلاغي»<sup>(1)</sup>. إن البلاغة تحفل بوسائل تؤسس صرحا للحجاج، وقد رأينا الوسائل البلاغية المجازية التي تختص بروعة البيان، أما ما يختص بحجاجية الألفاظ في البلاغة هو ما يعرف باسم المحسنات البديعية.

## 2- الحجاج والبديع:

- المحسن البديعي تزيين للفظ والمعنى في تراكيب، بألفاظ ومعاني بديعية تُنسب إلى الجمال اللفظي أو المعنوي، ويسمى العلم الجامع لهذا "علم البديع".
- فالْبديع زينة للكلام وجمال في القول، وهذه الزينة والجمال يفعلان في المتلقي فعل التأثير للإقناع، وتكمن حجاجية البديع في أمرين:
- أحدهما قدرة الألفاظ البديعية والمعاني الجميلة التأثير على المتلقي بموقعها الموقع الحسن من نفسية المتلقي، ويسحرها تقوده إلى الاقتناع.
- وثانيتهما أن كل قيمة جمالية في البديع تخص المعنى وتخص اللفظ، ما يؤكد اقتران الجمال بالإقناع، فالمعنى يكون مقنعا، ولزيادة هذا الإقناع يحتاج إلى لفظ يزيد جمالا فتزيد قدرته التأثيرية على المتلقي.

فالْبديع اللفظي والمعنوي وسيلة تأثير واستمالة، ويحقق إقناعا بل ينتج إقناعا يصاحبه جمال يؤدي للتصديق والإذعان، فاللفظ الجميل البديع المعنى المقنع أنفذ إلى الأذهان والأسماع وأكثر وقعا في القلوب وأدعى إلى الامتثال والتطبيق.

والمحسن اللفظي يحمل معنى مزيئا به، وبهذا يكون مؤثرا في المتلقي، كما يعتمد المحاجج إلى إرسال هذا المعنى كما يراه في ذهن المتلقي بشيء من الجمال.

(1) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 175.

وتنقسم المحسنات البديعية إلى لفظية، ومعنوية وكلاهما يؤسس حجاجا وقد ظهرت أنواع منهما في قصيدة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" وهذا بيانها:

### أ- الطباق:

ويفيد هذا المحسن المعنى، وهو اتجاه واضح في الحجاج؛ حيث يقوم الطباق بوظيفة حجاجية هي توضيح المعنى؛ حيث يدعم المعنى بقوة الوضوح، ويجعل الدلالة واضحة مقنعة، والطاق وسيلة حجاجية يوضح، يحسن، ينمق، وقوع المعنى في ذهن القارئ موقعا يجعله يقتنع، ويتحقق هذا حين يجمع الطباق بين معنيين متقابلين، وهذا يبين موضع الطباق في الحجاج وقيمته الإقناعية؛ لأن المطابقة «الجمع بين الشيء وضده في الكلام، وهو نوعان طباق الإيجاب، وهو ما لم يختلف فيه الضدان إيجابا وسلبا، وطباق السلب ما اختلف فيه الضدان إيجابا وسلبا»<sup>(1)</sup>. فإن يستند الشاعر إلى الطباق في كلامه أو خطبته أو قصيدته، فيلون ذلك التركيب بلون حجاجي، ويمنح المعنى قوة إقناعية، فيزيد الطباق من عملية التأثير والاستمالة. وقد استعمل الشيخ "عبد الحميد بن باديس" الطباق الإيجابي أكثر، وهذا عند قوله:

أَحْيَيْتَ مَوْلِدَهُ بِمَا يُبْرِي النَّفْسَ مِنَ الْوَصْبِ<sup>(2)</sup>

فبين "يبري" وألوصب" طباق إيجاب، فالبراء أتى مبينا لقيمة أعمال الأجيال التي احتفت بذكرى المولد الكريم، وهذا البراء والشفاء يقابل معناه معنى المرض، وهذا ما يزيد المعنى وضوحا وقوة في التأثير وفي قوله:

نَشَأَ بِمُحِبِّ عَمَلٍ غَدَاهُ أَشْيَاخُ نَجَبِ<sup>(3)</sup>

فالمعنى الحجاجي الموضح بالطباق أصالة الشعب الجزائري الذي تتلمذ على أشياخ غرسوا فيه حب الرسول ﷺ وهذا يوضح أصالة الشيوخ وأصالة النشء، وهما في المعنى متقابلين، هذا ما يمنح التركيب قوة حجاجية وزيادة في التأثير لاستمالة المتلقي الجزائري. ويظهر بقوة تأثيرية مقنعة حين يتحدث عن حق الجزائر واستقلالها وهذا في قوله:

(1) علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص: 281.

(2) عمار الطالبي، بن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 570.

(3) نفسه: ص 570.

حتى يُعوذَ لقومه      من عزّم ما قد ذهب  
ويرى الجزائر رجعت      حق الحياة المستلب<sup>(1)</sup>

فال معنى المتقابل هو بين: "يعود" و"ذهب"، "رجعت" و"المستلب" فالشيخ يحتج لحق الجزائر في الاستقلال، فعبر عن المعنى بشيء من الجمال، وهو الطباق الذي زاد المعنى قوة في الإقناع، فقوله جميل مؤثر مقنع بما يحمل المتلقي على الإذعان، ويظهر الطباق مساهما في العملية الحجاجية، فالشيخ كان هدفه أن يغير وضع الجزائر من الاحتلال إلى الاستقلال، وهذا معنى القصيدة الكلية، ويُعبر عن هذا في طلب له بالثورة:

واهزّز نفوس الجامدي      ن قرئ ما حي الخشب<sup>(2)</sup>

فالطباق يظهر بين معنى "الجامدين" و"حيي" ويضطلع بوظيفة إقناعية هي: الثورة تشمل كل الجزائريين، وبما أن الطباق الموظف حجاجيا يقوم على تقابل المعاني سواء بالإيجاب أم بالسلب، فهو يبين حركة الحجاج وتطوره داخل الخطاب، فإذا نظرنا إلى استعماله في قصيدة الشيخ عبد الحميد بن باديس حسب ترتيبه.

نجد المعنى الحجاجي الأول في تقابل "ييري" و"الوصب"، فالشيخ هنا يعبر عن ارتياح؛ لأن الأجيال القادمة سيكون لها شأن في استقلال الجزائر، ليذهب إلى أصالة هذا النشء، والشيوخ الذين غدّوه بحب محمد ﷺ، فالطباق هنا بين النشء والشيوخ يرتبط بغاية الاستقلال بعد الثورة، وهذا معبر عنه بتقابل معنى "يعود" و"ذهب"، ليتطور الحجاج بتقابل "رجعت" و"المستلب". وبعد هذا تأتي دعوة الشيخ للثورة، وهو معنى حجاجي كشف عنه تقابل "الجامدين" و"حيي"، ليصل الحجاج إلى نهايته متمثلا في معنى الثورة حتى الاستقلال والفداء بالأرواح معنى جميل بالطباق زاد المعنى الحجاجي وقعا وأثرا في نفس كل جزائري، وهذا حين يقول:

فإذا هلكت فصنّحتي      نحيبا الجزائر والعرب<sup>(3)</sup>

(1) عمار الطالبي، بن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 570.

(2) نفسه، ص: 571.

(3) نفسه، ص: 571.

فبين معنى الهلاك "هلكت" و"تحياً" تقابل، صورة أخيرة في القصيدة من الحجاج فالقصيدة احتجاج لظلم الاحتلال الفرنسي في غضب أرض الجزائر، واحتجاج للقيام بثورة ضد هذا الاحتلال، وأتى الطباق مُجملاً في هذا المعنى الحجاجي، وراصد لحركة، وتطور المعنى الإقناعي داخل القصيدة. إن المعنى الحجاجي رغم القوة الإقناعية التي تؤثر على المتلقي، والأساليب الحجاجية التي بها يستميله، فإنّ المعنى الحجاجي دائماً يحتاج إلى شيء من الجمال يزيد في قوته التأثيرية؛ لأن الجمال إذا كان غير متكلف في المعنى الحجاجي يكون مقنعا في الأذهان حسنا في النفوس. ومن ألوان البديع التي تزيد في بلاغة المعاني الحجاجية:

#### ب- المقابلة:

وهي «أن يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب»<sup>(1)</sup>. والمقابلة الحجاجية هي التي يقتضيها المعنى ولا ترد متكلفة، وبما أن المقابلة تعتمد على إيراد معاني ثم الإتيان بما يقابلها، فذلك يسهم حتما في توضيح المعنى، والتوضيح من التقابل يساعد على تمييز الأشياء، ومنه الإقناع في ثوب جمال المقابلة. وفي المقابلة تحدد النتيجة وتظهر الحجج مع بيان المقدمات، وتظهر نتيجة أخرى في مقابل النتيجة الأولى، وحجة ضد الحجة الأولى، وقد تكون المقدمة واحدة. إذن المقابلة تظهر في النتائج والحجج وذلك في تقابلها، ومنها ما ورد في قصيدة الشيخ عبد الحميد بن باديس:

مَنْ كَانَ يَنْغِي وَدُنَا      فَعَلَى الْكِرَامَةِ وَالرَّحْبِ  
أَوْ كَانَ يَنْغِي دُنَا      فَلَهُ الْمَهَانَةُ وَالْحَرْبُ<sup>(2)</sup>

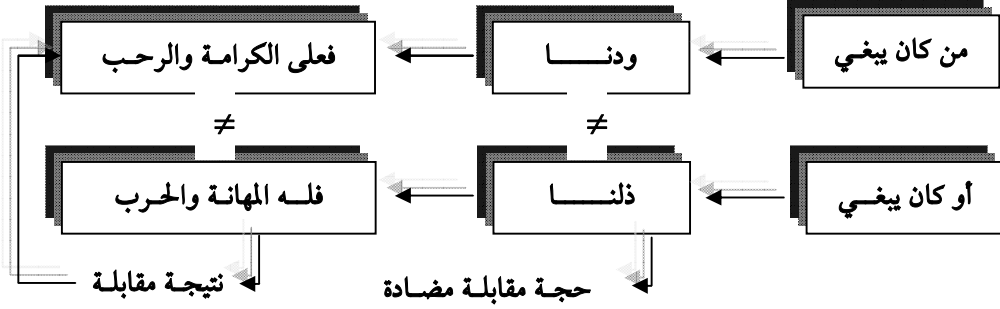
فالمقدمة "كان يبغي" والحجة "ودنا" والنتيجة "الكرامة والرحب"، وتقابلها المقدمة الثانية "كان يبغي" والحجة "دنا" والنتيجة "المهانة والحرب"، وتكون المقابلة أقوى إذا كان كل قسم حجاجي يقابل الآخر، وعليه تقوم المقابلة بوظيفة أقوى في الحجاج من وظيفتها الجمالية وهذا بيان ذلك:

(1) على الجارم مصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص: 285.

(2) عمار الطالبي، بن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 572.

## مخطط الحجاج بالمقابلة:

المقدمة 1 ← الحجة ← النتيجة  
 ≠ ≠  
 المقدمة 2 ← الحجة المقابلة ← النتيجة المقابلة



فأما البيت الأول موجه للذي يعامل الجزائر بحسن نية وود، وهو معنى معبر عنه بالشرط "من" الذي أضاف قوة حجاجية أخرى.

أما البيت الثاني فقد جمع فيه الشيخ عبد الحميد بن باديس "كل من يعامل الجزائر بنية سيئة، وجاءت المقدمة معطوفة على المقدمة الأولى بالحرف "أو" فالمقابلة بين الحجتين، وعلاقة هذه المقابلة بالنتيجة، والنتيجة المقابلة احتجاج لمن يريد خيرا بالجزائر، واحتجاج بالمقابل لمن يريد شرا بها، ومنه تقوم المقابلة بوظيفة حجاجية، وتكمن حجاجيتها في إيراد الكلام ما يقابله بشرط الترتيب، وهذا ما يدعم الحجاج بشكل عام والمعنى الحجاجي بشكل خاص، ويكتسب الحجاج من هذا المحسن البديعي المقابلة قوة، كما يدعم الحجج بالقوة الإقناعية التأثيرية، لتكون النتائج والتناجح المقابلة محل تصديق وتطبيق.

فالحجج بالمقابلة حجج يتمثل فيه معنى وما يقابله أو أكثر من ذلك، وما يرافق هذا الحجج من تأثير وجمال وبديع، ما يجعل المتلقي على درجة كبيرة من الاقتناع؛ لأن المقابلة تقيم له ما يقابل ذلك الكلام، وهذا مستوى حجاجي تقيمه البلاغة في بديعها، وأن المقابلة وجه من وجوه البلاغة البرهانية البديعة التي تدعم طاقة القول الحجاجية، وتزيد في قدرته الإقناعية، ومن هذا تُعد المقابلة من أهم الوسائل البلاغية للحجج للاستمالة والتأثير، فهي تستميل وتؤثر بجمال استعمالها وقوة علاقتها التقابلية على المتلقي.

## ج- التورية:

وتكمن حجاجية استعمالها في أن «يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان قريب ظاهر غير مراد، وبعيد خفي هو المراد»<sup>(1)</sup>.

ولعل أهمية التورية الحجاجية وطاقتها الإقناعية عند كشف المستور، أي المعنى الخفي والمفاجأة التي تُحدثها عملية الكشف عن هذا المعنى، ما يجعل المتلقي مشاركا في العملية الحجاجية، فالمتكلم يذكر لفظ لكن لا يريد معناه القريب، وعلى المتلقي اكتشاف المعنى البعيد (وهو المقصود)، وعلى هذا ندرك قدرة التورية على إقحام المتلقي وجعله يبحث عن المعنى لفهم قصد المتكلم، وهذا دور حجاجي في تركيب بديع وجميل.

ولفظ التورية يثير غموضا لدى المتلقي، ولإزالة هذا الغموض يجب الكشف عن المعنى، ومنه يوجه المتلقي وجهة محددة يقصدها المتكلم بالمعنى الخفي البعيد وقول الشيخ عبد الحميد بن باديس:

مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أَصْلِ  
وَأَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذَبَ<sup>(2)</sup>

كلمة "مات" لها معنيان فالمعنى القريب الذي يتبادر إلى الذهن بسبب الاحتلال الفرنسي هو خروج الروح والاندثار والفناء، والمعنى الخفي البعيد هو انسلاخ الوطن عن دينه ولغته وأصله ووطنه، بمعنى أن الشعب الجزائري مسلم عربي ووطنه الجزائر وهذا الذي عبر عنه بقوله "فقد كذب".

ويقوم لفظ التورية "مات" بإقرار ضمني خفي مفاده أن الشعب الجزائري حيّ بعروبته وإسلامه ووطنه وأصله، وهذا ما يبعث في الشعب الجزائري الحياة وروح المقاومة، فتصبح غاية البيت التوجيه نحو التغيير، وأن فرنسا هي سالبة لحق الجزائريين، وبقائها يُحيد الشعب عن أصله ودينه ووطنه، وبمحاربتها تعود للشعب أصلته ودينه ويعود وطنه.

ومن هذا نرى قوة المعاني الحجاجية الثاوية وراء لفظ واحد "مات" وباستعمال حجاجي للتورية وتظهر في قوله:

فَإِذَا هَلَكْتُ فَصِيحِي  
ثِيَابَ الْجَزَائِرِ وَالْعَرَبِ<sup>(3)</sup>

(1) علي الجارم، مصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص: 277.

(2) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 571.

(3) نفسه، ص: 572.



ومن أبرز الظواهر التي تُبينها التورية أن الحاجج يحقق توجيهها في المتلقي إذا اعتبرنا المعنى الخفي حجة، فإن اكتشافه من المتلقي يؤدي إلى تحقيق قصد المتكلم.

فلفظة "تحياً" لها معنيان الأول قريب متبادر وهو: "تحياً" بخلاف "تموت"، وسبب تبادره إلى الذهن هو ما سبقه "هلكت"، والمعنى الثاني بعيد وهو المقصود "تحياً" بمعنى تستقل الجزائر وتعيش حياة كريمة، الذي يريده الشاعر بعد أن ستره في ظل المعنى القريب، باعتبار المعنى الخفي الحرية والاستقلال للجزائر حجة، فمن شأن هذا المعنى بعد أن يكشف عنه المتلقي تأكيد قصد المتكلم وتحقيقه، فيوجه المتلقي لحظة كشفه عن المعنى.

إن المحسنات البديعية المعنوية: الطباق، المقابلة، التورية، تقوم بالحجاج الذي يدعو للاقتناع والاستمالة والتأثير، وتدعم المعنى الحجاجي من الناحية الجمالية البديعية. وعموماً إنَّ الجمال وتضافره مع الحجاج مدعاة لنجاحه وتحقيق المقصد المتكلم وتوجيه للمتلقي وإقناعه.

بالإضافة إلى المحسنات المعنوية نجد بالمقابل المحسنات اللفظية ومنها:

#### هـ- الجناس:

وتكمن جماليته الحجاجية في أن «يتشابه به اللفظان في النطق ويختلفان في المعنى وهو نوعان: تام وهو ما اتفق فيه اللفظان في أمور أربعة: نوع الحروف، وشكلها وعددها وترتيبها، غير تام وهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد من الأمور المتقدمة»<sup>(1)</sup>. «ويرتبط بأصوات الحروف، وبتباينها قلة أو كثرة في الدلالة على المعاني المطلوبة أو اتساقها وتطابقها في الألفاظ مع تباين الدلالة واختلافها»<sup>(2)</sup>.

ويزيد الحجاج حلاوة وطلاوة في كونه «حلية لفظية تكسب الكلام جرساً لذيذاً وإيقاعاً لطيفاً، يجعل فيه من الموسيقى والنغم، ما يحمل الأذن على الإصغاء والارتياح»<sup>(3)</sup>.

فالجناس يضع المتلقي أمام لفظة مكررة، لكن كل لفظة تحمل معنى، تكسبه لذة وإيقاعاً، وهذا ما ينتج نغماً موسيقياً، يجعل المتلقي يصغي للمعاني ويرتاح لها، فيتحقق هدف الحجاج، ويمكن عدّ الجناس حسناً لفظياً، يثري الحجاج ويدعمه من جهة الوقف في النفس، وهذا للأثر الموسيقي الناتج عنه بزيادة موسيقى الشعر، باعتباره الكلام الموزون المقفى، والموسيقى بشكل عام تؤثر على المتلقي سواء باستعمال الجناس أو التصريح أو التصريح أو ردّ الصدور عن الأعجاز، «فيمكن اعتبار الموسيقى رافداً من روافد

(1) على الجارم، مصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص: 265.

(2) حميد آدم ثويني، البلاغة العربية، المفهوم والتطبيق، ص: 349.

(3) ينظر، محمد بركات حمدي أبو علي، البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، ص: 69.

الحجاج من جهة استيلاء ما وقع على النفوس وامتلاك الأنغام للأسماع، وما كان أملك للسمع كان أفعال باللب وبالنفس»<sup>(1)</sup>.

ومنه تكمن فعالية الحجاج باستعمال الجناس في الجرس الموسيقي والإيقاع الذي يقيمه فيكون بمثابة المؤثر المستميل لنفسه المتلقي.

وقد ورد الجناس في قصيدة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" عن قوله:

صَدِحتْ بِلاِبْأَلِكِ الْفِصَا      حُ فَعَمُّ مَجْمَعِنَا الطَّرْبُ  
وَأَذْفَتْنَا طَعْمًا مِّنْ آل      فَصَحَى الْدُّ مِّنَ الضَّرْبِ<sup>(2)</sup>

فالتجانس أو الجناس بين لفظة "الطرب" و"الضرب" تجانس إحداهما الأخرى وتشاكل لفظة "الطرب"، لفظة "الضرب" لكن تختلف اللفظتان في المعنى.

وإيراد الكلام على هذا النغم والموسيقى ما يؤثر في نفسية المتلقي وهذا المثال جناس ناقص أو جناس غير تام لاختلاف في نوع الحروف. ويظهر في قوله:

خُذْ لِلْحَيَاةِ سِلاَحَهَا      وَخُضْ الْخَطُوبَ وَلَا تَهَبْ<sup>(3)</sup>

الجناس في "خذ" و"خض" وهنا اختلاف في نوع الحروف وهو جناس غير تام، وقد صاحب هذا الجرس فعل الأمر في الشطر الأول "خذ" وصاحب أيضا الفعل "خض" جرسا يبعث عن الحماسة، ومن شأن هذا تطبيق الطلب وهو القصد من استعمال أفعال الأمر بجرس ومنه حجاجية الجناس ويظهر الجناس مع المقابلة في قوله:

مَنْ كَانَ يَبْغِي وَدُنَا      فَعَلَى الْكِرَامَةِ وَالرَّحْبِ  
أَوْ كَانَ يَبْغِي دُنَا      فَلَهُ الْمَهَائَةُ وَالْحَرْبِ<sup>(4)</sup>

(1) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 127.

(2) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الجزء 3، ص: 571.

(3) نفسه، ص: 571.

(4) نفسه، ص: 571.

فالجناس في لفظة "الرحب" و"الحرب" وأتى موظفا توظيفا حجاجيا، وهو جناس غير تام لاختلاف في ترتيب الحروف، وقد عقد هو والمقابلة في البيت الأول ووظيفة إقناعية، والجناس أثرى هذا التقابل بجرس موسيقي إثراء للحجاج بعامة.

على العموم، الجناس رافد حجاجي نتيجة للموسيقى المنتجة من استعماله، حيث تكون هذه الموسيقى مؤثرة بإيقاعها وجرسها على نفسية المتلقي، إذ يضطلع الجناس بدور حجاجي لما يحدثه في لب المتلقي من ارتياح للمعنى المصاحب له.

## و- الاقتباس:

وتظهر حجاجيته في أنه «تضمن النثر أو الشعر شيئا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف من غير دلالة على أنه منهما، ويجوز أن يغير الأثر المقتبس قليلا»<sup>(1)</sup>.

ويزيد الاقتباس من قوة القول الحجاجي باعتباره حجة تدعم القول الحجاجي؛ لأنه من كلام مقدس، ولهذا يشترط أن يكون المعنى المقتبس إليه أو له معنى شريف فلا يصلح أن يكون الاقتباس في معاني دينية، فيؤدي إلى سوء الاستخدام.

فلاقتباس محسن لفظي يمنح الحجاج قوة ومصداقية، نظرا لمصدر الاقتباس القرآن والحديث الشريف «فيلون ذاك التركيب ما حوله ويشيع فيه من القوة ما يرفد طاقة برمته، ويوجه المتلقي إلى غايته وقد يخضع الشاعر الآية المقتبسة أو الحديث المأخوذ إلى شيء من التغيير، ليجعل المقتبس منصهرا تمام الانصهار في نسيج الشعر ملائما كل الملائمة لبنيته الصوتية، حتى يكون الفعل تاما والتأثير المرجو حاصلًا»<sup>(2)</sup>.

اقتبس الشيخ "عبد الحميد بن باديس" معنى قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>(3)</sup>، في قوله:

ندعو إلى الحسنى ونُـو لـي أهلها مئنا الرغب<sup>(4)</sup>

(1) على الجارم، مصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص: 270.

(2) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 118.

(3) سورة النحل، الآية: 125.

(4) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وأثاره، الجزء 3، ص: 572.

استمد البيت قوة من الآية وأمدته طاقة إقناعية، فهو يحتج لبيان موقف ودعوة الجزائريين من الذين يدعون إلى الحسنى، وتقتضى الحسنى موالاة أهلها بالترغيب، وهذا يقتضى مبدأ الحرية، لتكون الآية المدعمة للقول الحجاجي، فيثبت للجميع أن الشعب الجزائري يدعو إلى الحسنى، ومعنى ضمني يظهر من خلال الأبيات الموالية.

الحجاج بالاقتراس يكمن في قداسة القول المأخوذ ثم معيار حجاجيته بالنظر إلى استخدامه، إذا استُخدم في معنى شريف، فهذا يزيد القول الحجاجي قوة وطاقة إقناعية تجعل المتلقي يصدق ويقتنع بالقول المقتبس.

يقوم البديع بنوعيه (اللفظي، والمعنوي) بالمساهمة في بناء نظرية للحجاج، إذ تضطلع كل وسيلة بوظيفة حجاجية، وكل الوسائل تؤدي وظيفة التوضيح توضيح المعنى وتقويته.

وحاجة الحجاج للبديع، أن المعنى المقنع يحتاج لشيء من الجمال وتوشية ليقع موقعا حسنا على نفسية المتلقي، ويؤدي البديع إلى تزيين المعاني بعدة وسائل: طباق، مقابلة، تورية، جناس، اقتباس. ويشترط لتكون تأدية هذه الوسائل حجاجية أن تكون ملائمة بعيدة عن التكلف، فالبديع يعين على تأدية الكلام بشيء من الجمال ليكون مقنعا من جهتين، من جهة القوة، ومن جهة المتعة واللذة.

وإذا كان البيان وسيلة لتأدية المعاني بوسائل حجاجية عدة: مجاز عقلي، مجاز مرسل، كناية، استعارة، تشبيه، فإن المعاني تزين بالبديع لتوضع في ذهن المتلقي مجهزة للتصديق.

فالبديع حجاج، والبيان حجاج، والوسائل تُكَمَل بعضها وتتضافر لإقناع المتلقي، كما قد تتضافر أكثر من وسيلة في البديع، فقد نجد الجناس والتورية، الطباق والاقتراس، في قول حجاجي واحد، فتزيد طاقته الحجاجية وقوته التأثيرية.

ونخلص إلى أن الحجاج ملازم للبلاغة في بيانها وفي بديعها وفي معانيها، والبلاغة ملازمة للحجاج في غاياته ومقاصد المتكلم، ومنه ننتهي إلى أنّ لا غنى للبلاغة عن الحجاج، ولا غنى للحجاج عن البلاغة، ولا غنى للحجاج عن الجمال والبديع، فالحجاج صناعة، والشعر صناعة، والبديع جمال الصناعتين، فيصير الحجاج بلاغة، وصناعة إقناع بديع.



## الغاية

لقد قامت هذه الدراسة بملاحقة "الحجاج" ووسائله المستمدة من اللسانيات، والمنطق، والنحو، والبلاغة، ونعني بذلك تعدد الحقول الحجاجية وتنوعها، بما يمدّه من تقنيات وأفانين رافدة في سبيل الإقناع. فقد كان الفضاء التطبيقي لهذه الدراسة مختارات أدبية من أدب العلامة: "عبد الحميد بن باديس"، حيث أفضى البحث إلى نتائج، سنقوم بعرضها وفق مباحثه:

### في التمهيد:

كشفت الدراسة عن محاجج جزائري وشخصية فذة، حجاجية بامتياز ممثلة في شخصية العلامة "عبد الحميد بن باديس" لعوامل جعلته أهلاً لذلك، منها: كفاءته اللغوية والأدبية، وشخصيته الثائرة الفذة. وأن الوضع المعيش في الجزائر آنذاك، كان يحتاج لشخصيات كالشيخ عبد الحميد بن باديس لإقناعهم بضرورة التغيير.

### وفي مبحث الحجاج عند الغرب:

كشفت البحث عن الحركة السفسطائية التي أنتجت فكرتين لهما دور قوي في بناء البحوث الحجاجية، وهما:

- التوجيه، وفيه يُوجه الحجاج بحسب المقام.
- التوظيف، وفيه تُوظف سلطة القول.

وهما بمثابة الشرط في نجاح العملية الحجاجية الإقناعية، كما أسهمت هذه الحركة الفلسفية في بناء وتأسيس النظرية الحجاجية الحديثة، ويظهر الحجاج، وتُعزز النظرية الحجاجية بظهور كتاب أرسطو "فن الخطابة" الذي عدّ الدعامة الأولى للحجاج، فظهر تأسيسه بمفهوم الاستدلال التفكير العلمي الذي بواسطته يُنتج العلم، كما ذكر أنواع الحجج وأنواع الحجاج المتمثلة في: الحجاج الفلسفي، القضائي، الجدلي... كما اهتم بمختلف أطراف العملية التواصلية.

### وفي مبحث الحجاج عند العرب:

يبيّن البحث أن الحجاج ركن من أركان البلاغة العربية، وأنه مبحث في بلاغة العرب في فن القول شعرا ونثرا، وتعتبر البلاغة العربية الحقل الذي نشأ فيه الحجاج.

وما أتى به الجاحظ في كتابه البيان والتبيين والسكاكي في كتابه مفتاح العلوم، من بحوث ومصطلحات حجاجية، يكشف عن أصالة هذا البحث في البلاغة العربية، ويطل مزاعم من عدّ الاحتجاج فنا مقتبسا من بلاغة اليونان، حيث يقابل مصطلح الحجاج في البلاغة العربية مصطلح البيان، والاستدلال. كما تناول البحث البلاغي العربي القديم كل أطراف العملية الحجاجية، بالنظر إلى المحاجج والصفات التي تجعله ناجحا ومقتنعا، كما نظروا لنجاعة الخطاب الحجاجي.

يقابل الحجاج مقولتين عربيتين: لكل مقام مقال" ومقتضى الحال، فالبلاغة العربية القديمة أسست لبحث حجاجي، ولنظرية حجاجية، بهذا يكون التأسيس لبلاغة الحجاج عربي خالص، يخلص هذه البلاغة العربية من التبعية للمنطق الأرسطي.

ويعزّز هذا البحث العربي في بلاغة الحجاج عند علماء العربية، وأصول الفقه، كتاب ابن وهب البرهان في وجوه البيان" بخاصة.

فالحجاج بمصطلحاته ظهر أكثر فيما أفاض فيه علماء الأصول وعلماء التفسير واللغة في تحديد القياس، والتأويل، والدلالة.

وحاجة علماء الكلام للتسلح بالوسائل الحجاجية اللغوية، تظهر للدفاع عن الدين ضد مزاعم المشتهين، جعل الحجاج يُبرز التوجهات الحجاجية للبلاغيين العرب، وهي:

- التوجه البلاغي المنطقي لدى السكاكي.
- التوجه البلاغي الخطابي لدى الجاحظ.
- التوجه البلاغي البياني لدى ابن وهب.

وكل هذه التوجهات أسهمت - سواء بعمد أم بغير عمد- في تأسيس نظرية لسانية هي: نظرية الحجاج في البلاغة العربية.

### وفي مبحث الحجاج واللسانيات:

كشفت الدراسة أن الحجاج في كل مفاهيمه يهدف إلى إقناع المتلقي، وهو خطاب موجز وممارسة فكرية للتأثير، إذ يبعث كل هذا على إنجاز العمل المطلوب.

وأضاف البحث مصطلحات قريبة لمفهوم الحجاج كالأستدلال والبرهنة، حيث يمثل الاستدلال السياق العقلي للحجاج، وتمثل البرهنة الحجة التي تثبت قضية أو تدحضها، كما رصد البحث مراتب الحجاج، وأشار إلى بواعثه، وأن الباعث الأول هو الاختلاف بين المتكلم والمتلقي وخلص إلى حالات المتلقي بعامة:

- متلقي جاهل.
- متلقي منكر (جاحد) معترض.
- متلقي متردد.
- والباعث يحكمه حال المتلقي في طلبه للدليل وإقامة الحجة.
- ويتنوع الحجاج بالنظر إلى:
  - هدف الحجاج.
  - المتلقي المقصود.
  - الحجج المعتمدة.
  - طبيعة ونوع الخطاب.
  - مكانة المتكلم المحاجج.
  - رد فعل المتلقي.

كما تتنوع الحجج بما يناسب نوع الحجاج الذي يتماشى مع قصد المتكلم، وبما يقنع المتلقي. كما تتنوع الوسائل والتقنيات الحجاجية، حيث تستمد من البلاغة، واللسانيات، والنحو، والأصول، والفلسفة، إذ يشترط فيها المناسبة في توظيفها لتكون أكثر نجاعة في إنجاح العملية الحجاجية، مع مراعاة نوع الخطاب وحال المتلقي.

### وفي مبحث التداولية:

رصد البحث عناية التداولية بالحجاج خاصة، وبعملية الكلام عامة، وفصل البحث في مهام التداولية في تحليل الخطاب الحجاجي، فالتداولية تعنى بوظيفة الاستعمال اللغوي ونظرية التواصل. وتوصل البحث - أيضا - إلى علاقة البلاغة بالتداولية، وعلاقة الحجاج بالبلاغة، وعلاقة التداولية بالحجاج؛ فهي تحلل الخطاب الحجاجي، بالنظر إلى وسائله، وإلى المتكلم، ومقصده من السامع، لتظهر علاقة البلاغة بالتداولية، فمصميم البلاغة تداولي بالنظر إلى الاستعمال اللغوي، وما يحدثه هذا الاستعمال في المتلقي.

وكشف البحث أن نظرية الأفعال الكلامية تساند التداولية في دراسة الحجاج والمنجز اللغوي، وبهذا تتجلى علاقة التداولية بالفلسفة التحليلية، إذ فحوى هذه النظرية إنجاز الأفعال بالكلام، ومنه توظيف الأفعال اللغوية للقيام بعمل بدني ظاهري مطبق، ومن هذا غدت الأفعال الكلامية نظرية حجاجية، كما كشف البحث أن الأحداث تنجز إذا كان المتكلم من ذوي المحاجة والإقناع؛ فينقل المتلقي من حال التلقي



إلى حال الإنجاز، وتنوع الأفعال الكلامية بالنظر إلى: سلوك المتلقي، الملفوظ، نتيجة الخطاب بفعل الكلام، وتؤسس الأفعال الكلامية طاقة حجاجية بالاعتماد على تداولية المتكلم والخطاب والمتلقي، من ناحية أن المتكلم يوظف أفعالاً في خطابه لينجز المتلقي عملاً بالكلام (الخطاب)، فالتداولية ونظرية الأفعال الكلامية يؤسسان نظرية الحجاج.

وبهذا خلص البحث إلى أن التداولية هي الأم الرؤوم لمختلف النظريات: نظرية الأفعال الكلامية، ونظرية التواصل، ونظرية التلطف، هذه الأخيرة ترتبط بالتداولية من جهة أن التلطف تفاعل يُكوّن علاقات بين البشر، وهذا التعلّق أزال الوشاح عن نظرية الحجاج، وتضافر هذه النظريات والتداولية أدى إلى بناء صرح الحجاج.

### وفي مبحث حدّ مصطلح الحجاج:

توصل البحث إلى إمكانية القول: خطاب حجاجي أو نص حجاجي، فأما الخطاب الحجاجي فالحجاج طبيعة لكل خطاب، وأما نص حجاجي فالنص وظيفته التفاعل وخلق تواصل بين منتج ومتلق، والحجاج تفاعل، فتبرز - هنا - مشروعية المصطلح: خطاب حجاجي، نص حجاجي. مع نقض ما يشاع عن التفرقة بين النص والخطاب، لأنّ الحجاج يكون في اللغة، ويكون في أي نظام لغوي هدفه التواصل البشري.

### وفي مبحث الحجاج في تفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس:

نجد الخطاب التفسيري خطاب حجاجي بامتياز، لأن وسائل التفسير وسائل حجاجية، كالشرح والتأويل.

وبدا للبحث أن التفسير الشفاهي خطاب حجاجي نظراً للغاية المرجوة منه، وهي التغيير الآني. وقد اعتمد الشيخ الخطاب التفسيري، والوسائل الحجاجية في التفسير كالقرآن الكريم والسنة النبوية... مع التقيّد بشروط المفسّر الحجاج، لضمان الهدف من الخطاب، كما كشف البحث قدرة الشيخ عبد الحميد بن باديس "الحجاجية لكفاءته اللغوية ومنهجه في التفسير.

### وفي مبحث الحجاج في المقالة البادية:

توصل البحث إلى أنّ الحجاج لا بدّ له من باعث يجعل المتكلم يرسم هدفاً، ليحققه على متلق، وقد استغل الشيخ مكانته وقيّمته في الحجاج لكونه مؤسس الجمعية، ومفسر القرآن ورائد النهضة الإصلاحية والإمامة، من هذا يظهر نوع الحجاج، بالنظر للاختلاف القائم بين قطبي التحوار، وعليه الخطاب الحوارية خطاب حجاجي بامتياز.

اعتمد الشيخ في حجاجه على أنواع من الحجاج، منها: الدفاع عن أطروحة أو قضية، وحجاج القوة، والحجاج وجه ذات، والحجاج السلطوي.

واستعمل الشيخ أسلوب الاستفهام استعمالاً حجاجياً، حيث استعمله في الإنكار وبهذا يكون استفهام إنكاري لقول المحاور، ونجاح الحجاج في الخطاب الحوارية يُكتشف من المتلقي حين لا يقوى على الرد.

### وفي مبحث الحجاج في الخطبة البادية:

توصل البحث إلى أن نجاح الحجاج في الخطبة يعتمد على عدة الخطيب، وبصره بالحجة، وترتيب حججه داخل الكلام، وحجاجية العبارة. وأن الخطبة تمثل حقلاً يتجسد فيه الحجاج. كما توصل البحث إلى أن القياس وسيلة حجاجية منطقية بكل أنواعه.

وعلاقة الحجاج بالمنطق، والنحو بما يوفره من أدوات تستعمل حجاجياً، واللسانيات بوسائلها التماسك، والاتساق، والانسجام، تمنح للحجاج أوجه مختلفة تمثلت في: وجه منطقي، وجه نحوي، ووجه لساني.

### وفي مبحث الحجاج والشعر:

كشف البحث عن لغة الشعر الحجاجية، وأن الشعر حجاج يصاحبه إمتاع، حيث توصل البحث إلى حجاجية اللغة الشعرية البادية في قصائده، وأنه شاعر محاجج، لغته الشعرية قريبة من خطبه.

### وفي مبحث الأفعال الكلامية في الشعر البادي:

فصل البحث في توظيف الشعر أفعالاً كلامية تنهض بوظيفة حجاجية لأن كل فعل يخضع لمقصد باعتبار زمنه ونوعه ومعنى حجاجي ورد فيه.

استعمل الشيخ أفعال الأمر بغية صنع الحدث، وهو أكثر من أي نوع آخر من أنواع الخطاب التي برزت قدرتها الحجاجية في اللغة الشعرية، ومنه كل فعل له مقصد حجاجي وعمل حجاجي وتأثير حجاجي، ووقع على نفس المتلقي.

## وفي مبحث الحجاج والمجاز:

تعد البلاغة بؤرة الحجاج، ويعد الشعر بؤرة المجاز، ويعد هذا الأخير وسيلة من الوسائل البلاغية في الشعر إذ يؤسس لحجاج بالمجاز، ومنه حجاجية الاستعارة، والكنائية، والتشبيه، والمجاز العقلي، والمجاز المرسل، ومنه يُردّ ما يشاع أنه لا وجود للحجاج في الشعر، كما بين البحث أن للشعر لغة حجاجية ذات وجهين إمتاعية وإقناعية.

بمقابل الحجاج بالمجاز، نجد حجاجا في البديع، ومنه: حجاج مجازي، حجاج بديعي (جمالي)، فالمعاني الحجاجية المقنعة تكون أكثر إقناعا، إذا توشحت بالمجاز، والتصوير، والتخييل، والبديع. ولا مفرّ للحجاج من المجاز والبديع، للاستقبال الحسن والوقع المؤثر على ذهن ونفسية المتلقي.

## يوصي البحث ببعض التوصيات منها:

- قيام دراسة لسانية تتناول ما تركه الشيخ عبد الحميد بن باديس من آثار.
- دراسة النصوص الشعرية العربية، دراسة تداولية (الحجاج في الشعر).
- تكوين فريق عمل يهتم بدراسة الحجاج عند العرب، على غرار فريق "همادي صمود" وجماعته في "دراسة أهم نظريات الحجاج عند الغرب".

## قائمة المصادر والمراجع

### القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

#### أولا: الكتب العربية:

1. أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر.
2. أحمد رحمانى، التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا، منشورات جامعة باتنة.
3. أحمد رحمانى، مناهج التفسير الموضوعي وعلاقتها بالتفسير الشفاهي، عالم الكتب الحديث أريد، الأردن، الطبعة الأولى، 1429هـ، 2008.
4. أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، نهضة مصر للطباعة والنشر، 2003.
5. إدريس أوهدنا، أسلوب الحوار في القرآن الكريم: الموضوعات والمناهج والخصائص، دار أبي رقرق، المملكة المغربية، الطبعة الأولى، 2005.
6. البخاري (الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل)، صحيح البخاري، الجزء الثاني، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1408هـ - 1987م.
7. بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2006.
8. تركي رايح عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس، باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية، 2003.
9. تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، دار النشر، الجزائر، الطبعة الثالثة، 1981.
10. الترميذي (أبو عيسى محمد بن عيسى)، الجامع الصحيح، سنن الترميذي، الجزء الخامس، تحقيق أحد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
11. تقي الدين أبي بكر علي (ابن حجة الحموي)، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح: عصام شعيتو، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت - لبنان، الجزء 01، الطبعة الأولى، 1987.
12. توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تعليق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1995.
13. جرجي شاهين عطية، سلم اللسان في الصرف والنحو والبيان، دار ريجاني، بيروت، الطبعة الرابعة.

14. جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2008.
15. حسن عبد الرحمن سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسرا، المؤسسة الوطنية للكتاب.
16. أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق حفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، القاهرة.
17. حسين خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، 2007.
18. حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، 1981.
19. حمادي صمود، من تجليات الخطاب البلاغي، دار قرطاج للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، 1999.
20. حميد آدم ثويني، البلاغة العربية المفهوم والتطبيق، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2007.
21. خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق - مثل من صورة البقرة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، الطبعة الأولى، 2008.
22. خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس اللغوي القديم، بيت الحكمة، الطبعة الأولى، 2009.
23. ذهبية هو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2005.
24. سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنياته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الطبعة الأولى، 2008.
25. سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، النص والسياق، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الأولى، 2001.
26. سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، الطبعة الرابعة، 2005.
27. شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، دار المعرفة والنشر بجامعة منوبة، تونس، الطبعة الأولى، 2006.
28. شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، الجزء 01، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الجديدة، 2003.

29. شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، د.ت.
30. صابر الحباشة، التداولية والحجاج مداخل نصوص، دار صفحات للدراسات والنشر، سوريا، دمشق، الطبعة الأولى، 2008.
31. صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للطباعة والتوزيع، مصر، الطبعة الأولى، 2007.
32. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري، القاهرة، الطبعة الأولى، 2004.
33. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان والتكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الرباط - المغرب، الطبعة الأولى، 1998.
34. طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الرياض - المغرب، الطبعة الثانية، 2000.
35. عباس حسن، النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة، الجزء 1، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.
36. عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، دار البعث للطباعة والنشر، الجزائر - قسنطينة، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الطبعة الأولى، 1983.
37. عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، الطبعة الأولى، 1982.
38. أبو عبد الرحمن محمود، رسالة جواب سؤال عن سوء مقال، للعلامة السلفي الشيخ عبد الحميد بن باديس، دار الرغائب والنفائس، الطبعة الأولى، 2005.
39. عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، الطبعة الثالثة.
40. عبد العزيز شرف، أدب المقالة من المعاصرة إلى الأصالة، دراسة ونماذج، دار الجليل، بيروت.
41. عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، 1984.
42. عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، الطبعة الأولى، 2003.
43. عبد القادر منصور، موسوعة علوم القرآن، دار القلم العربي، سورية، حلب، الطبعة الأولى، 2002.
44. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق، محمود محمد شاكر، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، 2005.
45. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة 2.

46. عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشرحية، قراءة في نموذج إنساني معاصر، النادي الأدبي الثقافي، السعودية، الطبعة الأولى، 1985.
47. عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2007.
48. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 2004.
49. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، المجلد الأول، الجزء الأول والثاني، وضع حواشيه، موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، 2003.
50. علي الجارم ومصطفى الأمين، البلاغة الواضحة البيان والمعاني والبديع، دار المعارف، القاهرة، بيروت، 1979.
51. عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1968.
52. غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة الأولى، 2002.
53. فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة- درب الأتراك.
54. أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995.
55. فرحان بدري الحربي، الأسلوبية في النقد العربي الحديث، دراسة في تحليل الخطاب، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 2003.
56. محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 1996.
57. محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجاً، دار إفريقيا للشرق، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، 2002.
58. محمد بركات حمدي أبو علي، البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، دار النشر، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1992.
59. محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص، دار المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1991.
60. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 2008.
61. محمد ولد سالم الأمين، حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، منشورات المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، الجماهيرية العظمى، الطبعة الأولى، 2004.

62. محمد شومان، تحليل الخطاب الإعلامي، أطر نظرية ونماذج تطبيقية، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، 2007.
63. محمد طه عصر، مفهوم الإبداع في الفكر النقدي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000.
64. محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية.
65. محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظام المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، الطبعة السابعة، 2004.
66. محمد غنيمي هلال، المدخل إلى النقد الأدبي الحديث، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1958.
67. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2008.
68. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، تموز (يوليو)، 2005.
69. ناصيف اليازجي، كتاب فصل الخطاب في أصول لغة الأعراب، المطبعة الأمبركانية، بيروت، 1913.
70. أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق، عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2000.

### ثانياً: الكتب المترجمة:

71. أرسطو طاليس، الخطابة، الترجمة العربية القديمة، تحقيق، عبد الرحمان بدوي، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، لبنان، 1979.
72. جاك موشلار، آن روبول، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دعفوس، محمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، تموز (يوليو) 2003.
73. دايل كارينجي، فن الخطابة، دار أسامة، دمشق- سوريا، 1999.
74. روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب القاهرة، الطبعة الأولى، 1998.
75. فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987.



### ثالثاً: قائمة المعاجم العربية:

76. إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، الجزء الأول، المكتبة الإسلامية، الطبعة الثانية.
77. جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق، عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1997.
78. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، معجم مقاييس اللّغة المجلد الأول، دار الكتب العلمية، المحقق، إبراهيم شمس الدين، لبنان، الطبعة الثانية، 2008.
79. مجد الدين محمد بن يعقوب بن إبراهيم الفيروز أبادي الشيرازي الشافعي، القاموس المحيط، الجزء 2، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1999.
80. ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري)، لسان العرب، دار صادر، بيروت الطبعة الأولى، 2000.

### ثالثاً: الرسائل الجامعية:

81. ناصر بن دخيل بن فالح السعيد، الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي، دراسة وصفية، رسالة دكتوراه، إشراف أ. د، محمد إبراهيم شادي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1425 هـ - 1426.
82. يوسف عمر لعساكر، الجدل في القرآن خصائصه ودلالته، جدال بعض الأنبياء مع أقوامهم، نموذجاً، دراسة لغوية دلالية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر (بن يوسف بن خدة)، 2004-2005.

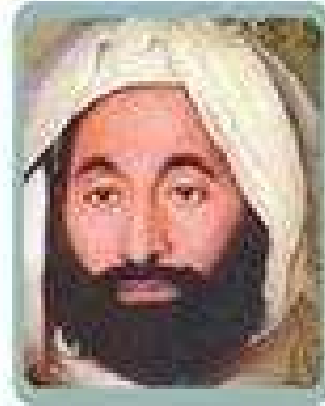
### رابعاً: المجلات والدوريات:

83. حمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس.
84. الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم سورة النمل نموذجاً، مجلة اللغة والأدب ملتقى علم النص، العدد: 12، جامعة الجزائر، ديسمبر 1997.
85. خولة طالب الإبراهيمي، قراءة في اللسانيات النصية، مجلة اللغة والأدب، ملتقى علم النص، العدد 12، ديسمبر، 1997.

86. رابع بوحوش، الخطاب والخطاب الأدبي وثورته اللغوية على ضوء اللسانيات وعلم النص، مجلة اللغة والأدب، ملتقى علم النص، العدد12، ديسمبر، 1997.
87. شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس.
88. عبد القادر بوزيده، نموذج من المقطع البرهاني مجلة ملتقى النص، مجلة اللغة والأدب، ملتقى علم النص، العدد12، ديسمبر، 1997.
89. عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج الخطابية الجديدة لبرلمان وتيتيكان، فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس.
90. عبد الملك مرتاض، مقدمة في نظرية البلاغة، متابعة لمفهوم البلاغة ووظيفتها، مجلة جذور، الجزء 28، مج 11، رجب 1430، يوليو 2009.
91. عز الدين الناجح، المفهوم من خلال الملفوظ الإشهاري الخطاب، دورية أكاديمية، جامعة تيزي وزو، العدد: 02، ماي 2007.
92. علي كاظم علي، شعرية المجاز في البلاغة العربية، مجلة جذور، الجزء 15، مج 08، شوال 1424، ديسمبر 2003.
93. محمد العبد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، العدد 60، خريف 2002.
94. محمد الواسطي، أساليب الحجاج في البلاغة العربية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المعراز- فاس، العدد12، 2001.
95. محمد لطفي اليوسفي، وظيفة الشعر، النقد والقراءة المقاومة، مجلة ثقافات، كلية الآداب، جامعة البحرين، العدد: 14، 2005.
96. محمد مصطفى بدوي، الشعر العربي الحديث بين التقاليد والثورة، مجلة عالم الفكر، المجلد 19، العدد 3، أكتوبر- نوفمبر- ديسمبر، 1988.
97. هشام الريني، الحجاج عند أرسطو، فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس.
98. ميمنة تابتي، الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي، دورية أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث العلمية في اللغة والآداب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، العدد 02، ماي 2007.



## الدكتور عباس حشاني



إن "الحجاج" من النظريات التي كانت نتاجاً لتطور اللسانيات الحديثة في دراسة اللغة باعتبار هذه اللغة أداة تواصل وتبليغ. ولقد عدّ الحجاج فعالية خطابية، وممارسة فكرية يعتمدها المتكلم للتأثير على المتلقي بغية إقناعه أو تغيير معتقده أو سلوكه. وشكّرت الحجاج فكرة بلاغية الهدف منها إقناع المتلقي، والمحقق هذا الهدف ترى المتكلم يثبّت دأموه ويوضح معني، فيتعهد في ذلك على وسائل وتقنيات من البلاغة، كالبيان، وعن اللسانيات: كالأخلاق، وعن الفلسفة: كالقياس وغيرها. وبهذا يعدّ الحجاج فعلاً مفتوحاً على مختلف المعثور الإنسانية. ولقد اكتسب الخطاب الحجائي اهتمام اللغويين والباحثين لانتشاره وتنوع مجالاته.

## Pilgrims And Deliberative Speech

### دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي

### خطاب الحجاج والتداولية

فتجده مستعملاً في التربية والفتوى والدين... حيث يأخذ في كل مجال شكلاً خاصاً وبنية متعددة من المتكلم لإقناع المتلقي. كما يأخذ وسائل وتقنيات متعددة. من هذا الإنفتاح يقع الحجاج تحت اهتمام الأبحاث التداولية بشكل خاص، لما توليه من أهمية كبرى لأنظاب العملية التواصلية. فاهتمت بالمتكلم ومقاصده، والظروف المحيطة، وندوة المتلقي على الاستيعاب، ووسائل الخطاب... ولقد استحضرت التداولية بهذا الكشط من الحجاج في مختلف الخطابات من جهة، وظهورت الدرس اللغوي باعتبارها تدرس الاستعمال الفعلي والتميز في اللغة من جهة أخرى. يبرز الخطاب الحجائي وتداوليته في أنواع الخطاب الأخرى، فتجد الحجاج في التفسير، وفي الدعوات، وفي الخطبة، وفي الشعر... غير أن الخطاب الشعري أبعد عن النظرية الحجابية، رغم القول بحجابية البيان الخاصة الاستعارات، والعوسيقى والتنظيم والإيقاع... انطلاقاً من مكونات الحجاج، وسواعده، واهتمام التداولية بعناصره ووسائله، وانتقاده على مختلف العلوم...